ديفيد باس

مكتبة سر من قرأ

القاتل بجوارك

لماذا العقل مصمم للقتل؟!

ترجمة: رمزي الحكمي - رؤى الشيخ - سامر حميد

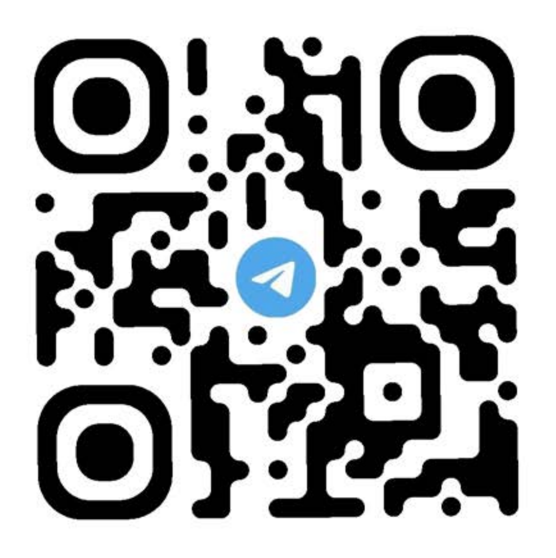


القاتل بجوارك

لماذا العقل مصمم للقتل؟!

لن ننسى تشرين 23

لن ننسى غزة والشهداء





القاتل بجوارك

لماذا العقل مصمم للقتل؟!

ديفيد م. باس

ترجمة: رمزي الحكمي - رؤى الشيخ - سامر حميد

مراجعة عامة: سامر حميد

الطبعة الأولى- سنة 2021
ISBN: 978-9922-628-31-8

المواد المنشورة تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر عن رأي الدار.



دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد شارع المتنبي مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790 - 07700492567
Email: bal_alame@yahoo.com



SUMER
Printing, Publishing & Distribution
LUXEMBOURG - 2 c Crauthemerstroos - L-3334 HELLANGE
+352 671531017

8 12 2023

ديفيد م. باس

القاتل بجوارك

لماذا العقل مصمم للقتل؟!

ترجمة:

رمزي الحكمي - رؤى الشيخ - سامر حميد

مراجعة عامة:

سامر حميد



المُحتَويات

ثـنـاء على الكِتـاب

«لم يَسْـبِق لكِتاب أن تناول الجريمـة من منظوُّرتطوُّريَّ، وبهذا القَدِرالغَزيرمن الجُهود المُضنيَّة فِي دراسـة آلاف الجرائم، والتي قُدمت كأدلة في هذا المِضمار، كما فُعْل بكتاب: القاتلُ بجوارِك».

-موقـعالعلـومالحقيقيـة.

«تفسيرمقنع للقتل – ومُثيرفي ذلك.... يُنصح به بِشدَّة».

- مجلة «المكتبة».

«أكثرما يمُيزهذا الكتاب، هو دعم [باس] لحُجَّته المركزيّة. لقد كـان في تَصميمه لهذا البَحـث، وتنفيذه، وعَرضه، على قدركبير من الإقناع».

-مراجعات «APA» للكتب.

«لقد كان [باس] بارعاً في الحفاظ على اهتمام القارئ... هذا الكتاب له مَعنى عَميقٌ وكبيرجدًّا».

- صحيفة «مدينة الصفحات: مينيابوليس -سانت».

«استفزازي.... منذربالسوء، لكنه مُثيرللغاية».

- صحيفة «سان انطونيو اكسبرس نيوز».

إهـــداء المؤلف:

إلـــى: كاندي

إهـــداء الترجمة

إلـــى: المُبجّل داروين

«لابـــدَّ لنـــا، كما يتـــراءى لي، بأن الإنســـان مـــع كُلّ ميزاتـــه وصِفاتـــه النَبيلـــة.... لا يـــزال يحمـــل فـــي هيكـل جَســـمه ختماً وطابعاً يتعـــذر محوه من أصله البدائي».

- سامر حميد

الفصل الأول

العَقْل القَاتل

«ليس ثَمَّة جريمةٌ تبهرنا أكثر من القَتل. لقد بَهرنا القتل منذ أن قَتَلَ قابيلُ هابيلَ»

~ إدوارد ل. غرينسبان، مقدمة كتاب جرائم الغرام [1]

«فجناية القَتلـــ عَديمة اللســان، لا تعدم الوسيلة العجيبة فيـــ الإفصاح عن سِرّها»

~ وليام شكسبير، هاملت



أُثير اهتمامي بدراسة القَتل عندما شهِدتُ عن قُرب ذات ليلة، أحد أصدقائي المقربين وهو يستشيط بفورة غضب قاتلة في حفلة شراب. كنت أعرفه منذ أعوام وقضيت العديد من الليالي السعيدة معه ومع زوجته. لقد بديا دوماً كزوجين سعيدين تربطهما علاقة وطيدة. مع ذلك، كما نعلم جميعًا، فهناك الكثير من الأشياء الخفيّة بين الأزواج لا يدركها الآخرون. لأدرك فيما بعد، بأن زواجهما يَعُجُّ بالكثير من التَوَتُّرات.

كانت الحفلة في أوجِّها عندما وصلت، لكنني لم أجده. سألت زوجته عن مكانه، فأجابتني باشمئزاز إنه في غرفة أخرى. وعندما وَجدته أستقبلني بحماوة، وأستطيع الجزم من إنه كان معكر المزاج للغاية.

بعدها، مررنا من أمام زوجته لنجدها تتبادل الحديث مع أحد الرجال الحاضرين في الحفلة، وهي تشعُّ جمالاً وسحراً مغازلةً إياه. لقد كانت بحق جَذابة للغاية افتَتَن بها كُلُّ الحاضرين. نَظرت إلى زوجها باستهزاء وعلَّقت بازدراء على منظره ثم أكملت محادثتها الغزليّة. غَضب على الفور، بنحو لم أره فيه من قبل. وقال وهو يجرّ ذراعي: «**دعنا نبتعد من هنا**»، ليخرج مسرعاً من منزله وأنا وراءه

مباشرة. وصلنا للشارع وقد جُنَّ جنونه. أخبرني بأن مغازلاتها العلنيّة هذه تضايقه. وأن «**تحقيرها**» الفاضح لوجوده أمام الآخرين يستشيطه غضباً. ثم قال إنه يريد قتلها الليلة، الآن، في هذه اللحظة. أدهشني تصرفه. ولم أشَكّ بأنه سَيفعلها.

انتابني شعور غريب، وأصبحت فجأة خائفاً على حياتي - لاتزال استجابة الخوف الغريزيّة تدهشني كلما تذكرت هذه الليلة. هو لم يكن غاضباً مني، لكنه كان غاضباً بشكل وحشيّ جنوني، لدرجة بدا لي أنه قادرٌ على قتل أيِّ شيءٍ حيٍّ يقع بمتناول يده. لم أرَ قط أيَّ أحد في مثل حالته الدمويّة الجامحة للقتل؛ لقد كان ذلك مُرعباً بالفعل.

قضيت معه نصف ساعة لأخرجه من ثورة غضبه، مُجرِّبا كُلَّ وسيلة يمكنني التفكير فيها. ناشدتُ مصلحته الذاتيّة، وأخبرته بأنه سيخسر حياته المهنيّة إن لَمسها، وسيقضي بقيّة حياته وراء القضبان. تلعثمت بكُلِّ شيء هَرِع في ذهنيّ. ليهدأ أخيراً، ويتقبل العودة إلى الحفلة. في وقت متأخر، غادرت إلى فندقي ولم أزل مرعوباً وقلقاً - بالطبع، يجب أن أكون كذلك. القصة لم تنتهِ إلى هذا الحد. ففي الثانية صباحاً أتصل بي وسأل عما إذا كان بإمكانه القدوم والنوم على أريكتي. لأنه، وبعد انتهاء الحلفة، وعلى حدِّ قوله، بدأ شجاراً مروِّعًا مع زوجته، وهددها بالقتل، ثم ضرب بقضة يده مرآة الحمام وحطمها. لحسن الحظ، غادر المنزل، ولولا لم يغادر سريعاً لكان قدَ قتلها بالفعل.

لعلَّ الجزء البارز في هذه القصة، هو أن زوجته سرعان ما انتقلت من بيتها واختفت. وفي النهاية، تطلَّقت منه ولم يعودا يقابلان بعضهما مرة أخرى منذ ليلة الحفلة. حزنت جداً، لأن زواجهما

هذا الذي تأسس على حُبّ حقيقيّ بين شخصين ذَكيين، مفكِّرين، ونَاجحين قد انتهى على هذا النحو، ولأن صديقا لي كان من الممكن أن يتحوّل لقَاتل.

أحد الأشياء التي تعلمتها من دراستي اللاحقة عن القتل، هي أن زوجته أيقنت شيئاً لا يقدِّره الكثيرون منَّا حق قدره: **يجب أن نكون متيقظين لصفة القتل المتأصلة التي تَكْمُنُ بداخلنا جميعاً، حتى في أولئك الذين نحبهم ويحبوننا.** لقد أدركتْ بدخول زوجها بمرحلة غضب شديدة، إنها في خطرٍ داهم ومميت.

إن بدا لك بأن ردة فعلها كانت مبالغة، وأن هربها من البلدة وتقديمها لطلب الطَّلاق دون رؤية زوجها مُجدَّداً يبدو مَتطرِّفًا، فأعتبر قصة شيلا بيلوش، الزوجة السابقة لمليونير تكساس آلن بلاكثورن. لقد كان بلاكثورن، وكما تقول الأخبار، رجلًا ثريًّا مَلَك كُلّ شيء. لقد جنى ثروة طائلة من تجارة المعدات الطبيّة؛ كان وسيماً، وتزوج بعد طلاقه من شيلا - زوجته الرابعة - من امرأة جميلة أنجب منها طفلين. شيلا بدورها أيضاً تزوجت من جامي بيلوش، ولكنها لم تتخلص من مخاوفها الشديدة التي كانت تطاردها اتجاه محاولة بلاكثورن لقتلها. طلاقهما كان سيئاً جداً، لكنها حصلت على حق رعاية طفليها بعد معركة مروِّعة. واصل زوجها السابق مضايقتها لأعوام حتى بعد أن تزوج مرة أخرى. لدرجة أنها أخبرت أختها في إحدى المرات: «**إن حدث لي شيءٌ في أيِّ وقت، فعديني بأنكِ ستحرصين على أن يكون ثَمَّة تحقيق... ثم اعثري على آن رول واطلبي منها كتابة قصتي**»[2]. لقد شعرت بخوف شديد في إحدى الليالي، لتجمع عائلتها - طفليها من بلاكثورن وأربعة توائم من زوجها الجديد - وتهرب من بيتها في

سان أنطونيو. انتقلت شيلا إلى مدينة ساراسوتا في فلوريدا، وكانت خائفة مرعوبة للغاية، ولم تعطِ عنوانها الجديد حتى لأختها.

ظنت شيلا بأن بعد المسافة بينها وبين آلن بلاكثورن سيشعرها بالأمان، لكنه أدى إلى خطأ مميت. ففي غضون أشهر، وُجِدت مقتولة داخل منزلها في منتصف اليوم، وعُثر على توائمها الأربعة باكين ومغطِّين بدمائها. ابنتها البالغة من العُمْر 13 عاماً وجدت أمها ميتة داخل المطبخ وقد ضُرب وجهها وشُقّ عنقها. عندما وصلت الشرطة وسألتها: «**هل تعرفين من فعل هذا؟**» أجابت: «**نعم، أعلم من فعلها، لكنه لم يفعلها بنفسه. فلرُبَّما أجَّر أحدهم ليقوم بذلك**» من هو؟ «**إنه أبي، آلن بلاكثورن، هو من فعلها**»[3].

سُجن آلن بلاكثورن في سجن الولاية في هنتسفيل، تكساس. لقد أُدين بتأجير سفَّاح شاب قطع مسافة 1400 ميل من أوستن إلى ساراسوتا ليقتل زوجته السابقة. ووفقاً لصحيفة فورت وورث ستار- تلجرام، فإن محكمة الاستئناف الفيدراليّة قد أيَّدت في يوم الثالث من مايو 2002، إدانة بلاكثورن لدوره في تنظيم عمليّة القتل. آن رول، ألفت كتابها «**في كُلِّ نفسٍ تأخذه**» عن هذه الحادثة.

عندما يشعر الناس بأنهم في خطر مميت، فإن حدسهم لرُبَّما يكون جيدًا جدًا. لكن أولئك الذين قد لا نتوقع أن يصبحوا قَتَلة، قد يكونون قادرين على القتل في ظل ظروف معينة. كان لدى آلن بلاكثورن تاريخ للعُنْف وسوء المعاملة لزوجته السابقة، وهذه هي العوامل التي رجَّحت قرار إدانته من قبل هيأة المحلفين. ومع ذلك لم يُظْهِرْ بعض الأزواج ممن قتلوا زوجاتهم أيَّ مؤشرات سابقة لنِيَّتهم في

القتل. في الواقع، لقد ترك غضب صديقي في تلك الليلة انطباعاً عميقاً عليَّ، وجعلني هائماً إزاء السبب الذي جعله ينوي بِشدَّةٍ قتلَ زوجتِهِ، ليضعني على المسار الصحيح لدراسة نفسيّة القتل العميقة. لقد بدأت أفكر بالقتل بعدما لمست شخصاً - شخصًا محترماً أعرفه حق المعرفة وأعتمد على أحكامه، بصيرته الجيدة - تمامًا على ارتكاب جريمة قتل عنيفة، **كحالة خاصة**: أشخاص يمارسون العُنْف بالعموم؛ أشخاص تكيفوا مع العُنْف بسبب تربيتهم؛ مجرمون عُتاة؛ أو مضطربون عَقْليّاً في بعض الحالات المتطرفة.

كنت أظن بأن المجانين أو اليائسين هم وحدهم من يفكرون بالقتل، أو حتى بعض الذين نشؤوا ضمن ثقافات لم تمجِّد العُنْف مما أدى إلى حرمانهم من فعله - هنالك أشخاص طَبيعيون، مُتعلمون، نَاجحون مثل صديقي، لا يمكنهم التفكير أبداً في أن يتحولوا لقَتَلة. وهكذا، بقيت متسائلاً عما قد يتسبب في كُلِّ ذلك الغضب القَاتل الذي رأيته في صديقي. استطعت تفهم غضبه جيداً، غير أن نِيّة القتل كانت تشير لعمليّة نفسيّة أعمق. ثم تساءلت عن سبب شعوري الشديد بأنني كنت في خطر، مع أنني لم أشهد أيَّ غضب قاتل في حياتي من قبل.

لم تكن حالات القَتَلة المأجورين ممن يقتلون بدم بارد، أو في خضم الاغتيالات، مُحيرِّة جدًا. هؤلاء الأشخاص قد يقتلون من أجل المال أو للتخلص من شاهد جريمة. لكن ثَمَّة أنواع كثيرة من القتل تبدو مُحيرِّة حقاً. في الواقع إنَّنا نُعاني لفهم كيف يمكن لفتاة حامل أن تذهب إلى حفل راقص في مدرستها الثانويّة، ثم تلِد في الحمام وتلقي بمولودها في سلة القمامة، بعدئذ تعود إلى إكمال رقصاتها؛ إنَّنا نُذعر عندما لا يتقبل

رجل مرفوض بأن حبيبته ستتركه فيقوم بشق إطارات سيارتها، ثم يترك جثتها تسبح بدمائها؛ إنَّنا نُصدم عندما يقوم الصِّرب جميعًا باغتصاب وذبح الألبانيِّن، ثم ما أن تنقلب الطاولة حتى يقوم الألبانيون باغتصاب وذبح الصِّرب انتقاماً. إنَّنا نحاول معرفة حقيقة ذلك الشرّ الحانق الذي يدفع الإرهابيِّين للتضحية بحياتهم بكُلِّ سهولة في سبيل إلهم.

الناس مَفتونون بالقتل. إنه يجذب انتباهنا أكثر من أيِّ ظاهرة بشريّة أخرى. أنا أعتقد، وبعد دراسة مُضْنية، أن سبب هذا الافتتان هو، إنَّنا مُشبَعون بغريزة متأصلة منذ تاريخ طويل. دافع القتل هذا هو جزء منَّا مهما بدت حالات القتل التي نسمع عنها غريبة، غير معقولة، ومتطرفة. إنه ينبع من آلياتنا النفسيّة العميقة واللاواعية. افتتاننا منطقي - لأنه استراتيجيّة جيدة للبقاء. وعليه، لابُدَّ أن نولي اهتماماً وثيقا لأجزاء الطبيعة البشريّة التي قد تهدد حياتنا ذات يوم.

جادل بعض الخبراء الذين درسوا السُلوك العنيف، ولاسيما الذين اهتمُّوا بعُنْف الأطفال، بأن العُنْف المتفشي الذي تجسمهُ الأفلام والتلفاز جعلنا أكثر عُنْفاً، ويدفع البعض إلى القتل. لقد حذَّروا من أن تعرُّض الأطفال المتكرر لمشاهدة أفلام العُنْف، كفيلم «**المُدَمِّر**» لأرنولد شوارزنيجر، أو «**الموت الصعب**» لبروس ويليس، يشوِّه عقولهم. والبعض مقتنع بأن تداول الأفلام الإباحيّة الساديّة يوقظ مطاردي الليل، وسفَّاحي التلال في العالم(*) بينما يصرُّ آخرون على دور الفقر، المخدِّرات، والثقافات الفرعيّة للعُنْف في القتل. أنا مقتنع بأن

(*) استعارة لأسماء أفلام الجريمة والقتلة المتسلسلين الشائعة. المترجم.

كُلَّ هـذه الحُجـج هي غير وافيـة، ولا توصل للدوافـع الحقيقيّة وراء الغالبيّة العظمى من جرائم القتل.

تُبيِّن تـحقيقاتي بـأن كُلَّ هذه المعتقدات المنتشرة على نطاق واسـع هي، خاطئة - **تـمام الخطأ**. ولفهم السبب، لابُدّ علينا أن نشرع برحلة إلى أعماق العَقْل القَاتل، وسنكتشف بأن هناك منطقاً جوهريًّا للقتل - قاسـيًا، لكنه عَقْلانيٌّ - لا يَكْمُنُ في عقول الذين أصبحوا قَتَلة بالفعل فحسب، بل فـي عقولنا جميعاً.

لقد قدمت منذ سـبعة أعوام ندوة حـول الطبيعة البشريّة تضمَّنت مسـاقًا عن موضوع القتل. وكنشـاط لإشراك الحاضرين، طلبت من الطلاب إكمال استبيان يتساءل: «**هل فَكرتَ يومًا في قتل أحدهم؟**»، وإذا ما كانـت الإجابة «**نعم**»، طلبت أن يصفوا الظروف التي أثارت تفكيرهـم بالقتـل، علاقتهـم بالضحيّة، وطـرق القتل التـي تخَيَّلوها. ليبدأ، بحثي بِجديّة حول القتل بعد هذه التجربة المذهلة.

بقـراءتي لردودهـم في مكتبي، ذُهلـت. فأنا لم أكن مسـتعداً لتدفق الأفـكار القَاتلـة التـي وصفهـا طلابي. لـقـد كانـوا أذكيـاء، أنيقين، ومعظمهـم مـن الطبقـة الوسـطى، لا مــن أعضـاء عصابـة، أو من الـهاربـين المضطربـين ممـن قـد يتوقع المـرء منهم التعبـير عن غضب عنيـف. ومــع ذلـك، عانـى معظمهم من حالـة واحدة عـلى الأقل، تخَيَّلـوا فيهـا قتـل أحدهم. وبينـما كنت جالسًـا في مكتبـي وأقرأ هذه الخيـالات القَـاتلـة، بدأت أشـك في أن جرائم القتـل الحقيقيّة ما هي إلا مُجـرَّد غيض من فيـض القتل الكامن فـي النفـس. فهل يمكن أن تكـون جرائم القتل الحقيقيّة هي فقط النتيجـة الفاضحة لدافع البَشر

الجوهري للقتل؟ هل حقاً تتماشى عقولنا مع أفكار القتل؟ وهل ثَمَّة هدف لخيالاتنا حول القتل؟

لمتابعة هذا المسار البحثيّ، بدأ مختبري بإجراء أكبر دراسة علميّة لخيالات الناس عن القتل، لمعرفة أسبابها والظروف المعينة التي نشأت فيها. تضمنت هذه الدراسة العالميّة الرائدة أكثر من خمسة آلاف شخص من سان أنطونيو إلى سنغافورة تمت مقابلتهم بشكل مكثف. إليكم بعض المقتطفات من هذه المقابلات الاستثنائيّة:

* **الحالة (5537)**: أنثى، 20 عاماً [**مَنْ فكَّرتِ في قتله؟**] خليل سابق. عشنا معاً لشهرين. كان عدوانيًا جداً. بدأ يناديني بالمنحطَّة، ويخبرني بأنه لم يعد يحبُّني. لذا انفصلت عنه. ثم عاد بعد أشهر وأتصل بي محاولاً العودة معي، لكنني لم أودّ ذلك. قال لي إذا ما دخلتُ بعلاقة مع رجل آخر فإنه سيرسل للجميع في جامعتي مقاطع فيديو نمارس الجنس فيها. المشكلة أنني بالفعل لديَّ خليلٌ جديدٌ لم يعلم به، وكنت خائفة من أن يفعل ما يقوله. - فجأة بدأت أرى أن حياتي ستكون أكثر سعادة بدونه. [**صِفي من فضلكِ خطوة بخطوة كيف فكَّرتِ بقتل هذا الشخص**] لقد فكرت بالفعل. دعوته على العشاء. وبينما كان في المطبخ، بدا كأبله وهو يُقشِّر الجَزر للسَلطة، جئت إليه ضاحكة بلطف حتى لا يشكّ في أيٍّ شيء. ثم فكرت بسحب سكين بسرعة وطعنه في صدره مراراً حتى الموت. وبالفعل، فعلت الخطوة الأولى لكنه أدرك نواياي وهرب بعيداً [**عندما سُئلت عن مدى اقترابها من قتله، قدرت 60 %**].

* **الحالة (967)**: ذكر، 28 عاماً [**من فكرتَ في قتله؟**] صديق مقرب دافعت عنه بعِدَّة مناسبات. بعيد ميلادي العشرين، أخبر خطيبتي

الشكَّاكة بأنني خنتها؛ كان كاذباً بالطبع. ثم بدأ يغريها. سَبَّب هذا مشكلة كبيرة في علاقتي معها، مشكلة على الأرجح أنها لن تُحَلَّ أبداً. لقد كان كأخي الصغير، لكنه طعنني في ظهري، في أسوأ مكان متوقع، وفي عيد ميلادي. [**صِف من فضلكَ خطوة بخطوة كيف فكرتَ بقتل هذا الشخص**] أوّلًا وددت أن أكسر كُلَّ عظم بجسمه، بادئاً من أصابع يديه ورجليه، ثم أتَّجِهُ ببطء إلى العظام الأكبر. أردت أن أثقب رئتيه وعِدّة أعضاء أخرى. لأذيقه أكبر قدر من الألم قبل أن يموت. [**عندما سُئِل عن مدى اقترابه من قتله، قدر 80 %**].

* **الحالة (108)**: ذكر [**من فكَّرتَ في قتله؟**] - شخص ما في موقف السيارات، كان يسير بسرعة ثلاثين ميلا في الساعة تقريباً. كاد يصدمني (مع أنني أملك أحقيّة السير). خرج من سيارته، وألقى سيجارته عليَّ، ثم بدأ بركل سيارتيّ ومحاولة كسر نافذتي. أمكست بمضربي وخرجت من السيارة. ولم تتح له فرصة تأرجحه عليَّ ليهرب مثل مخنَّث جبان. هدأت قليلاً بعد أن انسحب، لكن ما أن بدأ يحاول النيل مني ومن خليلتي ليؤذينا حتى بدأت أشعر بالرغبة في أن أسلبه حياته.... كنت سأضربه حتى الموت بمضرب بيسبول [**ماذا فعلت في الواقع؟**] فكرت فيما يمكن أن أفعله إن لم يتوقف، أن أضربه بمضربي ضرباً مُبرِّحاً حتى أدميه. لا أدري ما إذا كنت سأقتله، لكن هذا بالتأكيد قد فاق ذهني. [**ما سيدفعك أكثر لقتله؟**] إذا تجرأ ولمس خليلتي، كنت سأضربه حتى الموت.

وفقاً لنتائج بحثنا، فإن 91 % من الرجال و84 % من النساء تَخَيَّلوا مرة واحدة على الأقل، بأنهم يقتلون أحدهم. وعندما تأملت هذه النتائج المفاجئة آخذاً بالاعتبار أن العَقْل البشريّ قد ضُبط بنحو

ساحر عبر التطوُّر، بدأت أظن بأن هذه الخيالات هي تعبيرات عن أُسُس نفسيّة تدفعنا إلى القتل لأسباب مُحدَّدة ومحَسوبة بعناية. لقد قادتني سبعة أعوام من البحث اللاحق والمفرط للقتل إلى استنتاج: **نعم، لقد طوَّر العَقْل البشريّ تكيُّفات للقتل** - أنماط تفكير متأصلة، مصحوبة في الغالب بحوارات داخليّة، مُعَزَّزة بمشاعر قويّة - **تدفعنا إلى القتل.**

إن التفسيرات البسيطة التي كثيراً ما يتم تقديمها لتفسير القتل - كالفقر، المرض، الآباء، العُنْف الإعلامي - تفشل في الوصول إلى الجوهر العميق المتمثل بالبِنْية الأساسيّة للعَقْل القَاتل. إنها تفشل لأسباب عديدة، الأكثر وضوحاً منها هو أن القتل لا ينبع من أيٍّ دافع مُنفرد. تأمل كثرة تلك العواطف التي تُعكِّر دمنا ثم تقودُنا للقتل. فأحياناً يكون الكره هو من يحفِّزنا للقتل؛ وأحياناً يكون الحسد؛ الجشع؛ الخوف؛ الغَيْرة؛ والحقد. وأحياناً يحفِّزنا مزيج مُعَقَّد من العواطف لدافع القتل.

علاوة على ذلك، يمكن أن تتسبب عاطفة واحدة في أنواع مختلفة تماماً من القتل. فالغَيْرة مثلاً قد تدفع أحدهم إلى إطلاق النار على منافسه؛ تجعل آخرَ يخنق زوجته؛ وآخر يضع سلاحاً بفمه منتحراً. قد يقتل البعض للحفاظ على شركائهم لكي لا يقعوا بأحضان غيرهم. بينما قد يقتل البعض ليتخلصوا من شركائهم. يقتل البعض من أجل الحُبّ، ويقتل البعض من أجل الكُره. بعض جرائم القتل تخلو من العاطفة، مثل قتل رجال المافيا. وبعضها تبدو متناقضة مع الطبيعة الجوهريّة للَبشر؛ كأن تتخلّى الأم عن رضيعها. من الحقد إلى الرحمة، يتسع نطاق الحالات النفسيّة التي تقود الناس للقتل بنحو

هائل، ويتطلب فهماً أعمق. لا يختلف تيد باندي، سوزان سميث، جاك كيفوركيان، وأسامة بن لادن في دوافعهم للقتل بالمرة(*).

في الواقع، يَكْمُنُ وراء هذا التنوع الواضح للدوافع، وتفاوت الظروف التي تقود إلى القتل شبكة خَفيّة تضم مجموعة متنوعة من العِلل، والوسائل، والفرص المختلفة. الخيوط القويّة لهذه الشبكة تمتدُّ إلى ملايين الأعوام، إلى ضباب عصور تاريخ البَشر التطوُّريّ القديم.

وفقاً لنظريتي التي طوَّرتها، يمكن تفسير كُلِّ أنواع القتل العديدة - بدءًا من جرائم الغرام وانتهاءً بالقتل المأجور المُخطَّط له بعناية - عبر تقلُّبات وتحوُّلات المنطق التطوُّريّ القاسي. القتل هو عمل عديم الرحمة بالطبع، ولكنه لا يكون غالباً نتاج **الذُّهان** أو **الإشراط الثقافيّ**(**). بل كنتاج للضغوط التطوُّريّة التي واجهها جِنسُنا البَشريّ وتكيّفوا معها.

(*) تيد باندي: قاتل متسلسل وخاطف ومغتصب أميركي أدين بمجامعة الموتى وقتل العديد من النساء والفتيات خلال سبعينات القرن الماضي. سوزان سميث: أميركية أدينت بقتل ولديها (ألكساندر 14 شهرا) و (مايكل 3 أعوام) عام 1995. جاك كيفوركيان: عالم أمراض أميركي وناشط مدافع عن القتل الرحيم، أشتهر بمرافعته عن حقوق المرضى للموت (حيث ساعد ما لا يقل عن 130 مريضاً على الموت بين أعوام 1994-1997. أسامة بن لادن: سعودي من أصول يمنية، ينتسب إلى عائلة بن لادن الثرية، أسس القاعدة الجهادية الإسلامية المسؤولة عن الكثير من جرائم القتل حول العالم. المترجم.

(**) الذُهان: هو حالة عقلية مرضية حيث يعاني المريض من اضطرابات في التفكير والشعور وانفصال عن الواقع. أما الإشراط الثقافي: فهو عملية اجتماعية ينفذها المسؤولون كالأبوين، المعلمين، الساسة، القادة الروحيين، الرفقاء، ووسائل الإعلام لتعريف قيمنا الثقافية ونظمنا الاعتقادية والأخلاقية والطريقة التي ندرك بها أنفسنا. المترجم.

تشير النتائج الحديثة حول دوافع القتل لدى أسلافنا بقوة إلى أنّنا أصبحنا قَتَلة في زمن مُبكِّر جداً من سياق تطوُّرنا. تعدّ مومياء «**رجل الجليد**»، الجثة المُتجمِّدة منذ 5300 عام مضى، والتي عُثر عليها في جبال الألب الإيطاليّة من قبل متسلقين ألمانيين عام 1991، هي أفضل عيِّنة تم اكتشافها حتى الآن. وجه هذا الرجل كان مقلوبًا للأسفل، ولم تزل بقايا اللحم والخبز داخل أمعائه، وبجانبه قوس وجُعْبَة تضم 14 سهماً. طوَّر العُلماء نظريات عِدّة حول حدث موته. زعم أحدهم بأنه تجمّد حتى الموت أثناء نومه عندما استلقى ليرتاح بعد تسلق مرهق. واقترح آخر أنه مات لأنه سقط وكُسرت أضلاعه. بينما رأى آخر أن انهياراً جليديًّا دفنه تحت الجليد.

ثَبُت خطأ كُلِّ النظريات السابقة باكتشاف العُلماء للسبب الحقيقيّ. لقد مات بسبب سهم شق ظهره، مزق أحشاءه، حطم لَوْح كتفه، واستقر في الكتف اليسرى - لقد عانى من نزيف داخلي ولم يعش أطول من ساعات قليلة بعد الإصابة. في الواقع، أغفل ممن فحص رفاته في البداية علامات هذا الجرح، لكنهم اكتشفوا أخيراً رأس سهم بطول بوصة، عن طريق آليّة تصوير ثلاثيّة الأبعاد تعرف بالأشعة المقطعيّة (المِفْرَاس). إنَّنا لا نعلم هل مات وهو يحاول الفرار من مطاردِهِ، أو قد قُبض عليه على حين غِرَّة، أو هاجمه عدو واحد أو عصابة. ولكن الشيء الوحيد الذي نعلمه بالتأكيد بفضل عِلم الطب الشرعيّ هو أنه، مات مقتولاً. «**رجل الجليد**» هذا كان مُمسكا بخنجر في يمينه. وكانت على ذراعيه ويديه جراح دفاعيّة، بل وغطى جسمه دماء شخصين آخرين على الأقل.

دليل أثريّ إضافيّ عن طبيعتنا القَاتلة، يُعيد تقييم المدة التي وَلج

فيها القتل إلى حياتنا. لقد عُثر مؤخراً على 59 هيكلًا عظميًّا بشريًّا في مقبرة في جَبل الصَّحَابة في النوبة المصريّة تعود إلى أواخر العصر الحجريّ القديم الأعلى، أي منذ حوالي 12 –14 ألف عام. أكثر من 40 % منها كانت محشوة بمقذوفات حجريّة، وضمت العديد منها جروحًا متنوعة. غالبيّة هذه الإصابات كانت على الهياكل العظميّة للذكور. ومعظم الجروح اخترقت الجوانب اليسرى من الجمجمة والقفص الصدري والأضلاع، مما يوحي لقَتَلة استخدموا أيديهم اليمنى في مواجهة ضحاياهم. أدلة جديدة عن هنود أناسازي في الجنوب الغربي الأمريكي أشارت إلى ممارسات خبيثة لأكل لحوم البَشر. فلقد اتضح أن سَلخ فروة الرأس يترك علاماتٍ قطعٍ بارزةً على عظام الجمجمة. هل أكل أسلاف البَشر لحوم بَشر آخرين؟ كشفت تحليلات براز بشريّ متحجر لأناسازي قديم عن وجود ميوغلوبين بشريّ، وهو بروتين لا يمكن أن يصل إلى الفضلات إلا عن طريق أكل لحَم العضلات أو القلب البشريّ.

دراسة أخرى على هياكل عظميّة بشريّة في كاليفورنيا تعود إلى أكثر من 1000 عام مضى، كشفت أن رؤوس 5 % منها كانت تحتوي على سِهام محشورة بداخلها، النتيجة التي تُشكّل الدليل الأكثر وضوحاً لقتل الحروب[4]. وكذلك كشفت دراسة مواقع ما قبل التاريخ التي تعود لحوالي 1325 بعد الميلاد في جنوب وشمال داكوتا، عن أدلة مثيرة على حدوث معارك بين القبائل. في حين قدَّم تحليلُ ما يقارب 500 هيكلٍ عظميٍّ مدفونٍ في حفرة واحدة دليلاً على أنهم قد ذبحوا جميعاً خلال غارة واحدة[5]. كان لدى جميعهم تقريباً علاماتُ قطع غير ملتئمة ورضوضٌ في الجمجمة تشير إلى أنها سُلخت بحجارة

حـادة أو سـكاكين، مما يدل على أنـهـم لم يفلتوا مـن مهاجميهم. قرابة 40 % منهـم كان لديـهم كسـور منخسـفة(*) في الجمجمـة بالإضافة إلى سَلخ فروة الرأس. ومن المثير، أنه من بين 500 هيكل عظميّ كان هنـاك غيابٌ لافـتٌ لـهياكل الإناث، مما يوفر دليـلًا واضحًا للغرض من المذبحة.

كشـفت الـهياكل العظميّة من حضـارة الأونيوتا التي امتدت على طول سهل الفيضان لنهر إلينوي منذ حوالي 1300 قبل الميلاد، أن 16 % منهـا قُتلت بعُنْـف. هؤلاء الضحايا يخبرونـا قصصهم من خلال تلـك الجـروح غير الملتئمة عـلى أجسـادهم؛ فـي الأطـراف العلويّة، وآثار المقذوفات على قحف رؤوسـهم والكسـور المنخسفة على الجزء العلويّ والخلفيّ للجمجمة والتي تَدُلُّ على أنهم قد ضُربوا بآلات غير حادة، حيث تطابقت الثقوب على الجمجمة مع أبعاد تلك الأسـلحة الصخريّـة التي وجدت في نفس الموقـع. احتوت بعض الـهياكل على جُـروح ملتئمـة بـما في ذلك الثقـوب القحفيّة، ممـا يعنـي أنـهـم نجوا من غارة سـابقة على الأقل. في حين كشـفت دراسـة أخرى للسـهول الأميركيّـة الكـبرى، بـأن 19 % قـد ماتـوا إثـر تعرضهـم لمقذوفات اخترقـت عظام الحوض والعمود الفقريّ والأطراف. ووُجد ضحايا مشابـهون من سكان أميركا الأصليين لمذبحة كبرى حدثت قبل أكثر من 1000عام على طول شاطئ المحيط الهادئ في كاليفورنيا الجنوبيّة. ثلثـا الإصابات التي وجدت بهذه الـهياكل كانت على الجانب الأيسر

(*) الكسر المنخسـف: نـوع من كسـور الجمجمة، حيـث يدخل الجزء المكسـور من العظـم إلى الداخل بـدون أن ينفصل تماماً عن الجمجمة، وعادة يكون سـببها الضرب بآلة غير حادة كالحجر أو المطرقة. المترجم.

من مقدمة الجمجمة، مما يشير إلى مواجهة كانت وجها لوجه مع أشخاص يستخدمون أيديهم اليمنى.

لا تدع هذه النتائج وغيرها من الاكتشافات الجديدة، كاكتشاف الأسلحة القديمة المتمثلة بالصولجانات والحِراب والفؤوس والخناجر والسيوف، مجالاً للشك بأن القتل كان سائداً على طوال تاريخ البَشر التطوُّري. هذا الدليل الجديد للحفريات والآثار الحيويّة، وبالرغم من أنه مجزَّأٌ وغيرُ مكتمل، إلا أنه قدَّم تبصُّرًا مدهشًا لتاريخ القتل الطويل، وعَزَّز نظريَّتي.مكتبة سُر مَن قرأ

وبينما كنت أغوص في لُغْز لماذا أصبحنا عنيفين جداً في مرحلة مُبكّرة كنوع، أدركت ووفقاً للحسابات التطوُّريّة الوحشيّة، أن القتل – ولاسيما أنواعه الأكثر شيوعاً – وفّر الكثير من المزايا لأسلافنا الأوائل في صراعهم للبقاء والتكاثر، سأوضح هذه المزايا في الصفحات التالية من هذا الكتاب. لكن سيبدو غريباً أن نتكلم عن القتل كتكيُّفٍ، أو كسُلوك مفيد. في الواقع أن فوائد القتل، بالمعنى التطوُّري، جوهريّة للغاية ، لدرجة أن اللُغْز الحقيقي لم يعد «**لماذا كان القتل شائعًا جداً على طول تاريخنا التطوُّري؟**» بل «**لماذا لم يكن أكثر شيوعاً؟!**».

تطوُّر نفسيّة القتل كانت أشبه بسباق تسلُّح: لقد طوَّرْنا، كاستجابة لتهديد القتل، مجموعة من القدرات الدفاعيّة الجيدة لمواجهته، وقد عملت كروادع قويّة وفعّالة.

على مدى تطوُّرنا من بَشر بدائيِّين إلى هوموسابيان (الإنسان العاقل)، كان علينا أن نصارع ضِدّ ثلاثة مخاطر أساسيّة: **الأول: ضِدّ البيئة الماديّة** – كالسقوط من المرتفعات، المجاعات نتيجة قِلّة

الغذاء، والموت غرقاً. **الثاني: ضِدّ الأنواع الأخرى** - كالطفيليات من الداخل، والمفترسات من الخارج. فاشمئزازنا الطبيعيّ إزاء الأشخاص المرضى وخوفنا من العناكب والثعابين، وشعورنا الحاد بأن أحدهم يتبعنا كُلُّها آليات دفاعيّة تطوُّريّة ضِدّ هذه الأخطار. **الثالث: ضِدّ أفراد جنسنا البَشري**. وبالفعل، نحن الآن في مرحلة من التطوُّر أصبح البَشر فيها أكثر وحشيّة «**كقوة معادية للطبيعة**».

هذا التاريخ الطويل من الأخطار المميتة لجنسنا هو السبب في أنَّنا طوَّرنا أيضاً مجموعة من الآليات الدفاعيّة الدقيقة جداً لحمايتنا من القتل. وفقاً لطبيعة عمل آليّة الانتقاء الطبيعيّ، كلما زادت تكلفة قتلك - وبالطبع ليس ثَمَّة شيء أكثر تكلفة من حياتنا - زاد انتقاء أسلحة دفاعيّة بسرعة أكبر لحمايتنا من القتل. وهكذا، وكما طوَّر البَشر الخوف من العناكب والثعابين والمرتفعات، فإنهم طوَّرا كذلك مجموعة رائعة من القدرات لردع القتل.

لقد توصلنا الآن، وفي اكتشاف عِلميّ مدهش، إلى معرفة أن هذه الدفاعات تبدأ في وقت مُبكّر من الحياة - حتى قبل أن نولد، عندما كنا لم نزل نعيش في بيئة يُفترض أن تكون مريحة في أرحام أمهاتنا. كشف عالم الأحياء ديفيد هيغ من جامعة هارفارد، بأن الرَّحِم هو أيضاً له أخطاره الخاصة به؛ أهمها هو ما يعرف **بالإجهاض الذاتيّ**، والذي يحدث غالباً حتى قبل أن تعرف المرأة بأنها حامل. وبالفعل، إنَّنا نعلم الآن بأن العديد من النساء اللاتي عانين من تأخر الدورة الشهريّة وقلقن من الحمل، ثم شعرن بالطمأنينة بعدما تعود مرة أخرى، تعرَّضنَ لحالة إجهاض ذاتيّ للجنين النَّامي. ووفقاً لنتائج هيغ،

تحدث حالات الإجهاض التي لم يتم اكتشافها غالبًا، عندما يشعر جسم الأم بأن الجنين في حالة صحيّة سيِّئة أو يعاني من تشوهات جينيّة.

وبشكل ملفت للنظر، اكتشف هيغ أيضاً أن هناك آليّة دفاع تطوَّرت للاحتيال على جسم الأم ولحماية الجنين. وهي إطلاق الجنين لموجه الغدد التناسليّة المشيمائيّة أو هرمون الحمل (hCG) إلى مجرى دم الأم. ليقوم جسم الأم بتفسير مستويات الهرمون العالية في الدم بأنها تَدُلُّ على أن الجنين لايزال حيًّا وبصحة جيدة، لذا لا يقوم بإجهاضه تلقائيًّا. الرَّحِم هنا هو بيئة قاسية عندما يتوجب حماية فوائد المرء الذاتيّة على حساب مصالح الآخرين؛ حتى في هذه الأماكن الأكثر قداسة، يمكن أن نكون ضحايا قتل محتملين.

بعد الولادة، ستكون الآليّة التالية ضِدّ خطر القتل هي البكاء - إشارة الاستغاثة التي تُنبه الأبوين إلى أن الطفل جائع أو متألّم. لكن عندما يصل الرُّضّع للشهر السادس، ويصبحون أكثر قدرة على الحركة، سينشأ نوع خاص من الخوف، ألا وهو **الخوف من الغرباء**. هذا الخوف ليس بعشوائي: سيكثّف قلق الرُّضَّع في المقام الأول على الرجال الغرباء، والذين شكّلوا التهديد الأكبر لهم على مدى تاريخ البَشر التطوُّري(*).

(*) تعرض الرضُّع للاختطاف أو الإيذاء من الغرباء منذ زمن الأسلاف لأسباب كثيرة مما أدى إلى تعزيز قلقهم من تواجدهم بالبكاء الشديد فيلفتون انتباه الأبوين لذلك، وهذه في الواقع آلية حاسمة إذا ما تخيلنا البيئة التي عاش فيها أسلافنا، كما لا تصعب ملاحظتها حاليا في الأطفال، المترجم.

من آلياتنا الدفاعيّة التي طوَّرناها هي حذرنا في أثناء المشي ليلاً في شارع مظلم، وكذلك اليقظة المفرطة والقلق الشديد اللذان عانى منهما الكثير من الأميركيين بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر الإرهابيّة. وأيضاً لقد طوَّرنا قدرات باهرة على قراءة عقول أولئك الذين لديهم نِيّة للقتل.

هذا هو السبب الذي جعل شيلا بيلوش تشعر بخطر القتل من زوجها السابق بلاكثورن. تأمل كذلك حالة و. ج. سمبسون. حيث اشتبهت زوجته السابقة نيكول براون سمبسون بأن حياتها في خطر. هي قالت في عِدّة مناسبات: «**سيقتلني وينجو من العقاب، لأنه و. ج. سمبسون**». ومع كوننا لسنا متأكدين من أنه هو قاتلها بالفعل، لأنه بُرِّئ من هذه الجريمة، إلا إنَّنا نعلم أن آليات زوجته الدفاعيّة ضِدّ القتل قد أُثيرت. ولسوء الحظ، فقد خذلتها في النهاية؛ أصرَّ قاتلها على سلب حياتها. المفارقة هنا، ومع أن الانتقاء الطبيعيّ قام بتشكيل آلياتنا الدفاعيّة لحمايتنا، إلا إنه في الوقت ذاته أوجد استراتيجيات قتل أكثر دقة للتفادي والتحايل عليها. فكما طوَّرنا وسائل لكشف خطر الآخرين، طوَّرنا أيضاً القدرة على خداع ضحايانا ومفاجأتهم. في الواقع، قد تطوَّرنا لتمويه مخططاتنا القَاتلة وإخفائها عن ضحايانا ، الآلاف منا الآن مدينون بحياتهم لتلك الرغبة الشديدة والقويّة لحماية أنفسنا من أساليب التخفي التي يتمتع بها القَتَلة منا.

أن شغفنا بالدم، وقدرتنا المذهلة على التقاط الوجه الغاضب في حشد من المئات، وتعطُّشَنا لمعرفة كُلِّ تفاصيل جرائم القتل، ما هي إلا سِمات لتسلُّحنا الدفاعيّ. هذه الآليات ليست مُصمَّمة على تجنب المواقف التي قد تكون فيها حياتنا معرضة للخطر فحسب،

بـل وأيضاً للرَّدّ عندما نقـع في الخطر. لقد وفَّرت ترسـانتنا الدفاعيّة، وعـلى مدى تاريخنا التطوُّريّ، عدداً هائـلاً من الروادع للذين يميلون للقتـل. أن القَتَلة المحتملين مُدركون تمامًا لهـذه الدفاعات والروادع، والتي بدروها قد تمنع حدوث الكثير من جرائم القتل. تقدير دفاعاتنا المتطـوِّرة المضـادة للقتـل، والحسـابات التعَقُّليّـة التي أجراهـا القَتَلة المحتملـون لمخاطـر القتـل - بوعـي أو بدون وعي - هـي ما جعلت القتل أقلَّ شيوعًا مما يتوقع.

لكـن هل يعنـي هذا - أن معظم جرائم القتل تحدث لأن شـخصاً مـا فقد عَقْله، أو قدرته على التعَقُّل، أو الاهتمام أما بالخطر الذي تمثله آليات الدفاع عن النفس أو خطر العقاب؟ **كلا**، على الإطلاق.

قد يعتقد الكثيرون، وأيًّا كانت بقايا الغرائز الأساسـيّة للبشر التي تدفع الرجال - والنساء - للقتل، أنهم يبقون مقيدين بالكابح القوي الـذي نسـميه **العَقْلانيّة**: ليـس من التعَقُّـل أن تقتـل. في كتابهما المؤثر «**جريمة الغرام**»، أشـار عالما النفس ديفيد وجين ليستر عن هذا الرأي التقليـدي للحظات عرضيّة تفشـل فيها هذه الكوابح: «**تحدث معظم جرائـم القتل إثر دافع فجائيّ لفورة الشـغف العاطفـي، وفي المواقف التـي تغلب فيهـا عواطف القَاتل على قدرتـه للتعَقُّل**». خبراء آخرون يجادلـون أن جرائـم القتل تحدث عندما يحـل الغضب محـل التعَقُّل[6] وعندمـا يُـترك الحُكْم جانباً؛ وتطغـى العواطف المتأصلـة فينا بعمق، ويغمر المنطق بالعاطفة.

هـذه الافتراضـات، المتجـذرة في التبايـن المصطنـع بـين العاطفـة والعَقْلانيّة، هي خاطئة لسببين رئيسين:

الأول: إن العديد من جرائم القتل مُتعمَّدة. فعلى سبيل المثال، وفي واحدة من أكبر دراسات جرائم القتل عند النساء، تم الحكم على 56 % منها لاستيفاء معايير القتل المدبَّر (من الدرجة الأولى) الذي استمر فيه التخطيط والتقصِّي لأيام وأسابيع وأشهر، وأحياناً لأعوام[7]. فغالبًا ما يقوم القَتَلة بإعداد سيناريوهات مُتْقنة – الحصول على سلاح، اختيار وقت تكون فيه الضحيّة ضعيفة، وتحضير الذريعة (أدلة البراءة). مثل هذا التخطيط المُتعمَّد ليس بالكاد علامة على اللاعَقْلانيّة. ومع اكتشاف بعض الذين يرتكبون جرائم القتل بشكل مُعَقَّد على أنهم مختلون، إلا أن الغالبيّة العظمى ليسوا كذلك.

الثاني: صحيح أن بعض جرائم القتل تكون مدفوعة بعواطف شديدة، كالغضب والغَيْرة والحسد، إلا أن ذلك لا يعني بأن العاطفة تتحدى التعَقُّل. وفي الواقع، إن إحدى الحُجج الأساسيّة التي سأوردها في هذا الكتاب هي أن **العواطف عَقْلانيّة**. فهي تعمل كمكونات جيدة التصميم للآلات النفسيّة البشريّة، وتيسِّر الحلول الفعالة للمشكلات التكيفيّة. إنها تنجح على وجه التحديد في المواقف الحاسمة من الحياة عندما تفشل الحسابات التي تخلو من العاطفة. إن العواطف، وبعيداً عن كونها مناقضة التعَقُّل، هي وسائل استثنائيّة لتحقيق الأهداف؛ لها منطق وظيفي لا واعٍ. وفي حالة القتل، تعمل كوقود محفِّز للقيام بالقتل – الحل الذي يُتوصَّل إليه عبر حسابات حذرة ومُعَقَّدة، مع أنها قد تكون متسرِّعة أحياناً. تفتقر مقولة «**لا تغضب بل اقتصّ**» إلى هذه النقطة الأساسيّة: إن الغضب موجود جزئيًّا على وجه التحديد لغرض «**الاقتصاص**»[8].

تُظهر سجلات حالات القتل بأن القَتَلة يقتلون غالبًا عندما يستولي عليهم غضبٌ أعمى، وغالبًا ما يغفلون عن عواقب أفعالهم. وعليه، سنميل إلى الاعتقاد بأنهم يجب أن يكونوا مختلين. لكنهم ليسوا كذلك. أو على الأقل الأغلبيّة ليسوا كذلك. في ولاية ميشيغان، وكما الحال في معظم الولايات المتحدة الأميركيّة، يقوم عُلماء نفس وأطباء نفس مدربون بتقييم الأشخاص المتهمين بالقتل. تقييمهم هذا يجب أن يتضمن فيما إن كانوا عقلاء أو مختلين، مصابين بالذُهان أو لا، مؤهلين أو لا للمحاكمة. ومن المثير للدهشة، أنّنا وجدنا في دراستنا على 375 جريمة قتل في ميشيغان، بأن 96 % منهم حُكِم عليهم بأنهم عُقلاء قانونياً، غير مصابين بالذُهان، ومؤهلون للمحاكمة، بل كانوا يدركون تماماً أن أفعالهم خاطئة وغير قانونيّة.

وباختصار، فإن معظم القَتَلة ليسوا مختلين. إنهم يقتلون لعِدّة أسباب منها: الشهوة والجشع والحسد والخوف والانتقام والمَكَانة والسُمْعة، أو للتخلص من شخص يرونه مُكلِفًا. إنهم مثلك ومثلي، وكما أشار الطبيب النفسيّ الشرعيّ كارول هولدن، بعد أكثر من 18 عاماً من إجراء المقابلات مع القَتَلة: «**أن الخط الفاصل بيننا وبينهم بالكاد موجود**»[9]. لكن بعكسك وعكسي، فإن حساباتهم للتكلفة/المنفعة قد وصلت إلى حلٍّ قاتل لمشكلاتهم.

تثير هذه الملاحظة تساؤلات حول سبب ومتى يقتل الناس. بالتحديد، كيف يتوصل القَتَلة إلى حلولهم المميتة؟ كم من حلّ بديل فكروا به قبل أن يقرروا القتل؟ كيف يقررون إذا ما كانت المنافع التي سيحصلون عليها تستحق المخاطرة؟ كيف يتوصلون إلى

الدوافع والوسائل؟ ثم كيف ينتهزون الفرصة؟ اكتشفت في دراساتي إجابات مثيرة لـهذه الأسئلة.

قـد يكون منطـق نظريّة القتـل التطوُّريّة التي توصلـت إليها مُثيرًا للقلـق، لكنـي لم أتوصل إلى اسـتنتاجاتي هذه باسـتخفاف عشـوائيّ. ففي سـياق تطوُّر هذه النظريّة، أجريت أنا وزملائي، وأخص بالذكر جـوش دانتلي، دراسـات مكثفـة ونقَّبنا في الكثير من دراسـات الحالة لتدقيق وصقل النظريّة(*)، فضلًا عن دراستنا الشاملة لخيالات القتل. لقد تضمن عملنا أيضاً:

❖ **تكيفات الدفاع ضِدّ القتل**. اسـتعرضنا في مختبري الظروف الخاصة التي يشـعر فيها الناس أن حياتهم مهددة بخطر مميت. لقد سألنا أثناء دراستنا المكوَّنة من قرابة ألف متطوِّع من خمس ثقافات مختلفـة أسـئلة مـن قبيـل: «**هل فكـرت من قبـل بأن شـخصاً يودُّ قتلـك؟**» كانـت الإجابة «نعم» في 91 % مـن الرجال و83 % من النساء من عينة متفاوتةِ الأعمار. ثم بحثنا أعمق لمعرفة من يخشون لقتلهـم، ومـا الذي حـدث لإثارة خوفهـم، والتغيرات الجسـميّة والسـلوكيّة، وطريقـة قتلهم من قبـل قاتل محتمـل، والأهم، ماذا فعلوا ليتجنبوا هذا القتل. وبالتزامن مع دراسـات أخرى، تزوِّدنا هذه الدراسـة بخريطـة طريق للظـروف الدقيقة التـي تكون فيها حياتنا عرضة للخطر، وأيضاً ما هي الاسـتراتيجيات لمنع حدوث القتل الأكثر فاعليّة.

(*) دراسـة الحالة Case study: نوع من الدراسـات البحثية التي يُدرس فيها شـخص بعينـه أو مجموعـة أشـخاص أو حالـة من الحـالات. عندما تجرى عادة عـلى مجموعة من الأشخاص القتلة مثلا - فإنها تصف سلوك الجماعة ككل وليس سلوك الأفراد. المترجم

❖ **قاعِـدة معلومـات مكتب التحقيقات الفيدرالي للجرائم**: لقد أمّنّا الوصول إلى قواعد بيانات مكتب التحقيقات الفيدرالي، والتي تضـم أكثـر مـن 429729 حالـة قتل، إلى دراسـة حـالات جديدة. تضمنت عينة دراستنا 13670 حالة قتل أزواج لزوجاتهم. والنتيجة المذهلة هي أن الظروف الرئيسـة لتعرض النسـاء للخطر كانت من «**ثلاثيّـة الحُـبّ**»: أي حين تكـون الزوجة أصغر مـن زوجها. ومن «**زواجات مايو–ديسـمبر**» أي حين يكون الزوج أكبر من الزوجة. وفـي هذه السياقات ارتفع خطر التعرض للقتل.

❖ **جرائم القتل في ميشيغان**. يخضع أكثر من 50% من الأشخاص المتهمين بجريمة القتل في ولاية ميشـيغان للتقييم النفسي في مركز طـب النفس الشرعي الموجـود في آن أربور ميشـيغان. وبالتعاون مـع د. كارول هولـدن وجوش دانتـلي، قمت بدراسـة 375 حالة قتـل ارتُكبت على مدار الخمسـة عشر عامًا الماضيـة. تتضمن هذه الملفات التي لم تُستغل للبحث سـابقاً مقابلات ثريّـة بالمعلومات مع القَتَلة، وإفادات شـهود، العيان، وتقارير الشرطة، والتقييمات النفسيّة، ونتائج تشريح الجثث.

❖ **ما الدافع إلى حافة القتل**: أجرى مختبري أول بحث منهجيّ حـول مـا يمكـن أن يدفع الناس إلى حافـة **القتل** للقتـل. لقد قمنا بمقابلـة متطوِّعـين لديهـم أكثر مـن مائة سـيناريو مختلـف، وفيها قـدَّروا احتمال أن يقتلوا بترجيح نسـبيّ (تقديـر مائوي). لقد عبَّر كُلُّ المتطوعين تقريباً عن استعدادهم للقتل في ظروف معينة: لحماية أنفسـهم، أو الدفاع عن أطفالهم من القتل. كشـفت دراسـاتنا عن الظـروف التي تجعل أشـخاصًا طبيعيين يَقتلون مـع بعض النتائج

المفاجئة. فعلى سبيل المثال، أشار الرجال إلى أن استعدادهم للقتل يـزداد بقدر ما تكون احتـمالات اقترانـهم مُهدَّدة، أما النسـاء فلم يفعلـن. لمـح المغنـي الأميركيّ الراحـل صاحب فرقـة دورز جيم موريسون، أن «**النساء يصبحن خبيثات عندما لا يكن مرغوبات**» وينعكس هذا الشـعور المقلق ببحثنا حول الظروف التي يُعبر فيها الرجـال عـن رغبتهم في القتـل. - في نفس الوقت، تكشـف هذه النتائـج الجديدة الحالات التي تكون فيها حياتنا معرضة للخطر - وهذا ما سنستعرضه في جميع ثنايا هذا الكتاب.

❖ **الدوافـع الصريحـة للقتـل**: لقـد جمعنا في مسـار بحث آخر، قائمة رئيسـة أكثر شـموليّة لدوافع القتل. اسـتند هذا البحث على اسـتراتيجيّة مشـتركة تبـدأ باسـتخراج (1) كُلِّ الدوافـع المُعلنـة للقتـل في عِلم الجريمة ومنشـورات عِلم الطـب الشرعيّ. مُكملة (2) بالدوافـع التي حُصل عليها من مراجعـات العينة الخاصة بنا مـن 375 جريمة قتل من ميشـيغان، مع (3) الترشـيحات الفرديّة لدوافـع للقتـل من قبل عينـة المجتمع مـن عوام النـاس. هذا هو أول تصنيـف علمـيّ شـامل لدوافع القتل. اسـتخدم مختبري هذا التصنيف لتكوين تسلسـل هرمي لدوافع القتل ولاختبار جوانب مُحدَّدة من نظريتنا الجديدة.

❖ **المقابلات الشخصيّة لمُحققِّي جرائم القتل واختصاصيِّي الطب النفسيّ الشرعي**: أحد المصـادر الاسـتثنائيّة لـهذه النظريّـة الجديدة يأتي من مقابلاتـي الشـخصيّة مع محققي جرائم القتل واختصاصيِّي الطب النفسـيّ الشرعيّ. فهؤلاء الأشـخاص الذين كرَّسـوا حياتهم المهنيّـة للتحقيق وحَلّ ألغاز جرائم القتـل لديـهم نظرة خاصة حول

الأسـباب التـي تجعل الناس يقتلـون. وأيضاً عَملـت بنحو وثيق مع أطبـاء وعُلماء نفـس مختصين في الطب الشرعيّ ممـن أجروا مقابلات مـع قَتَلـة لأجل لقمـة العيـش. وعليه، سـتكون الرؤى التـي قدمها هؤلاء المهنيُّون مُكمِّلة لمصادر أخرى للبيانات التجريبيّة.

للتحقق من إدراكنا المتزايـد بأن القتل متأصل عميقاً داخل العَقْل البشريّ، منذ تطوُّره. قمنا بدراسة العديد من اكتشافات عِلم الآثار الحيويّـة الجديدة المذكورة آنفـاً. لا يوجد ثَمَّة مصدر وحيد للدليل العلمـيّ بإمكانه أن يثبت بشـكل قاطع حقيقـة أيِّ نظريّة جديدة. ولكن بحثي هذا، وعلى مدى سـبعة أعوام متلاحقة، وفَّر مجموعة غير مسـبوقة مـن مصادر الأدلـة المختلفة التي لم يسـبق أن حصل عليها أحد ولم يتم تجميعها معاً في بحث يتعلق بنفسـيّة القتل. لقد مكَّـن هذا البحث الفريد من تطوُّر أكثـر النظريات العلميّة الثاقبة والشـاملة المقدِّمة لتفسـير سُـلوك القتل على الإطلاق. سأطلعك عليها خطوة بخطوة في الفصول التالية.

قمـت بدراسـة القتـل بنحو مكثـف لسـبب وجيه: لأنه مـن أكثر التصرفـات غرابـةً، وغموضـاً، وخطورة مـن التي يمكـن أن يفعلها البشر. لـذا، فلا عجب أن تمتلئ المجلات العلميّة بآلاف الدراسات، ورفـوف المكتبـات بمئـات الكتب عن القتـل. إنَّنا نملـك أدلة جيدة معقولة حول معدلات القتـل، جنس الجانـي والضحيّة، أعمار القَتَلة وضحاياهم، معدّلات حلّ الجرائم، والعديد من التفاصيل الأخرى. ومع ذلك، تكشـف دراسـة أدبيات وإحصاءات جرائم القتل الكثير مـن المعتقـدات الخاطئة، وبنحو مفاجئ، القليل مـن الاهتمام العلميّ الجاد لفهم نفسيّة القتل.

الفصل الثاني

تطوُّر العَقْل

«نحن الذين نمثل الأسلاف الناجحين الذين عاشوا في مشاهد متتالية من القتل، يجب علينا، مهما كثرت المزايا السِّلميّة التي نتحلى بها، أن نحمل معنا الصفات الشخصيّة المشتعلة الشريرة والجاهزة دائماً للانفجار في أيِّ لحظة بالطرق التي عاش بها أسلافنا الكثير جداً من المجازر، وآذوا الآخرين لكنهم لم يؤذوا أنفسهم»

~ ويليام جيمس (1980) مبادئ علم النفس

«إن حرمانك الآخرين من حياتهم لهو واحد من أكثر الطرق فاعليّة لزيادة لياقتك»

~ جوسيف لوبريادو، الطبيعة البشريّة وتطوُّر الثقافة الحيويّة [1]

شيء واحد لم نخطئ بشأنه عموماً يتمثل بأن القتل يعدّ مشكلة خطيرة. فوفقاً لإحصائيات مكتب التحقيقات الفدراليّ، ارتكبت 16503 جرائم قتل مسجلة رسميًا في أمريكا، في عام 2003؛ 16229 في عام 2002؛ 16037 في عام 2001[2]. - الرقم الأخير هذا لا يتضمن جرائم القتل البالغة 2992 من المأساة المروعة للهجمات الإرهابيّة في 11 سبتمبر. ويمكننا القول، بتحفُّظ، أن أكثر من مليون شخص قُتلوا في الولايات المتحدة في القرن العشرين، فضلاً عن مليون - شخص آخر قُتلوا في الحروب الكبرى التي خاضتها. معدلات القتل المماثلة للبلدان الأخرى هي أقل موثوقيّة وغالبًا تكون غائبة، لذا يصعب حساب الإحصائيات العالميّة. إن التقدير المحافظ سيضع الرقم العالمي على الأقل لحوالي المائة مليون من ضحايا القتل في القرن الماضي، وعلى الأرجح فإن الرقم الحقيقي هو ضعف أو ثلاثة أضعاف.

ومع ذلك، لاتزال هذه الإحصاءات المقلقة تقلل بنحو هائل من حجم مشكلة القتل، لعِدّة أسباب: **أولاً**، لأنها لم تأخذ في الاعتبار أكثر من مليون أميركيّ ممن يتحوَّلون «**المفقودين**» كُلَّ عام. ومع أن 5 ,99 % منهم يتم العثور عليهم، إلا أن قرابة 5000 لايزالون مفقودين. يُحتمل أن بعضهم غادر مدنهم ليعيشوا في الخفاء، لكن عدداً مجهولاً

منهم قد قتلوا. **وثانياً**، تنتج بعض جرائم القتل من اعتداءات تؤدي لموت الضحايا بعد أيام أو أسابيع أو أشهر من الهجوم. وفي مثل هذه الحالات، لا تعود الشرطة دائماً وتغير تصنيف الأحداث من «**اعتداء**» إلى «**قتل**»، وبالتالي، لاتصل بعض هذه الحالات أبدًا إلى الإحصائيات الرسميّة لمكتب التحقيقات الفيدرالي. هذا بالإضافة إلى أن الإسعافات والطب الحديث يقوم بإنقاذ حياة العديد من ضحايا القتل العمد ممن كانوا يموتون في الماضي. فمقابل كُلِّ جريمة قتل «ناجحة»، ثَمَّة أكثر من 3 محاولات قتل فاشلة بفضل التدخلات الطبيّة[3]. وهناك أيضاً ما يقرب من مليون حالة تسجل سنويًّا كتهمة اعتداء خطيرة داخل أمريكا (911706 عام 2002؛ 909023 عام 2001) ومنها عدد غير معروف تعد «**محاولات**» فاشلة للقَتَلة.

هذه هي المحاولات المبلغ عنها فقط؛ فهناك عدد غير معلوم لمحاولات نجا منها الضحايا بدون أيِّ إصابات تذكر ولم يبلِّغوا عن الحادثة. حدث شيء مشابه لصديق لي عندما كان يخيِّم مع صديقه في كولورادو. استيقظ في الرابعة صباحاً، ليجد مُتسلِّلًا يقتحم سيارته. أيقظ صديقه، وطاردا السارق بسكين في محاولة لثنيه وإخضاعه. لكنه اندفع نحو صديقي وسحب سكينه وهاجمه بقصد قتله. حاول صديقي الدفاع عن حياته الغالية بإبعاد السكين الموجه إليه بكلتا يديه مما سبب جرحا عميقاً وصل لعظام أصابعه. أفلت السارق السكين في النهاية وهرب. ولم يقم صديقي بإبلاغ الشرطة عن هذه الحادثة أبداً. وهكذا، لن يتسنى لنا أبداً معرفه عدد القَتَلة الذين يتم إحباطهم عندما يحرص الضحايا المحتملون على عدم وضع أنفسهم في مواقف تعرض حياتهم للخطر. مُجمل خطر القتل هذا،

هو أكثر انتشاراً بمرات من عدد الجثث الرسميّة المسجلة بإحصائيات مكتب التحقيقات الفيدراليّ السنويّة.

تكثر المفاهيم الخاطئة في التصورات العامة عن القتل، ويعود السبب جزئيًّا إلى أنواع جرائم القتل التي تستحوذ على اهتمام وسائل الإعلام. فموضوع القَتَلة المتسلسلين يحظى بنصيب أكبر من حجمه في الإعلام، مع أنه في الواقع لا يتجاوز 1 -2 % من جميع جرائم القتل التي ترتكب في أمريكا[4]. في إحدى الدراسات لأنواع جرائم القتل التي تغطيها الصحف، كان أكثر الأنواع شيوعاً يتمثل بالقَتَلة المتسلسلين من أمثال تيد باندي، أو شارلز مانسون(*)؛ السفاحين كشارلز وايتمان الذي أطلق النار على 45 شخصاً من برج جامعة تكساس عام 1966 وقتل منهم 16 شخص؛ قَتَلة العصابات؛ جماعات المافيا؛ الجرائم التي ارتكبها أو كان أشخاص بارزون ضحاياها؛ الجرائم الغريبة؛ جرائم القتل المرتبطة بالقضايا السياسيّة الرئيسة؛ كالموضوعات التي تهتم بفاعليّة نظام العدالة - الجنائيّ. كُلُّ هذه الأنواع، مُجتمعةً، لا تضيف سوى 5 % فقط إلى جميع أنواع جرائم القتل[5]. لذا فمن الاعتيادي أن يحمل الناس تصوراً مشوَّهاً لكيفيّة ولماذا تحدث معظم جرائم القتل. جون جيسي(**) جيفري دامر،

(*) تيد باندي: قاتل متسلسل وخاطف ومغتصب أميركي أدين بمجامعة الموتى وقتل العديد من النساء والفتيات خلال سبعينات القرن الماضي. *شارلز مانسون: مجرم أميركي قام هو وأتباعه بارتكاب تسع جرائم في أربعة مواقع مختلفة خلال أربعة أسابيع من صيف عام 1969. المترجم.

(**) جون وين جيسي: قاتل متسلسل أميركي قام بقتل واغتصاب ما لا يقل عن 33 مراهق وشاب بين 1972-1978 في كوك كاونتي، إلينوي. جيفري دامر: قاتل متسلسل أميركي ومغتصب ارتكب 17 جريمة بين 1978-1991 وكان يأكل ضحاياه. جون

جون هينكلي، آيلين وورنوس [قَتَلة متسلسلون] هم مُجَرَّد حالات متطرفة ولا يمثلون كُلَّ القَتَلة. ومع ذلك فإن افتتان الناس بهذه الأنواع من جرائم القتل ينتج أيضاً من نفسيّة رادعة للقتل متطوِّرة فينا. وكما سنرى لاحقاً، فإن جرائم القتل النادرة وغير المتوقعة تستهدف روادع خاصة مُصمَّمة للتعامل مع أحداث لا يقينيّة. تُنشط جرائم قتل العصابات نفسيّة تحالفاتنا. ولمقتل أشخاص بارزين عواقب وخيمة على التحولات في السلطة والمَكَانة والسُمْعة.

ثَمَّة اعتقاد خاطئ آخر يتمثل في أن القتل يرتكبه مُجرمون قُساة. يستنتج ديفيد ليستر، أحد كبار عُلماء الجريمة، إلى أن «**هذا المفهوم خاطئ تماماً**»[6]. ففي إحدى الدراسات عن القَتَلة الذين أُفرِج عنهم بشرطٍ، على سبيل المثال لا الحصر، تم اعتقال 6 % فقط منهم مرة ثانيّة لارتكابهم جريمة قتل أخرى[7]. مع ذلك، ورغم وجود بعض المجرمين المحترفين الذين ارتكبوا جرائم قتل متكررة، إلا أن معظم القَتَلة كانوا يقتلون مرة واحدة فقط.

اعتقاد خاطئ آخر يتمثل أيضاً بأن القَتَلة مختلون. لكن من الواضح أن بعضهم فقط كذلك. كشف تشريح جثة قاتل برج تكساس شارلز وايتمان عن ورم سرطانيّ في دماغه، وقد يكون هو سبب إسرافه في القتل. بينما بدا من الواضح أن جيفري دامر الذي استمتع بأكل لحم ضحاياه واحتفظ بأجزائهم في ثلاجته، مختلٌّ بالفعل. ومع ذلك، وجدت دراستنا الخاصة لقَتَلة ميشيغان أن 4 % فقط قد شُخِّصوا

هينكلي: قاتل أميركي حاول اغتيال الرئيس الأميركي رونالد ريغان. آيلين وورنوس: قاتلة متسلسلة أميركية قتلت سبعة رجال بين 1989 –1990 في فلوريدا. وعُرف كل من هؤلاء القتلة بسفاحيّ التلال، المترجم.

بالذُّهـان أو اضطـراب آخـر يمكـن أن يسـتخدم في الدفـاع عنهـم كمختلين[8].

ومع تعمُّقنا أكثر لما تكشفه إحصائيات القتل، وجدنا أنماطاً مدهشة في البيانـات، وبعضهـا كان مفاجئًـا تمامًا. إحدى الملحوظـات البارزة تمثلـت بكـون القتل ظاهرة يسـود فيها الذكور. فعامًـا بعد عام، تصل جرائـم القتـل التي يرتكبها قَتَلة ذكور في أمريكا إلى 87 %. وقد يكون مـن المفاجئ أيضاً أن الذكور هم الضحايا الأكثر في هذه الجرائم. ففي المعدل، بلغ عدد ضحايا جرائم قتل الذكور في أيِّ عام 75 %، وبـقي هـذا المعدل مسـتقرًّا على مـدى أعوام؛ 74 % عـام 1964؛ 77 % عام 1974؛ 75 % عـام 1984. وكـما أنـه لمـن المثير للاهتـمام أن نعتبر عدد جرائم القتل التي يرتكبها الذكور ضِدَّ الذكور. ففي المتوسط، شملت 65 % مـن كُلِّ جرائـم قتـل ذكـورًا يقتلون ذكـورًا آخريـن. بالمقارنة، شـملت 22 % من الجرائم ذكورًا يقتلون نسـاءً. أما فيما يتعلق بجرائم النساء، فإن 10 % منها في المعدل، تضمنت قتل الإناث للذكور و3 % منها فقط لقتل الإناث للإناث[9].

وإذا مـا نظرنـا لمجموع جرائم القتل من نفـس الجنس - الذكور للذكور والإناث للإناث - فسنجد أن 95 % تتضمن ذكور يقتلون ذكـورًا آخريـن. تظهر هذه الأنماط اتسـاقًا ملحوظًا بـين الثقافات. ففـي الإحصائيات التي تـم جمعها من 35 دراسـة مختلفة على نطاق واسـع من الثقافات، ارتكب الذكور الغالبيّة العظمى من عمليات القتـل من نفس الجنس: 97 % في البرازيل، 93 % في أسـكوتلندا، 94 % في كينيـا، 98 % في أوغنـدا، 97 % ضمـن قبائـل التيـف في

نيجيريا[10].

بإمكاننا أن نقرأ هذه الإحصائيات ونستنتج أن الذكور أكثر ميلاً إلى العُنْف، وهذا صحيح، ولكن هذا لا يفسر سبب ميلهم إلى العُنْف، ولا يُبيِّن متى ومع من سيكونون كذلك. سنجد أن هناك تفسيراتٍ جذّابةً لهذه الفروق الكبيرة بين الجنسين في أنماط القتل. وفي الواقع، ترتبط مجموعة من الاختلافات الشخصيّة يتفوق فيها الذكور على الإناث بالإجرام والجُنوح وتشمل: الاندفاع (التصرف بلا تدبُّر)، الانفعال (المخاطرة بأفعال غريبة)، العدائيّة الطفوليّة، فقدان التعاطف، واعتلال المنطق الأخلاقيّ. ومع ذلك لم يثبت أن هذه الاختلافات تتنبأ بالقتل على وجه التحديد[11].

نمط آخر مذهل فيما يتعلق بمن يَقتُل ومن يُقتَل: السنّ القانونيّة. يحدث أعلى معدل لجرائم القتل بين سنّ20-29عاما، على الرغم من أن معدلات القتل تبدأ في الارتفاع ببلوغ الذكور سنّ 15عاماً، ويستمر في الارتفاع إلى الثلاثينات والأربعينات[12]. أما ضحايا القتل فأيضاً يكونون غالباً في العشرينات بتوزيع عُمُريّ مماثل. يبلغ معدل القتل في أميركا 1,6 لكُلِّ مائة ألف في سنّ 10-14، ولكنه يرتفع إلى 10 لكُلِّ مائة ألف في سنّ 15-19، ويصل 17,8 لكُلِّ مائة ألف في سنّ 20-24[13]. ثم يهبط بالتدريج إلى 16,3 في سنّ 25-29، وإلى 13,9 في سنّ 30-34، وإلى 12 في سنّ 35-39. هذه النسب تكشف أن القتل يزداد بنحو ملحوظ عندما يدخل الذكور في أعوام المنافسة التكاثُريّة.

أحد الجوانب المثيرة وغير المتوقعة للقتل، مع استمرار الجرائم،

سهولة العثور على الجاني عند وقوع الجريمة. ففي الواقع، ومن بين كُلِّ الجرائم، يتميز القتل بأعلى معدلات للحلّ، والذي يعتمد على عدد الأشخاص الذي اعتُقلوا وأُدينوا بالجريمة، ثم أُحيلوا إلى المحاكم للمقاضاة، أو الجناة الذين وجدت الشرطة دليلاً كافياً لإدانتهم، لكن ولأسباب خارجة عن صلاحيتهم، لم يعتقلوا (يختفون، أو يفرون من البلاد، أو حتى يُقتلوا). وصل معدل حَلّ جرائم القتل إلى 69 %، بينما بلغ معدل حَلّ جرائم السطو 14 %، الحرق المتعمد 15 %، والصيد 20 %[14].

يعود السبب وراء معدل الحلّ المرتفع هذا، إلى ميزة أخرى للقتل يميل الناس إلى التهوين من دورها. فبالإضافة إلى الجهود الجبارة التي بُذلت لحلّ جرائم القتل، فإن أحد الأسباب الرئيسة لهذا الارتفاع هو أن القَتَلة يعرفون ضحاياهم في الكثير من الأحيان. فمعدلات القتل التي يرتكبها المعارف والأصدقاء والأقارب هي أكثر شيوعاً من تلك التي يرتكبها الغرباء. ومن هنا يكون الأصدقاء والأقارب شهوداً مهمين أو يمكن أن يقدموا تلميحات مفيدة حول من يمكن أن يكون لديه دوافع للقتل.

ومع ذلك، بقيت 31 % من عمليات القتل المُحيِّرة لم تُحلَّ أبداً. فغالبًا ما يبذل القَتَلة جهودًا مضنية لتخطيط جرائمهم، خلق الذرائع، التَستُّر على قتلهم – مع تسليط الضوء على كثرة جرائم القتل الاستراتيجيّة بالمقارنة مع الجرائم اللاعَقْلانيّة والمجنونة.

اللُغز النفسيّ

إن لم يكن القَتَلة المتسلسلون أو القُساة أو المختلون أكثر من

يرتكب جرائم القتل، فكيف إذاً يمكننا تفسير سبب قتل الناس؟ من الأمور الغريبة التي اكتشفتها بينما كنت أطّلع على الأدبيات العلميّة، هي افتقارها فعليًّا لنظريات توضح سبب القتل، وبدلاً من ذلك، كان العُلماء في الغالب يقترحون نظريات لتفسير العُنْف والإجرام عموماً؛ يُنظر للقتل، في هذه النظريات، على أنه مُجرَّد ظاهرة لاستمرار العُنْف أو النزعة الإجراميّة.

القتل يختلف عن جميع أشكال العُنْف الأخرى، وهذا هو أحد أسباب عدم كفاية النظريات حوله. فبخلاف إشكال العُنْف الأخرى، فإن ضحايا القتل يختفون إلى الأبد. عندما تقتل شخصاً ما، فأنت لا تأخذ منه كُلَّ ما يملكه فحسب، بل وتسلبه كُلَّ ما يمكن أن يملكه في المستقبل. القتل عمل مدبَّر بعناية فائقة تكون نتيجته جثة هامدة. علاوة على ذلك، فقد تبيَّن أن دوافعه تختلف اختلافاً كبيراً عن دوافع أشكال العُنْف الأخرى، مثل الاعتداء، أو السرقة، أو الاغتصاب. وأخيراً، فالقتل ليس ظاهرة واحدة متجانسة؛ بل ثَمَّة أنواع مختلفة تقتضي تفسيرات مختلفة. فعلى سبيل المثال ثمة اختلاف بدوافع وطريقة قتل الزوجة، قتل المنافسين من نفس الجنس، قتل الرَّضَّع، قتل أطفال الزوجة أو الزوج، المذابح الجماعيّة في الحروب. وعليه، لا تستطيع النظريات التي توضح العُنْف ببساطة أن تفسر الاختلافات التي نجدها في أشكال القتل المُتعدِّدة.

ولكن، قبل أن نستبعد هذه النظريات، يجدر بنا استكشاف المهمة منها، وأن نوضِّح بإيجاز، الطرق المُحدَّدة التي اتبعتها.

إحدى النظريات التي اعتمد عليها تفسير العُنْف كانت هي

نظريات «البيئة-الاجتماعيّة»، الأكثر شيوعاً منها كانت هي نظريّة «**التعلُّم الاجتماعيّ**» لألبرت باندروا، والتي اقترحت اكتساب الناس للسُلوك الاجتماعي من مراقبة الآخرين وتقليدهم - السُلوكيات التي إما يكافؤون أو يعاقبون عليها، والتي تشكل بعد ذلك سُلوكهم اللاحق. وُظِّفت هذه النظريّة لتفسير حقيقة أن الرجال يَقتلون أكثر من النساء. يجادل ليونارد بيركوفيتس الباحث الرائد في العُنْف قائلاً: «**تأمل جميع الطرق التي يُعلِّم فيها المجتمع الغربيّ الحديث .... للأطفال بأن القتل أكثر ملاءمة للذكور من الإناث. لا يتوقف الأدب الشعبيّ ووسائل الإعلام عن عرض الذكور (لا الإناث) وهم يتحاربون. يشتري الآباء والأمهات أسلحة لأبنائهم بينما يشترون الدُمى لبناتهم. بل، هم يوافقون على السُلوك العدوانيّ لأبنائهم ويكافئونهم أكثر من البنات. وهكذا، مراراً وتكراراً وبنحو مباشر أو غير مباشر، يتعلم اليافعون بأن الذكور عدوانيّون، والإناث لسنَ كذلك**»[15].

أحد أوجه القصور الواضحة بهذه النظريّة إنها لا تستطيع أن تفسر لماذا حتى في الثقافات التي لا تؤثر فيها وسائل الإعلام يقتل الرجال أكثر بالمقارنة مع النساء، ولماذا تبقى الفروق بين الجنسين للقتل عالميّة وثابتة عبر الثقافات، لا مقتصرة على المجتمعات الغربيّة الحديثة؟ هذه النظريّة أيضاً لا تأخذ بالاعتبار حقيقة أنَّنا نتعرض للعديد من نماذج السُلوك المختلفة، ولأشياء كثيرة تعلمناها؛ بدءًا من الرجال اللطاف الذين ينجزون أفعالاً بطوليّة وإلى الأشرار الهازئين ممن يُعاقَبون على ارتكاب العُنْف. لقد تعلّمنا في وقت مبكر أن القتل فعل خاطئ، وأن من يرتكب الجريمة يدفع الثمن. لكن لا شيء في هذه النظريّة يفسر

أيَّ النماذج سنختار من بين النماذج الكثيرة التي نتعرض لها.

وأيضاً، التذرّع بنظريات **الأمراض الإجراميّة والعُنْف** لتفسير القتل[16]. وفقاً لهذه النظريات، ينتج القتل بسبب تلف في الدماغ أو اختلال وظيفيّ نفسيّ من عِدّة عوامل: كإساءة معاملة الأطفال، آثار إدمان الكحول، أو خَلل في الجينات. يقترح البعض أن سُلوك القتل ينتج من تلف في اللوزة العصبيّة الدماغيّة (Amygdala)، المنطقة المسؤولة عن التحكم في العواطف الاجتماعيّة كالغَيْرة والغضب. بينما يرى آخرون بأنه ينتج من تلف في الفصوص الجبهيّة (Frontal lobes) فيتسبب في سطحيّة العواطف وعدم الاكتراث لمعاناة الآخرين. لا شكّ أن أمراض الدماغ والاضطرابات النفسيّة الشديدة متورطة ببعض جرائم القتل، لكنني ذكرت سابقاً، ومن خلال دراستنا لقَتَلة ميشيغان، أن الغالبيّة العظمى لم يعانوا من هكذا أعراض. علاوة على ذلك، فإن أنواع القتل التي يُرجح أن تنتج عن تلف الدماغ هي تلك التي تكون عشوائيّة، أو تتضمن عوامل شاذة غريبة، عكس معظم جرائم القتل «**المألوفة**». إضافة إلى ذلك، وكما أشار عالم الأعصاب جوناثان بنكوس بكتابه «**الغرائز الأساسيّة**» فإن: «**قِلةٌ من المصابين بِعلّة في الدماغ هم فحسب من يتحولون لعُتاة**»[17].

وكذلك، حظيت النظريات الاجتماعيّة عن الإجرام بشعبيّة واسعة لمحاولة تفسير القتل. تعتمد هذه النظريات عادة على خصائص المجتمع الأكبر، مثل الرأسماليّة، الفقر، أو عدم المساواة الاقتصاديّة. فعلى سبيل المثال، يقال إن الرأسماليّة تجعل الناس جشعين، وأن الفقر أو التفاوت الاقتصاديّ يجبرهم على حياة الجريمة. على هذا السياق ستكون أنواع الأنشطة الإجراميّة التي تفسرها النظريّة هي

السرقة، السطو، ولرُبَّما سُلوك عصابات المخدِّرات - الجرائم المرتكبة للحصول على الموارد الاقتصاديّة. الفقر في حدِّ ذاته ليس مؤشراً قويًّا للتنبؤ بالجريمة، لكن التفاوت الاقتصاديّ يمكن أن يكون له دور. ففي المناطق التي يزداد فيها، حيث يكون بعض الناس أثرياء للغاية والبعض الآخر فقراء للغاية، تميل معدلات جرائم المِلكيّة والعُنْف إلى الارتفاع[18]. ومع ذلك، لا يوجد أيُّ دليل على الإطلاق على أن القتلَ أو أيَّ نوع من الجرائم هو أكثر انتشارًا في الثقافات الرأسماليّة مقارنة بالاشتراكيّة وفقًا لعلماء الجريمة لي إليس وأنثوني والش[19]. وللأسف، لم تدرس أيُّ دراسات ما إذا كانت ضغوط التفاوت في الدخل مرتبطة بأنواع مختلفة من القتل لا تنطوي بوضوح على موارد اقتصاديّة. وأيضاً تفشل هذه النظريات لأنها لا تفسر لماذا تتفاعل نفسيتنا مع التفاوت الاقتصاديّ بالعُنْف والقتل بدلاً من دفعنا إلى القيام بشيء آخر. وبالتالي، تكون ذات قيمة محدودة في فهمنا لسبب القتل.

تُستخدم النظريّة التطوُّريّة من حين لآخر لتفسير سبب قتل الناس، لكن كما سنرى، لم تكن النظريات المقترحة سابقاً كافية لتفسير العديد من أنواع جرائم القتل التي تم تناولها في هذا الكتاب. للعديد من العُلماء التطوُّريِّين من أمثال، جون توبي، ليدا كوزميدس، وريتشارد رانجهام، نظرياتٌ تطوُّريّة مقنعة للحرب أو القتل الائتلافيّ[20]. يجادل توبي وكوزميدس، على أن الذكور يمضون إلى الحروب في المقام الأول للحصول على الإناث. هذا يتوافق مع نظريتي الخاصة، وسنتطرق لموضوع الحرب بإيجاز في الفصل التاسع. ومع ذلك، لا تشرح نظرية الحرب التطوُّريّة، ولا تهدف لتفسير غالبية جرائم القتل

التي يرتكبها قَتَلة مختلطون بيننا.

إن المشكلة الغالبة مع كُلِّ هذه النظريات تتمثل بفشلها بالتعمق في النفسيّة الكامنة للقتل لفهم الأسباب النهائية له.

التنميط الجنائيّ

من المهم التمييز بين هدفي المتمثل بالتعمق في النفسية الكامنة للقتل والعمل الممتاز للمُحلّلين الجنائيين، كعملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي السابقين جون دوغلاس، وروي هازلوود، وآن برجيس، وروبرت ريسلر، وعالِم الطب الشرعيّ برنت تورفي، وعالِم النفس الشرعيّ ديفيد كانتور. لقد أصبح التنميط الجنائيّ الآن، وبالرغم من أنه قد تشكَّل بنحو غير رسميّ قبل أكثر من قرن من قبل عُلماء النفس والأطباء النفسيين الذين يساعدون الشرطة، رسميًّا في وحدة العلوم السلوكيّة بمكتب التحقيقات الفيدرالي بكوانتيكو، فيرجينيا. لقد بدأ عمله فعليًّا في عام 1970 على يد عُملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي هوارد تيتين وبات مولاني. ثم تم تطويره في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات من قبل جون دوغلاس وروبرت ريسلر. لقد كان الهدف الأساسيّ من التنميط السلوكيّ هو جمع مصادر مختلفة من الأدلة – تحليل مسرح الجريمة، خصائص الضحايا، طرق الفعل الإجراميّ، وبيانات التشريح – للتوصل إلى تنميط «بصمة» لجانٍ محتمل، لأجل تقليل عدد المشتبه بهم المحتملين والقبض على الجاني الفعليّ وإدانته.

إحدى الإسهامات الجوهريّة لمجموعة مكتب التحقيقات الفيدرالي، كانت تصنيف الجرائم لفئتين رئيستين: **منظَّمة/ غير منظَّمة**، المستخدم حتى الآن. عادة ما تتضمن الجرائم المُنَظَّمة التخطيط،

استهداف الغربـاء، وإخفاء الجثـث. مرتكبو هذه الفئـة من الجرائم، وكما يُذكر، لديهم مستويات ذكاء متوسطة أو أعلى من المتوسطة، أَكْفَاء اجتماعيـاً؛ مدمنـون للكحول في سـياق ارتكاب جرائمهـم، متابعون جيدون للجرائم في الأخبار أو وسـائل الإعلام. غالبًا ما يكون الجناة مـن هذا النوع معتلّين اجتماعياً – فاقدي المشـاعر الطبيعيّة للتعاطف، مُسـتغلين، كذّابين، مضطربين، متكبرين، متلاعبـين. أما الجرائم غير المُنَظَّمـة فتكون غالباً عفويّة، فاقدة للتخطيط، وتتضمن عُنْفًا مفاجئًا. يكون الضحـايا هنا معروفين للجاني، وغالباً تبقى جثثهم مكشـوفة، وأحيانـاً تتعـرض لاعتداءات جنسـيّة. أغلـب مرتكبـي الجرائم غير المُنَظَّمـة هـم مختلّـون – يعانون من أوهـام وهلوسـات وانفصال عن الواقـع. يرى أطباء عِلم النفس الشرعيّ مثل، برنت تورفي، بأن ثنائيّة الجرائـم **المُنَظَّمة/ غير المُنَظَّمة** قد تكون أولية للغاية، وأن مُحلّلي مكتب التحقيقـات الفيدرالي يتعرفون الآن على أنواع «**مختلطة**» أو متوسـطة بين النوعين[21].

يتـم توجيه التنميـط الجنائيّ، والـذي غالباً ما ينطـوي على الجمع بـين المعلومـات الإحصائيّـة وخـبرة المُحلِّـل والحـدس، للتحقيق في المقـام الأول عن قضايـا القَتَلة أو المغتصبين المتسلسـلين والتي تكون عـادةً مُحيِّرة. تصنيـف الجرائم إلى **المُنَظَّمة/ غـير المُنَظَّمة** وتحديد تنميط «**بصمـة**» الجاني – نوع السـيارة المحتمل أن يقودها، أسـلوبه في تنفيذ الجريمة، جنسـه، عِرقه، حالته الاجتماعيّة، مسـتوى مهاراته، صفات شخصيته – يمكن أن تكون لـها قيمة بالغة لا تقدر بثمن للمُحلَّلين في محاولتهم للقبض على القَتَلة المتسلسلين. يُستدعى المُحلِّلون الجنائيون عادة في القضايا البارزة كقضايا قتل غرين رايفر أو طفل أتلانتا. هذه

الحالات الاستثنائيّة تمثل 1–2 % من جميع حالات القتل كما ذكرتُ سابقاً. لكن هدفي الأساس هو فهم الأُسُس النفسيّة العميقة لمعظم القَتَلة المجاورين. إنَّنا بحاجة للولوج إلى عقول القَتَلة.

القَتل في العَقْل

كثيراً ما تم الاتجَار بالمخرج السينمائيّ العظيم ألفريد هيتشكوك في القتل. عمله الكلاسيكيّ (**غُرباء على قطار**) المقتبس من رواية للكاتبة، باتريشيا هايسميث، تناول خيالات العَقْل القاتل. في أحد المشاهد يقوم المجرم الأساسيّ باقتراح لعبة صالون لضيوف في حفلة جماعيّة – طلب أن يتَخَيَّل الجميع كيف يمكنه تنفيذ جريمة قتل. لتنطلق إحدى الضيفات مباشرة في جو اللعبة قائلةً: «**لقد قرأت عن حادثة ذات مرة. وأعتقد أنها فكرة رائعة. يمكنني أخذ زوجي بجولة في السيارة، وعندما نصل إلى مكان بعيد، أضربه على رأسه بمطرقة، وأصبّ الوقود عليه وعلى السيارة وأشعل فيهما النيران**». ضحكت هذه الضيفة على فكرتها هذه، مسبِّبةً استجابة مروِّعة للضيوف الآخرين. في وقت لاحق، وعلى إحدى عربات القطار، يستغل المجرم الخيالات الافتراضيّة لجذب أحد الغرباء بمكيدة شيطانيّة للقتل المزدوج. في الواقع، لقد تناول هتشكوك وهايسميث، إن لم يدركا، إحدى أكثر الدوائر النفسيّة المثبتة في الدماغ القَاتل – **بناء سيناريو القتل**.

بينما كنت أفكر في خيالات القتل التي سجلناها، تساءلتُ، هل يمكن للأفكار، والأوهام، وأحلام اليقظة، والحوارات الداخليّة، والتخطيط وبناء سيناريوهات لقتل أحد، أن تقدِّم لنا فائدة حاسمة

في حَلّ مشكلات الحياة، الأمرُ الذي لم يلتفِت إليه علماء المجتمع أبداً؟

لقد اكتشفنا في بحثنا عن الخيالات القَاتلة، والذي ضم آلاف الأفراد من جميع مناحي الحياة عبر 6 ثقافات مختلفة، كيف يتم استخدامها لبناء سيناريوهات القتل وتنفيذه؛ كيف تساعد بتوجيه النوايا القَاتلة إلى وسائل أخرى لالتماس العدالة؛ كيف يمكن أن تستخدم لمحاكاة جريمة القتل والتدرب عليها؛ وكيف تلعب عواطف معيَّنة في تقييم ما إذا كان سيتم تحويل هذا الخيال إلى واقع أم لا.

في بعض الأحيان تكون الخيالات القَاتلة عابرةً، لكنها غالباً ما تكون مُفصَّلة وواضحة. فهي عادةً ما تنطوي على بناء سيناريوهات قتل مدهشة، التفكير في وسائل مختلفة، حساب العواقب بعناية، وتقييم المنافع والأضرار. عندما درست المزيد والمزيد من هذه الخيالات، أدركت بأنها ليست مُجرَّد متنفس عاطفيّ عن الانفعالات الخطرة، بالرغم من أن العواطف القويّة تصاحبها دائمًا، وعلى الأغلب بانفعالات صادمة. بل كشفت دراسة هذه الخيالات عن كثب بأن أفكارنا القَاتلة تتبع أنماطًا مُحدَّدة. لقد كانت خيالات الرجال عن القتل مختلفة تماماً عن النساء، وكشفت مراراً وتكرارًا عن مجموعة من الأسباب المُحدَّدة للرغبة في القتل. إنها تُستهدَف بواسطة مجموعة من ظروف غير عشوائيّة تماماً نابعة من دوافع القتل النفسيّة العميقة. إن خيالاتنا القَاتلة ليست مُجرَّد أحلام يقظة لا علاقة لها بالأفعال التي لن نفكر في ارتكابها أبدًا.

تدعم الأنماط التي اكتشفتها في دوافع الخيالات القَاتلة نظريّة

جديدة جذريّة عن القتل - إنَّنا جميعاً نحمل في أدمغتنا الكبيرة دوائر نفسية متخصصة تقودنا للتفكير في القتل كحَلّ لمشكلات تكيُّفيّة مُحدَّدة. ولهذا السبب أصبحت هذه الخيالات شائعة جداً؛ ولهذا السبب عانى معظمنا من أفكار قاتلة بمرحلة من حياتنا؛ ولهذا السبب أيضاً لم تقتصر على القَتَلة المختلِّين والكئيبين أو الذين يمتهنون القتل.

ضع في اعتبارك هذه الحقيقة المثيرة للاهتمام. يُشكّل الدماغ 2 % فحسب من متوسط وزن جسم الإنسان، غير إنه يستهلك ما يقارب 20-25 % من سعراته الحراريّة. هذا يكشف عن شيء مهم للغاية يتعلق بالتفكير: **مُكلِّف أيضيًّا**. إن حلّ مشكلة واحدة بطاقة مخصصة سيستهلك باقي الطاقة المتاحة لمشاكل أخرى. مع ذلك، يمكن أن تتجاوز تكاليف التفكير مسألة السعرات الحراريّة. فالوقت المسخَّر لمعالجة معلومات مشكلة واحدة سيستحوذ على القدرة المعرفية لحلِّ المشكلات الأخرى، وهذا ما يسمى بلغة الاقتصاد «**بتكاليف الفرص البديلة**». عندما نفكر بمشاكل العمل، لا يمكننا بذات الوقت التفكير بمشاكل شركائنا. وبالتالي، تُقدِّمُ طبيعةُ ومضمونُ ومدةُ الاستغراق بأحلام اليقظة أدلةً حاسمةً حول المشاكل الملحة التي تطوَّرت عقولنا لحلها. إن أفكار القتل تَكْمُنُ في عقول معظم الناس العاديين في أوقات معينة من حياتهم؛ حتى أولئك الذين نعدُّهم «لطيفين» - من الزميل الطيب، والزوج المتفاني، إلى معلم الثانويّة الصبور - سيفكرون أحياناً بالقتل.

لفهم السبب بأن أفكار القتل قد تكون جزءاً من التصميم النفسيّ البشريّ، ضع باعتبارك النشاط المعرفيّ المكرَّس لقلق آخر يصدم معظمنا كثيراً في حياتنا - الجنس. تحدث الأفكار الجنسيّة قبل الفعل

الجنسيّ، لكنها لا تؤدي إليه دائماً؛ لا يتم تنفيذ معظم الأفكار الجنسيّة. لكن هذه الأفكار تعمل في الخفاء في عقولنا، وهي لحسن الحظ! تخدم العديد من الوظائف المفيدة للغاية: **تسمح بتقييم ما يثيرنا وما يردعنا.** يمكننا تَخَيُّل علاقة جنسيّة دون الانخراط بواحدة في الواقع. وهذا ما سيتيح الفرصة للتدقيق بعواقب أفعالنا الجنسيّة قبل حدوثها. - إنها تسمح لنا بممارسة بعض المشاهد الجنسيّة الكارثيّة قبل أن نرتكب خطأ فعلها. كما أنها تحفزنا أحياناً على المضيِّ قُدُماً وتحقيق فعلٍ كنا خجلين جداً من القيام به.

وبالمثل، يسمح لنا التفكير القَاتل بتصميم سيناريوهات بديلة، وتقييم التكاليف، والفوائد، والعواقب الممتدة لكُلٍّ منها. تأمل هذا الخيال القَاتل لامرأة ضمن دراستنا، تبلغ 23 عاماً، فكرت في قتل منافِستِها:

*** كان حبيبي يخونني مع هذه الفتاة. لقد كانت بالفعل عاهرة للجميع. وكاد يهجرني لأجلها. كرهتها بشدة لأنها أخذت حبيبي مني، بالإضافة إلى معاملتها له كأحمق. لقد فكرت في خنقِها أو قطع رأسها.**

وعندما سألناها عما منعها من تحقيق هذا الخيال، قالت إنها تعرف بأنه سيلقى القبض عليها وهي لا تريد قضاء بقية حياتها خلف القضبان. سألناها عما يمكن أن يتغير ليجعلها تنفّذ جريمة القتل، فأجابت: «**إن عرفتُ أنني لن أُعتَقَل**». سيناريوهات الغَيْرة هنا، سمحت لها بتقييم فاعليّة وإمكانيّة الطرق الأخرى، لتختار نشر شائعة خبيثة عن منافِستِها: **كانت مُجرَّد عاهرة للجميع.**

❖ **تأمـل للحظة. هل فكرت في قتل أحدهم، حتى ولو بتَخَيُّل عابر؟**

لـدى الناس مئات الأفكار القَاتلة التي تشـغلهم. ومع أنها تسـبق الفعل - كما رأينا في ملفات دراسـة قَتَلة ميشيغان - إلا إنـها لا تؤدي دائـماً إلى القتـل. - في الواقـع، تسـاعد معظـم الخيـالات بوضع حدٍّ للدوافـع القَاتلة، مما يثبط نِيّة القتل، وذلك لأنَّنا عادة نضع بالحسـبان التكاليف الباهظة، ونختار حلولًا أكثر فعاليّة وأقل خطورة.

لكـن هذا لا يعني بأنها ليسـت تعبيرات «حقيقيّة» عـن نِيّة القتل، فالكثـير من الأفـكار القاتلة تنفـذ بالفعـل[22]. - ومـع أن التفاصيل التَخَيُّليـة لتفكـير القَاتل بالقتل نـادراً ما تكون متاحـة، إلا أن إحدى الحالات في دراسـتنا لقَتَلة ميشيغان توضح التفكير الذي يحدث غالباً قبل القتل.

ذَكَـر تشارلز آي، فـي محادثة مع رئيسه في العمل، قبل أسبوعين مـن قتله لزوجَتِه، بأنه شـعر وكأنه يقتلها. سـأله رئيسـه: «**هل كان لديك شـعور مماثل من قبل؟**». في اليوم السـابق للقتل زار تشـارلز صديقـه وأبلغه بـأنه «**سـيضرب سـوزان ضرباً مُبرِّحاً أو سـيكلف أحدًا بقتلها**». ووفقاً لشاهدين آخرين «**وجه المدعي العام عليه هذه التهديدات بشـأن زوجته، وأنه يعرف مكانها وكان غاضباً بما يكفي لقتلها**». خلفيّة القصة تكشف عن السبب. فقبل أسبوعين من هذه التصريحـات، قامـت زوجة تشـارلز بهجرانه. لقد قـال للباحث إنه يحـب زوجته لكنها سـتطلق منه بدون أيِّ سـبب واضح. وفي يوم القتـل، غادر مكان العمل إلى المنزل لإطعام أطفاله. لقد كان يقول:

«أنا أحب أبنائي كثيرًا.... أنا فخور بهم. أحببتهم وعرفت أنهم يحبونني».

وبعدما أطعم أطفاله، ركب سيارته ومضى للبحث عن زوجته. وصل لمقر عملها متظاهرًا كمحقق سريٍّ وأخذ يسأل عنها بإلحاح مدَّعيًا أنه يتعقَّبها لارتكابها جريمة تزوير مفترضة. ذهب لحانةٍ كان يعلم أنها ترتادها مستخدما نفس الحيلة. ثم قصد منزل إحدى صديقاتها والتي أخبرت الشرطة لاحقاً أنه كان مؤدباً معها وأنها لم تلاحظ أيَّ شيء غريب في كلامه. وعندما اكتشف أخيراً مكان زوجته، ركب سيارته عائداً لمنزله، ثم أخذ بندقيته مع قذائفها الخاصة وتوجه للمكان الذي تقيم فيه. أوقف السيارة على بعد مسافة قريبة، وأقترب سيراً على الأقدام إلى المنزل الذي تقيم فيه. قام بقطع أسلاك الهاتف. ومن خارج النافذة، وضع زوجته في مرمى نطاقه، وأطلق النار عليها. أدَّعى لاحقاً، بأنه لم ينوِ قتلها وأنه كان ينظر من بندقيته فقط للتعرف على أن هذه المرأة هي حقاً زوجته، لكن البندقيّة أُطلقت لوحدها. لقد ادَّعى بأنه لم يخطط لاستعمال البندقيّة ولم يجلبها معه إلا **«لأخيفها حتى تعود إلى المنزل، لأريها بأنني جاد»**.

عندما سُئل عن سبب إطلاقه النار على زوجته، قال: **«إنها قصة طويلة بدأت قبل مغادرتها المنزل بأربعين يوماً. حينما عدتُ من العمل ركضت وقبَّلتني بشدة وهي ترتعش. تصرفت كأنها خائفة. لقد رأيت الخوف بعينيها، الأمر الذي جعلني أشعر بالشَكِّ. ثَمَّة شيء خاطئ. كانت تضاجعُ أحداً ما، لقد علمتُ هذا. ثم غادرت ولم أعلم إلى أين ذهبت. ظننتها ذهبت إلى ملجأ نساء أو شيء من هذا النوع. وأخيراً هاتفت المنزل ذات يوم وأخبرتني بأنها طلبت الطلاق... كان**

هـذا بعد أسـبوعين من مغادرتهـا. تحطَّم قلبي حينهـا. كنت أظن أنها قـد تفعل ذلك، لكنني لم أصدق نفـسي لأنني كنت أعلم أنـها لا تزال تحبنـي. لقـد أحببتها وكنت أرجو طوال هذا الوقـت أن أجعلها تعود إلى المنـزل. خـسرتُ عمـلي، والآن هـي تطلِّقنـي». ثم أشـار أيضاً إلى اشـتباه برجل آخـر يعرفه «**أراد مضاجعتها، لاسـيما بعدما عرفت أنها تريـد الطلاق منـي**». كُلُّ أفعاله وتعليقاته لرئيـس عمله وزملائه، ثم الاعترافـات اللاحقة للطبيب النفسيّ الشرعيّ، كانت تنمُّ عن تفكيره في القتل لعِدّة أسابيع، أي ما يكفي للحكم عليه بعقوبة القتل العمد.

في ملفاتنـا الخاصـة لقَتَلـة ميشـيغان، وجدنـا أن 72 % منها كانت تتضمـن أدلة واضحة على التفكير في القتل قبل ارتكابه. تأمل عمليات التفكير في القتل والتخطيط الدقيق لمدة أعوام قبل جرائم الحادي عشر من سـبتمبر. تعكس مذكرات الإرهابيين ما كشـفته دراسة حديثة عن القَتَلة المتسلسـلين بأن 86 % منهم كانت لديهم خيالات قتل تراودهم سـبقت جرائم القتـل المنفَّـذة[23]. وبطبيعة الحال، لا يجـب أن تتضمن أفكار القتل أيامًا أو شـهورًا أو أعوامًا. فقد تكون لسـاعات أو لدقائق أو حتـى ثـوانٍ. في إحـدى الحـالات في دراسـتنا لقَتَلة ميشـيغان، قال القَـاتل: «**هناك أشـخاص يضايقونك وتضحك معهم لكنك بالداخل تـودُّ أن تضربـهم وتقتلهم. لقد رأى شـيئا في عينيّ كما أخمِّن وبدأ يبتعد عنـي. هاتفتـه وقلت له: لا عليك، لكن لم يفلح هذا. وبينما كان يـهرب أخرجت مسدسي وأطلقت النار على رأسه**». أفكار القتل هذه، وسواء استغرقت ثوانيَ أو شهوراً، فهي غالباً تسبق أفعال القتل.

لقد شـجعني إدراك أن شيوع الخيالات القَـاتلة والنقص الواضح للنظريـات القائمـة للقتل، عـلى تطوير نظريّـة أعمق وأكثر شـموليّة

لتفسير أسباب القتل. جوهر نظريتي هو: **إن البشر طوَّروا تكيُّفات نفسية فعَّالة تحثُّنا على القتل كوسيلة لحلّ مشاكل مُحدَّدة نواجهها في الصِراع التطوُّريِّ من أجل البقاء والتكاثر**. يمكننا اعتبار هذه التكيفات كدوائر نفسيّة في عقولنا، تنشط بظروف مُحدَّدة لحَلِّ تحديات تكيُّفيّة خاصة. هناك منطق تطوُّريّ يعمل في الغالبيّة العظمى لجرائم القتل. وهذه النظريّة هي فعّالة بتفسيرها للأنماط التي يتم الكشف عنها من إحصائيّة القتل، والتي لم تراعِها نظريات أخرى مثل: لماذا معظم القَتَلة من الرجال؟ ولماذا معظم الضحايا من الرجال؟ وكذلك تقدم تفسيراً مقنعاً لسبب قيام النساء بالقتل، وتفسِّر حتى أكثر أشكال القتل إرباكاً، كقتل الأبوين لذُرِّيَّتِهما.

النقطة المفصليّة في هذه النظريّة التطوُّريّة لتفسير القتل، هي أنني لا أجادل لتبرير «**الحتميّة الجينيّة**(*)». إنني لا أرى أنَّنا تراكيب آليّة بدوافع قتل عمياء تُلبى حتماً. ولا أرى إنَّنا لا نملك أيَّ خيار في مسألة قتل شخص ما. فوجود تكيفات نفسيّة تدفعنا إلى القتل في ظروف معينة لا يعني أنَّنا مدفوعون لفعل القتل بنحو حتميّ. القتل هو استراتيجيّة في قائمة حلول يمكن التنبؤ بها من المشكلات التكيُّفيّة التي شاعت بزمن أسلافنا، ولحسن الحظ، يستخدم الناس في معظم الأحيان طرقاً غير قاتلة لحَلّ هذه المشكلات.

منظور عِلم النفس التطوُّريّ

ترتكز نظريتي على أساس حقل جديد مثير مُتعدِّد الاختصاصات يعرف باسم، **عِلم النفس التطوُّري**، والذي يُثير حاليًّا ثورة عِلميّة

(*) الحتمية الجينية: وتعني بأن أفعالنا واختياراتنا ورغباتنا محددة مسبقا في جيناتنا التي ورثناها من أسلافنا وليست نتيجة اختيار شخصي حر ومستقل، المترجم.

في فهـم السُـلوك البَـشريّ. وفقاً لهذا الفهـم للطبيعة البَشريّـة، طوَّرنا العديد من التكيفات النفسيّة التي تشكّل سُلوكياتنا، والتي قد تدفعنا للقتـل تحت ظروف مُحدَّدة كاستجابة في هذا المزيـج المُعَقَّد. بالمقابل، طوَّرنا أيضاً تكيفات للتعاوُن، للإيثار، لصنع السلام، للصداقة، لبناء التحالفات، والتضحيّة بالنفس من بين أمور عديدة أخرى.

قبل أن ينضج عِلم النفس التطوُّريّ، كان التفسـير السائد للطبيعة البشريّـة يتمثل بحُجَّة «**اللَوْح الفارغ**»[24]. نَص هذا الأنموذج القديم عـلى أنَّنـا نولَد بلا طبيعـة جوهريّـة، بغض النظـر عن قدرتنـا العامة عـلى التعلُّم. ثم يتم كتابة محتوى شـخصياتنا على هـذا **اللَّوْح الفارغ**، أثناء مراحل نموِّنا بحيث تتشـكل طبيعتنـا بفعل تأثير قوى خارجيّة: الأهـل، المعلمـون، الزمـلاء، المجتمـع، وسـائل الإعـلام، والثقافة. وعندمـا يأتي وقت الإجابة على سـؤالنا لماذا نُقتل؟ يشـير هذا المفهوم لمؤثـرات خبيثة في هذا العالم مثل: التربية السـيئة، التنشـئة الاجتماعيّة الضعيفة، الرسـائل الإعلاميّة، الثقافات التي تقدس العُنْف، وأخيراً أمراض المجتمع.

لكـن، وعلى النقيض، يؤكد عِلم النفس التطوُّري على أنَّنا قد جئنا إلى العالم مجهَّزين بعقول مُصمَّمة لحلّ مختلف المشكلات التكيُّفيّة التي واجهها أسـلافنا على مـدى التاريخ البشريّ. تسـاعدنا هذه المعدات النفسـيّة على التعامل مع مختلف تحديات البقاء والتكاثر - **المشكلات التكيُّفيّـة** - والتي واجهت أجيالاً من أسـلافنا القدمـاء. وبالطبع، لا يخـرج الناس مـن بطون أمهاتهم مع هذه التكيّفات مُشـكَّلة بالكامل. فـلا يـُولد الرجال بلِحًى، ولا تولد النسـاء بأثداء مكتملة النمو، بل تنمـو هذه التكيفات لاحقاً لحلّ المشـكلات خـلال المرحلة التكاثريّة

من عُمرنا. وبالمثل، تظهر تكيفاتنا النفسيّة هذه في الوقت المناسب على مدار نموِّنا.

ومـع نضوج عِلم النفس التطوُّري، بدأ في إنتاج مجموعة رائعة من الـرؤى الجديدة في الطبيعة البشريّة. فأعطانا تفسـيرات مقنعة لسـبب انجذابنا الشديد نحو الجمال، وتوصل إلى إجابات لأسئلة من قبيل لماذا يخون البعض حتى مع حبِّهم لشركائهم؟ ولماذا يُفكر الرجال والنساء بنحـو مختلف عندمـا يتعلق الأمر بالخيانة؟ واكتشـف أن وجود زوج الأم أو زوجـة الأب في المنزل يعد عامل خطر للإسـاءة للأطفال[25]. كما أدى لاكتشاف أن النساء أفضل من الرجال بظاهرة تسمى «**ذاكرة الموقـع المكاني**»، أي أنهنَّ يتذكـرنَ أفضل المواقع والأماكن التي رأينها أول مرة. وأيضاً فسَّر لأول مرة سـبب تفاوت رغبات المرأة الجنسـيّة بمدار دورة الإباضة[26].

لقـد نجـح عِلـم النفس التطـوُّري في تقديـم عِدّة تفسـيرات مقنعة للعديـد من جوانب الطبيعـة البشريّة. لذا، وبمُجرَّد الانتشـار المفاجئ للخيالات القاتلة، وكيف يُفتن الناس بالقتل، حتى تجلت لي الاحتمالية المقلقـة بأن البشر قد طوَّروا تكيفات للقتل. أدركت أن القتل قد يكون اسـتراتيجيّة فعالة بنحو مذهل للتعامل مـع بعض التحديات التطوُّريّة التـي نواجهها. فهل حقاً يمكن أن تكون للقتـل منافع ثمينة على مدى عصور تطوُّرنا، لدرجة أن عقولنا جميعاً تملك آليات تحفزنا للقتل؟

الإرث التنافُسي لأسلافنا

إنَّنا مدينون بكُلّ نفس نتنفسـه إلى أسـلافنا - خط طويل متواصل لا يمكـن تَخَيُّلـه مـن الأجـداد الذيـن تمكنـوا مـن النجاة مـن «**قوى**

الطبيعة الداروينيّة المعادية». إنَّنا نُفكر بالتنافس التطوُّري بوصفه «**بقاءً للأصلح**»، كصراع الحيوانات من أجل البقاء ضِدّ التحديات التي تفرضها البيئة القاسية. من فشل بتوفير الموارد الغذائية، تجنب المفترسين، الخنوع للمرض، الإصابة بالطفيليات تم إقصاؤه من التنافس التطوُّريّ: **انقرض**. وهذا واضح جداً.

أما ما هو أقل وضوحاً فيتمثل في أن عمليّة التطوُّر عبر الانتقاء الطبيعيّ تتم عبر الأجيال، والمفتاح لتحقيق النتائج طويلة المدى هو **التنافس التكاثري**. فالفائزون بلغة تطوُّريّة ليسوا الذين نجوا بأنفسهم، بل الذين صارعوا لأجل التكاثر بنجاح: **الذين خلَّفوا وَرَثة أصحاء يقومون بدورهم بإنجاب وَرَثتهم الأصحاء**. هذا التنافس لإعادة الإنتاج بنجاح هو القوة الأساسيّة الدافعة لحياتنا، وقد تكون عنيفة جداً. ففي كُلِّ جيل، يكون هناك عدد ثابت من الذكور والإناث المتاحين للاقتران والتكاثر. سوق الاقتران يجعل هذا واضحاً عندما يتم ترغيب بعض الأقران أكثر من غيرهم. وبالتالي، وكما يقال، **ينضب كُلُّ الأقران الجيدين**. ومن ثم، سيتنافس كُلُّ ذكر وأنثى مع ذكور وإناث آخرين على «**حِصَص**» من أصول الجيل القادم.

يبدو واضحاً بأنَّنا جميعاً ننحدر من نسل أولئك الذين نجحوا في هذا التنافس التكاثريّ. وبصفتنا المنحدرين من الذين نجحوا، فإنَّنا نحمل فينا معاً نحن البشر الحديثين المكونات النافعة جداً من أجسام وتصميمات عقول ساعدت أسلافنا على الانتشار والازدهار.

إن طبيعة التنافس التطوُّريّ العنيف التي شكَّلتنا تقودنا لاستبصار نظريّ عميق فشل مُحلِّلو الطبيعة البَشريّة بملاحظته أو ارتدُّوا عنه

لعواقبه المقلقة. القتـل، وعلى مدى العصور بلعبة التنافس التكاثريّ، كان طريقـة فعالـة للغاية لتحقيـق النجاح التطوُّري. لكـن وبالطبع، بعد أن تحضَّرنا، سـنَّت مجتمعات البشر قوانين لردعه؛ تؤدي ارتكاب جريمـة القتل في حياتنا المعاصرة إلى أقسـى العقوبات. وبالتالي، بات القتل استراتيجيّة أكثر كلفة لـهزيمة منافسي الاقتران مما كان في ماضينا البعيد. القتل، وعلى طول تاريخ التطوُّر البشريّ، كان الوسيلة الأكثر فاعليّة لـهزيمة المنافسين وضمان أن الشريك المختار سيُمِّرر جيناتنا لا جينات غيرنا. فمن منظور ذكوريّ، قتل شريك مُنافِس سيجرِّده من مصـادر تكاثريّة باهظة لا تعوض؛ سـيمحو مسـتقبله الوراثيّ بالمرة. لقـد كان التخلـص مـن مجموعة كاملة من المنافسـين بقتـل جماعيّ أو إبادة عِرقيّة يفتح للقَتَلة وذُريَّتهم آفاقا جديدة ليزدهروا وينتشروا.

قـد يبدو التحـدث عن القتل على أنـه تكيفيّ أو مفيد، قاسـياً بعض الشيء، ولكن إذا ما اعتبرنا طبيعة التنافس التكاثريّ التي واجهها البشر عـلى مـدى فترات طويلة مـن تطوُّرنا، فسـيمكننا أن نُقدّر مـا يمكن أن تقدمـه ميزة هذا القتـل التنافسيّ التطوُّريّ. لابُـدَّ أن تكون فوائد القتل، بالمعنـى التطـوُّريّ، بالغـة الأهميّـة ومُتعـدِّدة الجوانـب، بينـما سـتكون العواقب التكاثريّة السلبيّة على الجناب الآخر، شديدة الوطأة.

سـيكون غريبـاً أن تحمل أيُّ صحيفـة عنوان «**اكتشـف العلماء أنه لمن السـيِّئ أن تكون ميتـاً**». إنَّنا نعلم هذا جيداً. ومع ذلك، اتضح أن القتل كان أسوأ بكثير، من الناحية التطوُّريّة، مما أدركناه على الأرجح.

فلتتحلُّـوا بالصبر بينما أسـتعرض الجوانب المـتعـدِّدة لهذه البصيرة الحاسـمة. بادئ ذي بـدء، فإن القتل يقطع كُلَّ السُـبل لتمرير جينات

الضحيّة المنكوبة؛ لن يُغازِل ضحيّة من الذكور أو يجذب أو يغري أنثى مرة أخرى أبداً، ولن يضاجع زوجته أبداً. لقد قُضيَ إلى الأبد على كُلِّ احتمالات لقاءاته الجنسيّة مع الشريكات الغريبات، وارتباطاته المحتملة بالخليلات. لقد ضاعت إلى الأبد كُلُّ فرصه للاقتران، ومن ثم، كُلُّ فرصة مستقبليّة للتكاثر. هذه هي مُجرَّد بداية.

إن كان للضحيّة زوجة فستصبح الآن متاحة للاقتران بأزواج آخرين. لم يعد بإمكان الذكر الميت صدّ الأصدقاء السابقين أو الأعداء الحاليين ممن يحاولون إغواءها. ذكر آخر الآن ينام على سريره، يلامس بشرة زوجته ويمكن أن يجعلها حبلى منه. ومن ثم، تصبح كُلُّ خساراته التكاثريّة مكاسب محتملة لذكور آخرين. وهكذا، ستزداد تكاليف القتل سوءاً.

سيصبح أطفال الضحيّة الآن عرضة للخطر بنحو مخيف، فهو لم يعد موجوداً ليساعد في تربيتهم وإعانتهم على تجاوز عواقب الحياة التي لا حد لها. ولم يعد بإمكانه حمايتهم من أن يُضربوا، أو يساء إليهم، أو يُقتلوا على يد الغرباء، أو أزواج أمهم الجُدد. أطفاله بدورهم، سيخسرون أمهم ورعايتها إذا ما تزوجت مرة أخرى، لأنها ستكون منشغلة برعاية أطفال الزوج الجديد.

تتضاعف التكاليف، وفقاً لاعتبارات التنافس التطوُّريّ، لتتحول خسائر الضحيّة لمكاسب محتملة للمنافسين المتحمسين. إن إقصاءه من مكانته الاجتماعيّة تفتح مكانه لأحد المنافسين ليحل محله. وبالتالي، سيزدهر أطفال خصومه بمنافسة ضِدّ أطفاله، الذين أصبحوا الآن معاقين بسبب وفاة والدهم؛ ضعفت مجموعة أقاربه بالكامل بسبب وفاته. وباختصار، فإن تكاليف القتل المتتالية سَتُمدَّد لأطفال وأحفاد

وعائلة الضحيّة بأكملها. وفي الوقت نفسه، ستصبح هذه التكاليف مكاسب لغيره ضمن هذا الصراع التنافسيّ القاسي. ويمكن أن يرافق هذا نهاية مفاجئة لمسار جينيّ كامل.

إذا بدت هذه النظرة إزاء الدوافع التنافسيّة الكامنة وراء الطبيعة البشريّة متطرفة أو وحشيّة، فاعتبر هذه القصة من دراسة هنود الآش (Ache) في الباراغواي، حيث يمكن لهذه الثقافة أن تعطينا نظرة خاطفة إلى ما كانت عليه ثقافة أجدادنا.

في قبيلة الآش، يعتبر اللحم مصدراً غذائياً نادراً وثميناً. في داخل العائلات تتم مشاركة التوت والمكسرات والأغذية النباتيّة التي يتم جمعها، إلا أن اللحم تتم مشاركته بين الجميع في القبيلة وبلا أيِّ مقابل. حيث يقوم الصيادون بإيداع الطرائد إلى «موزِّع» رئيسٍ، يقوم بتخصيص حِصَص للعائلات المختلفة، وفقاً لحجم كُلِّ عائلة. يتمتع الصيادون الجيدون بمَكَانة رفيعة في القبيلة وتحاول العائلات إبقاءهم سعداء. لكن، وبنحو مدهش، هم لا يحصلون على حصة أكبر من اللحم الجماعيّ. إنهم يستفيدون من إسهاماتهم التي تفوق ما يقدمه الباقون بطريقتين؛ **الأولى:** هي عن طريق تقديم المجموعة جهودًا كبيرة من الاهتمام والرعاية الصحيّة لأطفالهم - سيستغرق أعضاء المجموعة وقتاً أكثر في إطعامهم وإزالة الشظايا من أقدامهم ورعايتهم الصحيّة. **الثانية:** تنجذب إناث القبيلة إلى هؤلاء الصيادين الماهرين، ولا عجب أن يحظى صائدٌ بارعٌ بخليلة أو خليلتين في آن واحد. هذه الفوائد، ومع ذلك، تسبب الصِراع.

ذات يوم، اندلع قِتال بين رجلين في القبيلة، كان أحدهما صيادًا ماهرًا والآخر متوسط المهارة. شبَّ الصِراع بينهما بسبب امرأة بعد أن اكتشف الصياد الأقل مهارة خيانة جنسيّة ارتكبتها، ليدعو مُنافِسه إلى

قِتال فؤوس. ليسقط قتيلاً بعد أن صرعه مُنافسه الأقوى بنصل فأسه. وبعد عِدّة أيام، أجمعت القبيلة على تقرير مصير ابن الرجل الميت البالغ من العُمْر 13 عاماً. فحقيقة أنه فقد والده كانت تعني أنه سوف يكون عبئاً على مصادر القبيلة الغذائيّة. ليتفقوا على قتله. وباختصار، فإن وفاة الأب أسفر عن قتل المجموعة لابنه. المغزى هنا: **أن الذكور الموتى لا يقدرون حماية أطفالهم**. وهذه الحالة توضِّح بشدة كيف تمتد تكاليف القتل لتشمل أقارب الضحيّة.

لذا، فإن من السيِّئ جداً أن تكون ميِّتاً. ومن جهة أخرى، من الجيد جداً أن تتخلص من أحد مُنافسيك. ضع في اعتبارك بعض الفوائد المُحدَّدة التي كان يمكن لأسلافنا تأمينها بقتلهم لآخرين:

❖ منع الإصابة أو الاغتصاب أو الموت على نفسه وعلى زوجته أو أقاربه.

❖ إقصاء خصم مهم.

❖ الحصول على موارد أو أراضي المنافس.

❖ ضمان النفوذ الجنسي إلى زوجة المنافس.

❖ منع مُتطفلٍ ما من التفرُّد بزوجة أحدهم.

❖ نشر سُمْعة سيِّئة لردع أطماع الأعداء.

❖ حماية المصادر اللازمة للتكاثر.

❖ إنهاء سلالة كاملة من المنافسين.

بالطبع، لا يقترب الكثير منا من قتل شخص ما، وهذا صحيح لعِدّة أسباب؛أحدها هي إنَّنا طوَّرنا روادع أكثر فاعليّة ضِدّ القتل، من خلال أنظمتنا القانونيّة، ومن خلال تكيُّفنا الثقافيّ - ومن ذلك، كما

وجدنا في دراستنا لخيالات القتل، فإن معظمنا يفكر في فكرة القتل في مرحلة ما من حياتنا. أما القوة الأخرى، فتأتي من موروثنا التطوُّريّ. فمع تطوُّر دوافع القتل في عقولنا تطوَّرت أيضًا مجموعة من الميول المضادة. القتل هو عمل محفوف بالمخاطر. ويمكن أن يكون مُهلكاً ويكبِّد الضحيّة خسائر باهظة. ولأن من السيِّئ جداً أن تكون ميتاً، فقد شكَّل لنا التطوُّر دفاعات قاسية لتمنعنا من أن نُقتَل، ومنها قتل القَاتل. وبالتالي، فإن الضحايا المحتملين هم خطرون للغاية. في سباق التسلُّح التطوُّريّ، قد لعب ضحايا القتل دوراً حاسماً وغير مُقدَّر - مهَّدوا الطريق لتطوُّر الدفاعات المضادة للقتل.

بفضل هذه الدفاعات المضادة، بات القتل مكلفًا للغاية. فأثناء محاولتك للقتل تصبح أنت نفسُك مُهدداً بالقتل. أو يهبُّ أصدقاء وأقارب الضحيّة إلى الدفاع عنه. من منظور القَاتل، حتى وأن نجا ونجح في تنفيذ جريمة القتل، فإنه سيخاطر بالنفي من المجتمع. إنَّنا عادة لا نريد قَتَلة في وسطنا، وكذلك كان أسلافنا، بالرغم من أنهم قد يكونون مفيدين في مواجهة مع مجموعة معادية.

في الواقع، إن امتلاكنا لمخزون غني من الدفاعات ضِدّ القَتَلة يوفر بالفعل دليلًا مقنعًا على تواجدهم بيننا لفترة كافية لنحت وصقل العَقْل البَشريّ. فتماماً كما تنم مخاوفنا من الثعابين عن تاريخ تطوُّريّ هددت فيه بقاءنا، تكشف آليات دفاعنا المُصمَّمة بدقة ضِدّ القَتَلة عن تاريخ تطوُّريّ هدد فيه البَشر بالقتل من قبل بَشر آخرين.

بسبب هذه الروادع والمخاطر الناجمة عن القتل، يختار معظم القَتَلة حلولاً بديلة لمواجهة المنافسين. تتمثل إحدى الاستراتيجيات بتشكيل تحالفات مع الآخرين في مجموعة - قبيلة، فرقة اجتماعيّة، مكان العمل

- تحاول تشكيل تحالف حاسم للإطاحة بالمنافس. استراتيجيّة ثانية تكون بمصادقة المنافس والتودد إليه، بل جعله جزءًا من تحالفك. ثَمَّة استراتيجيّة ثالثة بتشويه سُمْعة المنافس لتقليل قيمته، وإضعاف مكانته وجعله أكثر عرضة للإقصاء. وأيضاً استراتيجيّة رابعة كفخ الثعبان في العشب، حيث تأخذ وقتك في الانتظار حتى يخطئ المنافس ثم تخطو خطوتك. في أثناء انتظارك، تكون فرصه القضاء عليك نادرة. وقد تكتشف فجأة جميع التحالفات. ستضمحل تكاليف أن تُقتَل فجأة، وستزداد المنافع؛ فلرُبَّما تصادف منافسك وحيداً ولاهياً؛ ولرُبَّما يمكنك أن تقتل دون أن تكتشف؛ ولرُبَّما تستطيع أن تُرتِّب بفعّاليّة لحدوث كُلِّ هذه الأمور. فجأة تجد نفسك مجهَّزاً بوسائل القتل والدوافع والفرص. لتغتنم اللحظة. وهكذا، تكون دوائرك النفسيّة بالقتل متورطة بالأمر.

دعونا نبتعد عن جنسنا للحظة حتى نتمكن من أن نكون أكثر موضوعيّة، ولنفحص أبناء عمومتنا من الرئيسيات القريبين - الشمبانزي. لقد تباعد البَشر والشمبانزي عن أسلاف الغوريلا المشتركة قبل حوالي 7 ملايين عام. ومع ذلك يتشارك البَشر والشمبانزي ما يقرب من 99 % من جيناتهم. وهذا يعني، إن هنا ك 3 مليارات زوج من القواعد المعلقة على خيوط حمضنا النووي، تطابق بنسبة 99 %. الاختلافات، بالطبع، لا تقل أهميّة. فالبَشر هم؛ من ثنائيات الحركة، ولديهم لغة متطوِّرة للتواصل، وأيضاً طُوِّرت الإناث إخفاءً للإباضة. بينما يتحرك الشمبانزيّ متنقلاً على الأغصان، ولا يتواصل بواسطة اللغة، ولدى إناثه دورة شبق (الدورة النزويّة) مع أعضاء أنثويّة منتفخة حمراء وبراقة يُمكن ملاحظتها حتى من بعد مائة قدم. ومع ذلك، لأنهم أقرب أقربائنا الرئيسين، فإن مراقبة سُلوكهم يمكن أن يُلقي الضوء أحياناً على سُلوكنا.

أعتبر هذه الملحوظة التي سجلها عُلماء الأنثروبولوجيا ممن كانوا يتابعون قطيع الشمبانزي في أدغال تنزانيا[27]. في ظهيرة مشمسة، غادر 8 أفراد من الشمبانزي، جميعهم ذكور باستثناء واحدٍ حدودَ موطنهم. - لقد شعروا بالتشجع بفعل ذلك بناءً على حجم مجموعتهم والحماية التي توفرها الكثرة. اكتشفت هذه المجموعة ذكرًا وحيدًا (جودي) يجلس بسلام قرب شجرة ويأكل الفاكهة الناضجة في عزلة. يجوب جودي، وهو عضو في مجموعة (تُدعى: كاهاما) مع مجموعته المكونة من 6 ذكور آخرين. ولكنه هو اليوم وحيدٌ.

وما أن شاهد جودي المجموعة وهي تهاجمه حتى اندفعت جرعة من الأدرينالين في عروقه، فرمى طعامه، ووثب على قدميه، ثم اندفع نحو الغابة باتجاه رفاقه في مجموعة كاماها. لكن الكمين المفاجئ أعطى لمهاجميه أفضليّة زمنيّة. فلحق به مطاردوه حتى أحاطوا به. ولفترة كان جودي قد أُسِر. أمسك (همفري) هو أحد قادة المجموعة المهاجمة بساق جودي، جاذبًا إياه نحو الأرض، ثم انقض على صدره بكل ثقله البالغ 110 رطلًا، وثبّته على الأرض. قاوم جودي، لكنه لم يكن نظيرًا لهمفري ورفاقه الذين تعادل قوة كُلٍّ منهم أربعة رياضيين أولمبيين في أوج قوتهم. ومع انعدام حيلة جودي بدأ بقيّة المجموعة بضربه مع نوبة صراخ عارمة. لقد كانوا يعضونه ويضربونه ويقفزون عليه.

وبعد عشر دقائق، وكأنّها دَهر، توقف المهاجمون تاركين وراءهم جثة دامية مثقلة بعشرات الجراح. لم يمت جودي مباشرة، لكن لم يره أحدٌ حيًّا مرة ثانيّة. لقد اغتنمت قردة الشمبانزي القَاتلة فرصة نادرة، لرُبَّما لن تأتي مرة أخرى لعِدّة أشهر.

غالبًا ما نفكر في المعارك البشريّة على أنها حرب رسميّة بين الأعداء المعلنين، ولكن، في مجتمعات البحث عن الطعام التقليديّة،

غالبًا ما يتخذ القتل شكل غارة لا تختلف عن تلك التي شهدتها قردة الشمبانزي. لاحظ عالِم الأنثروبولوجيا نابليون تشاجنون، الذي أمضى أعوامًا في مراقبة حياة مجموعة من السكان الأصليين في فنزويلا تسمى «**يانومامو**»، واحدة من هذه الغارات.

ففي الليلة التي سبقت الغارة، أثار رجلٌ اسمه (كاوباو) جنون رجالٍ بخبل نفسي هائج، حيث ابتدأ بالغناء: «**أنا جائع للحم! أنا جائع للحم!**»، صرخ آخر: «**عنيفٌ أنا، إن رميت عدوًا بسهم فسأرميه بقوةٍ حتى يلطخ دمُه كُلَّ مكان... حتى أهل بيته**»[28]. وعندَ الفجر في صباح اليوم التالي، عرضت النساء على المهاجمين كميّة من موز الجنة كغذاء لغارتهم. غطى الرجال وجوههم وأجسادهم باللون الأسود للتمويه، كما قدمت الأمهات والأخوات النصح للمقاتلين من قبيل: «**لا تجعلوهم يقتلونكم**»[29]. ثم انتحبت النساء خوفًا على سلامة رجالهن. كانت الرحلة للوصول إلى العدو طويلة جدًا واستغرقت عِدّة أيام، وبحلول المساء أوقدوا نيرانًا للتدفئة، لكن كان يجب أن تطفأ سريعاً لكي لا ينتبه العدو.

في مخيمهم كان التوتر سائدًا على النساء. كما أن خطر سبيهن من قبل القبائل المجاورة كان محتملا؛ لا يمكن الوثوق حتى بالحلفاء.

انقسمت المجموعة المهاجمة على فريقين يتألف كُلٌّ منهما من 6 رجال. سمح لهم هذا التجمع بالتراجع تحت الحماية: كان رجلان من كُلِّ مجموعة يختبئان خفية لمواجهة أي مطارد يُفاجئ المجموعة. ثم وجهت المجموعة ضربتها. لقد ضربوا أحد الأعداء بسهم مسموم، وهربوا، لكن جُرح أحدهم بينما كانوا يهربون نحو معسكرهم. لم يمت هذا المصاب وكان له الحظ ليعيش ويُشارك في غزوة قادمة.

نجحت الغزوة، فقد قتلوا شخصًا من مجموعة معادية ثم هربوا بالضبط كما فعل الشمبانزي في تنزانيا.

القتل، بطبيعة الحال، ليس الحَلّ الأول عادةً، حتى عندما تكون حياة الشخص على المحك؛ حتى عندما تكون مهددًا بسلاح شخص اقتحم منزلك، فقد تميل للاختباء أو للهرب أولاً، ثم المهاجمة ثانياً. تجسد العبارة التاريخيّة «**قاتل أو أهرب**» أشهر نمطين لدفاعاتنا المتاحة. لقد تطوَّرت الدروع التي طوَّرناها لإيقاف القتل إلى جانب الآليات النفسيّة التي تعطي دافعاً للقتل. لكن ولسوء الحظ، فإن عمليّة التطوُّر-المشترك، التي شكَّلت تكيّفات جديدة للتغلب على هذه الدفاعات، كونت حلقة لا مفر منها - كلما تتطوَّر آليات الدفاع، تتطوَّر وسائل أكثر فاعليّة للقتل.

عادةً، يحدث التطوُّر-المشترك لسباقات التسلُّح بين نوعين مختلفين؛ أحدهما مفترس والآخر فريسة، أو بين الطفيليات والعائل. فبينما يلتقط المفترس الفريسة الأبطأ، والأقل رشاقة، تتطوَّر الفرائس المتبقيّة وذُريَّتها ليكونوا أسرع، وأكثر تمرُّسًا على إدراك وجود المفترس. ثم تكون هذه القدرات المحسنة للمراوغة ضغطًا انتقائيًّا على المفترسين - تفشل البطيئة في الحصول على الغذاء وتموت، بينما تؤدي أسرعها إلى ولادة نسبة أعلى من الذُريّة السريعة. وبالتالي، ستفضي كُلُّ زيادة بمهارات أحد الأنواع لزيادة في مهارات النوع الآخر. النوعان عالقان في حلقة متفاقمة أبدية لا يستطيع أيٌّ منهما الفرار من حدودها.

تحدث سباقات التسلُّح المشتركة أيضًا داخل نوع واحد، وقد حدثت هذه العمليّة الرائعة في جنسنا مع تطوُّر استراتيجيات القتل ودفاعات منع القتل. فبما أن الانتقاء الطبيعيّ شكَّل دفاعات ضِدّ القتل من قبل بَشر آخرين، فقد أنشأ في نفس الوقت استراتيجيات

قتل مُعَقَّدة لاختراق هذه الدفاعات. لقد طوَّر الضحايا المحتملون مهارات للكشف عن نوايا القتل، بينما طوَّر القَتَلة المحتملون قدرات على خداع الضحايا ومفاجأتهم، للتمويه على خططهم الإجراميّة. لقد تطوَّر أسلافنا ليعيشوا ضمن مجموعات تتولى الدفاع ضِدّ الذكور الغائرة على المجموعة. وفي الوقت نفسه، طوَّروا أساليب تجنيد الآخرين لزيادة حجم تحالفاتهم القَاتلة.

أحد أساليب التجنيد المتأصلة لزيادة حجم التحالف التي قرأناها في الأخبار مؤخرًا هي باستغلال رغبة الرجال في النساء. محمد عطا، أحد مُنفِّذي هجمات 11 سبتمبر الإرهابيّة، لم يكن محظوظاً في الحُبّ. ليغرس مجنِّدوه في ذهنه اعتقاداً بأنه سيقضي الحياة الآخرة محاطًا «**بحريم الجنة**» (كما ورد بأحد كُتب عطا التي وجدت ضمن أمتعته)، وكذلك (**وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ**)؛ (**وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ**) - (القرآن، الواقعة، الآيات 22-23). الوعد بالمَكَانة وضمان النساء الشابات تعد طرقاً فعّالة للغاية بالتجنيد. يحُفز الرجال للقتل من عصابات نيويورك ولوس أنجلوس إلى الجماعات الجهاديّة، للفوز بهذه المكافآت. وبالتالي، يستمر سباق التسلُّح التطوُّريّ -المشترك القاسي في صِراع البَشر من أجل البقاء والحريّة والسعي وراء إنجاب السلالات حتى اليوم.

هل يمكن لنظريّة التنافس التطوُّري للقتل، أن تفسر دوافع القتل في أيامنا؟ كما سأكشف في بقية هذا الكتاب، فإن لهذه النظريّة دوراً بارزاً في تقويم الأنماط الإحصائيّة المتعلقة بالقتل ودوافعه. كلما قمت بتحليل نفسيّة القتل في حالات الجريمة الفعليّة وفي حالات خيالات القتل، كان الأكثر إثارة للدهشة هو، إدراك أن العديد من جرائم القتل تأتي من ضغوط حادة للاقتران - وهذا ما سنستعرضه في الفصل القادم.

*** جريمة طالبي الطيران العسكري بتكساس: في خريف 1991**

الفصل الثالث

لعبة الاقتران الخطيرة

«وكما يتصاعد الدخان من النار، هكذا تنجم الجريمة من التهتك من الملذات»

~ ويليام شكسبير، بيريكليس [1]

بـدأ ديفيـد غراهـام ودايـان زامورا التدريـب ليصبحـا طياريـن لدوريّة الطـيران المدنيّ، وهي فـرع من فروع القوات الجويّـة في مقاطعة تارانت، تكسـاس[2]. في أغسـطس 1995، بدآ بمواعيد غراميّة. وفي الشهر التالي، أعلنـا علانيّة حبهما الحقيقيّ وصرحا لعائلتيهما أنهـما عازمان على الزواج حالمـا يتخرجان من الأكاديميّة العسـكريّة بعد أربعـة أعوام. لقد تصوَّرا مراسـم زواج تزيِّنها السيوف المتقاطعة التي يحملها جناحا شعار القوات الجويّة.

ولكـن، حدثت صدمة غـير متوقعة بطريق حبهما. - قـام ديفيد غراهام، وأثناء عودته من مسابقة رياضيّة أقيمت في لوبوك، في تكساس. بممارسة الجنس مع زميلته بنفس الفريق أدريان جونس في مقاعد سـيارته الخلفيّة بعدما ركنها خلف مدرسـة عامة. لم يقدر ديفيد من السيطرة على شعوره بالذنـب إزاء خيانته هذه. وفي الأول من ديسـمبر، اعترف لدايان زامورا التـي استشـاطت غضباً وصرخت وبكـت، لكنها في النهايـة أصرَّت أن يثبت لها حبه بإخضاعه لاختبار إخلاصٍ أبدي من خلال قتل منافِسـتها الجنسيّة.

خطَّطـا لارتـكاب الجريمة معـاً وفقًـا لاعترافهـما للشرطة. قـام غراهام بإغـراء أدريـان بموعـد متأخر مـن الليل في سـيارته، ولكنهـا لم تعلم أن دايان زامورا مختفية في الصندوق الخلفيّ. وعندما وصلا إلى طريق بحيرة بعيد، بدأت دايـان بتنفيذ الخطة محاوِلةً كسر رقبتها. غير أن أدريان كانت

أكثر مرونة مما توقعا، لتفر راكضة بعدما حاولت دايان ضربها بقضيب حديدي على رأسها. لكنها لم تكن سريعة كفاية، بالنسبة لديفيد، فتتبّعها وتجاوزها ثم أرداها قتيلة. بعد ذلك قاما بالتخلص من ملابسهما الملطخة بالدم وأخفياها على بعد أميال من مسرح الجريمة.

وجد أحد المزارعين الجثة في اليوم التالي، لكن القَاتلين نجيا من التحقيق لمدة تسعة أشهر. وفي أغسطس عام 1996، تباهت دايان أمام رفيق سكنٍ جديد بعمق حبهما. ثم أخبرته بغرور بأنهما أثبتا صدق حبهما للآخر بجريمة قَتْل. فما كان من رفيق السكن إلا أن اتصل بالشرطة - وتعتقلهما. ومع أنهما اعترفا بالبداية بالقتل إلا أنهما تراجعا وأنكرا. وبعد عِدّة جلسات منفصلة في المحكمة كانا يلقيان اللوم على بعضهما، ليدانا بارتكابهما جريمة قتل عقوبتها كانت الإعدام، ولكن حُكم عليهما بالسجن المؤبد.

كيف يمكن لشابين طبيعيين أمامهما مستقبل مهنيّ جيد، أن يرتكبا مثل هذه الجريمة البشعة بدم بارد وبعدم اكتراث للعواقب؟ في اعترافه، أعرب ديفيد غراهام عن دهشته من أفعاله قائلاً: «صدمنا واستغربنا من أفعالنا، لم نكن عنيفين أبداً من قبل»[3]. ثم عبّر نادماً: «أتحسَّر الآن، فأنا لم أكن أتصوّر أبداً الحزن الذي سأسببه لمدرَستي وأصدقائي وعائلة أدريان وحتى لمجتمعي. أظن أنني تغافلت عن كُلِّ هذا بتلك اللحظة حينما أقنعت نفسي أن دايان تستحق أن أقتُل لأجلها. - فكرت طويلاً عندما أعطتني الإنذار النهائيّ، بكيفيّة تنفيذ الجريمة. كنت أحمق، ولكنني أيضاً كنت عاشقا»[4]. اعترفت دايان بدورها بالقتل ولكنها أنكرت فيما بعد ملقيةً كُلَّ اللوم على ديفيد. الغريب في الأمر، ومع كُلِّ شواهد حبها الأبدي لديفيد، فقد خُطبت لسجين آخر. لكن قد يمر ثمانية وخمسون عاماً قبل أن تكون قادرة

على إتمام زواجها الجديد.

في أعقاب ذلك، أعرب الكثيرون عن الرعب والغضب من أفعالهما بعد هذه الحادثة المؤلمة. أحدهم علق: «**أعتقد بأن ديفيد وديان يستحقان العيش في بؤس بسبب ما فعلاه بأدريان جونز. لا أحد يستحق الموت هكذا، ولا ينبغي أبداً لأحد أن يتعاون هكذا. آمل أن يُضرب كلاهما مراراً وتكرارً في داخل السجن. ليشعرا ببعض الألم الحقيقي لمرة واحدة**»[5]. لم يتفق الجميع مع هذا. ومن المدهش أن شخصًا آخر علق قائلاً: «**أعتقد أن ما فعلته ديان لم يكن خطأ. لقد آلمها حبيبُ عُمْرها فأرادت ردع تلك العاهرة. استحقت أدريان ما حدث لها. ولا أرى أن ديان تستحق السجن لأنها فعلت ذلك لأجل الحُبّ. ولابد أن تنال حريتها**»[6].

كشف فحصنا لآلاف قضايا القتل وخيالاته، والتي بحثناها بدقة، عن مدى أهميّة التنافس الجنسي بين العديد من جرائم القتل. ضع في اعتبارك هذه الأمثلة عن الخيالات التي تُعبر عن العُنْف اتجاه المنافسين الجنسيين.

* **الحالة (14) أنثى، 23 عاماً**: كانت تحاول في جلسة اجتماعيّة أن تستولي وتتلاعب بأفضل الرفقاء المتاحين في مجموعتنا مستعملةً أساليب مقزِّزة كالضحك المصطنع لجذب اهتمامهم، والتصرف كعاهرة بالجلوس على حجرهم وفتح قميصها لتعرض قرط حلمتها. ماذا بقي؟! أعتقد أن أكثر ما كان يستفزني هو إعجاب الرجال بها، أولئك الحمقى... تَخَيَّلتُ أنني أضربها

بقسوة بسبب خطأ ترتكبه أمام الحاضرين (هذه هي الطريقة التي ستجعل الرجال يؤيدون هجومي القاسي هذا، والذي سأنفذه بإتقان حتى أكسب مودتهم وانتباههم). **[ما الذي فعلتِه بالضبط؟]** لقد تكلمت عنها بالسوء لزملائي الرجال فوافقوني. لكنهم ما زالوا يستمتعون بصحبتها. أه الرجال!

* **الحالة (124) ذكر، 23 عاماً: [من فكرت في قتله؟]** رجلاً ضاجع زوجتي... إنه عشيقها السابق. لطالما تحدثت زوجتي عن مدى حرصها على عشيقها السابق، وعن رغبتها في الحفاظ على صداقتهما. انفصلا عن بعضهما لأنه دخل مصحة لإعادة تأهيل المدمنين. وعندما خرج عادا كصديقين ولكنهما نادراً ما التقيا. ثم ارتبطنا فيما بعد. بعد قرابة العام من ارتباطنا، عادت ومارست الجنس معه. لقد جاء إلى شقتي لزيارتها ومارسا الجنس على سريري. بالطبع كنت غاضبًا ومتألماً وأردت أن أفرغ ثورة غضبي وألمي عليه، ولو اقتضى الأمر أن أضربه حتى الموت **[ما سيدفعك أكثر لقتله؟]** لرُبَّما إذا رأيته يمارس مع زوجتي من جديد.

* **الحالة (273) ذكر، 24 عاماً: [من فكرت في قتله؟]** عشيق حبيبتي الحالي البالغ 28 عاماً. لقد كان يضاجع حبيبتي وأنا لم أزل معها. **[كيف فكرت بقتله؟]** فكرت أن أخنقه وأضرب وجهه حتى يغمى عليه ثم أركل رأسه. **[ما منعك من قتله؟]** لم أره لعِدّة أشهر. **[ما سيدفعك أكثر لقتله؟]** إن رأيته وأنا ثمِل وقام باستفزازي.

* **الحالة (2366) ذكر، 19 عاماً: [من فكرت في قتله؟]** أحد ضاجع عشيقتي. اكتشفت بأنه يمارس الجنس مع عشيقتي عندما رأيت سيارته مركونة عند مدخل السيارات. فتحت السيارة وضربته ولكمته بقبضتيَّ بشدة حتى تعبت. كنت سأقتله لو أنني حصلت على مضرب أو شيء من هذا القبيل. سوف يكون من الخطأ القيام بقتله، لكنني كنت حينها غاضبا بجنون. [**كيف فكرت بقتله؟**] أضربه باستمرار بمضرب بيسبول. [**ما منعك من قتله؟**] لم يكن لديَّ مضرب. [**ما سيدفعك أكثر لقتله؟**] مشاهدته يفعل ذلك مرة ثانية.

مفاتيح فهم سبب وجود التنافسات الجنسية وراء العديد من الأفكار القاتلة، وأيضاً العديد من جرائم القتل الفعليّة، يتمثل بأن المخاطر الكبرى في التنافس التطوُّريّ تنطوي على ما إذا كنا قد نجحنا في أيجاد قرين أو لا - ليس أيَّ قرين، بل قرين قيِّم من الناحية التكاثريّة. تتعلق أسباب قتل الكثير ممن يقتُلون بهذه الحقيقة الأساسيّة. وكما نُوقش في الفصل السابق، فإن إحدى الحقائق الأكثر لفتًا للانتباه في القتل، هي أن عدد الرجال الذين يرتكبون جرائم قتل أكثر من النساء: 87 % من القَتَلة هم من الرجال. يمكننا أخذ هذه المعلومة الإحصائيّة واستنتاج أن الرجال هم أكثر عُنْفاً من النساء، لكن هذا لا يفسر السبب.

مع ذلك، فقد عبّرت النساء في الخيالات أعلاه، عن مشاعر عدائيّة في كُلِّ أشكالها تماماً كما في الرجال. يمكننا الافتراض بأن النساء لسن قويات مثل الرجال بشكل عام، وبالتالي مع مرور الزمن لم يكن العُنْف استراتيجية ذكيَّة بالنسبة لهن، وهو ما قد يفسر بعضًا من الفرق. لو كان

العُنْف استراتيجية أكثر فاعليّة للنساء، لفضَّل الانتقاء الطبيعيّ النساء الأضخم والأقوى، ولما كان هذا الفرق في القوة الجسميّة بين الرجال والنساء هذه الأيام. ثم هناك حقيقة أن الكثير من الرجال يقتلون رجالاً آخرين، وهو ما يمثل 65 % من جميع جرائم القتل. ثَمَّة عمليات عَقْليّة عميقة تواصل العمل، لـها علاقة بالتحديات المُحدَّدة للعبة الاقتران.

المنافسة الحامية للانتقاء الجنسيّ

تكتسح المنافسة الجنسيّة الحُبكات الدراميّة العالمية، بدءًا من شكسبير وحتى نابوكوف. هي تطغى على أغاني الحُبّ التي غناها ال غريين والقوافي التي يغنيها إم ينيم. دراما التنافس الجنسيّ، ومن ثرثرة أسلافنا المفترضة حول نار المخيم إلى نميمتنا حول طابعات المكاتب الحديثة، تُبهرنا لسبب ما. في لعبة الاقتران عالية المخاطر، إنَّنا نحتاج لمعرفة أدق التفاصيل لقواعد ما سماه داروين «**بالانتقاء الجنسيّ**»، وهي العمليّة التي يُعبر الرجال والنساء من خلالها، عن تفضيلاتهم لأقران محتملين على حساب العديد، والمنافسة في نفس الوقت للحصول على المرغوبين.

من حيث المبدأ، يمكن توجيه انتباه البشر إلى أيِّ شيء، حتى إلى سرعة نمو العشب. ولكن الأمر ليس هكذا. لقد تطوَّرت عقولنا لتكون مفتونة بالأحداث الاجتماعيّة ذات الأهميّة التكيُّفيّة العميقة لحياتنا. إنَّنا نتعلم، ومن خلال إيلاء هذا الاهتمام الوثيق لمصير العلاقات الغراميّة لأشخاص آخرين، دروساً لا تقدر بثمن حول أيِّ الاستراتيجيات المجدية نفعاً، والتي لا تنفع (مع إنَّنا لا نقدر دوماً تطبيق هذه المعرفة بنجاح ببحثنا عن علاقاتنا الغراميّة).

إنَّنـا يمكـن أن نعـرف، في أيِّ مجموعـة اجتماعيّـة، بواسـطة تتبـع علاقـات الآخريـن، مـن يرتقـي التسلسـل الهرمـي الاجتماعي ومن يتراجـع بالمكانة. ونعـرف الأقران المحتملين الأكثـر جذباً للآخرين، وكذلك سنسـمع عـن عيوبـهم. إنَّنا يمكن أن نعرف بواسـطة مراقبة كيف يجذب الآخرون لأقرانهم، الاستراتيجيات التي قد نستخدمها، ونتعلـم عـن الأسـاليب أيضاً التـي قد يسـتخدمها منافسـونا لتدمير علاقاتنا.

المفتـاح لفهم لمـاذا أصبح التنافـس الجنسيّ قوة شرسـة في حياتنا، ولمـاذا يكْمُـنُ وراء العديـد مـن جرائم القتـل، يتمثل بتمتـع البعض منـا، في لعبة الاقتران، بمزايا كبـيرة عن الآخرين. ميدان اللعب ليس متكافئاً، وليس مقدرًا للجميع أن يجدوا حبيبًا، أو أن يكون قادرًا على الحفاظ على قرين. ووفقاً لحسـابات التطوُّر القاسـية، فإن مُجُرَّد إنجاب الأطفال كآلات لتمرير جيناتنا ليس كافياً على المدى الطويل. النسـل الـذي يرِث أفضل الجينات لمواجهة تحديات الحياة هو الذي سـيكون لديه أفضل الفرص لتمرير جيناته، ولـهذا السـبب، نحن ملزمون في أعـماق عقولنا بالبحث ليس عن أيِّ قرين مناسـب، بـل أفضل قرين يمكننا التواصل معه والتمسك به. وهذا ما صنع كُلَّ الفرق.

تَخَيَّل، كم سـتكون حياتنا أبسـط - رغم أنها سـتكون أكثر مللاً - لو لم يكن علينا أن نتنافس للحصول على أحبابنا. ليسـت كُلُّ الأنواع تتكاثـر جنسـياً، فهنـاك عِدّة أنـواع تتكاثر لا جنسـيًّا. فقـط فكروا في الأمـر: لا يحتـاج أفـراد الأنواع التي تتكاثـر لا جنسـياً أن يبحثوا عن أقـران؛ ولا أن يصارعـوا من أجـل هذا القريـن أو ذاك وأن يعانوا ألم وبؤس الرفض؛ ولا أن ينخرطوا أيضاً برقصة الجِماع المُعَقَّدة والمرهقة

غالباً من أجل إنجاح العلاقة مع شركائهم الجنسيين. لكنهم لا يزال عليهم أن يواجهوا بعض التحديات: يجب أن يؤمِّنوا الموارد التي يحتاجونها للعيش في بيئاتهم؛ أن يصدوا المفترسين الذين يريدون أن ينقضُّوا عليهم؛ وأن ينتجوا نُسخاً طبق الأصل منهم. ولكنهم ليسوا لديهم مواعيد غراميّة.

إن تطوُّر التكاثر الجنسيّ، الذي بَرَزَ لأول مرة على الأرض قبل حوالي 1,2 مليار عام، أدى لتعقيد الحياة بشكل جذريّ، وأضاف قدراً كبيراً من الصراع فيها. إنَّنا نُفكر في تنافس **«البقاء للأصلح»** بوصفه صراعاً ضِدّ تهديدات الطبيعة، ونفترض أن بعضنا أكثر جاهزيّة لمواجهة هذه التهديدات من الآخرين. لكن، التكاثر الجنسيّ أضاف عنصراً جديداً تماماً في هذا التنافس: منافسة أفراد الجنس الواحد على فرص الاتصال بأكثر الأقران المحتملين جاذبيّة. وهذا كان هو الباب الذي شُرِع للقتل.

يتعلق أحد أهم اكتشافات داروين بالدور الجوهريّ لتطوُّر الانتقاء الجنسيّ، وهو العمليّة التي من خلالها تُفضَّل بعض الخصائص- كما في حالة ذيل ذكر الطاووس الأنموذجيّة - ليس لأنها توفر ميزة بقاء لحامليها، بل لأن الجنس الآخر يفضلها. سيحصل أولئك الذين لديهم خصائص مرغوبة على ميزة الاقتران. من المثير للاهتمام، أن الخصائص المفضَّلة تميل إلى أن تكون لها بعض الأُسُس للتفضيل، لأنها عموماً مؤشرات إلى لياقة القرين التكاثريّة المحتملة. إن البحث الناجح عن القرين، وكما أدرك داروين في لعبة التطوُّر طويلة المدى، يتطلب أكثر من مُجرَّد تحديد أيِّ فرد عشوائيّ من الجنس الآخر. كان

على الأفراد أن يكونوا انتقائيين بتحديد القرين الخصب بدلاً من العقيم، والسليم صحيًّا بدلاً من المليء بالطفيليات. ومع الزمن، تم انتقاء خصائص مُحَدَّدة مرتبطة بالصحة والخصوبة - في البشر، مثل أشياء ظاهرية كالبِنيّة الجسميّة القويّة والثديين المتناسقين - وتمحور التنافس على السعي للاقتران مع الذين أظهروا أكثر هذه الخصائص المرغوب فيها.

أكد داروين على **اختياريّة الإناث**، لأنه لاحظ أن إناث العديد من الأنواع كُنَّ على قدر كبير من التروِّي في اختيار القرين المناسب. لذا أطلق على هذا الجزء من الانتقاء الجنسيّ تسمية «**اختيار الأنثى**». غير إنَّنا الآن ندرك بنحو أفضل بأن هذه الاختياريّة تمد بكلا الاتجاهين (الجنسين). فالذكور أيضاً هم دقيقون في اختياراتهم.

لقد فتح الانتقاء الجنسيّ، مجالاً جديداً تماماً للصراع بين أفراد نفس النوع، وهذا ما لم يكن موجوداً من قبل في تاريخ الحياة على الأرض - التنافس الشديد بين أعضاء نفس الجنس من أجل الوصول للاقتران بالأكثر مرغوبيّة.

أشهر الأمثلة الأنموذجيّة على التنافس بين أعضاء الجنس الواحد: صراع الأيائل بالقرون. لقد كنا نعتقد أن ذكور هذا النوع ينخرطون بهذا التنافس فحسب، وهذا صحيح لكنه ليس دائماً. لكننا اكتشفنا بأن المنتصر سيحصل على اقتران جنسيّ من أنثى تراقبه، بينما سيتراجع الخاسر جريحاً بقرون محطمة ونفسيّة محطمة. النتيجة الأكثر أهميّة في لغة التنافس التطوُّريّ هي أن الذين هُزموا لن ينالوا الاقتران (الإناث). يمكن للذكر المنهزم بمثل هذه اللعبة أن يعثر على قرين آخر، لكن

وظيفته ستكون عسيرة؛ في البشر، ستتدنى مكانته، ويصبح من ذوي السُمْعة الفاشلة (**بضاعة رخيصة**).

لقد أثرت اختياريّة الأقران كثيراً على كيفيّة تطوُّر الأنواع. فإن فضلت الإناث ذوي الريش الزاهي، أو ذوي مهارات بناء الأعشاش، أو الذين يملكون أماكن عيش ملائمة، فإن من يملك ويستعرض من الذكور هذه الصفات سيحظى بحُبّهن، وبالتالي، ستطوِّر ذُرِّيَّتُه ريشًا أكثر زهوا، أو مهارات بناء أكثر دقة. هذا هو السبب في أن لذكور الطاووس ذيولًا طويلة مزركشة باهرة. أما الذين يفتقرون إلى هذه الصفات المرغوبة، فيُعامَلون بالإهمال، والنَّبذ، ويُبعَدون نهائياً من عمليّة التكاثر. ومع الوقت، سيحتل الأفراد الذين يتميزون بالصفات الأكثر مرغوبيّة النسبة الأكبر من أنواعهم في داخل مجتمعاتهم. وبالطبع، عندما تصبح هذه الصفات التي تؤدي إلى النصر الآن أكثر انتشاراً فإن المنافسة ستصبح أكثر شراسة؛ سيشتدّ سباق التسلُّح.

لقد تسببت ضغوط الانتقاء الجنسيّ بقدر كبير من التَوَتُّرات بحياتنا، حيث نسعى جاهدين لنجعل أنفسنا أكثر جاذبية. إن كانت معظم النساء، وعلى مدى التطوُّر البشريّ، قد فضَّلن الرجال المهيمنين على الأرض، أو الأكثر مهارات بالصيد، أو من كان لديهم براعة جسدية في قهر الآخرين، فستكون قد أجبرت كُلَّ الرجال برغباتهن وجعلتهم مضطرين للتصارع مع بعضهم البعض وفقاً لهذه الشروط. إنَّنا لانزال، في الثقافات الأكثر بدائيّة هذه الأيام، نرى الرجال بالفعل يتساقط أحدهم على الآخر لكي يثبتوا بأنهم الأجدر بتحقيق هذه الشروط. سيتدافعون من أجل امتلاك الأراضي، وسيقضون أياماً محاولين اصطياد دب أو ثور سَمين، أو في تطوير مهاراتهم في العراك.

بينما في الدول المتقدمة، فيتمثل هذا التنافس على الأرجح، بمنافسة الرجال برفع مكانتهم، كسب المزيد من المال، امتلاك عقارات مميزة، وقيادة سيارات ملفتة. أما بالنسبة للنساء، فإن تفضيل الرجال الأكثر شباباً، صحة، وجاذبيّة جسميّة، سيجعلهن يتنافسن على تحسين هذه الميزات التي يفضلونها. وبالفعل، تنفق النساء الكثير من الوقت والمال للقيام بذلك. وهكذا سيصبح أفراد كُلِّ جنس بالضرورة، ضحايا مهيَّئين لأهواء ورغبات الجنس الآخر. الذين لا يتنافسون ضمن شروط هذه اللعبة سيمضون إلى الفراش بمفردهم.

أقسى أشكال المنافسة التي نواجهها، تتمثل بتنافس بعضنا البعض لإيجاد القرين المفضل، والحفاظ عليه، وهذا ما يفسر لماذا يشغلنا التنافس إلى هذا الحد في حياتنا وثقافتنا الشعبيّة. يُعبِّر هذا التنافس على الأقران عن نفسه بأسلوبين أساسيين: **التنافس مباشرةً مع منافسينا من نفس الجنس (الذكور ضِدّ الذكور-الإناث ضِدّ الإناث)؛ وقضاء وقتٍ أطول لمحاولة جعل أنفسنا أكثر جاذبية لأفراد الجنس الآخر.**

كيف تتعلق تفضيلات الاقتران بالقتل؟

يمكننا تفسير الكثير من فروق الجنسين بالنسبة للعُنْف - متى ولماذا يقتل الرجال والنساء - من خلال الاختلافات في الضغوط التطوُّريّة التي يواجهها الرجال مقابل النساء بناءً على فروق تفضيلات القرين لكُلٍّ منهما.

تأمل مسألة عُنْف الرجال. في التاريخ البشري الطويل لمنافسة الذكور ضِدّ الذكور، كانت الاستراتيجيات الخطيرة مفيدة غالبًا حتى لو أدت أحياناً إلى الموت المبكر، ولطالما أعطت أصحابها ميزة للاقتران.

ألعاب صيد الطرائد الكبيرة على سبيل المثال، كانت وسيلة خطرة للحصول على الطعام. في عمليّة اصطياد ثور قد تُصاب أو تُقتَل. لكن بما أن الإناث فضَّلن الذكور الذين يعودون باللحم إلى بيوتهم، طوَّر الذكور تكيفات خطيرة للصيد وصلت إلى الإصابات البالغة والموت في هذه العلميّة. لسوء الحظ، كان للرجال دوافع عديدة ليكونوا عنيفين في التنافس للحصول على الأقران. هذا العُنْف للرجال يمكن أن يكون استراتيجيّة لهزيمة الخصوم، ولكنه أيضاً استراتيجيّة يائسة لتجنُّب عدم الاقتران الجنسيّ. فمن ناحية، ترغب النساء في الرجال الذين يمتلكون قوة جسميّة لحمايتهن، كما أن عرض هذه القوة من خلال العُنْف كانت بمثابة براعة لهذه الصفة. على النقيض، لم يكن للنساء الدوافع القويّة ليكنَّ عنيفات ضِدّ منافساتهن. فالصفات التي فضلها الرجال كالجمال والوفاء لا تظهر من خلال العُنْف. وبالنظر لأهميّة النساء في رعاية أطفالهن، كان العُنْف أكثر تكلفة بالنسبة لهن بعُمْلة النجاح التكاثريّ، حيث قد تتعرض العنيفات للإصابة أو الموت مما يضرُّ بفرصهن لرؤية أطفالهن حتى سن البلوغ.

لفهم كيف أن الاختلافات في الضغوط التطوُّريّة للرجال مقابل النساء تقطع شوطاً طويلاً في تفسير العديد من دوافع القتل، علينا النظر عن كثب في الاختلافات بين ما يبحث عنه الرجال والنساء في الأقران. بالطبع، يفضل كلاهما على حد سواء مجموعة أساسيّة معينة من السِّمات، لكن تفضيلاتهما تختلف بشكل كبير، وتفسر الطرق التي يفعلون بها ذلك الكثير عن الأنماط التي نراها فيمن يقتل من ومتى.

ماذا يريد الرجال والنساء؟

قامت أشمل دراسة مشتركة عبر الثقافات بتوثيق رغبات الاقتران بين 10047 فرداً من سبع وثلاثين ثقافة يقيمون في ست قارات وخمس جُزر[7]. فضَّل الرجال والنساء العديد من الصفات الأكثر مرغوبيّة في الشريك الرومانسيّ. لقد عبّر الجميع عن رغبة قوية في أن يكون قرينه طيباً، وموثوقاً، وذكيًّا. القيمة التكيفيّة لهذه الامتيازات واضحة جداً. تشير **الطيبة** إلى أن الشريك سيكون أُمًّا أو أباً جيداً مخلصاً، متعاوناً، وإيثاريًّا. بينما تشير **الموثوقيّة** إلى الزوج الذي يمكن الاعتماد عليه، لا يَهجُرُ ولا يتخلى، يُؤمِّن طعامًا جيداً جداً للأطفال، ويتواصل معهم ويضعهم على فراشهم بالوقت المحدد. أما **الذكاء** فيشير إلى مجموعة من الصفات الإيجابيّة، تتمثل بمهارة حَلِّ المشكلات التكيفيّة اليوميّة التي تواجهها كُلُّ عائلة. يريد كُلٌّ من الرجال والنساء على حدٍ سواء، شريكاً صالحاً مع أطفالهم، متعاوناً مع أقاربهم ومتواصلاً مع أصدقائهم. ينجذب كِلا الجنسين إلى الأقران الذين يجيدون التقدم والمضي قدمًا بشخصيّة مُتَّقِدَة، وحِسٍّ فُكاهيّ يجعل الحياة مُمتعة ومُثيرة.

ولكن ثَمَّة ثلاث صفات رئيسة يقدرها الرجال على صعيد عالمي أكثر من النساء. فالرجال يعطون أهميّة أعلى للمظهر الشبابيّ الجذّاب - أي يفضّلون النساء الشَابات - ويُشدِّدون على ضرورة الإخلاص الجنسيّ للنساء. من ناحية أخرى، تُعبِّر النساء عن تفضيلات أقوى للرجال الذين يملكون دخلًا ماليًّا عاليًا، فرص عمل جيدة، مَكَانة اجتماعيّة. تَكْمُنُ رغبات الرجال للقتل في صفات الجمال والشباب والإخلاص، بينما تَكْمُنُ رغبات النساء بالنجاح الاقتصاديّ والمَكَانة الاجتماعيّة الرفيعة للرجال. إذا ما نظرنا إلى هذه التفضيلات من حيث ضغوط التنافس التطوُّريّ التي يواجهها الرجال مقابل النساء

فسنجد هناك أسباباً جيدة جداً لما يريده كِلاهما.

بالرغم من أن تركيز الرجال بشكل أكبر على الجمال المظهريّ -الشبابيّ لأقرانهم المحتملين غالبًا ما يُعتبر سطحيًّا، إلا أن ثَمَّة أسبابًا أعمق لافتتانهم بهذه الصفات. كان هناك اعتقاد شائع بين عُلماء الاجتماع خلال القرن الماضي، يتمثل بأن معايير الجمال سطحيّة، وتعسُّفيّة، ومتفاوتة بدرجة كبيرة من ثقافة إلى أخرى. ومع ذلك، فإن العقد الماضي من البحث قَلَب هذا الرأي التقليديّ رأساً على عقب. لقد تبين بأن الجاذبيّة ليست مُجرَّد مسألة ظاهريّة. فالصفات التي يجدها الرجال جَذَّابة - مثل بَشرة نَاعمة نَقيّة من البقع، شعر لَمَّاع، تعضَّل صحيّ، ملامح منسقة، خصر ضيِّق ووركين ممتلئين بنسبة (0,70) - هي أجمعها علامات واضحة للصحة والشباب، ومن ثم الخصوبة.

تتماثل هذه المعايير لجمال الأنثى بنحو بارز عبر الثقافات، مع بعض الاستثناءات كتفضيل النحافة أو البدانة. وهكذا، وعلى مدار التطوُّر، ترك ذكور الأسلاف الذين رغبوا بالاقتران بإناث خصبات المزيد من النسل. بينما لم يترك الذين اقترنوا بإناث بلغن سن انقطاع الطمث أيَّ نسل. أما من اقترنوا بإناث تبدو عليهن علامات الصحة السيِّئة كالتقرُّحات أو الآفات على الجلد فقد تركوا ذُريّة أقل، لأن قريناتهم متن مبكراً، أو لم ينجبن أطفالاً أكثر، أو نقلن إلى أطفالهن أمراضاً مميتة. ومن ثم، أدى تكرار هذه العمليّة على مرِّ آلاف الأجيال إلى تطوُّر شَحذ دقيق لتفضيلات الذكور للإناث اللاتي أظهرن العلامات الدقيقة على قمة الخصوبة. الجمال هنا، وبإيجاز، يكمُنُ في تكيُّفات الناظر المتمعِّن[8].

إن القيمة العالية التي يوليها الرجال للإخلاص في قريناتهم تتعلق بنوع آخر من الضغوط التطوُّريّة الخاصة بهم. لا يستطيع الرجال ممن يتعرضون للخداع معرفة ما إذا كان أطفالهم هم أطفالهم أم لا (لم يمكنهم ذلك، حتى وقت قريب جدًا، عبر استخدام تقنيات كاختبار الأبوة). حقيقة أن الإخصاب البشريّ يحدث داخليًا في البويضة التي يحملها جسم الأنثى، يعني أن النساء متيقنات 100 % من أمومتهن - لم يحدث أبداً أن ولدت أنثى وتساءلت إذا ما كان هذا المولود طفلها أو لا - وإن الرجال غير متيقنين بالمرة. الرجل الذي لم يكن متأكدًا من أن شريكته مخلصةً معه، سيخاطر بتحويل عقود من وقته، طاقته، جهده، وموارده إلى أطفال مُنافِسٍ جنسيّ.

لقد انتهى المطاف بالذين لم يبالوا باتصالات نسائهم الجنسيّة برجال آخرين إلى تربية أطفال منافسيهم أكثر ممن لم يتقبلوا طموحات زوجاتهم. وبالتالي، لم ينحدر الرجال المعاصرون من اللامبالين، بل من الذين ناضلوا ونجحوا في الحفاظ على السيطرة الجنسيّة الحصريّة على زوجاتهم. وكما سنرى لاحقاً في الفصل الخامس، يرتبط عدد كبير من جرائم قتل النساء على يد الرجال برغبة السيطرة الجنسيّة. وأيضاً، يرجع عدد قليل من جرائم قتل النساء للرجال لتشدُّد أزواجهن التحكم فيهن: «حراسة القرين».

تدرك النساء، بالطبع هذه التفضيلات الخاصة بالرجال - بنحو لا واعٍ أكثر من واعٍ - ويعملن بجهد لإرضاء رغباتهم. هناك عموماً (للرجال والنساء) استراتيجيتان أساسيتان يمكنك أن اتباعهما عند التنافس ضِدّ أفراد جنسك: **يمكنك إما زيادة الرغبة الخاصة بك عبر اكتساب أو عرض الصفات التي يبحث عنها شريكك**

المحتمل، أو جعل منافسيك أقل جاذبيّة. تتبع النساء في جميع أنحاء العالم الاستراتيجيتين. إن أعمال المكياج والجراحة التجميليّة، والتي وصلت قيمتها لحوالي 70 مليار دولار، هي بالمقام الأول محاولات لزيادة جاذبيتهن. وأيضاً يمكن للنساء أن يكنَّ عازمات في جعل منافساتهن أقل جاذبيّة.

في أغلب الأحيان، تشوه النساء منافساتهن لفظياً. وبما أن الرجال يقدرون الإخلاص، فسوف يخضن مع بعضهن معركةً لإظهار هذا الإخلاص من خلال الطعن في إخلاصهنَّ. في دراساتي عن انتقاص المنافسين الجنسيين، وجدت أن النساء يمكن أن يصبحن شرسات للغاية فيما يتعلق بالانتقاص من الإخلاص الجنسيّ للأخريات، حيث وصفن منافساتهن بالعاهرات، القذرات، الفاسقات، واللقيطات[9]. وتطلق بعضهن أوصافًا غريبة صراحة **مثل زاحفة فراش، مؤخرة سريعة، مهبل مجاني، أفخاذ رخيصة، طبق لحم، صندوق بريد.** بينما تكون بعضهن أكثر دهاءً فتشيع أن منافستها عاشت مع عشاق كثيرين في الماضي، أو تنقلت بين زواجات متعددة، أو أنها مصابة بأمراض تنتقل بالممارسة الجنسيّة.

ولأن الذكور يقدرون الجمال للغاية، فقد ركزت العديد من أساليب النساء للانتقاص على جمال الصفات الجسميّة لمنافساتهن. لقد اكتشفنا أن النساء، أكثر بكثير من الرجال، يحاولن إذلال منافساتهن بنعتهن بالبدينات، والقبيحات، الفاترات. وقد يلفتن النظر إلى خصائص جسميّة مُحدَّدة كتَدلِّي الأرداف، ترهُّل الخصر، بدانة الأفخاذ، وغلظ الكاحلين. تكون هذه الأساليب فعّالة للغاية. وبالرغم من أن المرء قد يتوقع أن يقوم الرجال بتقييم مظهر النساء على ما يرونه فحسب

غير متأثرين بآراء الآخرين، إلا أن الدراسات قد أظهرت بأن الآراء الاجتماعيّة ممكن أن تؤثر فعلاً بتصوراتنا عن الجاذبيّة[10]. إن لفت الانتباه للنقص يزيد من أهميته في المجال الإدراكيّ للرجل، ويغير حرفيًّا الطريقة التي يدرك بها مستوى جمال المرأة. مع ذلك يمكن أن يتجاوز هذا التنافس بين النساء حدود الأساليب اللفظيّة[11]. ففي بعض الثقافات، وكما هو الحال في كينغستون، جامايكا، تقوم النساء برشِّ الأحماض الحارقة على وجوه منافساتهن لتتحول الجميلات لبشعات عن طريق نُدَبٍ تُظهرنَّ بنحو مخيف لمدى الحياة[12] التفسير المدهش التالي من دراستنا لخيالات القتل، يكشف عن أن النساء قد يُدفعن أيضاً إلى التفكير في قتل منافساتهن في ضراوة هذه المنافسة.

* **الحالة (89) أنثى، 19 عاماً**: كنت أعرفها منذ بضعة أعوام، وكنا صديقتين. ولكن بقدر ما عرفت عنها المزيد كانت تزداد شراً في نظري. كانت تستمتع بالسخريّة من مظهري، وهذا ما كنت خائفة منه في ذلك الحين. فعلت هذا يوميًّا تقريباً، حتى لم أستطع تحملها أكثر مما فعلت. أيضاً، لقد لعبت الأمثلة التي ذكرتها جزءاً من خيالاتي حول قتلها... أردت أن أقتلها بضرب رأسها بشيء كبير حتى تموت.

وهكذا، كما سنرى في فصول لاحقة، ومع أن قتل امرأة منافسة هو أمر نادر الحدوث، إلا أن الضغوط التي تواجهها النساء بسبب عُنْف التنافس على الأقران، يمكن أن تفسر العديد من الحالات التي تقتُل فيها النساء. لذا، دعونا الآن ننتقل لمسألة كيف يمكن أن يضغط ما تريده النساء في الأقران على الرجال بسوق الاقتران، ونفسر الأسباب التي تدفعهم للقتل.

كيف تثيرُ تفضيلاتُ النساءِ الرجالَ؟

كيف تُترجَم تفضيلات النساء إلى طرق تنافس للرجال، ولماذا يكون القتل إحداها؟

بالرغم من أن النساء أيضاً يقدِّرن المظاهر الجميلة في أقرانهنَّ، إلا أنهنَّ يعبِّرنَ عن تفضيل أقوى للرجال الناجحين وذوي المَكَانة العالية. السبب في هذا لا يعود لكونهنَّ سطحيات أو جشعات. بل يعود بالأحرى إلى مواجهة النساء لمجموعة من المشكلات التكيفيّة على طول تاريخ التطوُّر البشري التي توجَّب على الرجال حَلُّها. مفتاح الاختلافات هو: **حجم الاستثمار**؛ حمل المواليد لتسعة أشهر وإنجابهم.

ولأن النساء يستثمرنَ بكثافة في جلب الأطفال إلى العالم، فلديهن ورقة رابحة تمنحهنَّ قوة مساومة هائلة في لعبة الاقتران. شخص سيحمل طفلك في جسمه لمدة تسعة أشهر ويكرس فائضاً من السعرات الحراريّة لتغذيته عبر المشيمة، حتى أنه يسحب الكالسيوم من عظامه لمصلحة طفلك - سيمنحك موارد ذات قيمة تكاثريّة بالفعل. الرجال بدورهم يدركون ذلك جيدًا. غير أن النساء اللاتي يملكن هذه الموارد القيِّمة جداً لا تتخلى عنها بعشوائيّة. وعليه طوُّرت أمهات أسلافنا إلى أن يكنَّ انتقائيّات في اختيارهنَّ لأقرانهنَّ.

لقد تحدد نجاح الإناث التكاثريّ تاريخيًّا ليس بعدد الأقران، بل بالأحرى بالجودة الجينيّة للقرين الواحد، وبقدرته على جمع الموارد واستعداده لتوجيهها لهن ولأطفالهن. لقد ورثت جميع النساء الحديثات رغبات الاقتران هذه من أسلافهن الأمهات الناجحات.

هـذا الاختلاف الأسـاسيّ في البيولوجيا التكاثريّة تسـلل إلى نظام الاقـتران بأكملـه، لسـبب واحد: لأنه يفـسر لماذا كـرّس الذكور عبر التاريـخ المزيد من الطاقة لما يسـميه عُلماء البيولوجيـا التطوُّريّة «**جُهد الاقـتران**»، والمتضمـن ملاحقـة القرينـات وجذبهـنَّ ومغازلتهـنَّ، والتنافـس مـع الذكور الآخرين مـن أجلهنَّ. تصل الإنـاث، وبعُملة اللياقـة التكاثُريّـة، بسرعة إلى نقطـة «**تناقص العائـدات**»، جرَّاء كُلفة جهود الاقتران الباهظة. فمُجرَّد أن تجد الأنثى ذكراً تسعد به، فستروم الاستقرار معه بسهولة أكبر، وذلك لأن لياقتها تعتمد على جودة قرين واحد فحسـب وعلى اسـتثماره في أطفالها. بالنسبة لمعظم الإناث، فإن إضافة شريك جنسيّ قد لا يزيد من نجاحهن التكاثريّ، بل قد ينقصه (بالرغم من وجود اسـتثناءات مهمة، كأن يكـون قرينها عقيماً، أو إن كانت تتطلع لترك العلاقة، أو إن كانت تستطيع الحصول على جينات أجود من رجل آخر بالخيانة)[13].

إن النقطـة المفصليّـة بخصـوص تفضيـلات النسـاء، هـي أنـهن يحكمـنَ عـلى الرجال بالصفـات المتعلقة بقدراتهم على كسـب الموارد في المسـتقبل. وبما أن المَكَانة مرتبطة بالموارد، فإن الرجال ذوي المَكَانة العاليـة سـيصبحون محاطين بـهالة من الإغراء الجنـسيّ. التقط هنري كيسـنجر هذه البصيرة عندما أشار إلى أن «**السُّلطة، هي مثيرة للشهوة الجنسـيّة**»، وأشـار أيضاً: «**الآن صرتُ عندما أُملُّ الناس في الحفلات، يظنـون أن هذا خطأهم**». ومع أن هناك اسـتثناءات فرديّة، إلا أن هذا هو السبب وراء تفضيل جميع النساء في كُلّ ثقافة لمَكَانة الرجال.

مثـال صارخ لأهميّـة المَكَانـة في الاقتران، يأتي من دراسـة شـعب (السـيريونو) القاطنـين بشرق بوليفيـا. خسر رجل، وهـو صياد غير

ماهـر، عِـدّة زوجـات لصالح رجـال صيادين ماهريـن؛ **انخفضت مكانته**. لكن، عندما قام عالم الأنثروبولوجيا أ. هولمبرج، بالصيد معه وتعليمـه طريقة استعمال البندقيّة لقتل الطرائد، ثـم أعطاه كميّة لحم ليدَّعي أنـها نِتاج صيده، عاودت مكانته للصعود بشكل دراماتيكيّ. ليعود هذا الذكر «**مستمتعاً بمكانته العالية، وحصل على عِدّة شريكات جنسيات، ثم صار يذل الآخرين بعدما كانوا يذلونه**»[14].

إحدى النتائج المثيرة للاهتمام بشكل خاص، هي أنه على الرغم من أن الرجال لا يتنافسـون بقوة مثل النساء ليكونوا جذابين مظهريًّا، إلا أن جاذبيتهم تتأثر أكثر من جاذبيّة النسـاء من هيبة ملابسـهم وغيرها من التجهيـزات الخارجية. عندمـا أجرى عـالم الأنثروبولوجيا جون مارشـال تاونسند، دراسـة أرتدى فيها نفس الرجال ملابس وقبعات برجر كينغ، ثم بدلوها بقمصان مبتكرة وسـاعات رولكس، حكمت النسـاء على الأكثر أناقـة بأنـهم أكثر جاذبيّة. لقد صرَّحت عِدّة نسـاء ممن نظرنَ إلى صورة هذه الدراسة بأنهن لم يكنَّ ينوين مواعَدة أو إقامة علاقـات جنسـيّة، أو الزواج من الرجـال المرتدين ملابـس تَدُلُّ على المَكَانـة المنخفضـة[15]. ومع أن هذا يبدو واضحًا بدهيًّـا، إلا أنه لم يتم العثور على نتائج مماثلة للرجال ممن نظروا إلى النسـاء بملابس مختلفة. وبالفعـل، لم تتغير آراء الرجال بتغيير سـياق اللبس، فقد حكموا على نفـس النسـاء بجاذبيّة متسـاوية تقريباً بغض النظر عـن أناقة الملابس التي ارتدينها.

نتيجـة لهـذا التفضيل الأنثوي، يبذل الرجال جهـوداً أكبر لتحقيق هـدف التقدم في المَكَانـة. إن الرجال متعصبون لِـهَـمٍّ واحد: العمل. فهـم يفضلون الوظائف التي تَـدُرُّ عليهم أموالاً أكثر حتى وإن كانت

مرهقة جسميًّا، وتتطلب ساعات طويلة. لذا يختار الرجال أكثر من النساء الأعمال ذات الدخل الجيد، حتى وإن كانت تعني العيش في مدينة أكثر تلوثاً، إحصائياً[16]. وكما بَينت اختصاصيّة عِلم النفس، جاكلين إيكلس، من خلال بحثها، بأن الرجال يُظهرون «**تفانيًا أحاديَّ التفكير لدور المرء المهني**»، وأيضاً، «**التزاما مفرطاً بأعمالهم دون الاهتمامات الأخرى**»[17].

كذلك تكشف دراستنا للأساليب التي يستخدمها الرجال لجذب النساء، عن ميل الرجال للتركيز على استعراض المَكَانة والموارد[18]. فعندما يحاول الرجال إقناع النساء، فمن المرجح أن يستعرضوا إنجازاتهم، ويتحدثوا عن مدى أهميتهم بعملهم، ويلوِّحوا بالمال، وبقيادة سيارات باهظة الثمن، وأن يبالغوا في التأنُّق، ثم يلمِّحوا إلى آفاقهم المهنيّة المضيئة. وعلى الغرار ذاته، سينتقصون من منافسيهم بناءً على هذه الأنماط بالضبط. فمن الأرجح أن يستهزئوا من إنجازات منافسيهم، ويشيروا لافتقارهم للطموح والقيادة، ويصفوا ضُؤل وظائفهم، ورداءة سياراتهم، ومنازلهم، وحتى أحجام مسجلاتهم أو تلفزيوناتهم.

من بين الاختلافات العديدة في التنافس الجنسيّ بين الرجال والنساء، ثَمَّة تفاوت آخر مهم جداً: تحوُّل الرجال للعُنْف في لعبة الاقتران هذه. فالرجال، هم أكثر عرضة لضرب المنافس الذي «يعارضهم» أو يهينهم علانية، مما يؤدي لانتقاص المَكَانة. كما أن الرجال العاطلين عن العمل هم أكثر ميلاً لقتل من تزدهر أعمالهم. - «يُجنُّ» الرجال أكثر من النساء عندما يخسرون وظائفهم، مما يسفر عن انتقام عنيف لرؤساء عملهم أو مساعدي منافسيهم ممن اتهموهم

بالتسبب في تعثُّرهم. وأيضاً يمتلك الرجال دوافع أقوى لاستعراض العُنْف، كوسيلة للتفوق على منافسيهم بلعبة الاقتران. ولكن السبب الأساسيّ الذي يجعل الرجال أكثر ميلا إلى العُنْف، وخاصة القتل، هو أنهم يواجهون رهانات أكثر صعوبة بلعبة الاقتران من النساء. وذلك لأن هناك تفاوتًا كبيرًا بينهم في مسألة النجاح التكاثريّ.

ومع انتشار قصص عن نساء طاردن رجالاً مراوغين مؤخراً، تُظهر الدراسات أن معظم النساء في معظم الأجيال عبر معظم الثقافات يجدن في النهاية قرينا وينجبن أطفالا[19]. وعلى النقيض من ذلك، يُحرم المزيد من الرجال في كُلِّ جيل من التزاوج، بسبب حصول آخرين على إمكانيّة الوصول الجنسي للنساء، سواء كنَّ خليلات، شريكات، انتهازيات لمدى قصير، أو زوجات عديدات في المجتمعات التي تسمح بتعدد الزوجات. بمقابل كُلِّ رجل يحتكر عِدّة نساء، سيكون هناك رجال يضطرون إلى النوم بمفردهم. وبالتالي، سيملأ هذا التفاوت التكاثريّ الكبير تنافساً أكثر شراسة ضمن الجنس الواحد، وهذا ما أدى لانخراط القتل إلى ترسانة استراتيجيات الرجال[20].

في الواقع، إن التفاوت الكبير بين فرص الرجال التكاثريّة هو المدخل لمجموعة من الفروق الدقيقة بين الجنسين. فهو يفسر لماذا الرجال أكبر وأقوى من النساء؛ تنافسوا على أساس البراعة الجسميّة. ويفسر لماذا يصل الرجال سن البلوغ، في المعدل، متأخرين بسنتين عن النساء؛ لتعزيز شدة التنافس الجنسيّ بدلاً من الانخراط للقتال قبل أن يصبحوا مستعدين. ويفسر لماذا يُعرِّضُ الرجال أنفسهم لرياضات خطرة؛ لاستعراض شجاعتهم. ويفسر لماذا يموت الذكور

بالمعدل قبل 7 أعوام عن النساء؛ كتأثير تراكميّ للأنشطة التنافسيّة الخطيرة التي خاضوها لاستعراض قوتهم. والأهم، أنه يفسر لماذا طوَّر الرجال تكيفات للقيام بأعمال عُنْف متطرفة، والقتل أحدها، في بعض الظروف المتعلقة بالاقتران. - يمكن تفسير العديد والعديد من حوادث القتل بواسطة **عِلم النفس التطوُّري للتنافس التكاثريّ**، وهو تفسير أقوى بكثير من التفسيرات الأخرى لمعدلات القتل المرتفعة للرجال.

يمكن أن تكون مشاهد العُنْف المُدمية، والجروح النازفة، والعظام المكسورة، والأحشاء المقطعة، والأجسام الميتة مثيرة للاشمئزاز. لقد شعرتُ أنا شخصياً بالغثيان خلال تنقيبي في ملفات جرائم القتل المكتظَّة بصور الموتى لأسابيع. وعليه، لابُدَّ أن يكون من تسبَّبوا بتشويه هذه الجثث بنحو مثير للاشمئزاز، مختلين أساساً. لابُدّ أن تكون دوائرهم الدماغيّة مشوَّشة(*) تماماً بفعل صدمة بيئيّة، أو تراكم لمواد سامة، أو بفعل بعض الاختلالات الجينيّة. لابُدّ أن يكون القتل اضطراباً، أو خللاً وظيفيًّا، أو حالةً مرضيَّةً. كم سيكون من السهل فهم القتل إن كان الأمر كذلك!

لسوء الحظ، لا ينجح التفسير (المرضيّ لنا) للقتل ببساطة. - فصحيح أن هناك نسبة ضئيلة من الاضطرابات العضويّة لبعض الرجال العنيفين بشراسة، إلا أن الغالبيّة العظمى منهم سليمون عضوياً[21]. حتى في حالة القَتَلة الذي حوكموا بوصفهم مختلين، فإن العِلّة الصحيّة المفترضة لا تتعارض مع حقيقة أن التنافس الجنسيّ

(*) الدوائر الدماغية (brain circuits): شبكة أو مسارات عصبية متصلة تنتقل عبرها الإشارات الكهربائية والكيميائية. المترجم.

لا يزال يَكْمُن في قلب العديد من جرائم القتل. وكما أشار شكسبير في مأساة هاملت: «**هذا جنونٌ، إلّا أنه لا يمكن أن يوصف بشيء آخر**»[22]. يمكن أن يكون الذين يعانون من أمراض أكثر إقداماً على تنفيذ غضبهم القَاتل، مدفوعين بدوائر نفسيّة مثبَّتة بالفعل مسبقاً. - لكن أمراضهم هذه لا تفسر لماذا يملك البَشر دوائر قاتلة في الأَصْل.

وبالرغم من أن ثَمَّة القليل من الشكّ في أن الكحول يُقلِّل من الكبت ضِدّ العدوانيّة، إلا أن أكثر من ثلثي جرائم القتل والجرائم العُنْفيّة الأخرى، يتم تنفيذها من قبل أشخاص واعين [23]. وبالرغم من أنّنا في المجتمع الغربي نتعرَّض جميعًا لمشاهد الرجال الذين يرتكبون العُنْف أكثر من النساء، إلا أن نظريّة التعرُّض لوسائل الإعلام تفشل في تفسير لماذا الرجال ممن ينتمون لثقافات خالية تماماً من التعرُّض لوسائل الإعلام - كقبيلة كونغ سان بوشمن في بوستوانا، واليانومامي في فنزويلا، والآش في الباراغواي، والجيبوسي في شرق إفريقيا، والأسكيمو في ألاسكا - يُظهرون تحديداً اختلافات جنسيّة فيما يتعلق بالعُنْف. افتراض أن الرجال هم أكثر عُنْفاً من النساء بسبب كونهم أكبر وأقوى جسميًّا قد يفسر جزئيًّا سبب غلبة الرجال في عُنْفهم ضِدّ النساء. لكنه يفشل بتفسير سبب ارتكاب الغالبية العظمى من أعمال عُنْف الرجال ضِدّ رجال آخرين يتميزون بالضخامة والبنية الجسميّة القويّة. علاوة على ذلك، إن التذرع بالحجم الجسميّ كسَبَب يفشل بتفسير كون الرجال أكبر وأقوى في الأَصْل - لما جعل التطوُّر أجسام الرجال أكثر ضخامة، من أجسام النساء.

الأهم من ذلك، أن هذه التفسيرات غير التطوُّريّة تتضاءل عندما ننظر عن كثب إلى الطيف الأوسع من الرئيسيّات والثديَّات، حيث

سنجد ذات الاختلافات الجسميّة بين الجنسين مماثلة فيما يتعلق بالعُنّف الجسميّ. عندما نشاهد قردين من البابون (أو الرباح المقدَّس) يقتتلان بعُنْف، أو أيلَيْن يتناطحان بالقرون، أو اثنين من أسود البحر يُقطِّعان بعضهما حتى الموت، فسيتجلى واضحاً بأن فرضيات **«الحالة المرضيّة»**، **«التعرض لوسائل الإعلام»**، أو **«أساليب التربية»** لا تصل إلى جوهر المسألة.

كيف يا ترى إذاً تُفسّر ضغوط منافسة الاقتران التي يواجهها الرجال بشكل أفضل لأنماط عُنْف الذكور؟ فكِّر في ذكرٍ لا يملك سوى القليل من الموارد، ومَكَانة اجتماعيّة ضئيلة، لذا سيكون غير جذّاب تماما بالنسبة للإناث.

وبالتالي، ولأنه يفتقر إلى ما تريده الإناث، فستقل قيمته إلى أن يتحول لعديم القيمة تكاثُريًا. إنه لا يملك شيئًا ذا قيمة، لذا ليس لديه ما يخسره. ومن ثم، سيكون العُنْف وسيلة مغرية لتحسين آفاقه[24]. إنه سيكون وبلغة الاقتصاديين **باحثًا عن المخاطر أو محُبًّا للمخاطرة**. لرُبَّما يأخذ مسدساً ويسرق متجراً، أو يتحدى ذكراً في شجار ليزيد من مكانته وسمعته. إن العُنْف هنا يمنحه فرصة لتغيير مصيره. اللجوء لوسائل العُنْف على مدى الزمن التطوُّريّ، قد أتاح للذكور قدراً من الموارد، أو الاحترام، أو استمالة الشركاء الجنسيين حتى ولو مؤقتاً، وعليه، فضَّل التطوُّر تكيُّفات خاصة باستراتيجيات تنفيذ العُنْف. هذه إحدى التفسيرات الجيدة لحقيقة أن المحاربين والمغامرين والمستكشفين، طوال تاريخ البشريّة، قد خرجوا من صفوف الرجال الذين لديهم القليل من الاستراتيجيات البديلة للحصول على مزايا المَكَانة والموارد[25]. وهو أيضاً يُفسر لماذا يلجأ الرجال المحتلون من

ذوي المكانة المتدنية في السُلّم التكاثريّ إلى العُنْف[26].

أثبتت الاستراتيجيات المحفوفة بالمخاطر تاريخيًّا أيضاً، أمكانيّة الحصول على مركز مُهيمن للذكور. تأمل قصة الغازي المروع جنكيز خان (1167-1227)، والذي استعمل القتل كاستراتيجية للارتقاء إلى القمة. لقد استمتع صراحة بالنفوذ الجنسيّ الهائل الذي حصل عليه من القبائل التي غزاها: «**أعظم سعادة للمرء هي بقهر أعدائه، بسَوْقهم أمامه، بأخذ ثرواتهم، بالتلذُّذ بيأسهم، بركوب خيولهم، وباغتصاب زوجاتهم وبناتهم**»[27].

بالطبع، لا يوصل القتل أحدهم إلى القمة في الحضارة الغربيّة الحديثة إلا نادراً، وهذا بسبب العقوبات القانونيّة الصارمة، وقوى الشرطة المدرَّبة جيداً. ولكن، لم يتطوَّر الرجال في بيئة حديثة تتميز بقوانين جزائيّة للعقوبات. بل بالعكس، لقد تشكلت نفسيتنا في أعماق البيئة التطوُّريّة التي كان العُنْف فيها، بشكل مدهش، ذا عواقب جيدة.

كان القتل، من أجل الوصول إلى المَكَانة العالية إحدى الوسائل الفعالة في منافسة الذكور للاقتران عبر الثقافات، وطوال التاريخ التطوُّريّ البعيد. لقد تدفقت هذه المنافع الجنسيّة تاريخيًّا على القَتَلة المنتصرين كما لاحظنا في التاريخ المسجل، وفي نصوص الكتاب المقدس. هذه الآية من العهد القديم هي أحد الأمثلة على ذلك: «**فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ، وَاقْتُلُوا كُلَّ امْرَأَةٍ ضَاجَعَتْ رَجُلاً، وَلَكِنِ اسْتَحْيُوْا لَكُمْ كُلَّ عَذْرَاءَ لَمْ تُضَاجِعْ رَجُلاً**»[28].

قد يعتقد المرء أن القتل هنا سيكون منعطفاً كبيراً للنساء، وكما

أشـار الكاتب غور فايدال: «**تنجذب النساء للقوة على الدوام. معظم النسـاء لا يكذبـن طوعاً مضاجعـة غازٍ دمويٍّ على أمـل إنجاب طفلٍ يكون شرساً تماما كأبيه**»[29].

ومـن المثير للدهشـة، أنه حتى في هـذه الأيام يبقـى القَتَلة المُدانون جذابـين بقـوة لبعض النسـاء. غُمِرَ سـكوت بيترسـون، الـذي أدين بقتـل زوجته وطفلهـا الذي لم يولد، بمئات رسـائل الحُـبّ وطلبات الـزواج[30]. أمـا القَاتـل المتسلسـل، تيد بانـدي، فـقد اسـتقبل آلاف الرسـائل وتزوج بإحداهن في السـجن. بينما يستمر السفاح المحترف شارلز مانسون بجذب النساء.

لم يكن القتـل لتحقيق المَكَانة الاسـتراتيجيّة القَـاتلة الوحيدة التي اسـتخدمها الرجـال طـول الوقـت للتفوُّق بلعبـة الاقـتران. بل كان إحدى الوسائل لمنع المنافسين بظفر الشريك الجنسيّ والتخلص منهم. وكما سـنرى في الفصول القادمـة، فإن كُلَّ هذه الدوافـع تُظهر بأنماط جرائم القتل التي يرتكبها الرجال.

تـم اختيار هذا التفـاوت الكبير في نجاح الاقـتران للرجال، جيلاً بعـد جيل، وعلى مـرِّ التاريخ التطـوُّريّ، كاسـتراتيجيّة عنيفة لتجنب تـدنّي المَكَانة الناتج عن البقاء بلا شريك، وللنجاح في الوصول للقمة في لعبة الاقتران. لقد كانت الضغوط شديدة على الرجال والنساء على حدٍّ سـواءٍ، لكـن الدوافع للانخراط بالعُنْف كانـت أعلى في الرجال؛ طوّر القليل روادع ضِدّها.

تُقدم ضغوط تنافس الاقتران هذه بكونها دوافع قويّة وراء العديد مـن جرائم القتل، تفسـيراً مقنعاً للأنماط التي لاحظناها سـابقاً فيمن

يقتل من ومتى. وتفسر لماذا يقتل الرجال رجالاً آخرين في معظم الحالات، ولماذا يكون ضحايا جرائم القتل غالباً رجالاً في ذروة أعوامهم التكاثريّة، ولماذا يرتكب العديد منهم بهذه الأعمار معظم جرائم القتل، ولماذا يكون القَاتل معروفاً لدى الضحيّة في معظم جرائم القتل. كما إنها أيضاً، وللمفارقة، تفسر لماذا تُرتكب العديد من جرائم القتل من أجل الحُبّ. الموضوع الذي سنستكشفه في الفصل التالي.

الفصل الرابع

عندما يقتل الحُبّ

«إن كنتِ لا تنوين العيش معي... فلن أدعكِ تعيشين بالمرة»

~ قيلت من رجل لامرأة قبل أن يرديها قتيلة [1]

في مساء الرابع والعشرين من يوليو عام 2002، هوستن، تكساس، ركبت كلارا هاريس البالغة 44 عاماً سيارتها المرسيدس وقتلت زوجها دافيد هاريس اختصاصيّ تقويم الأسنان البالغ 44 عاماً داخل موقف سيارات فندق [2]. لقد استعملت سيارتها كسلاح، دعسته مرة. لكن غضبها لم يهدأ، فدارت حول الموقف ودعسته مرة أخرى. اختلف الشهود حول عدد المرات التي دعست بها زوجها بسيارتها التي يبلغ وزنها 4 آلاف رطل. ذكر أحدهم أنها دعسته خمس مرات، بينما ذكر آخر بأنها كانت أربع مرات، وآخر بأنها ثلاث مرات، وآخر بأنها كانت مرتين. لكن الشريط المصور بواسطة كاميرات الفندق أثبت أنها كانت ثلاث مرات. وعندما انتهت، كانت أوقفت السيارة على جثته. رأى البعض بأن كلارا هاريس شريرة وتستحق أن تُزجَّ في السجن لبقيّة حياتها. بينما رأى البعض الآخر أن هذا القتل له ما يُبرِّره، أو قابل للفهم على الأقل.

لقد كان الزوج دافيد هاريس، على علاقة جنسيّة غراميّة مثيرة مع زميلته السابقة في العمل، جِيل بريدجز. اكتشفت كلارا هاريس خيانة زوجها بواسطة، **تحقيقات القمر الأزرق**، وهي وكالة خاصة لأجراء التحقيقات استأجرتها بعد أن بدأت تشكّ. لتتيقَّن خيانة

زوجها وواجهته. ديفيد قد أقسم في صباح اليوم الذي قُتِل فيه، على إنهاء علاقته بجِيل. ولكن، في وقت لاحق من تلك الليلة، بدأت كلارا، مع ابنة زوجها ليندسي، في البحث عن ديفيد. وعندما عثرتا عليه أخيراً في أحد الفنادق وفقاً لليندسي قالت كلارا: «**سأقتله، وأفلت من العقاب لما مررت به من جرَّائه**».

في الواقع، لقد بذلت كلارا جهوداً كبيرة لاستعادة زوجها بعدما اكتشفت خيانته قبل عِدّة أسابيع من الحادثة. كانت كلارا ملكة جمال سابقة، لكن بعد اكتشاف القضيّة، جلس دافيد معها وبدأ يقارن بين ميزاتها وميزات حبيبته الأخرى. وصف دافيد زوجته بأنها تعاني من الوزن الزائد، ووصف عشيقته بأنها رشيقة و«**ملائمة جداً للمضاجعة والاحتضان طول الليل**»[3]. بدا دافيد مولعًا بثديي عشيقته الممتلئين، ووصف جسمها بالمثالي، مع أن لدى كلارا عينين ويدين وقدمين أجمل بكثير. قالت ليندسي، بأن كلارا تعهدت لأبي بجعل نفسها «**جميلة كما يريد وأفضل من جِيل**».

وبالفعل، انضمت كلارا في الأسبوع الذي سبق الجريمة، إلى نادي لياقة باشتراك بلغ ألف وخمسمائة دولار في العام، وقضت وقتاً في صالون للسُمْرة، وذهبت يومياً إلى مُصفف شَعر. كما أنها استشارت جراحًا تجميليًّا ووافقت على دفع خمسة آلاف دولار لعمليّة شفط الدهون وتكبير الثديين. وحتى يوم الجريمة، كانت كلارا قد فقدت حوالي خمسة عشر رطلاً، وصار شعرها لمَّاعا، وبدأت ترتدي ملابس مُثيرة جنسيًّا أكثر.

قد يكون السبب في تضاعف غَيْرة كلارا الشديدة هو أنها لم تلاقِ

أيَّ اهتـمام. أو قـد يكون بسـبب نفس الفندق الـذي تزوجت فيه من دافيد قبل عشرة أعوام في يوم عيد الحُبّ. عندما لمحت زوجها خارجا من مصعد الفندق ويده ممسكة بيد عشيقته، استشاطت كلارا غضباً، وصرخت بوجه منافِستها: «**إنه زوجي!**» ثم مزقت بلوزتها وصرعتها أرضـاً. لقـد حاولـت أن تؤذيهـا أكثر، لكـن زوجها حـال بينها وبين عشـيقته. وفقاً لأحد الشـهود قـام دافيد بصفعها ودفعهـا إلى الوراء. بعدها حاول أمن الفندق إخراج كلارا من الفندق. وبينما كانت تغادر الردهة صاح دافيد: «**لقد انتهى كُلُّ شيء! انتهى!**».

بعدئذ، هدأت كلارا بشـكل غريب، كـما ذكرت ليندسي، والتي رافقتهـا إلى خـارج الفندق. ركبت سـيارتـها المرسـيدس بصمت. وتوقفت دموعها عن الانهمار. مشـى دافيد إلى سـيارته الشـيفروليه في موقـف السـيارات وظن الجميع أن الـصراع انتهى. كانت كلارا هادئـة ورزينة، لكنها داسـت فجأة على مسرِّع السـيارة الذي جعل صـوت الإطـارات يرتفـع ثـم ألقت بثقـل سـيارتها عـلى زوجها، ودارت حول الموقف وعادت ودعسـته مرة أخرى. ثم، دعسته مرة أخرى. حاولت ليندسي الخروج من السـيارة، لكنها لم تستطع حتى أوقفت كلارا السـيارة. وحينئذ صرخت ليندسي: «**ماذا فعلتِ، لقد قتلتِ أبي**».

وفقاً لأحد الشـهود، نزلت كلارا من السـيارة بينما كان دافيد تحت الإطـار الأماميّ، اعتـذرت وأخبرتـه بأنـها أحبته. وأثناء المحاكمة، أكدت كلارا بأنـها لم تزل تحب زوجها. في ظل هذه الظروف، لا يرى الكثيرون في تكساس، أن ما أقدمت عليه كلارا، فعلٌ شريرٌ. بل يرى بعضهم أن دافيد لاقى ما يستحقه تماماً. ولكن القاضي وهيأة المحلفين

لم يكونـوا في صفهم ووقفوا في صف المدَّعي الذي قال لـها: «**إن كان الرجل يخونـك، فافعلي ما تفعله أيُّ امرأة في هذا البلد، خذيه لمختص يحلّ مشـاكلكم... لا يمكنك قتله!**»[4]. حُكِم على كلارا بالسجن لمدة 20 عاماً، وغرامة عشرة آلاف دولار. وفـي 16 ديسـمبر عام 2004، أيدت محكمة ولاية تكساس استئناف إدانتها.

مشـاعر الغَيْرة هذه، والتي دفعت كلارا لمهاجمة منافِسـتها الجنسيّة في ردهـة الفندق، ليسـت فرديـة من نوعها، وكذلك غضبُها الشـديد عـلى زوجها بعد أن اكتشـفت خيانتـه. بل حتى حقيقة أنهما قد عاشـا حياة فوق المتوسطة اقتصاديًّا في منزل من القرميد الأبيض يُقدَّر بأكثر من سـتمائة ألف دولار بمدخل دائريٍّ وحوض سباحة. تتفاعل جميع النسـاء، ومـن مختلف الطبقـات، بغضب شـديد عندما يكتشـفن أن أزواجهـن يخونونهن. معظمهنَّ لا يطاوعن العواطف القَاتلة، بعكس الرجال - سنستكشف في هذا الفصل الأسباب.

إن ألغـاز القتـل ودرامـا الجريمة، ناهيـك عن أخبار المسـاء، التي تعـرض يوميًّا عـلى التلفزيون، قـد عممت فكرة الجريمـة العاطفيّة- عندمـا يُقْـدِم رجـل أو امرأة على قتـل شريكه العاطفيّ، أو «العشـيق الآخـر» الـذي أقـام معه الشريـك علاقة غراميّـة. يبـدو واضحاً بأن الدوافـع في مثـل هـذه الحـالات هـي: الغَـيْرة والانتقـام والرغبة في الاقتصاص - **القتل هو ثمن الـهجران**. هذه العواطف عادةً تصاحـب هـذه الجرائم، كما تؤكد روايات القَتَلة الذيـن ارتكبوها. ذكر أحدهم من دراسـتنا لقَتَلة ميشـيغان: «**كنت أحبها بشـدة وكانت تعلم ذلك. لكنـي تفجـرت غضبـاً عندما كانت مـع رجل آخر.**» بينما شـبَّ آخر غضباً بسـبب الغَيْرة عندما كان يضاجع زوجته ذات ليلة فسألته: «**ما**

هو شعورك حينما تضاجعني مباشرة بعد رجل آخر؟» فأحاط حلقها بيديه وخنقها على الفور.مكتبة سُر مَن قرأ

بالرغم من ذلك، وبعد تفكير عميق يجب أن نسأل أنفسنا لماذا تدفع هذه العواطف شخصاً ما إلى قتل شخص في موضع المودة الشديدة؟ لماذا يود أحدهم أن يرى ذلك الشخص ميّتاً؟ لرُبَّما يكون التفسير ببساطة هو، **تحوُّل الحُبّ إلى كراهية**، لكن، وكما كشفت العديد من الحالات التي درسناها، يبقى الكثير من القَتَلة مُحبين لضحاياهم. خذ هذا الاقتباس القادم من اعتراف رجل يبلغ من العمر - 31 عاماً، طعن زوجته البالغة 20 عاماً حتى الموت، حينما عادا إلى بعضهما بعد انفصال دام 6 أشهر:

* «قالت لي بعد عودتها في شهر أبريل، بأنها ضاجعت شاباً حوالي 10 مرات. قلت لها كيف لكِ أن تتكلمي عن الحُبّ والزواج وأنت تضاجعين غيري. استشطت غضباً. وذهبت إلى المطبخ وتناولت سكيناً. ثم عدت إلى غرفتنا وسألتها: هل كنت جادة عندما أخبرتِني بهذا؟ فقالت نعم. فتنازعنا على السرير، وطعنتها. جاء جَدُّها وحاول أن يأخذ السكين من يدي. قلت له أن يذهب ويبلِّغ عني الشرطة. أنا لا أعرف لم قتلتها، آه. كم أحببتها بالفعل»[5].

هكذا، وكلما درسنا البيانات المتعلقة بجرائم قتل الشركاء الجنسيين، وكلما نقَّبنا في حالات القتل الفعليّة وخيالات القتل التي تخيلها أشخاص فكروا في قتل أحبابهم. اكتشفنا أنماطا مُميزة تشير إلى وجود «منطق» نفسيّ أكثر عُمقاً. أحد هذه الأنماط الصادمة هو **الفرق**

الكبير بين الجنسين. من خلال ما قرأناه في الفصول السابقة، يمكننا التوقع أن يقتل الرجال النساء أكثر من أن تقتل النساء الرجال، وهذا صحيح. ليس هذا فحسب، بل إن نسبة جميع جرائم قتل النساء على أيدي عشاقهِنَّ مرتفعةٌ بشكل مذهل.

في الولايات المتحدة الأميركيّة وحدها بين أعوام (1976 -1984)، قُتلت (4507) نساء سنوياً في المعدل[6]. لا تكشف الإحصاءات الفيدراليّة عن الدوافع الكامنة في جرائم القتل، غير أن الدراسات التفصيليّة لمناطق معينة تكشف عن أن الغالبيّة منهن تم قُتلن على أيدي رجال أحبُّوهن بشدة. وجدت دراسة أخرى أجريت على جرائم قتل النساء في دايتون بولاية أوهايو، ولمدة 5 أعوام، نسباً أنموذجيّة لمثل هذه الدراسات: 19 % قتلن بواسطة أزواجهن، 8 % قتلن بواسطة أحبابهن الحاليين، 17 % قتلن بواسطة أزواج منفصلين عنهن، 8 % قتلن بواسطة شركاء جنسيين سابقين. مجموع هذه النسب وصل إلى 52 % من كُلِّ جرائم القتل. بينما قتل 3 % فقط من الرجال من قبل عشيقاتهم سنوياً، وهذا يدل على الفرق بين الجنسين بهذه الجرائم.

وفي دراسة شاملة لجرائم القتل التي ارتُكبت داخل الولايات المتحدة الأميركيّة بين أعوام (1976 -1998) وُجِد أن أكثر من ثلث النساء قتلن على أيدي شركائهنَّ العاطفيين - وهذا بالطبع أقل من المعدل الحقيقي إذا ما أخذنا بالاعتبار قرابة ثلث القَتَلة لم يُعثر عليهم أبداً. في المقابل، وفي نفس الدراسة وُجِد أن 4 % فقط من الرجال قتلوا على أيدي زوجاتهم أو عشيقاتهم[7]. هنالك إحصاءات مماثلة منتشرة في جميع أنحاء العالم، من السكان الأصليين الأستراليين وإلى قبائل الموندا في الهند[8].

في إحدى الدراسات الأكثر تفصيلاً التي أُجريت في خمسينات القرن الماضي، نشر اختصاصي الجريمة مانفريد غوتماخر، تحليلاً لخمسين جريمة قتل بين الأزواج[9]. تميزت هذه الدراسة بتتبعها لحالات القتل المتسلسلة للعوائل في مدينة بالتيمور. 25 حالة من هذه الحالات كانت مدفوعة بما يسميه مارتن دالي ومارجو ويلسون «**الملكيّة الجنسيّة الذكوريّة**»[10]. بينما كانت 14 حالة جرَّاء هجرِ الزوجة لزوجها من أجل شريك جنسي جديد، 11 حالة جرَّاء الجنس غير الشرعي للمرأة (5 حالات) الغَيْرة المرضيّة للزوج (4 حالات)، واشتباه بالزنا (حالة واحدة)، وعناق شهوانيّ لزوجة رجل مع رجل آخر (حالة واحدة).

عندما تقتل النساء شركاءهن الجنسيين. فغالبًا ما تلعب الغَيْرة الجنسيّة للذكور دورًا رئيسا أيضاً، تقتل النساء باطراد للدفاع عن أنفسهن ضِدّ رجال غاضبين بسبب خيانة أو خروج المرأة من إطار العلاقة الغراميّة. توضح الحالة التاليّة هذا الموضوع المشترك:

* «تحرَّش أحد الرجال باستمرار بزوجته السابقة. كان يعود إلى المنزل عِدّة مرات بعد طلاقها بأشهر ليتحدث إليها بعُنْف. قامت في النهاية بشراء مسدس لحماية نفسها واحتفظت به في غرفة نومها. وكما أكَّد أطفالها المراهقون، عاد الزوج السابق إلى المنزل وسمح له أحد الأطفال بالدخول فقام بمطاردة زوجته السابقة إلى غرفة النوم حيث أغلقت على نفسها الباب. كسر الباب واقترب منها مع أنها كانت تحمل المسدس وتحذِّره بأنها ستطلق إن اقترب منها أكثر. استمر في الاقتراب فأطلقت رصاصة باتجاه السقف لكن هذا لم يردعه. لتطلق

النار عليه وتقتله. أُدينت بالقتل المتعمد وحُكِم عليها بعشرين عاماً في السجن»[11].

وفي دراسة أخرى لجرائم قتل الزوجات، والتي حدثت في مدينة كنديّة لمدة اثنين وعشرين عاماً، ثبت أن دافع القتل في 63 % من الحالات هو الانفصال الذي تبدؤه الأنثى[12]. وفي دراسة لجرائم قتل الزوجات في ويلز الجنوبيّة الجديدة بأستراليا في القرن التاسع عشر، كان قرابة نصف النساء الضحايا منفصلات عن أزواجهن عندما قتلن[13]. بينما كشفت دراسة أخرى في أستراليا في القرن العشرين أن 45 % من 217 ضحيّة، هجرن أزواجهن أو كن يُنهين إجراءات الانفصال من الزوج عندما قتلن[14].

تقدم دراستنا لـ 429729 جريمة قتل من قاعِدة بيانات مكتب التحقيقات الفيدرالي تفاصيل أقل عن دوافع القتل، لكنها تقدم دليلًا مُفصَّلا على نفس الأنماط[15]. في هذه العينة الكبيرة، وجدنا 13670حالة قتل الزوج فيها زوجته الشرعيّة. وفي الحالات التي تضمنت المعلومات عن حالات قتل الزوجات كانت الحالة الأكثر شيوعاً هي ما عنوَنتها قاعِدة البيانات الفيدراليّة **«ثلاثيّة الحُبّ»**. ومع أن حساسيّة هذه الفئة لا تسمح بمعرفة ما حدث بالضبط في كُلِّ حالة، إلا أن معظم الحالات كانت إما زوجاتٍ يهجرن أزواجهن من أجل رجل آخر، أو خيانةً جنسيّةً من جهة المرأة، أو الاثنين معاً.

أما الدراسة التي أُجريت في شمال كارولاينا لـ 293 امرأة قُتِلن على يد أحبائهنَّ بين أعوام (1991 - 1993) فقد كشفت عن أن 43 % منهن قتلن بعدما هجرن شركاءهن أو حاولن أو هدَّدن بهجرانهم[16].

ووجدت دراسة أجريت في أنتاريو بكندا أن 32 % من 551 جريمة قتل شريك عاطفيّ حدثت في سياق الهِجران أو الانفصال، و11 % كان دافع القتل هو الشكّ أو اكتشاف الخيانة الجنسيّة[17]. إن هذه الأعداد تقلل من قيمة المعدلات الحقيقيّة، وهذا يعود إلى غياب المعلومات عن الظرف والحالة في العديد من تقارير الشرطة. يعتقد بعض الخبراء أن النسبة الحقيقة للنساء اللاتي يُقتلن على أيدي شركائهن تتراوح بين 50 إلى 70 %[18]. وبالاستناد إلى مجموع الأبحاث التجريبيّة يكون من الواضح أن هجران الزوجة يشكل دافعاً أقوى لقتلها من خيانتها. بالنسبة لبعض الرجال، وبعُمْلة التكاثر التفاضليّ، تعد خسارة الشريكة، ولاسيما لصالح منافِسٍ جنسي، مشكلة تكيفيّة تنظر إلى القتل فيها حلاً معقولاً.

الأدلة عبر الثقافات هي شحيحة، لكن العديد من الدراسات من إفريقيا تدعم هذا الدافع. في إحدى الدراسات لثمانٍ وتسعين جريمة قتل في قبيلة باسوجا، القاطنة بأوغندا، وُجِدت 42 حالةً، قَتَلَ الرجالُ فيها النساءَ. وفي جميع الحالات تقريباً، كانت الضحيّة زوجة أو زوجة سابقة. وفي 32 حالة من هذه الحالات، وصفت الشرطة دوافع القتل على النحو التالي: الثلث بسبب البِغاء والثلث بسبب هجران الزوجة أو الامتناع عن ممارسة الجنس والثلث لأسباب مختلفة مثل الخصام[19]. وفي دراسة مستعُمْرة الكونغو البلجيكيّة، استنتج الباحثون أن غَيْرة الرجال الجنسيّة كانت السبب في 59 % من 275 جريمة قتل. ومن بين هؤلاء قتل 16 رجلاً زوجاتهم بسبب الخيانة، و13 بسبب طلبهن أو التهديد بالطلاق، و3 بسبب الشركاء الجدد لزوجاتهم.

يمكن أن تفسِّر نظريتي التطوُّريّة حول القتل سببَ شيوع قتل الحبيب. إنَّنا نميل إلى التفكير عن دوافعنا لحُبّ أشخاص ما بطريقة مُحدَّدة بشكل كبير، مركِّزين على امتيازاتهم الخاصة أو كيف تكمِّل صفاتُهم صفاتِنا. إنَّنا نحبهم لأنهم هم، نحب حسهم الفكاهيّ وخِفّة ظلهم وشخصياتهم المتألقة وجاذبيتهم الجسميّة. لا تزال العمليّة الخيميائيّة التي يقع بها شخصان بالحُبّ لغزاً حتى بعد أعوام طويلة من البحوث العلميّة. ولكن، دراسة الحُبّ في ظل عِلم النفس التطوُّريّ قد أفضت نتائج قويّة عن دوافع عامة وأنماط كامنة وراء سبب وقوعنا في الحُبّ ومن نحب. إن هذه الاكتشافات لديها الكثير لتقوله عن الأسباب التي تجعل الحُبّ يتحول إلى عاطفة قاتلة. أحد اكتشافات عِلم النفس التطوُّريّ البارزة حول الحُبّ، ومع أنها قد تكون مزعجة نوعا ما، هي مدى تحكمه بتعليمات الانتقاء الجنسيّ.

تطوُّر الحُبّ

لم يكن شعراء أوروبا الغربيّة، وعلى نقيض الأساطير الشائعة المنتشرة في العلوم الاجتماعيّة في القرن العشرين، من افتعلوا الحُبّ قبل بضعة قرون. الأدلة تشير إلى استنتاج مناقض تماماً: فالحُبّ ظاهرة ثقافيّة مشتركة وعالميّة، كانت على الأرجح منذ انبثاق الروابط طويلة المدى بين الشركاء في تاريخ التطوُّر البشري. من قبائل الزولو في جنوب إفريقيا، وإلى الإنويت (الأسكيمو) في ألاسكا، مرَّ أفراد هذه القبائل بتجربة الهوس بالتفكير وشغف المشاعر التي ترتبط بالحُبّ في العالم الغربي.

في مسح شمل 168 ثقافة مختلفة، وجد عالم الأنثروبولوجيا ويليام جينكوياك، دليلا قويًا على وجود الحُبّ الرومانسي في 90 % منها[20]. - وفيما يتعلق بـ 10 % المتبقيّة، كانت الأدلة الأنثروبولوجيّة سطحيّة للغاية بالنسبة للاستنتاجات النهائيّة. وعلى حد تعبير إحدى نساء قبيلة الكونغ من بوستوانا: «**عندما يلتقي شخصان للمرة الأولى، يشتعل قلباهما ناراً، ويتسع شغفهما للعنان. وبعدئذ، يواصلان حُب بعضهما بطريقة مختلفة: دافئيْن ووفيَّين**»[21].

لم يقتصر الحُبّ الرومانسي بكونه عالميًّا فحسب، لكن وبالرغم من الانطباع الذي اكتسبناه من انتشار خدمات المواعدة، وكتب نصائح المواعدة، وبرامج المواعدة التلفزيونيّة، فإنَّنا جيدون جداً بالعثور على أشخاص نقع بحبِّهم - مع صعوبة الارتباط والبقاء على تواصل معهم. قامت اختصاصيَّة علم الاجتماع سو سبريشر وزملاؤها، بإجراء مقابلات مع 1667 رجلاً وامرأة من روسيا واليابان والولايات المتحدة. وجدوا أن 61 % من الروسيين و73 % من الروسيات كانوا يعيشون قصة حب. بالمقارنة مع اليابانيين، كانت نسبة الرجال 41 % ونسبة النساء 63 %، وبالمقارنة مع الأميركيين، كانت نسبة الرجال 53 % ونسبة النساء 63 %[22].

الحُبّ شيءٌ رائعٌ. إنه كدواء سحريّ. - لكنه أيضاً يفجع القلوب. وعندما تسوء الأمور أكثر، فإنه يتحول لكابوس مُدمِّر وحارق. قد يبدو غريباً أن نسأل لماذا لدينا هذه المشاعر. ولكن، لو تفحصت الأمر عن كثب، فستجد أن الحُبّ مليء بالمشاكل وغالبا ما يكبِّد حياتنا خسائرَ باهظة. سيكون من الجيد لو تساءلنا لماذا، وعلى مدار تطوُّرنا، كان هذا الحُبّ الشديد مِيْزة؟ إن كان الحُبّ شعورًا عالميًّا، فلماذا ثبَّته

التطوُّر في الدماغ البشريّ؟ ستقودنا الإجابة على هذا السؤال إلى الدوافع التي تجعل العشاق يقتلون أحباءهم.

يتمثل أحد أهم التطوُّرات الأساسيّة، وعلى طول تطوُّر نوعنا البشري، من أسلافنا من الرئيسيات البدائيّة بإخفاء وقت الإباضة. لقد شكَّلت هذه الظاهرة دافعاً قوياً للاقتران طويل المدى، بعكس الاقتران قصير المدى الذي تميز به الأسلاف قبل البشريّة، ويميز حالياً أنواعا كثيرة من مملكة الحيوان (مع استثناءات ملحوظة كببّغاء الحُبّ وأنواع طيور أخرى). إن لم تتمكن من معرفة متى تقوم الأنثى بالإباضة، فلابُدّ أن يتطوَّر نظام آخر للتحريض على الاقتران. ومع أن هناك تغيرات جسميّة خفيفة تحدث لجسم الأنثى - تورُّدٌ طفيفٌ في الجلد، زيادة غير محسوسة برغبتها الجنسيّة - لكن يوجد ثَمَّة أدلة على أن الذكور يمكنهم تمييزها عند الإباضة. وهذا هو السبب الذي جعل أسلافنا يمارسون الجنس بنحو متواصل طوال دورة الإباضة، أكثر مما يوجد في معظم عالم الحيوان.

لابُدَّ أن هذا الحدث كان مفتاحاً لتطوُّر الروابط الزوجيّة طويلة المدى، والاستثمار المكثف للذكور والإناث معاً في ذُريَّتهم. ففي معظم الثديّات والأنواع الرئيسة، يبذل الآباء جهداً قليلا لإطعام، أو تنشئة، أو رعاية ذُريَّتهم. ولكن عند نقطة ما في تاريخ التطوُّر البشري، بدأ الآباء في تقديم مساهمات كبيرة في تنشئة أطفالهم؛ يدَّخرون اللحم لإمداد الأطفال. - جاء هذا التكريس على المدى الطويل للوقت والموارد والحماية التي قدمها ذكور لأطفالهم، بتكلفة صريحة لعدم السعي وراء زوجات الشركاء لُمجرَّد إخصابِهِنَّ. ونظراً لميزانيات الوقت والطاقة، لم يمتلك معظم الآباء المخلِصين الموارد

النفسيّة لمطاردة المزيد من الإناث. يدرك الذكور تمامًا تَوَتُّرات هذه المقايضات - جهود الأبوة وبلغة عُلماء الأحياء التطوُّريّة، ستكون على حساب جهود الاقتران.

يجب علينا أن نعود خطوة إلى الوراء لإدراك مدى استثنائيّة هذه التغييرات - وأيضاً لتقدير التكاليف التي تنطوي عليها، من الناحية التطوُّريّة، الاقتران الجاد طويل المدى، وزيادة الذُريَّة. بدأت بعض الإناث بتخصيص جهودهن التكاثريّة لذكر واحد، بدلاً من إعطائها لآخر صادف أنه كان المتاح في مرحلة الإباضة. وبدأ الذكور بحماية شريكاتهم، وردع الذكور المنافسين الذين قد يحاولون إغراءهُنَّ. الموارد الفائضة التي كانت تُقدَّم للأنثى في العديد من الأنواع لتحفيزها على الاقتران الآنيّ، صارت الآن تقدَّم إلى الزوجة والأطفال. وبالفعل، أعطى هذا الذكور دافعاً إضافيًّا لتكثير الموارد، خصوصاً لو كانت لحوم طرائد، والتي تحتوي على أحماض أمينيّة قيِّمة وغنيّة بالبروتين.

يقتضي تطوُّر الاقتران طويل المدى على مجموعة من الدوائر النفسيّة المصممة لضمان وجود مردود تكاثري لتخصيص كُلِّ الموارد إلى شريك واحد. يخبرنا عِلم الاقتصاد أن الذين يملكون موارد قيمة لا يمنحونها لمن هَبَّ ودَبَّ. وقف التطوُّر بقسوة ضِدّ الذين أهدروا موارد قيمة تكاثريًّا في الاقتران طويل المدى دون أن ينجبوا ذُريّة. وهكذا، احتاج البشر بعض الوسائل لتحديد إن شريكًا واحدًا معيَّنًا، قبل كُلِّ شيء من بين الشركاء المحتملين، سيكون معك بالضراء والسراء، والصحة والمرض. وباختصار، احتاج البشر حلًّا لمشكلة الالتزام: لضمان أن تبقى الأنثى مخلصة وأن يواصل الذكر تكريس أفضل موارده لأطفالها.

جاء الحُبّ ليكون هو الرابط التي يربطنا بهذا الالتزام. لقد تقاربت دراساتي التجريبيّة حول العلاقة الوثيقة بين الحُبّ والالتزام مع نظريّة اقترحها الاقتصاديّ التطوُّريّ روبت فرانك. فرانك جادل أيضاً بأن العاطفة التي نُسميها الحُبّ، هي الحلّ التطوُّريّ لمشكلة الالتزام[23].
- الأسباب المعقولة لاختيارك شريكك، يمكنها أن تكون هي سبب هجرانه: إيجاد شخص آخر أكثر جاذبيّة بكُلِّ المعايير «المعقولة». لكن، إذا ما وقع شريك بحب أعمى لا يمكنه السيطرة عليه، أحبك أنت فقط، فسيكون الالتزام هنا أقوى حتى عندما تكون مريضاً بدلاً من أن تكون أكثر صحة، وعندما تكون فقيرًا بدلاً من أن تكون أكثر ثراءً. إنها العاطفة التي تشير إلى شريكك أنك على استعداد لتخصيص موارد عاطفيّة واقتصاديّة وجينيّة على المدى الطويل.

تجربة الحُبّ أيضاً توفر اندفاعا نفسيًّا مبهجاً عندما نحلّ مشكلة الالتزام بنجاح. إنه أفيون دماغيّ يخبرنا بأن تحديات لعبة الاقتران قوبلت بالنصر[24]. يعاني الكثير ممن يقعون في الحُبّ من تدفق **للدوبامين والأدرينالين والسيروتونين**، وهي مواد كيميائيّة تفرز بالدماغ في وقت واحد فنشعر بالنشوة المفرطة، والثمالة النفسيّة، والهوس التَخَيُّليّ. هذه المكافآت النفسيّة تجعلنا نؤدي أنشطة - كممارسة الجنس، الاستثمار في الرومانسيّة، الكرم مع الأطفال - تؤدي إلى التكاثر الناجح.

لكن لسوء الحظ، هذه ليست النهاية السعيدة لقصة تطوّر الحُبّ. فالتطوُّر غير مبالٍ تماماً بهذه الأساليب. إنه استراتيجيات قاسية تساعد على إبقاء الموارد القيمة تكاثريًّا أيًّا كانت، حتى لو كان هذا يعني أن نكلف الآخرين الثمن. وعندما يتعلق الأمر بالاقتران، فإن التطوُّر لم يسلِّحْنا باستراتيجيّة واحدة فحسب، بل بقائمة من الاستراتيجيات.

فمـع أنه قدّم لنا الدوافع والآليات لنقع في الحُبّ الملتزِم، قدم لنا أيضاً دوافـع قويّة للغـش والإفلات من الحُبّ؛ ثَمّة ثعابين في جنة المشـاعر تفتعل المشاكل.

وجـود مُجـرَّد رغبة في الحُـبّ، وكما نعلـم جميعاً، يمكن اسـتغلالها والتلاعـب بـهـا بـلا هوادة مـن كِلا الجنسـين. يخدع الرجال النسـاء فيـما يتعلق بعمق مشـاعرهنَّ المُحِبَّة، على سـبيل المثـال، ليتمكنوا من الحصول على علاقة جنسيّة قصيرة المدى[25]. - وكما أشار أوفيديوس قبل مئات الأعوام: «**فما الحُبّ إلا.... رياضة سُلوك جنسيّ يستخدمها الرجـل لكـي يتمكن من شـق طريقـه والظفـر بقلب المـرأة، ومن ثم الوصـول لمَخدعِهـا**». - في المقابل، طوَّرت النسـاء آليات دفاعيّة ضِدّ هذا الاسـتغلال الجنسيّ. لقد فرضن في الواقع عمليّـة مغازَلة طويلة قبل الموافقة على الجنس، ليصبحن أكثر قدرة على اكتشـاف أيِّ محاولة للغش، وفكّ الإشارات غير اللفظيّة. مع ذلك قد تَخدَعُ النساء أحياناً أيضاً. فعلى سـبيل المثال، قد تسـمح امرأة لرجل أن يعتقد أنها لا تزال تحبه، بينما هي تسـتغل موارده، وتخطط سراً لاسـتراتيجيتها بالإفلات منـه. وهكذا، يسـتمر سـباق التسـلُّح التطوُّري المشـترك بـين الخداع والقدرة على كشف الخداع دون أن تلوح بأفق توحي بانتهائه.

مشـكلة أخـرى تتعلـق بالحُـبّ: **ما يصـل للقمـة غالباً مـا يعود للقـاع**. يخرج العديـد منا من الحُبّ بنفس شـدتنا لدخوله. لا يمكن التكهُّـن من سـينهي علاقة الحُـبّ، لكـن الدراسـات الحديثة تقدم حقائق مهمة. فما أن تلوح بشـائر تلبيـة الرغبة عندما يقع أحدهم في الحُبّ، فإن إسـاءة اسـتعمالها ينذر بالخصام. قد يُتخـلّى عن رجل تم اختياره بسـبب ثروته الباهظة، وأهدافه الطموحة فيما لو فقد عمله.

قد يُتخلَّى عن امرأة تم اختيارها بسبب جمالها وشبابها عندما تحاول امرأة أخرى أكثر شباباً إغراء شريكها. - يمكن أن يتحول الشريك المتفهِّم في البداية لشخص قاس في النهاية. بينما يمكن أن يدفع عقم الزوجين بعد عِدّة محاولات إلى البحث عن علاقة أكثر إنتاجيّة للذُريّة في مكان آخر[26].

تأتي الضربة الأكثر تدميراً لعلاقات الحُبّ طويلة المدى من تأثير قسوة سوق الاقتران. فقد يواجه الزوجان المتساويان على صعيد المرغوبيّة اتساع فجوة تمتد بينهما بمرور الوقت. تأمل زوجين يعملان كموظفين جديدين، إن ازدهرت مَكَانة المرأة في العمل وطُرِد الرجل. فإن الوضع الجديد سيجعلهما تحت ضغوط جديدة، بسبب اختلاف قيم سوق الاقتران الآن. عندما تفوقت الممثلة الأميركيّة ميغ رايان على زوجها دينيس كويد، أصبحت على علاقة مع النجم الصاعد راسل كرو. الزيادات المفاجئة في المَكَانة الاجتماعيّة فتحت الباب لفرص اقتران جديدة. الشخص الذي تُقدَّر قيمته بسوق الاقتران رقم «9» هو الآن متاحٌ للمزيد من العلاقات. قد نعجب بامرأة تقف بجانب شريكها الخاسر. القِلّة التي فعلت ذلك هم: أسلافنا. لقد أنحدر البشر المعاصرون من الأسلاف الذين قايضوا بعدما فاق فائض التكاليف الناتجة عن انفصال الشركاء العاطفيين.

لماذا تخون الإناث؟

* «بمنتصف ذات ليلة، سمع سوكو موندا ثلاثة أشخاص يتصلون بزوجته ويطلبون ممارسة علاقة غير شرعيّة معها. حاول سوكو منعها لكنها أصرت على الخروج. عندئذ هاجمها

سوكو بأداة حادة، وأصابها بجراح بالغة. برَّأت المحكمة سوكو بحجة جنونه»[28].

لماذا تقرر امرأة، وبعد المرور بعمليّة شاقة لاختيار وجذب شريك ملائم، ثم تأمين حبه، والالتزام بالوعود، المخاطرةَ بكُلِّ ذلك في لحظة عابرة من المتعة الجنسيّة تضع حياتها على المحك؟ حيَّر هذا السؤال العُلماء لعقود من الزمن، ولكننا الآن نملك الخطوط الأساسيّة للإجابة: **فالاقتران، كالقتل، له دوافع متعددة:**

الدافع الأول هو الجذب اللاواعي للرجال الذين يملكون جينات جيدة. ولفهم هذا علينا أن التعمق أكثر في المنطق التكاثري لسوق الاقتران. المرأة العاديّة قادرة على جذب عدد من الرجال لعلاقات جنسيّة قصيرة المدى أكثر من علاقات حب طويلة المدى، وذلك لأن الرجال الأكثر مرغوبيّة للغاية هم على استعداد للموافقة على ممارسة الجنس مع امرأة ذات قيمة أقل طالما أنها لا تأتي مثقلة بالالتزامات المتشابكة. غالباً ما يكون الرجل الذي تُقدَّر قيمته في سوق الاقتران رقم «9» مستعداً لممارسة الجنس مع امرأة تقدَّر قيمتها «7». فعلى سبيل المثال، لا يعاني الرياضيون الناجحون، مثل نجم كرة السلة كوبي براينت، ونجوم السينما الناجحون مثل جورج كلوني من نقص النساء الراغبات في خوض علاقة جنسيّة معهم. هذا الأمر جيدٌ بالنسبة للرجل الناجح، بلغة اللياقة التكاثريّة، لأنه قادر على تأمين الوصول الجنسي مع امرأة خصبة بأقل التكاليف. لكن، بالاستناد إلى قانون التزاوُج المُتلائِق (Assortative mating) سيكون زوج المرأة بنفس قيمتها بسوق الاقتران، أي ستكون قيمته «7». ومن هنا ستكون خيانتها مع رجل أكثر مرغوبيّة دافعاً للقتل.

عبر الاقتران لفترة وجيزة مع رجل مرغوب أكثر من زوجها، تزيد المـرأة مـن احتمالات الحصول على مورد حيوي معيب نسـبيًّا بزوجها -جينـات متفوقـة يمكـن أن تنتقل لأطفالهـا. تأتي الجينـات الأفضل بعِـدّة نكهات. تتعلق إحداها بالصحة الجيدة. يمكن ملاحظة العديد مـن المؤشرات على الصحة الجيدة بسـهولة، كالبشرة النقيّة، الخلو من البَثَرات والتقرُّحات والجروح المفتوحة، جودة الشعر، وثبات المِشيّة. لكـن اكتشـف مـع زملائي مـؤشراً أكثر دقـة: «**التناسـق**». البشر هم متناسـقون جانبياً. إذا ما قمت برسـم خطٍّ مستقيم يمتد من منتصف جبهتك إلى أسـفل جسمك، فسيكون نصفا جسمكَ صورة معكوسة لبعضهـا، ولكنها ليسـت دقيقة. فالجروح والعدوى الطُّفيليّة وسـوء التغذيـة وبعض العوامل البيئيّة الأخرى التـي قد تصيبك أثناء نموِّك قد تجعل أحد نصفي جسـمك يبدو مختلفاً عـن الآخر. بعض الأفراد هـم أكثر عرضة لـهذه العوامل البيئيّة بسـبب جيناتهم. وبعضهم هم أكثـر مقاومة لها أو يحاولون تجنُّبها. أولئـك الذين لديهم المقاومة لهذه العوامـل البيئيّة لديـهم جينات صحيّة أفضـل، أو بلغة عُلماء الأحياء أكثر «**استقراريّة نمائيّة**» من الذين تتأثر أجسامهم النامية.

كان عالمـا النفس التطوُّري سـتيف جانجسـتاد ورانـدي ثورنهيل رائديـن في استكشـاف النتائـج المهمـة المحتملة للتناسـق في الاقتران البشريّ[29]. لقد قاما بـاستخدام (الفِرجال) لقياس الطول والعرض الدقيقـين لأجـزاء الجسـم المختلفـة عـلى كُلِّ جانـب من المشـاركين المتطوعـين، مـن أصابـع السـبابة إلى طول شـحمة الأذن. ثـم جمعوا النقاط النهائيّة لكُلِّ جزء مع الأخذ في الاعتبار إلى أيِّ مدى كان الجزء من الجسـم غير متناسق. وبجمع النقاط النهائيّة المختلفة، حصلا على

مؤشر شامل للاختلافات الفرديّة بعدم التناسق. إذا أخذنا المشاهير الأمريكيين مثلاً، سيكون **لايل لوفيت** على طرف هذا القياس، وسيكون **براد بيت** على الطرف الآخر.

مع قياس هذا المؤشر للدلالة على الجودة الصحيّة، اكتشف جانجستاد وراندي الرابط بين الاقتران والتناسق. ففي دراسة أجريت على 203 شركاء مغايرين، وجدا أن النساء اللاتي تزوجن رجالاً غير متناسقين كنَّ أكثر عرضة لخيانة أزواجهن من اللاتي تزوجن رجالاً متناسقين. لقد اختارت النساء اللاتي خُنَّ شركائهنَّ أشخاصًا أكثر تناسقًا منهم. وبالفعل، أفاد الرجال المتناسقون بأنهم ينخرطون في صيد غير مشروع للنساء أكثر من الرجال غير المتناظرين.

دراستي التي أجريتُها مع زميلتي هايدي غريلينغ، وجدت أن تفضيلات الاقتران للنساء تتغير بشكل كبير عندما يفكرن في شريك ملتزم على المدى الطويل مقابل شريك على المدى القصير[30]. لقد وجدنا دليلاً دامغاً على أن النساء يفضِّلنَ جينات الإبن المثير» Sexy Son» عندما يفكرن بعلاقات قصيرة المدى. فعلى النقيض من الصفات التي يفضِّلنها في الشريك العادي، تميل النساء إلى تفضيل الرجال المثيرين جنسيًّا الأكثر مرغوبيّة، والجذَّابين جسميًّا ممن يتمتعون بمظاهر جيدة. والفائدة في عملية النجاح التكاثريّ هنا، هي ليست أن ينجبن أطفالاً أكثر، بل أن يزِدْن احتمالات إنجاب **«أبناء مثيرين»** - أي الأبناء الذين سيكونون الأكثر جاذبيّة للنساء في الجيل التالي. لذلك زادت النساء، من الناحية التاريخيّة على الأقل، من نجاحهنَّ التكاثري من خلال زيادة أحفادهِنَّ الناتجين من النجاحات الجنسيّة لأبنائهن المثيرين.

بينما وجدت دراسات التغايُرات الجنسيّة عبر دورات الإباضة للنساء دعمًا مذهلاً أكثر لدوافع «الجينات الجيدة» بتفسير خيانتهِنَّ [31]. لقد أفادت النساء في العلاقات الرومانسيّة الملتزمة، في وقت الإباضة وبالتالي القدرة على الحمل، بأنهنَّ كنَّ يغازلنَ، ويشعرنَ برغبة جنسيّة، ويتَخَيَّلنَ أنفسهنَّ في أوضاع جنسيّة مع رجال آخرين غير شركائهنَّ الاعتياديين. لكن هذه التأثيرات تحدث فقط عندما لا تقترن المرأة بشريك متناسق. الأكثر غرابة، هو أن النساء اللاتي يُقِمنَ علاقات مع غير شركائهنَّ يقرِّرنَ ممارسة الجنس بوقت يتزامن مع الإباضة ويتصرَّفنَ معهم بشهوة، في حين أنهن يتوقَّفنَ عن ممارسة الجنس مع شركائهنَّ العاديين ليتزامن مع وقت أقل خصوبة! وبالطبع، أن النساء لا يفكِّرنَ بطريقة «**أنا الآن بمرحلة الإباضة، الأفضل أن أتسكع خارجاً وأضمن جينات جيدة**». بدلاً من ذلك، هن طوَّرن رغبات رجال آخرين لخيانة شركائهنَّ عندما يكُنَّ في ذروة خصوبتهنَّ، وهذه الرغبة كان لها فضل على مرِّ التاريخ في إنتاج ذُرّيّة تحمل جينات الرجال الآخرين الأفضل من الشريك البائس الملتزم الذي كان من سوء حظه أن يُولد برصيد أقل من الجينات الجيدة.

إذا كانت الجينات الجيدة تقدم تفسيراً واحداً لسبب خيانة النساء، فهناك على الأقل ثلاثة دوافع قويّة أخرى هي - **الوصول إلى الموارد، تأمين شريك، المقايضة**. تفسير الحصول على الموارد واضح ومباشر. فعلى الرغم من أن عددًا قليلاً من مواعيد العشاء قد لا توفر دافعًا قويًّا في البيئة الحديثة، إلا أن نقص الغذاء أدى على مدار الزمن لمعوِّقات تطوُّريّة. الأسلاف الذين نجحوا في الحصول على كميّة شحيحة من الغذاء تجاوزوا هذه المعوِّقات، أما الذين لم ينجحوا فلم يتركوا أيَّ

ذُريّة مُنحدرة. وهذا يفسر لماذا أشارت دراساتنا إلى أن النساء يقدِّرن الرجال الذين يظهرون عروضًا باهظة للموارد بشكل أساسيّ في سياقات الاقتران قصير المدى[32].

في عصرنا الحديث، يحصل العديد على تأمين لسياراتهم ومنازلهم تحسُّبًا لحصول الحوادث أو الحرائق. أما في عصر الأسلاف، فقد سعوا لمكافأة شركائهم في العلاقات طويلة المدى. في سياق الاقتران، سيكون مفيداً أن يحصل أحدهم على شريك احتياطي، يمكن أن يكون ميزة هائلة في يوم من الأيام؛ يجب أن تكون لهؤلاء الشركاء الاحتياطيين امتيازاتٌ خاصةٌ كالقدرة والرغبة في توفير الموارد من جهة، وحماية الإناث ضِدّ تحرشات الذكور الآخرين. لقد وجدنا في دراساتنا أن الإناث يقدِّرن بدقة هذه الامتيازات في الشريك الذي يقمنَ معه علاقة خارج الاقتران - لأنهم كانوا قادرين على حمايتهنَّ، واستعرضوا قواهم الجسميّة ورجولتهم ولياقتهم المظهريّة[33]. وأيضاً لقد اكتشفنا أن إحدى وظائف المغازلة هي تجميع شركاء احتياطيين. علاوة على ذلك، إن أحد أسباب بحث النساء عن أصدقاء من الجنس الآخر هو لوضعهم في قائمة الشركاء المحتملين عندما تتاح الفرصة للاقتران بحياتهن[34].

وأخيراً، وليس آخراً، تسعى الإناث أحيانا **لمقايضة شريكها في سوق الاقتران**. هناك العديد من الظروف التي يكون فيها استبدال شريك بشريك مفيداً للمرأة. **الأولى**، هي أن يصبح شريكها أقل مرغوبيّة، أكثر تقاعساً، أكثر عجزاً عن تأمين الموارد، يبدأ بالخيانة مما يؤدي إلى تحويل موارده لامرأة أخرى؛ ستنخفض قيمته هنا بالنسبة لشريكته، في حين أنها سترتفع بالنسبة للأنثى البديلة. **الثانية**، هي

أن تزداد مرغوبيتها هي، لرُبَّما بفضل زيادة في مَكَانتها أو تحسن في مظهرها الجسمانيّ، وعندها ستكون قادرة على جذب رجل آخر ذي قيمة أفضل بكثير. **الثالثة**، ظهور شريك جديد، ولرُبَّما بسبب انفصاله عن شريكته، فتستفيد من ظهوره لزيادة قيمتها في سوق الاقتران. وفي نهاية المطاف، وإذا ما تخلت عن أعبائها، كما قد يحدث بوفاة طفلها، فقد تصبح أكثر جاذبيّة للرجال الذين كانوا في السابق بعيدين عن متناولها. كُلُّ هذه التغييرات قد تخلق القدرة والرغبة في التداول في سوق الاقتران.

مُجمل القول، إن النساء اللاتي يخُنَّ أزواجهنَّ يحصلنَ على عدد من المنافع. هنَّ يستطعن أن يضمِنَّ جينات أفضل لأطفالهنَّ؛ ويستطعنَ أن يحصلنَ على موارد إضافيّة؛ ويستطعنَ أن يبحثنَ عن شريك احتياطي، وهو شكل من أشكال تأمين الشركاء بحالة حدوث شيء في العلاقات الأساسيّة؛ ويستطعنَ كذلك استغلال علاقاتهنَّ خارج الاقتران لترقية أنفسهنَّ لعلاقات أفضل والبحث عن شريك ذي امتيازات أكثر. ولكن كما نستكشف أدناه، ثمة خطر هائل للغاية قد يحدث من الاتصال برجل آخر.

يتمتع الرجال أيضاً بالخيانة كاستراتيجيّة للبحث عن شريكات أفضل، وفي بعض النواحي يسهل عليهم القيام بذلك. فبما أن المَكَانة والموارد هي أهمُّ ما تريده النساء، فإن الرجال الذين ترتفع مكانتهم أو تزداد مواردهم سيصبحون فجأة جذابين بالنسبة للنساء اللاتي كان الوصول إليهن عسيراً سابقاً. لكن بالنسبة للعديد من الرجال، تُعَد الخيانة استراتيجيّة متطوِّرة لأجل إنتاج عدد أكبر من الذُريّة من خلال الوصول الجنسيّ إلى العديد من النساء. بالطبع، لا يفكر

الرجال بهـذه الطريقة «**سـأقيم علاقة لأزيد من نجاحـي التكاثريّ**». لكنهـم، بـدلاً من ذلك، يجدون النسـاء الأخريات جذّابـات، وإذا ما سـنحت الفرصـة وكانت مخاطـر إقامة العلاقـة معهنَّ قليلة فسـوف يقدمون عليها. وكما أشـار الكوميدي كريـس روك إلى ذلك «**الرجل مخلـص عـلى قدر خياراتـه**». غالباً ما تجد الدراسـات التـي تقارن بين دوافـع الرجال والنسـاء لإقامـة علاقات غير مشروعـة أن «**الجنس**» ببسـاطة هو الدافع الأكثر أهميّة بالنسـبة للرجال. ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنـهم لا يحبُّون زوجاتهم.

أخطار القَلب المحطم

فقـدان الحُبّ له جوانـب مظلمة كثيرة. «**إنه للذّة تـدوم لحظة، أمّا كآبتـه فتدوم مدى الحياة**»، كـما عبر عن ذلك كاتب القصص الفرنسي سلسـتين. - فقـدان الحُبّ مؤلم نفسـيًّا لكِلا الجنسـين، لكنـه غالباً ما يكون أكثر خطورة على النسـاء. القلـوب التي حطمها الانفصال هي مـن بين أكثـر أحداث الحياة المجهدة التي يمكـن أن يعانيها المرء، ولا يفوقهـا في الألم النفسي إلا الأحـداث المروِّعة كوفاة طفل. إن الرجال الذين ترفضهـم النسـاء اللاتي يقعون بحبهنَّ غالباً ما يجرحون عاطفياً وجسـديًّا. البعض يقومون بملاحقة خليلاتهم السـابقات بمكالمات متكررة وزيارات مفاجئة وتهديـدات بالعُنْف. يعاني ضحايا المطاردة مـن الرعب النفسي، وتعطيل العمـل، ناهيك عن التدخل بالعلاقات الجديـدة. في دراسـاتنا الأخيرة وكما سـأذكر بالتفصيـل لاحقاً في هذا الفصـل، وجدنا أن عددًا مقلقاً من الرجال الذي هُجِروا بشـكل غير رسميّ بدؤوا بالشروع بخيالات القتل، ونفذ كثيرون منهم ذلك.

الحالـة التالية، والتي حصلنا عليها مـن توثيق منظم لجميع جرائم القتل خلال عام واحد في مدينة هوستن بولاية تكساس، تقشعر لـها الأبدان:

* «الحالـة رقـم (191). بـدأ الأمر كخـلاف منزلي. امـرأة بيضاء تبلغ من العمر 37 عاماً وزوجها يبلغ 42 عاماً، كانا يشربان الكحول ويتشاجران. هربت المرأة لشقة أختها المجاورة لكنها لم تجد سوى ابنها البالغ 11 عامًا مستيقظاً. غادرت لتطلب المساعدة من أحد الجيران. أثناء ذلك اعترضها زوجها وحاصرها وتشاجرا أكثر. هربت الزوجة وصاحـت طالبة النجدة. أحد الجيران وجدهـا تنزف على الرصيف، ليتصـل بالإسـعاف. قال الـزوج للشرطـة بأن الأمـر برمَّتـه بدأ لأن زوجته لم تعد تحبه.... [هذا] ما جعله يطعنها بسكين في صدرها»[35].

هذا الألم الذي يشـعر به الرجال المهجورون لا يفسِّر بشـكل كافٍ لمـاذا يقتلـون النسـاء اللاتي قمـن بخيانتهم أو هجرنهـم - لم يزل قتل الشركاء لغزاً غامضاً. كيف يمكن لـهذا السُّـلوك الغريب أن يتطوَّر؟ فقتـل الشريـك، على أيِّ حـال يدمـر مصـدراً تكاثريًّا أساسـيًّا. لابُدَّ للتطـوُّر أن يفضل الحفاظ عـلى الموارد التكاثريـة الحيويّة لا تدميرها. يبدو أن هذا القتل للشركاء يصبُّ بشـكل شنيع في المصلحة التكاثريّة الشخصيّة.

لحـلّ هـذا اللّغز، يجـب أن نتذكـر أن التطـوُّر يعمل بآليّـة التكاثر التفاضـليّ، وفي ظروف معينة، قد يفضل الانتقاء الطبيعيّ دوافع قويّة لقتل شريك غير مخلص. دعونا نفهم هذا المنطق بمزيد من التفصيل. أولاً؛ وفي معظـم الحالات، فإن قتل شريك غير مخلص ضارٌ للـقاتل.

فالمرأة غير المخلصة لم تزل مصدراً تكاثريًّا قيِّماً لزوجها؛ سوف يؤثر قتلُها على لياقة زوجها التكاثريّة. وكما لاحظ مارغو ويلسون ومارتين دالي بنحو صائب «**أن النساء اللواتي قُتلن باهظات التكلفة**»[36]. علاوة على ذلك، وإن كانت قد ولدت له الذُريّة، فإن قتلها سيضر بفرص أطفاله في البقاء والازدهار. في نهاية المطاف، سيخاطر الرجل بحياته إذا قتل زوجته؛ لأن أخاها أو أباها قد يملكان دافعًا للانتقام. لكُلِّ هذه الأسباب، عادة ما يكون القتل هنا، حلًّا غير فعال بشكل ملحوظ لمشكلة الخيانة.

لكن أحياناً، يُعاد ترتيب العناصر في معادلة التكاليف والفائدة. ففي ظروف معينة، يمكن أن تتفوق الفائدة للقتل من الناحية الإحصائيّة على التكاليف. ولفهم كيف يكون الأمر كذلك، علينا استعراض الأسباب التي تجعل خيانة المرأة مؤذية جداً للرجال.

تكاليف الخيانة

يحمل خسارة الرجل لحُبّ المرأة أكبر خسارة تكاثريّة بالمرَّة. وإن أُدخِل لعائلته أبناء ليسوا من صُلبه بغير علمه فسيخاطر بإنفاق وقته لأعوام أو لعقود على أطفال منافسه، وهذه طامَّةٌ كُبرى من منظور لياقته التكاثريّة. إن خطر الخيانة الجينيّة هو ليس مُجرَّد احتمال فرضيٍّ. فالدراسات الحديثة المستندة على البصمات الوراثيّة للدنا، والتي أجريت على مدى الثلاثين عاماً المنصرمة تقدر انتشارها بنسبة 9 – 13 %[37]. وهذا يعني أن واحداً من كُلِّ عشرة أبناء تقريبا قد أُدخِل إلى العائلة بدون عِلم الزوج.

من المنظور التاريخيّ، كان من شأن الأبوة الخاطئة أن تتسبب

بتكاليف باهظة على الذكور. منها **أولاً**: ستنخفض كُلُّ الجهود التي يبذلها الذكر في اختيار شريكته والتقرب إليها وجذبها على حساب لياقته الخاصة. **ثانيًا**: ستضيع كُلُّ جهوده لحماية العلاقة والحفاظ عليها - من توخي الحذر إلى العُنْف - وكُلُّ الموارد التي قدمها إلى شريكته وأطفاله عندما تصبح وسيلة لمنافس آخر ينقل عبرها جيناته. **ثالثاً**: سيعاني الرجل المخدوع تكاليف الفرصة البديلة - فرصة الاقتران مع إناث أخريات لا يمكن تعويضها. - سيتخلَّى الذكر باستثماره بأنثى غير مخلصة عن فرص التزاوج مع أخريات، إما من أجل علاقات جنسيّة قصيرة المدى أو من أجل ارتباطات رومانسيّة أكثر التزامًا.

تكاليف الخيانة الجينيّة تذهب إلى أبعد من هذا. فلا يخاطر الضحيّة بتوجيه جهوده الأبويّة إلى أطفال المنافس فحسب، بل حتى جهود شريكته، التي ينتفع منها أطفاله، وسينتفع منها الآن أطفال منافسه. إن كان للرجل المخدوع أطفال شرعيون أو سينجبهم، فسيكون الطفل الجديد الذي نتج عن علاقة خارج الزواج أخا غير شقيقٍ (نصف أخ) لهم. وهذا بدوره يخلق تضارباً في المصالح الجينيّة سيعاني منها أطفاله الشرعيون. سيكون لغير الأشقاء حصة جينيّة مشتركة أقل ومن ثم سيكون حرصهم على مصالح بعضهم أقل.

لا تنتهي هذه التكاليف عند هذا الحدِّ. فالاحترام الذي يحظى به الرجل من قبل الآخرين، والسُمْعة المهمة لهذا الحيوان الاجتماعيّ الذي ندعوه **الإنسان**، يمكن أن تعاني من أضرار جسيمة. إليك الطريقة التي تعاملت بها الحضارة الإغريقيّة مع هذا:

* «خيانة الزوجة.... تجلب العار للزوج الذي سينقلب لـ: كيراتاس (أبشع شتيمة للرجل الإغريقي، تعني الضعف وعدم الجدارة) .... وبينما قد يتقبل المجتمع خيانة المرأة لزوجها، فإنه لن يرضى أن يتقبل الرجل خيانة زوجته، ذلك لأنه سيكون وضيعاً مُخَنَّثاً» [37].

ليس الإغريق وحدهم من يرون وضاعة الرجل المخدوع. جريمة القتل التالية حدثت في فرنسا، وهي واحدة من أكثر الثقافات تسامحاً مع الخيانة الجنسيّة:

*** «وقع القتل في مدينة أورليان الواقعة على ضفاف نهر لوار. كانت تعاني إيفون شوفالييه من مشاكل مع زوجها الدكتور بييغ شوفالييه، السياسي وبطل الحرب السابق. كان الدكتور شوفالييه يتنقل بين الأماكن، ويتصاعد في الهرم السياسيّ، ويصاحب النخبة متمتّعاً بنجاح اجتماعيّ لم يكن يعرفه من قبل. بينما بقيت إيفون في المنزل وحيدة معظم الوقت. في أثناء ذلك بدأ الدكتور شوفالييه يخون زوجته مع امرأة متزوجة تدعى جانيت بيرياو، زوجة روجيه بيرياو.**

اكتشفت إيفون شوفالييه خيانة زوجها من ملاحظةٍ وجدتها في جيب معطفه مكتوب عليها: عزيزي بييغ، بدونك، لن يكون للحياة جمال أو معنى بالنسبة لي... جانيت..

اشترت إيفون بندقيّة ضخمة ورصاصات عيار 65 , 7 ملم - كافية لإسقاط فيل. وعندما كانت تملأ استمارة تصريح البندقيّة ذكرت أن بروز زوجها السياسي يجعل من الضروري أخذ الحيطة. ثم فيما بعد، واجهت

إيفون شوفالييه زوجها بشكوكها في خيانته. وبعد تقويم فرصه، صرَّح لها بأنه ينوي الطلاق منها. فأطلقت عليه أربع طلقات، ثم أخذت طفلها الذي شهد إطلاق النار إلى الطابق السفلي حيث يقوم خادم بالاهتمام به، ثم عادت مرة أخرى وأطلقت رصاصة خامسة على زوجها. لم يستطع الزوج النجاة بعد رصاصتين في الرأس وثلاث في بقيّة الجسم.

كانت ردود فعل الجمهور على شهادة روجيه بيرياو، زوج جانيت، مدهشة. لقد ضحك العامة الذين احتشدوا في المحكمة علانيّة عليه. ولمَّحوا له بعلامة الديُّوث (قرنان خلف الرأس) عندما يمر بينهم. لقد صرَّح الزوج للمحكمة بأنه كان على علم بخيانة زوجته لكنه قرر أن يتقبَّلها. اعترف بأن زوجته خانته أكثر من مرة، وأنه في كُلِّ مرة حاول أن يتغافل عنها. ومع ذلك، كان يرى زوجته جمالاً ساحراً: شعر أحمر تحت قلنسوة أنيقة وعينان واسعتان وشفتان شهوانيتان.[39] لسبب ما، لم يرَ الزوج أيَّ عيب بخيانة زوجته له. فقال ساخراً من بين الحشود: (حسناً... قد يبدو لكم هذا غريباً. لكنني وجدتها أهلا للحُبّ. وتصالحت معها جداً) وعندها انفجرت قاعة المحكمة بالسخريّة.[40] لم يُحكم على إيفون شوفالييه بأيِّ تُهم تخص جريمتها. في فرنسا، هناك عِدّة تصنيفات لجريمة الانفعال العاطفيّ، والتي قد يحصل فيها القَاتل على تخفيض عقوبةٍ خاصٍّ، وفي بعض الأحيان، وكما في هذه الحالة، ينال البراءة المطلقة».

وبالفعل، يتعرض الرجل المخدوع عالميًّا إلى عدم الاحترام والسخرية. كما تتعرض سمعته إلى انحطاط كارثيّ. فالسُّمْعة ليست مُجرَّد أناقة اجتماعيّة، بل هي شيء ثمين للغاية. وأحياناً يستحيل استرجاع السُمْعة المفقودة. بل إن بعض الناس يرون أن حماية السُمْعة أمر يستحق القتل لأجله.

تُعرِّضُ السُمْعةُ المنحطةُ مَكَانةَ الرجل للخطر، تعرقل تقدُّمَه المستقبلي في السلم الاجتماعي، وتضعف قدرته على جذب الشركاء في المستقبل. ستتصنَّع النساء الابتسامة له، وسيسخر الرجال منه. سوف يكسب الرجل المخدوع سُمْعة أنه سهل الاستغلال. بينما ستفترض النساء بأنه يفتقر القدرة على منع الرجال الآخرين المتطفلين. وهكذا، تتردى قيمته بسوق الاقتران، بالإضافة لتكاليف اللياقة التكاثريّة التي يتحملها.

لسوء الحظ، إن قام الرجل المخدوع بقتل شريكته الخائنة، فسينقذ مكانته وسمعته أحياناً، أو على الأقل العيش في ظروف المجموعة الصغيرة التي تطوَّر فيها البشر. قتلها سيرسل إشارة إلى المجموعة أنه ليس برجل سهل يمكن التعدي على مصالحه دون عقاب، ويضع حداً لظنون الآخرين بأنه عاجز عن حماية شريكته والتحكم فيها، ويُنبِّه زوجاته الأخريات (إذا كان متعدد الزوجات) أو الشريكات المستقبليات بأنهن سيدفعنَ ثمنا باهظاً إذا قلّلن من شأنه أو قمنَ بخيانته. من جانب آخر، سوف يهدد إقدامه على العُنْف الرجال الآخرين ليتراجعوا ومن ثم سيمنع محاولاتهم المستقبليّة للتطفل على شريكاته. وهكذا بتعويضه النقص الذي تعرضت له مكانته، سوف يستطيع استرداد قدر كبير منها، وإن لم يفعل فإنه سيخسرها للأبد. وفي نفس الوقت، سيحرم قتله لزوجته أقرب منافسيه من المواد التكاثريّة الثمينة التي لم يعد يملكها في كُلِّ الأحوال، مما يمنح القَاتل تقدُّماً في لعبة المنافسة التكاثريّة القاسية. ومع أن هذه الفكرة تبدو مقلقة، إلا أن قتل الشريك العاطفي يمكن أن يكون مفيدا

بظروف معينة، مما يؤدي لتطوُّر دوائرَ نفسيّة خاصة بقتل الشركاء العاطفيين.

بالطبع، كان ينبغي أن تكون هذه الظروف مُحدَّدة للغاية. **فأولاً**، إن كانت الزوجة تفتقر إلى وجود أب أو أخ في صفها، فمن المرجَّح أن القَاتل لن يُعاقب بعُنْف من قِبَل أقاربها. وهذا قد يكون شائعاً جدا في مجتمعات القبائل التقليديّة؛ حيث يتزوج الرجال من خارج قبيلتهم وتهاجر النساء بعيداً عن قبائلهنَّ ليعشن مع قبائل أزواجهن عندما يتزوجن. **ثانياً**، إن لم يكن قد أنجب منها ذُريّة فلن يهدد قتلها بقاء أطفاله. وكنتيجة لهذا، أتوقع بأن قتل الشركاء العاطفيين سيكون أكثر شيوعا بين الأزواج الذين لم ينجبوا أيَّ أطفال. **ثالثاً**، إن تضَرَّرت سمعته الاجتماعيّة بشدة بسبب خيانة زوجته أو هجرها لدرجة أنه لم يعد قادراً على استعادتها أو تأثرت جاذبيته للنساء الأخريات، فقد يصلح قتلُها الخلل الذي حدث لسُمعته. ولحسن الحظ، عادةً ما يكون قتل شريك خائن أو هاجِر مكلفاً جدا، ومعظم الرجال لا يفعلونه. لكن دوائر القتل النفسيّة للرجال مضبوطة للعمل في مثل هذه الظروف النادرة حين تغلب فوائد القتل على عواقبه وتستهدف أشكالاً من القتل يمكن التنبؤ بها.

فكر للحظة في منطق هذه الحُجَّة خارج سياق الاقتران. إن كنت قتلت للتوِّ حيوانًا لتأكل منه وتطعم عائلتك الجائعة، ويأتي فجأة حيوان ضخم ويسرقه منك قبل أن تأكله، فستعاني من خسارة ما. لكن إن كان منافِسُك هو من سرق اللحم، فستكون الخسارة مضاعفة بعملة اللياقة التطوُّريّة، هذا لأن الانتقاء يعمل على مبدأ

النجاح التكاثري النسبيّ. ستصبح خسارتك مكسباً لمنافسِك الذي سينجو أطفاله ويكبرون بينما يجوع أطفالك ويندثرون.

ينطبق نفس المنطق على موضوع الاقتران. إن كانت خسارتك لشريكتك تمثل مكسباً لمنافسك المباشر، فإن تكاليف أن تكون رجلاً مخدوعاً ستصبح مضاعفة. تقود هذه النظريّة إلى تنبُّؤات غير متوقعة: كلما كانت المرأة أكثر شباباً وصحة وجاذبيّة ستكون التكلفة أكبر على الرجل المخدوع وستكون المنفعة أكبر بالنسبة للمنافس الذي سينام على سريره. وهذا يقود إلى توقع مربك للنظريّة - بقدر ما تكون المرأة جذابة، سليمة، وخصبة، سيكون الرجل مدفوعاً أكثر لقتلها إذا ما اكتشف خيانتها الجنسيّة.

هل تدعم الأدلة الواقعيّة فرضيات هذه النظريّة؟ في دراساتنا الخاصة، وجدنا أن هجران المرأة بالكامل، أو خيانتها يعدان العاملين الأكثر فاعلية في أفكار الرجال المتكررة والمستمرة في قتل شريكاتهم العاطفيات. إليكم أحد الأمثلة:

* «اتهمتني بالخيانة، جن جنوني وأنهيت علاقتنا مع أنني ما زلت أحبها. بعدئذ قررت أن تضاجع أفضل أصدقائي. أحسست بالإهانة لأنها قالت لي إنني أنا الحُبّ الوحيد في حياتها. للأسف، كانت جميلة لكنها عاهرة. أريدها أن تموت وأريد الموت لصديقي أيضاً... أتَخَيَّل أنَّنا على قارب وأنا أتكلم معها ثم تستأذن للمغادرة ويبدو عليها الانفعال، ومن ثم أقوم بربط يديها ورجليها معاً، وأثبتها في عجلة القيادة حيث أضاجعها لوقت طويل وأجعلها تشرب كميّة كبيرة من

الكحـول حتى لا تسـتطيع التفكير بشـكل سـليم. وبعد ذلك أضغط على عجلـة القيادة لأدفعها مرة واحـدة إلى المنحدرات الصخريّـة أمام منزلها. وهنا أقفـز وأتابع القارب وهو يتحطم. [**مـا منعك من قتلها؟**] أنا عاقل وأدرك تماماً بأنـها مُجُرَّد عاهرة غبيّة، وآمل أن تصبح بشـعة ومتينة عندما تتقدم في العُمْر. [**ما سـيدفعك أكثـر لقتلهـا؟**] إذا صـادف أن عثـرت عليها وهي تعبث مع أفضل أصدقائي».

ثَمَّة ملحوظتان مهمتان في هذا السيناريو الخيالي؛ **الأولى**، لم تزل الضحيّة شـابة، وجذابة. وهذا يشـير إلى أنـها قيِّمة من الناحية التكاثريّـة. **والثانية**، أنها مارسـت الجنس مـع أفضل أصدقائه، وهذا يجعله الآن منافساً.

غالباً ما تنعكس شدة الحُبّ الذي يضمره رجل لامرأة في شدة تفكيره القَـاتل. وهذا يتضح في الحالة التالية:

* «الحالـة رقـم (145): عرفتهـا لمدة خمسـة أعوام وشـاركتها أفضـل أوقات حياتي... صرختُ وبكيت ومزقت كُلَّ صورها وضربتُ بشـدة الرجل الـذي خانتني معه. المـرأة التي عرفتها منذ ما يزيد على خمسـة أعـوام وأحببتها لمدة عام ونصف بدأت تتسـكع مع مدمني الكوكايـين وتقلل مـن اتصالاتـها بي يومًا بعـد يـوم. الآن هـي مدمنـة كوكايين تضاجـع أولئـك الحثالة الذيـن تقابلهم. جربت كُلَّ الوسـائل لأسـاعدها على الإقلاع لكنني يئست في النهاية. وددت أن أمسكها من حلقِها وأعلقها في الهـواء وأصرخ في وجههـا وأخبرهـا بكُلِّ الأشـياء الفظيعة

التي فعلتها بي، وكيف كان شعوري حينها. تَخَيَّلت أني أصوِّب مسدساً إليها وإلى أولئك الأنذال الذين أخذوها مني. وأحيانا أتَخَيَّـل أنني أقتلها بكلتا يديَّ، وأحيانـاً أقتلها ببندقة [**ما منعك مـن قتلها؟**] ضمـيري وواقعيتـي. إنني أعلم أن ما من سـبب يجعـل أحدهـم يقتـل حبيبته، كـما أدرك أن هنـاك عاقبـة لكُلِّ أفعـالي، وحقيقـة أنني أحببـت هذه الفتاة أكثر مـن أيِّ شيء في حياتي. كنت مسـتعدا للموت بكُلِّ سرور مـن أجلها، وتمنيت أن أتزوجهـا بطرفة عين. لكنها جرحتني أكثر من أيِّ شـخص آخر في حياتي. لم أرد أن أعيش، ولم أردها أن تعيش أيضاً».

بالضبط، ظهرت نفس هذه المواضيع في دراسـتنا لقَتَلة ميشـيغان. شكَّ أحدهم في إخلاص حبيبته، فاشترى مسدساً وذهب إلى منزلـها تـاركا المسـدس في السـيارة. صارحها بشـكوكـه فاعترفـت. عاد إلى السـيارة وأخذ المسـدس ثـم أرداها قتيلـة بالرصاص. أفـاد للباحث الـذي أجـرى المقابلة معه قائلاً: «**أحببتها. كنت أحبها بشـدة وكانت تعلـم ذلك. لقـد آذاني بقاؤها مع غيري**». رجلٌ آخـر ظل على علاقة جنسـيّة مع المرأة التي طلَّقها وكان لم يزل يرى أنـها «**امرأته**». وعندما شـك في أنها تخونه قام بتعقُّبها إلى فندق. وطعنها بسـكين خمس مرات مع أنها كانت ضعيفة البنية وغير مسـلحة. وبرغم هذا، أخبر الباحث الـذي أجرى المقابلة معه: «**لقد أحببتهـا. لم أقصد قتلها**». رجلٌ ثالث قتل حبيبته التي بدأت تـهجرُه منذ وقت قريب. وقال للباحث الذي أجرى المقابلة معه: «**أجمل امرأة مارست معها الجنس في حياتي**».

يُظهر القَتَلة والرجال في دراستنا حول خيالات القتل تشابها نفسياً مذهـلاً. فكلاهما ذكرا جمال حبيباتهم أو زوجاتهم الخارجي. وكلاهما

تكلما عن شدة حبهم لهن. بينما كان سبب الغضب في كلتا المجموعتين نابعا من شعورهم باليأس من إيجاد بديل مماثل في القيمة التكاثريّة. الاختلاف الوحيد بينهم هو أن الرجال في دراستنا حول خيالات القتل لم ينفذوا خيالاتهم على أرض الواقع (هذا على حدِّ علمنا)، أما قَتَلة ميشيغان ففعلوا.

أيُّ الرجال من يقتلون شريكاتهم؟

لا يقتل معظم الرجال الشريكات الخائنات، أو الهاجرات بانفصالٍ من طرف واحد. يحاول الكثير منهم التمسك بالنساء بإغراءات إيجابيّة أخرى - يعِدْون بالتغيير، يغمروهنَّ بالهدايا، ويعلنون بأنهن حبُّهم الأبديّ. بينما قد يتحول بعضهم إلى شرسين فيهددون بالأذيّة إذا لم تعد نساؤهم إليهم. أما بعضهم فيعودون لمطاردة حبيباتهم السابقات، ويستجيبون لأيِّ محاولة تبديها النساء للمواعدة. وبعضهم يتجاهلون جراحهم ويستمرون بالحياة ويعودون إلى سوق الاقتران ويرتبطون مرة أخرى حتى تتوالى عليهم الصدمات العاطفيّة التي يسببها الانفصال والتي تسفر عن ذكريات بعيدة ومؤلمة.

إذا ما تمكنا من التنبُّؤ مسبقًا برد فعل الرجال - من منهم سيتضرَّع ويتوسل، ومن سيهدِّد، ومن سيتجسس، ومن سيخرج من العلاقة فحسب، ومن سيقتل عندئذ يمكننا أن ننقذ الكثير من الكرب والعديد من الأرواح. لكننا ببساطة لا نستطيع. هذا لأن القتل حدث نادر نسبيًّا، وثبت أن التنبؤ بمن سيقتل من ومتى صعب للغاية. لكننا استطعنا تحديد الظروف التي تتعرض فيها حياة المرأة لخطر معين، وهي تزيد من احتمالات تعرضها للقتل.

* **التنبؤ الأول** الواضح هو أن يمسك الرجل امرأته وهي في علاقة جنسيّة مع رجل آخر، كما هو موضح بالفعل من خلال تواتر جرائم القتل التي تحدث في عينة من جرائم القتل في ميشيغان، وإحصاءات مكتب التحقيقات الفيدرالي، والدراسات المشتركة بين الثقافات وفي خيالات قتل الرجال. لسوء الحظ، فإن هذا الدليل لا يصلح للوقاية. فعلى الرغم من أن النساء يبذلن جهودًا كبيرة لإخفاء الخيانة، إلا أن الرجال طوروا دفاعات لاكتشافها[41]، الغضب المستلهم من رؤية شريك في اقتران عارٍ مع آخر يزعج معظم الرجال.

* **التنبؤ الثاني** هو استهلاك الكحول. ففي إحدى الدراسات التي أجريت في أستراليا، كان أكثر من 50 % من قَتَلة الأزواج قد استهلكوا الكحول في الساعات التي سبقت القتل[42]. الكحول، بالطبع يقلل من العقبات ضِدّ تنفيس العواطف من الشهوة الجنسيّة إلى الغضب الناجم عن الغَيْرة[43]. دراسات أخرى أجريت في السويد، وجدت أنه كلما زاد الاستهلاك الفردي للكحول زادت معدلات القتل في كل أنحاء البلاد[44]. لكن في المقابل، تحدث قرابة 50 % من جرائم قتل الأزواج بدون أن يكون أحدهما تحت تأثير الكحول.

حتى في هذه الحالات التي حدثت تحت تأثير الكحول، لا يمكن أن يُعزى القتل بالضرورة نتيجة للسُّكْر. وبالفعل، إحدى استراتيجيات التكيف التي يتبعها الرجال عندما يكتشفون خيانة شريكاتهم هي الخروج للتسكع والسَّكر. الخيانة في هذه الحال تؤدي إلى شرب المزيد من الكحول، الأمر الذي يغير موازنة الرجال بين التكاليف والمنافع

ويقلل إدراكهم لتكاليف القتل ومن ثم يزيد من احتماليّة حدوثه. الكحول بالتحديد ينشّط آليات القتل المتطوِّرة فينا[45]. وذلك لأنه يزيد من إدراك الرجال لقوتهم وشجاعتهم[46]. وأيضاً يغير إدراكهم لمخاطر القتل وفوائده. وبالتالي فمن الأفضل أن يُعَدَّ كمادة تُسهل تنشيط وتطبيق دوائر القتل المتطوِّرة فينا. من المثير هنا أن الغالبيّة العظمى من النساء اللاتي يقتلن شركائهن لا يكنَّ تحت تأثير الكحول، في حين أن فقط 24 % منهن يتناولن الكحول قبل الإقدام على القتل.[47]

* **التنبؤ الثالث** يتمثل بعُمر الرجل. في إحدى الدراسات التمثيليّة، وُجِد أن 81 % من الرجال ممن قتلوا شريكاتهم كانت أعمارهم تتراوح بين العشرين والتاسعة والأربعين.[48] يتناقض هذا التوزيع العُمري بالنسبة لأنواع أخرى من الجرائم العنيفة، مثل السطو المسلح وحرب العصابات، حيث تراوحت أعمار الرجال بين 16-24 عاماً[49]. وبمُجرَّد أن يصل الرجال إلى الخمسينات تتراجع معدلات القتل حيث وصلت إلى 7 ,7 % في مقابل 23 % للرجال في الأربعينات. المدهش بالأمر أن النساء اللاتي يقتلن شركائهن غالبا وبلا تفاوت كنَّ في سن الشباب. فالغالبيّة العظمى من النساء اللاتي يقتلن شركائهن، أي ما يقارب 79 % كن في بدايات مراحلهن التكاثريّة، أي من السادسة عشرة إلى التاسعة والثلاثين. وكما سنرى في الفصل القادم، يشكل هذا الفارق دليلاً حاسماً على تفاوت الرجال والنساء في دوافعهم للقتل.

تعاود معدلات قتل الشركاء الارتفاع مرة أخرى بعد أن يدخل الرجال في الستينات، وهذا يمثل 11 % من معدلات قتل الشركاء.

[50] يمكن تفسير هذه الزيادة بوجود عاملين مهمين. **الأول**: تندرج الكثير منها تحت تصنيف **القتل الرحيم**. كان من الواضح أن الحالات التي غلبت عليها الشفقة، لا الغضب جرَّاء الخيانة هي من أدت لهذه الزيادة. في إحدى الحالات من دراستنا لقَتَلة ميشيغان، قام رجل يبلغ 72 عاماً بضرب زوجته 64 عاماً بأنبوب معدني على رأسها أدى لمقتلها. كانت زوجته تعاني بشدة من السرطان. وقد صرح بأنهما ناقشا هذا الموضوع لمدة طويلة، وأنه فكر طويلاً قبل أن يفعلها. أفاد إنه لم يعد يحتمل رؤيتها تصارع الألم أكثر فأراد أن يخلِّصها من مأساتها. وقال إنه أحبها وكان متأسفاً على قتلها.

الثاني، يقتل الرجال الأكبر سناً المتزوجون من نساء شابات، بما يسمى زواجات **مايو-ديسمبر** شريكاتهم بمعدلات أكثر من المتزوجين من نساء مقاربات إلى أعمارهم.[51] السبب في معظم هذه الجرائم هي الخيانة الزوجيّة. فالنساء الأكثر شباباً لديهن بدائلُ اقتران أكثر، بسبب جاذبيتهن وخصوبتهن، وهن مستهدفات بنحو أكبر من المنافسين. هذا بالإضافة إلى أن الرجال المسنِّين المتزوجين من نساء شابات يواجهون عموماً صعوبات أكبر في إيجاد نساء بديلات بنفس مستوى المرغوبيّة. وبالفعل، أكدت دراستي حول الشركاء المتزوجين أن الخيانة والحماية المتشددة للشريك تزداد بازدياد الفارق العُمري بين الزوجين.[52] يصبح المسنُّون المتزوجون من نساء شاباتٍ أكثر يقظة وعُنْفاً. ففي إحدى الدراسات حول جميع جرائم القتل التي حدثت خلال عام كامل في هوستون، تكساس، وُجِد أن 32 منها كانت متعلقة بقتل زوجي، مثل التفاوت العُمري بين الزوجين بعشرة أعوام أو أكثر 25 %.[53]

إن حادثة قتل فتاة بلاي بوي، دوروثي ستراتن، من قبل مراوغ تافه يُدعى باول سايندر، يوضح منطق التفاوت بين قِيم الشريكين في العلاقة. قابل سايندر دوروثي عندما كانت تعمل في أحد مطاعم ديري كوين. كانت في السابعة عشرة، وكان في السادسة والعشرين. وبعد فترة قصيرة من محاولة التقرب إليها، أصبحا شريكين. أقنعها بأنها تملك جسماً مثاليًّا ووجهاً ساحراً وأن بإمكانهما أن يحصلا على الشهرة والثروة من مجلة بلاي بوي الإباحيّة. قام بتصويرها عارية، ثم أرسل الصور إلى ناشر المجلة هيوف هيفنر، وتلقى رداً في غضون يومين.[54]

ذهبا إلى مقر مجلة بلاي بوي وأصر سايندر على دفع الرسوم. قدمت دوروثي عرض الشهر في 1979 وفازت بجائزة العام واحتلت مرتبة عارِضة ربع القرن. أصبح مشاهدو وقرّاء بلاي بوي مفتونين ببشرتها الشفافة الشابة، وجسمها اليافع المتناسق، وعينيها المتطلِّعتين لفارس أحلامها. أهان هيفنر سايندر وطرده من مقر بلاي بوي في النهاية. ليصبح سايندر عاطلاً عن العمل. وفي أثناء ذلك، قدَّم هيفنر دوروثي إلى ممثلي هوليود، ومن ضمنهم بيتر بوغدانوفيتش مخرج الأفلام المعروف الذي أخرج فيلم (القمر الورقي) وفيلم (آخر عرض صور). بقي باول سايندر المتملق من فانكوفر، منبوذاً، لكنه استمر في علاقته مع دوروثي وتقدم لخطبتها. وافقت على الزواج منه لأنها شعرت بأنها مدينة له بنجاحها في بلاي بوي، لكنها بعد ذلك وقعت بحب يائس مع بوغدانوفيتش. رغم جهود أصدقائها في إقناعها بالابتعاد عن سايندر، وافقت على رؤيته للمرة الأخيرة بسبب إلحاحه، فقد رأت بأنها مدينة له بلقاء أخير.

وفي الرابع عشر من أغسطس عام 1980، التقت بسايندر لينهيا العلاقة بسلام. حملت ألف دولار في حقيبة يدها كهديّة لعلّها تخفف صدمة الانفصال. لكنه قتلها بمسدس. وجد المحققون جسمها ملطخا بالدم مع تشوه للوجه البريء الذي شعَّ بأغلفة المجلات. وجدوا بصمتين دمويتين تتعلقان بسايندر على أردافها، ودليلاً على أنه اغتصبها. قُتِلت دوروثي ستراتن، التي تجاوزت قيمتها بكثيرٍ قيمة سايندر التافه العاطل عن العمل، وهي في العشرين من عُمرها. من المفارقات، أن دوروثي قد دونت «**الأشخاص الغيورين**» في سيرتها الذاتيّة ضمن الأشخاص غير المرغوبين. تضمنت جريمة قتل دوروثي ستراتن كُلَّ عوامل خطر تعرض النساء للقتل على أيدي الرجال الذين يرفضنهم: الشباب، والجاذبيّة، والزواج من شخص أكبر سناً بعد أشهر قليلة من الانفصال، عندما يستطيع أحد المنافسين الوصول إليها، وعندما لا تضمن إمكانات الرجل أن يستبدلها بأخرى معادلة لها في القيمة.

بشكل عام، الشابات في خطر خاص من الذين يصرحون بحبهم. من أستراليا إلى زمبابوي، كلما كانت المرأة أصغر سنًا، زادت احتماليّة تعرضها للقتل نتيجة الخيانة الجنسيّة أو تركها للعلاقة العاطفيّة.[55] النساء التي تتراوح أعمارهن بين 15 –24 عام هنَّ في أعلى خطر. أما بالنسبة للواتي تتراوح أعمارهن بين 25 –30 عام، فينخفض الخطر بنسبة 25 % ويستمر الخطر في الانخفاض مع تقدم العُمْر. لماذا تكون النساء الأصغر سنًا أكثر عرضة للخطر؟

تَكْمُنُ الإجابة في مجموعة من الحقائق المترابطة. - تتمتع النساء الشابات **بخصوبة أكثر وقيمة تكاثريّة أكبر**، وبالتالي يمثّلن خسارة تكاثريّة

أكبر للرجل. من منظور الرجل، أن تفاقم خسارته ستتضاعف باحتمالات أن تقترن شريكته الشابة أو تتزوج مرة أخرى، لتصبح خسارتُه مكسبًا لأحد منافسيه. في لعبة النجاح التكاثُري-التفاضليّ القاسية، يشكل قتل المرأة الشابة المنفصلة خسائرَ أكثر على المنافسين من قتل المرأة الأكبر سناً.

* **التنبُّؤ الرابع يتمثل بطول فترة الانفصال** - كلما كانت قصيرة كان الخطر أكبر. في دراسة أجريت على217 شابة أستراليّة منفصلة قتلت على يد زوجها الغاضب، كان 47 % منهن منفصلات عن أزواجهن قبل شهرين سابقين للجريمة![56] بينما وجدت دراسة أخرى في أستراليا، أن معظم الجرائم حدثت بعد عام الانفصال الأول.[57] وأيضاً أظهرت دراسة في شيكاغو أن 50 % من جرائم قتل الزوجات حدثت بعد شهرين من الانفصال، وعدد مقلق منهن (85 %) قتلن بعد عام الانفصال الأول.[57] وهكذا، تشعر النساء، عندما يتخلصن بنجاح من زواج سيِّئ، بأنهن في خطر أكبر.

الخطر لا يَكمُن بوقت الانفصال ذاته، بل عندما يرى الرجل أن زوجته - السابقة - ضاعت منه بلا رجعة. والدليل أن في القليل من جرائم قتل الزوجات التي حدثت في العام الأول أو الثاني بعد الانفصال كان الزوجان يحظيان بعلاقة جنسيّة بين الحين والآخر حتى برغم انفصالهما. الأمل في أن تعود، كما هو مبين من الجنس، سيوفر حاجزًا وقائيًّا، يقلِّل من احتمالات محاولة القتل. لكن عندما يتوقفان عن ممارسته، ويدرك الرجل أنها لن تعود إليه أبداً، ستكون حياة الشريكة في خطر. إليك أحد الأمثلة على هذه الحالات من دراستنا لأفكار النساء الدفاعيّة ضِدّ القتل:

* «ظلّ يهاتفني ويخبرني بأنه لطالما أحبني وأنه لا يعرف ماذا يفعل إذا ما تركته للأبد... ولأنه كان يعلم مكاني، خشيت أن يأتي ويقتلني. [**ماذا فعلتِ لحماية نفسكِ من القتل؟**] توسلت ورجوته أن يتركني وشأني. لم أعرف ماذا أفعل ولم أرد أن أخبر والديَّ. [**ما منعه من قتلكِ؟**] أعتقد لأنه أحبني جداً وظن أن هناك فرصة لنعود إلى بعضنا في المستقبل. [**ما سيدفعه أكثر لقتلكِ؟**] إذا ما واعدتُ رجلاً آخر».

تزداد احتمالات قتل الشريكة بشكل دراماتيكي فقط عندما يتضح للرجل أنه فقدها للأبد وأن من المحتمل أن تواعد منافساً جنسيًّا.

* التنبؤ الخامس: هو **التفاوت بين قيمتي الشريكين** - أي عندما تتفوق قيمة المرأة بكثير على قيمة شريكها. زواجات مايو-ديسمبر هي إحدى الحالات، ولكن فارق العُمْر ليس العامل الوحيد؛ فافتقار الرجل للموارد الماليّة هو أيضاً عامل تفاوت آخر. تشير مرغوبيّة المرأة العالية إما إلى أن الرجل غير قادر على استبدالها بأخرى على الإطلاق، أو أن احتمالات استبدالها بامرأة بقدر مرغوبيتها قليلة جداً. إن الرجال الذين يواجهون مشكلة قابلية الاستبدال بشكل أكثر حدة هم أولئك الذين يفتقرون إلى ما تريده النساء في شريك طويل المدى. فالرجال الكسالى الذين لا يستطيعون الحصول على عمل أو الذين ينفقون أموالهم على المخدِّرات والمقامرة تقل قيمتهم الزواجيّة في عيون معظم النساء. وبالتالي، فإن الرجال الذين

لا يستطيعون الحصول على شريكة أخرى هم الذين يفتقرون إلى ما تريده النساء.

في الواقع، لقد أثبتت إحدى الدراسات التي قارنت تطابق الرجال والأطفال بالاستناد إلى سبع فصائل دم على وجه التحديد أن الرجال الذين يفتقرون إلى الموارد هم أكثر عرضة إلى مشكلة الخيانة الجينية (أي أكثر عرضة إلى الغش الذي يجلب أطفالاً من رجال آخرين).[59] من بين الرجال ذوي المَكَانة الاجتماعيّة والاقتصاديّة العالية، كان 2 % فقط من الأطفال ينتسبون إلى آباء غير آبائهم المفترضين. وبين الرجال ذوي المَكَانة الاجتماعية والاقتصاديّة المتوسطة، ارتفعت نسبة الخيانة الجينية إلى 12 %. وبين الرجال ذوي المَكَانة الاجتماعيّة والاقتصاديّة المنخفضة، وصلت نسبة إلى 20 %. وبما أن الخيانة الجينية لا تحدث إلا إذا قامت الزوجة بخيانة زوجها، فمن الواضح أن الرجال الذين يفتقرون إلى الموارد يعانون من مشاكل أكثر تتعلق بعدم التيقُّن من الأبوة.

وهكذا، لن يكون مستغرباً أن الرجال العاطلين عن العمل، وبالتالي المفتقرين إلى الموارد التي تريدها المرأة سيكونون عاجزين عن استبدالها بشريكة أخرى إن خانتهم أو هجرتهم. هؤلاء الرجال على الأرجح هم من يَقْتُلون عندما يُهجرون.[60] تدعم إحصائيات القتل هذا التنبؤ الحاسم. ففي إحدى الدراسات، كان 64 % من الرجال الذين قتلوا زوجاتهم عاطلين في وقت الجريمة[61].

كما أن هؤلاء الرجال على وجه التحديد هم الأكثر عرضة للقتل على أيدي شريكاتهم، واللاتي يتصرفن دائماً بطريقة دفاعيّة ضِدّ

الرجال الذين أساؤوا إليهم باستمرار أو هددوا أو حاولوا قتلهن. في إحدى الدراسات؛ أجرت اختصاصيَّة عِلم النفس الشرعيّ، أنجيلا براون، مقابلات مع 42 امرأة أتُّهمن بقتل أو محاولة قتل أزواجهن.[62] في هذه الدراسة كان الأزواج من طبقات اجتماعيّة أدنى من زوجاتهم، وتعليمهم ضئيل في المعدل والعديد منهم كانت لديه قدرات ضعيفة على توفير الموارد لعائلاتهم. بل إن أقل من نصفهم هم من كانوا موظفين طيلة فترة العلاقة، وحوالي 28 % منهم كانوا موظفين بشكل متقطع.

ومع أن الرجال ذوي المكانات الاجتماعيّة المنخفضة والموارد القليلة من المحتمل أن يقدموا على قتل زوجاتهم، إلا أن الكثير من ذوي الأعمال المحترمة يقتلون أيضاً، كما توضح الحالة التالية.

* «ماثيو وكارين في أوائل الثلاثينات من العُمْر. كان ماثيو طبيباً ناجحاً وكانت كارين مديرة أعمال. كان لديهما طفل وكانت كارين حاملاً منذ أشهر. ومع أنه لم يكن هناك تاريخ عُنْف أسريٍّ في هذه العائلة، علمت كارين أن ماثيو لم يكن مخلصاً لها قبل بضعة أعوام. وعندما اكتشفت ذلك، هددته بترك علاقتهما. فما كان من ماثيو إلا أن هددها بالقتل إن حاولت مرة أخرى ملاحقته. التزمت كارين بما قال، لكنها بدأت علاقة مع رجل آخر قبل عِدّة أشهر من جريمة القتل. ادعى ماثيو أن 3 أشخاص اقتحموا منزله وقتلوا كارين وربطوه في صندوق سيارته الخلفيّ. غير أن الأدلة التي جمعتها الشرطة أظهرت دليلاً على أنه قتلها، ليدان بجريمة القتل». [63]

ومع أن الافتقار إلى الموارد الماليّة يزيد من احتمالات الخيانة الزوجيّة ومن ثم يزيد احتمالات القتل، إلا أن جرائم الخيانة وعمليات القتل ذات الصلة بالزواج تحدث في كُلِّ الطبقات الاجتماعيّة، وكما رأينا سابقاً في قصة مليونير سان أنتونيو **آلين بلاكثورن** الذي أُدين بقتل زوجته السابقة. ومع أن العمل المربح للرجل يقلِّل من تطلع الزوجات إلى العلاقات مع رجال آخرين، إلا أن النساء في هذه الزيجات قد يكُنَّ مدفوعات إلى الانحراف ويخاطرن بحياتهن من أجل الرجال الذين يحبونهنَّ.

يملك جميع الرجال نفسيّة قتل متطوِّرة تَكْمُنُ داخل عقولهم. وهي لا تنشَط أبداً بالنسبة لبعض الرجال، لأنهم لا يواجهون مشاكل تكيفيّة كالخيانة الزوجيّة أو الهجران، أو ليسوا في وضع يجعلهم يفكرون في القتل. فكما أن العيش في عالم خالٍ من الاحتكاك يمنع نمو الثَّفَن أسفل القدم، فإن العيش مع زوجة واحدة والحُبّ مدى الحياة يجعلان آليات قتل الشريك العاطفيّ تبقى خاملة. ولكن عندما تُنشَّط، فإنها تكلف النساء تكاليف باهظة لدرجة أن التطوُّر بالانتقاء الطبيعيّ منحهن آليات دفاعيّة فعّالة.

دفاعات النساء ضدّ الشركاء القَتَلة

إذا كان للرجال أفكار قاتلة إزاء الخيانة أكثر من النساء، وإذا ما كانوا أكثر عرضة لترجمة أفكارهم الإجراميّة إلى أفعال، فيجب أن نتوقع بأن النساء قد طوَّرن أيضًا دفاعاتٍ أكثر للحيلولة دون سقوطهن كضحايا تحت هذه الظروف. إحدى هذه الدفاعات هي الشعور بالخوف من الوقوع ضحيّة للقتل حينما يشك الشريك أو عند

يدرك اعتداءً جنسيًّا. كشفت العديد من النساء في دراستنا للأفكار المضادة للجريمة عن مشاعر الخوف هذه:

* «الحالة (340)، أنثى، 26 عاماً [**من يفكر في قتلكِ؟**] حبيبي. خنته مع صديقي السابق والذي كان صديقه... كان غاضبًا جدًا ولم يعلم ما سيفعله لدقائق... اعتقدت أنه أرادني أن أختفي لوهلة... لم يحاول أن يقتلني. أنا واثقة بأنه كان غاضبًا لدرجة أن الفكرة راودته لكنه لم يسبق أن حاول إيذائي من قبل. [**ما منعه من قتلكِ؟**] أصبح هادئًا وترك الموضوع. لا أظن أن هذا يُمكن أن يحدث فعليًّا».

إن المدهش في هذه الحالة أن الحبيب لم يظهر أيَّ مؤشرات لا علامات، لا تلميحات، لا تهديدات - إلى أنه أراد قتلها. مُجُرَّد كونه علم بخيانتها كان كافياً لجعلها تفكر في أنه قد يريد قتلها. الدوائر النفسيّة هنا تربط إدراك المرأة واكتشاف الرجل بأمر خيانتها، وتجعلها تفكر مباشرة بأن اكتشافه قد يقوده إلى غضب قاتل.

في الحالة التالية، كانت خيانة المرأة وحدها كافية بأن تجعلها قلقة حول سلامتها، حتى مع أن حبيبها لم يكتشف أمر خيانتها بعد:

* «الحالة (543)، أنثى، 32 عاماً [**من يفكر في قتلكِ؟**] حبيبي. لا أعتقد من أنه سيؤذيني، لكنه عندما سيكشفني أظن بأنه سيفعل. أو على الأقل، اعتقدت أنه قد يؤذيني جسميًّا أنا وعائلتي. هو لم يكتشف بعد أن لي علاقةً برجل آخر. هو غيورٌ جداً وأخبرني من قبل بأنه قد يفعل شيئا فظيعاً بي إذا ما خنته. ولحسن الحظ، لم يكتشف إلى الآن أن لي علاقة برجل آخر».

كما قد نتوقع، يزداد الخوف من التعرض للقتل عندما تكتشف المرأة أنها غير مخلصة جنسيًّا.

«الحالة (458) أنثى، 21 عاماً [**من يفكر في قتلكِ؟**] حبيبي. كان ذا طبع سيِّئ ومعروفاً لجميع الرجال في عائلته. هو حبيبي طيلة مرحلة الثانويّة وحب حياتي. قام بخيانتي فقمت بخيانته. لم ترق له هذه الفكرة. دفعني وقال لي كلاما جعلني أشعر بالإهانة. وبالطبع، تقبلتُ هذا لأنني أحبه. ذات يوم في المدرسة مسكني من رقبتي. ظننت أنه سيخنقني. ضغط على فمي فلم أستطع التنفس. لقد أحببته. وأظن أنه أدرك أنه يؤلمني. وكنت أعلم أنه لم يكن ليفعل هذا بي. كان فقط في مزاج سيِّئ. لقد أدرك ما كان يفعله وأنا أعلم أنه أحبني ولم يستطع أن يتمالك أعصابه».

يستطيع الرجال خداع آليات دفاع النساء ضِدّ القتل. إحدى وسائل التلاعب هي التهديد بالقتل كرادع للخيانة. تشعر العديد من النساء بالخوف إذا قام الرجال بتهديدهنَّ فعليًّا أو ضمنيًّا.

* «الحالة (398)، أنثى، 24 عاماً. [**من يفكر بقتلكِ؟**] حبيبي. إنه غيور جداً ويعاني من فقد السيطرة على غضبه. كنت في سيارته وكان ثملاً. اتهمني أنني أخونه بغضب. وبقدر ما ازداد غضبه ازدادت سرعته في القيادة وتهوره. اعتقدتُ أنه أرادنا أن نصطدم لكي أموت، لأنه قال لي إن هناك كيساً هوائياً واحدًا في السيارة بجهة السائق... لم يكن يبدو عليه بأنه يأبه لعواقب أفعاله. كان بأسوأ حالاته العَقْليّة. كان ثملاً، وعادة عندما يثمل يكون اندفاعيا جداً. اعتقدتُ أنه سيفتعل

حادثا في جهة الراكب ليقتلني. [**ما فعلتِ لتمنعيه من قتلكِ؟**] حسناً، قمتُ بربط حزام الأمان وبدأت أتكلم معه لأوضح له الأمور. كان لديه انطباع بأنني أخونه، فكان عليَّ أن أقنعه بعدم صحة كلامه وأهدِّئه. لذا بدأتُ أتهمه بأنه مخطئ باعتقاده بأنني أخونه. لاحظت أنني بارعة في جعله يشعر بالذنب ونجحت في تهدئته. [**ما منعه من قتلكِ؟**] كلامي وإقناعي إياه بأن اتهاماته لي خاطئة تماماً وغير حقيقيّة. [**ما سيدفعه أكثر لقتلكِ؟**] - إذا خنته أو إذا اعترفت له بخيانتي، لأنه على كُلِّ حال قد اتهمني بها».

وبعكس العديد من النساء الكثيرات اللاتي أعربن عن خوفهنَّ من القتل على أيدي شركاء غيورين إثر خيانة واقعيّة أو مشتبهة، أعرب رجل واحد فقط في دراستنا عن مثل هذا الخوف، وفي هذه الحالة كان خوفه مرتبطاً بحقيقة أنه هجر حبيبته:

* «الحالة (307) ذكر. [**من يفكر في قتلك؟**] حبيبتي. خنتها مع امرأة أخرى، وهجرتها. وبعد أسبوع هددت بقتلي عندما تعثر عليّ وأنا أضاجع تلك المرأة. غضبت بسرعة وانفعلت. كانت أضخم جسميًّا مني. [**كيف تعتقد أنها ستقتلك؟**] ببندقيّة أبيها عندما أكون نائماً. [**ما فعلت لتمنعها من قتلك؟**] دعوتُ أنها لم تكن جادة. أغلقت الباب. كان حدسي يخبرني بأنها ليست جادة لكنني لم أرد المخاطرة بحياتي. [**ما منعها من قتلك؟**] كلام عائلتها وأصدقائها معها. [**ما سيدفعها أكثر لقتلك؟**] - إذا ما أثيرت غيرتها بالخروج مع حبيبتي الجديدة».

يخشى قِلة من الرجال مقارنةً بالنساء أن يقتلوا على أيدي شريكاتهم، لأن المشكلة التطوُّريّة (القتل على يد شريك عاطفيّ) كانت أقل شيوعاً بالنسبة للرجال مقارنة بالنساء. بينما تزداد احتماليّة أن تسامح النساء خيانة الرجال إياهن، خصوصاً إذا كانت لمرة واحدة ولم تتضمن أيَّ ارتباط عاطفيّ أو نفسيّ على المدى القصير. لكن النساء أيضاً يمكن أن يصبحن قاتلات في حالات معينة، وهذا ما سنستعرضه في الفصل القادم.

الفصل الخامس

المفترسون الجنسيُّون

«لأملكَك وأحافظ عليكَ من اليوم للأبد... حتى يفرقنا الموت»

«**ليس للجحيم غضب كغضب امرأة أحست بالخيانة**». يتردد صدى هذا القول بالرسوم الكاريكاتيريّة العامة لمزاج الأنثى. أدعى الكاتب روديارد كبلينغ أن «**الأنثى في كُلِّ الأنواع أكثر بطشًا من الذكر**». بينما أكَّد الفيلسوف فريدريك نيتشه أن «**المرأة في الانتقام والحُبّ أكثر وحشيّة من الرجل**». كبلينغ ونيتشه، وكما رأينا للتو بأغلبيّة ساحقة في الفصل السابق مخطئان تماماً. فالرجال هم أكثر قتلاً. فعلى سبيل المثال، وفي دراستنا لقاعِدة بيانات مكتب التحقيقات الفيدرالي التي تحتوي على 429729 جريمة قتل، أرتكب الرجال 378161 جريمة، بينما ارتكبت النساء 51567. عندما تصبح المرأة قاتلة، فإن ثَمَّة أسباباً تكيُّفيّة مُحدَّدة، تختلف للغاية عن التي تدفع الرجال إلى القتل.

عند التفكير بمدى اختلاف دوافع النساء للقتل عن دوافع الرجال، أعتبر هذه الإحصائيّة. من بين الرجال الذين فكروا بقتل شريكاتهم كان 54 % مدفوعين بسبب إنهاء المرأة للعلاقة، في المقابل كان 13 % من النساء مدفوعات لقتل شركائهن بسبب هجرهم إياهن.[1] ومع ذلك كانت من بين حوالي 32 ألف حالة

قتل ارتكبتها النساء بين أعوام (1976 -1994) 43 % منها بالكامل حالات لضحايا أزواج أو شركاء حاليين أو سابقين.[2] وكما هو الحال مع الرجال، ارتبط الاقتران والقتل ارتباطاً وثيقاً في النساء القَاتلات. ومع ذلك، فإن تطوُّر نفسيّة القتل لدى النساء خضع لمجموعة مختلفة تماماً من الظروف.

المفترسون الجنسيون الحميمون

تُسلط الروايات المخيفة لخيالات النساء للقتل بدراستنا الضوءَ على أنواع المشكلات المعينة التي تدفع النساء إلى قتل شركائهن/ أزواجهن.

* «الحالة (2308) أنثى، 18 عاماً. [**من فكرتِ في قتلهِ؟**] حبيبي السابق: جيفري، يبلغ 21 عاماً. تعرفت عليه من خلال أصدقاء الثانويّة. طوال علاقتنا كان يسيء إليَّ بالكلام، فيصفني بالبدينة وبأنني لا أملك أيَّ قيمة في حياتي. كان دائماً يتبعني إلى الأماكن التي أذهب إليها ويمنعني من التواصل مع الأصدقاء. ويجعلني أفعل أشياء لا أرتاح لفعلها كأن يجبرني على ممارسة الجنس أو أفعالٍ جنسيّة مخزية. [**كيف فكرتِ في قتلهِ؟**] كنت في مرحلة الثانويّة أعرف بعض أكبر رجال العصابات، وكنت أحلم بأن يبرحوه ضرباً حتى الموت. [**ما منعكِ من قتلهِ؟**] أنا لست قاتلة، لكنني قد أفكر في القتل إذا ما كانت حياتي أو حياة عائلتي في خطر. لذا سأفكر بقتله إذا أحسست أنه يشكل خطراً على حياتي أو عائلتي».

منع حبيبها علاقاتها بأصدقائها، وأرغمها على ممارسة الجنس، وقلل باستمرار من تقديرها لذاتها وانتقص أهم الجوانب التي تجعل النساء يعرفن قيمة مرغوبيتهن: **المظهر الجسميّ**. ومع أنها

حاولـت جاهِدةً الخروج من العلاقة بدون الاضطرار للقتل، إلا أن القتل كحلٍّ لمشـاكلها خطر ببالها كما خطر ببال الكثير من النسـاء في دراستنا.

* «الحالـة (96) أنثـى 18 عاماً. [**من فكـرتِ في قتلهِ؟**] حبيبي السـابق، مايكل. أعتقد أن التفكير بالقتل لم يحدث بعد حادث واحـد فحسـب، بـل بعد عـام ونصف العـام مـن الأحداث. الأشـياء التـي جعلتنـي أفكر في قتلـه كانت: محاولتـه للتحكم في اختيـاري لمـن أقابـل وما أفعـل ومتى أذهـب وإلى أين. لقد حـاول أن يحكـم قبضته على كُلِّ جانب من حيـاتي منذ دخولنا إلى الكليّـة معـاً. كان يقول لي أشـياء بغيضة، ويناديني بأسـماء مهينـة، ويجعلنـي أشـعر أن لا قيمـة لي أو أني لـن أجـد أفضل منـه (ومـع أن هذا غير صحيح، إلا أنه جعلني أشـعر بأنني لن أجد شـخصاً أفضل منه). كان هنـاك أمران جعلاني أفكر حقاً في قتلـه: الأول، أنـه اشـتبك اشـتباكاً عنيفاً مع أمـي. والثاني، أنـه دعـاني بالعاهرة. [**كيف فكـرتِ بقتلهِ؟**] لم يخطـر ببالي أبداً كيف سـأقتله. لكننـي أتذكر بأن رغبتـي في أن أراه ميِّتا -ليس عـلى يـديَّ بالضرورة-بـدأت تزداد شـدة أكثـر مـن أيِّ رغبة أخـرى. [**ما منعكِ مـن قتلهِ؟**] أنا لن أفكر قطعـاً في قتل أحد، فلـدي أخـلاق وأنـا مسـيحيّة وأرى أن ليس من حقي سـلب حياة أحدهم. لكنني أرى أن من المريح أن تتَخَيَّل شخصا آخر يقتل أو يعذِّب الشـخص الـذي آذاك. [**ما سـيدفعك لقتله؟**] لا شيء... في الواقـع سـأفكر بجد بقتله إذا مـا بدأ يضربني أو يؤذيني جسميًّا».

ومُجُـدَّداً، نرى أن صديقها يقوض من احترامها لذاتـها، مما يجعلها تعتقـد أن لا أحـد يريدها، وحرمانـها من الوصـول إلى الحياة العامة. وعـلى الرغـم مـن قيمهـا المسـيحيّة، والإشـارة بداية إلى أنـه لا شيء سـيدفعها للقتـل، فقـد خلصـت إلى أن الاعتـداء الجسـميّ لرُبَّما دفع خيالها لأرجحية أعلى. من المثير للاهتمام بأن أفكارها القَـاتلة تكشف عن اختلاف جوهريّ بين الجنسـين خلال دراسـاتنا العلميّة – النساء أكثـر عرضة مـن الرجال لمجـرد رغبة الشريـك في المـوت، وغالبًا لا يرغبن في القيام بالقتل بأنفسهن. لكن هذا ليس صحيحا دائماً. تتخيل بعض النسـاء طرقًا مُحَدَّدة لقتل شركائهن المؤذين، وكما هو موضح في الحالة التالية.

«الحالـة (483) أنثـى، 18 عامـاً. [**مـن فكـرتِ في قتلـهِ؟**] حبيبي السابق، مايكل، 47 عاماً. لقد عودته على أن أكون فتاة طيبة ومطواعة جـداً. طبيعتـي المِطواعـة جعلتنـي أقابل هـذا الرجل الـذي قدمه إليَّ صديقي. سـارت الأمور بشكل جيد في البداية، لكنني أدركتُ بعدها أنني أخضع لتحكُّمه. صرت جبانة للغاية، ولم يكن يريدني أن أحتك بأيِّ شـخص. في بعض الأوقات، وعندما كنت أذهب لأرى أقاربي، أخي وأخواتي، كان مزاجه يحتد فيرمي ملابسي من أعلى بيتي ويصرخ عليَّ أمام الناس، وأحياناً يضربني ويصفعني. بل إنه ذات يوم وجدني مع أخي فضربه وتشـاجرا ثم هدد أخي بأن يعـود ويضربه أكثر. منذ ذلـك اليوم، كرهته أكثر. [**كيف فكرتِ بقتلـه؟**] عندما أعمل تصبح أفكاري أكثر وحشـيّة. كنت أَتخَيَّل أنني أضع السـم في طعامه. كانت أفـكاري تشـتغل عندما يعـود إلى المنزل ويسـتحمّ. فكـرت أن أضع العشـاء على الطاولة وأعد حسـاءين وأضع في أحدهما سم فئران. بلا

شــك سيشرب حساءه وسيعاني من آلام المعِدة أمام ناظريّ، ثم تخرج الرغـوة البيضـاء من فمـه وينتهي. [**ما منعـكِ من قتلـهِ؟**] خفت من السجن. [ما قد يجعلك تقتلينه؟] إذا آذى أخي مرة أخرى».

تسلط هذه الحالة الضوء على العديد من الجوانب المــهمة إزاء لماذا وكيف تقتل النساء. إحداها ـ إنه بالإضافة إلى ضَرر احترام الذات تنوه النساء، أكثر بكثير من الرجال، للضَرر الذي يلحق بأقاربهم الوراثيين كدافع للقتل. وفي هذه الحالة، قام الرجل بإيذاء، وتـهديد أخيها. وفي الحالة السـابقة ذكرت المرأة أن حبيبها تشابك مع أمها، وفي الكثير من الحالات الأخرى فكرت المرأة في القتل لأن الشريك كلَّفها أطفالها.

ثَمَّة اختلاف مذهل آخر بين الرجال والنساء تشير إليه هذه الحالة، يتمثـل بأسـاليب تفكير النسـاء في القتـل. فالرجال أكـبر وأقوى من النسـاء في المتوسـط، لذا يتوجب على النساء أن يستعملن طرقاً مختلفة للقتـل، حتى في خيالاتهن. فكرت هذه المرأة، مثل العديد من النسـاء في دراستنا، في وضع السُمِّ في طعام شريكها. تستعمل النساء السُّمَّ في القتل أكثر بكثير من الرجال حتى في الجرائم الحقيقيّة. وفي الواقع، من بين أكثر من 5000 رجل في دراسـتنا، ذكر رجـل واحد فقط أنه تَخَيَّل قتل شريكته بالسُّمِّ.

توضح الحالة التالية، من دراسـة منهجيّة لقتل الشركاء العاطفيين في أستراليا، مدى اقتراب النساء، عن كثب من نمط الرجال اليائسين ممن يرون انشقاق شريكاتهم احتمالًا حقيقيًّا:

«كانـت سـو ودون متزوجين منـذ 14 عاماً. وبشـكل واضح، مرّ زواجهـما في الماضي بصعوبـات ماليّة في الأعوام الأخيرة. أصبح دون

مؤذياً جداً، جسديًّا ونفسيًّا. إيذاؤه النفسي كان يتضمن الإذلال، الضرب على الرأس باستمرار، التهديد بالقتل، حبس داخل الخزانة، والإجبار على الجلوس أمام المرآة والتعليق بنحو ساخر. في ليلة القتل، وضع دون سكينا أمام حلق سو، ثم هددها بالقتل، كما حبسها في خزانةٍ وتبوَّل على وجهها. وفي وقت متأخر من تلك الليلة، بعدما ذهب إلى فراش النوم، باغتَتْه سو وضربت عنقه بفأسٍ ثلاث مرات ثم طعنته في معدته حوالي ست مرات بسكينِ نحْت. لم تستطع فيما بعد استعادة تسلسل هذه الأحداث بوضوح. وعندما وصلت الشرطة، كانت في حالة اضطراب عاطفيّ يتطلب التنويم». [3]

الصعوبات الماليّة، لحالة (دون) الذي أخفق في توفير المال الكافي إحدى أقوى عوامل التنبؤ الإحصائيّة بانفصال النساء عن العلاقات العاطفيّة. وهذا يتوافق مع المنطق التطوُّريّ لما تبحث عنه النساء في شركائهنَّ. في محاولته لمنع انفصالها، هو لجأ إلى طرق لحماية علاقتهما وكان يزداد يأسًا مرة بعد أخرى: يقلل من قيمة جمالها الجسميِّ، يذلُّها بالتبوُّل على وجهها، يضربها، ويحبسها. لقد أصبح (دون) **مفترساً جنسيّاً.**

توضح الحالة التالية من دراستنا لقَتَلة ميشيغان الظروف التي تقود المرأة إلى ارتكاب القتل. امرأة في أواخر العشرينات، تحمَّلت بما فيه الكفاية، وصبرت على ضرب زوجها المصاب بالسُّكري لأعوام. وفي كُلِّ مرة حاولت الانفصال عنه، كان يضربها أكثر. في النهاية قررت أن تفعل شيئاً. ومن المثير أنها طلبت المساعدة من عشيقها. بعد عِدّة أشهر من البحث عن حلّ، وجدا بأن القتل هو المخرج الوحيد. تدبَّرا جرعة قاتلةً من الهيروين عالي التركيز. وفي اليوم المعهود، ترددت في

البداية ولم ترد تكملة ما بدأت به. ضربها زوجها بقفا يده على وجهها. طفح كيلها واتخذت قرارها. سيكون الأمر سهلاً. ببساطة ستخلط جرعة الهيروين مع جرعة الأنسولين التي اعتاد زوجها أن يأخذها بانتظام، وسيبدو الأمر كأنه سكتة قلبيّة مفاجئة. قتلت زوجها لتفرَّ من إساءته إليها.

حقيقة بقاء الكثير من النساء مع أزواجهن المسيئين هو أمرٌ مُحيِّرٌ حقاً، حتى إنه يثير غضب عائلاتهن وأصدقائهن. غير إن تفحصنا الوسائل المروِّعة التي يستعملها الأزواج المسيؤون وأخذنا في الاعتبار الآليات النفسيّة التي تتضمنها العلاقات طويلة المدى، فسنتمكن فهم السبب وراء بقاء العديد من النساء مع أزواجهن المسيئين، ولجوء بعضهن للقتل بالنهاية.

عند الهجران، يطرد الرجال إلى أجواء اقتران غير موكدة، ويخاطرون بمحموم لإيجاد امرأة أخرى. ونتيجة لهذه التكاليف، غالباً ما يلجؤون إلى طرق يائسة لمنع نسائهم من هجرهم، فيتشبَّثون بهن ليتجنبوا العواقب الوخيمة لانفصالهن عنهم. من المفارقات، أن الإساءة النفسيّة والجسميّة مصممة للاحتفاظ بالحُبّ على المدى الطويل!

لقد فشلت العبارة الجذابة «**العنف الزوجي**» وتحليلها الأنموذجيّ من قبل عُلماء النفس في إبراز الأسباب الكامنة لضرب الرجال لشريكاتهم. عادة ما يفسَّر ضرب النساء بالأسباب المَرَضيّة، أو قِيَم ثقافة الفحول والمجتمعات الذكورية التي تستضعف النساء. لا يمكن أن تكون هذه التفسيرات صحيحة لأنها تنتهك تمامًا منطق

كيف يصمم التطور عبر الانتقاء نفسية الرجال. لا يمكن أن يتفق جميع الرجال على استضعاف النساء، حتى من حيث المبدأ لسبب بسيط: الرجال بطبيعتهم متنافسون مع بعضهم.[4] لا يرغب الرجال في استضعاف جميع النساء لأن لديهم أخوات وأمهات وبنات أخوات وبنات إخوة يرغبون في حمايتهن والدفاع عنهن. كُلُّ ما في الأمر، أن للرجال تكيُّفاتٍ خاصةً للتحكم والتلاعب بشريكاتهم وهنا يكمن منطق الإساءة المرعب.

يسيء الرجال لشريكاتهم كوسيلة لحلِّ مشكلات تكيفيّة. تتسبب الإساءة في إلحاق الضَّرر باحترام المرأة لذاتها.[5] تقدير الذات هذا، هو بدوره أداة استشعار داخليّة تعرف المرأة من خلالها إلى مدى هي مرغوبة في سوق الاقتران.[6] وبانخفاضه ستشعر المرأة بأنها بلا قيمة وبشعة لدرجة أن لا أحد يرغب فيها. في المقابل، سيقنعها الرجل بأنها كم هي محظوظة لكونها مع رجل مثله. لا أحد سيفكر بالنظر إليها ويواسيها بأنها لم تزل تمثل حالة اقتران. يحاول الرجال، لما لديهم من هوس وتَمَلُّك منع الشركاء من الانفصال، وقطع العلاقات الاجتماعية مع الأصدقاء والعائلة، مما يحدُّ من الوصول الاجتماعي إلى شريكاتهم. هذا يحرم النساء بنحو فعَّال من الحصول على أيٍّ دفعة معنويّة تعيد إليها تقديرها لذاتها المحطمة. إن الإساءة إلى الشريكة، والحماية الشديدة للعلاقة العاطفيّة، والتقييد تعمل بطريقة خبيثة على تدمير علاقات النساء.

ومع ذلك، فإن النساء، على كُلِّ حال، لَسْنَ مُجَرَّدَ بيادقَ خاضعاتٍ في لعبة التحكُّم الرجوليّة. حتى وإن كانت الإساءة غالباً ما تمكن الرجل من التحكم في شريكته، إلا أن النساء طوَّرن آليات دفاعيّة

لحمايتهـن. خط دافعهن الأول يتمثل بالسـعي الحثيـث على الاتصال بعائلاتهن وأصدقائهن. وأيضاً سـتلتمس النسـاء المغازلة من الزملاء المحتملـين الإضافيـين كوسـيلة لتقييـم مـا إذا كان الرجـال يجدونها مرغوبـة بشـدة أم لا. وإذا أصبحت الإسـاءة باهظة الثمن؛ فسـتلجأ النسـاء إلى وسـائل يائسـة لتخليص أنفسـهن، منها القتل. لقد أعطى المنطـق النفسـيّ للقتل في مثـل هذه الحـالات العُنْفيّة، شرعيّـة قانونية للمرأة المُعنَّفة، والتي ستمضي قدماً مع مرور الزمن.

لقـد باتت النسـاء اللاتي يقتلـن دفاعًا عـن النفس، بينـما يهاجمهن أزواجهن بعُنْف، تجنب عقوبة السـجن. لكن المشـكلة هي أن النساء عـادة أضعف وأصغر مـن شركائهن، ويجدن صعوبـات بالدفاع عن أنفسهن في خضم هجوم عنيف. نتيجة لذلك تختار العديد من النساء المعنَّفـات وقتًا للقتل يكـون شريكهن أكثر عرضة للخطر: كأن يكون مخمـوراً أو نائـماً. ولأن القوانين تنص على أن حياة الشـخص يجب أن تكـون في خطـر محتـوم لكي يسـتطيع الدفاع عن نفسـه، فـإن محاميِّ الدفـاع يجـدون صعوبـة دائماً في إقنـاع هيـأة المحلفين بأن المـرأة التي انتظرت حتى ينام زوجها كانت في الحقيقة تدافع عن نفسها. لـينتهي الأمر بإدانة غالبيّة النسـاء، وعادة ما يتلقين عقوبات تتراوح من أربع إلى خمس وعشرين سنة.

أفضـل مثال لهـذه الحالـة يتمثل بقصة دون وسـو التـي ذكرناها سـابقاً. حُكم على سـو بالسـجن خمس سـنوات بتهمة قتل زوجها. استـند القاضي في حكمه لقانون ما يمكن أن يفعله **«الرجل العاقل»** في مثـل هـذه الظروف. إن معيـار الرجل العاقل – وهـو مبدأ ثابت من مبادئ القضاء الغربي الحديث – هو سـعيٌ لتحديد ما يمكن أن

يفعله «الرجل العادي» في حالات مماثلة. ووفقا لأحد الإيضاحات لما يعنيه مصطلح «**الرجل العاقل**»، فإنه يجب «**ألا يكون عاجزاً أو مخموراً. ولا يفقد تحكُّمه في نفسه لُمجرَّد سماع الاعتراف بالزنا. لكنه يفقد توازنه عندما يرى بعينيه زنا زوجته - والتي تعني بـ أنه متزوج من زانية**».[7]

لسوء الحظ، فشل هذا القانون في الاعتراف بأن «**النساء العاقلات**» أو «**الرجال العاقلين**» يواجهون مشكلات تكيفيّة مختلفة للغاية والتي تتطلب حلولاً تكيفيّة مختلفة أيضاً. فبسبب التفاوت في القوة والحجم، لا يواجه الرجال الذين تسيء إليهم زوجاتهم ما تواجهه النساء اللاتي يسيء إليهن أزواجهن من الإيذاء الجسميّ والحجْر. يستطيع الرجال بسهولة الفرار من المنزل، أما النساء فلا يستطعن أحياناً كما في حالة شيلا بيلوش التي سبق ذكرها في بداية هذا الكتاب. مؤخراً بدأت القوانين تدريجيًّا بالاعتراف أن ليس هنالك ما يُدعى «**شخص عاقل**» مطلق عندما يتعلق الأمر بالقتل.

لم ينجح الدفاع في المرافعة عن سوزان رايت التي أُدينت بقتل زوجها. تُبرز قضيتها مُحفِّزًا محُدَّدًا يدفع النساء في الغالب للقتل: المحاولة اليائسة للتخلص من زوجٍ أصبح في جوهره، مفترِسًا جنسيًّا.

في 13 شهر يناير عام 2003، قامت سوزان رايت الشقراء الجذابة ذات السبعة والعشرين عاماً بطعن زوجها 193 مرة بسكين صيد! في منزلها في مدينة هوستون، تكساس، ثم وارَتْه بالتراب في فناء المنزل الخلفيّ. أَدهشت جريمة قتل جيفري رايت جميع الناس في تكساس، وعُرِضت المحاكمة على الهواء مباشرة في جميع أنحاء

الولاية، ليشاهدها ملايين الأميركيين. كان جيفري جذاباً، منفتحاً، ومُحبوبًا جدًا من الأصدقاء والعائلة والمرأة المعجب بها. لقد عمل كبائع سجاد ناجح. وكان زواجه من سوزان يبدو زواجاً سعيداً من الطبقة المتوسطة يزيِّنُه طفلان جميلان. بيدَ أن هذا الظاهر غطى جانباً أكثر سوداوية في شخصيّة جيفري.

التقى الزوجان على أحد شواطئ جالفيستون، تكساس عندما كانت سوزان تعمل كنادلة. وبقدر ما لم يكن جيفري يمانع مقابلة النساء، لم تكن سوزان تمانع مقابلة الرجال. في وقت سابق، عملت سوزان في نادٍ للتعري، وكان جمالها يحظى بإقبال الزبائن الشديد. لكنها استقالت بعد شهرين، ولم تجد العمل الذي يعجبها. اتخذت مغازلةُ جيفري وسوزان طابعاً دراميًّا روائيًّا. كثيرا ما اشترى جيفري الزهور إلى سوزان وغمرها بهدايا مفاجئة. لقد أراد ما يريده الكثيرون: منزلاً، سيارة جميلة، عائلة، وكَلبًا. لكن زواجهما لم يدم بسلام كما بدأ. حيث بدأ جيفري بارتياد نوادي التعري ومواعدة نساء أخريات، ليصاب بالهربس التناسليّ كما تقول سوزان، ويتغير كُلُّ شيء.

بعد ولادة طفلهما الأول برادلي، أصبح جيفري مهووساً بالتحكم في سوزان. فصار يناديها كُلَّ يوم عِدّة مرات ليسألها عما تفعل، ويطلب منها أن تخبره بالأماكن التي تذهب إليها ليلاً ونهاراً. ولم يكن يسمح لها بمغادرة المنزل إلا لمدة قصيرة. وفي المرات التي كانت تطيلُ قليلاً عند زيارتها لوالديها أو تذهب إلى أحد المتاجر بدون إخباره، كان يُجنُّ جنونه من الغَيْرة ويتّهمها بالخيانة. كان يصرُّ على بقاء المنزل نظيفاً ويصرخ عليها إن هي أخلَّت بواجبها ولو قليلاً. ازدادت نوبات غضبه وصارت عنيفة عندما بدأ يتعاطى المخدِّرات. ولأكثر من

مرة كان يلصقها بالحائط ثم يضرب صدرها، حتى أن أخت سوزان بدأت تلاحظ آثار ضرب على ذراعيها ورجليها. ولمرتين بدت سوزان بعينين سوداوين جرَّاء أثر الضرب. ازدادت هذه الحراسة الزوجيّة شدةً بعد ولادة طفلهما: كيلي.

وفي 13 من يناير عام 2003، اتخذت إساءة جيفري منحى أكثر عنفاً. لقد بدأ جيفري يضرب طفله بعد عودته من درس الملاكمة. ذهب برادلي باكيا إلى أمه فقررت للمرة الأولى أنها لا تستطيع التعايش مع عُنْفه ضِدّها وضِدّ طفليها. أرغمتها إساءة جيفري على اتخاذ قرار حاسم فأنذرته إنذاراً نهائيًّا، إما أن يتحكم في تعاطيه للمخدِّرات ويتوقف عن إيذائها أو ستضطر لتركه. كانت ظروف العائلة الاقتصاديّة هي أحد دوافع هذا القرار الحاسم، فقد أغرق جيفري عائلته بديون جمة بإدمانه للكوكايين. وبدأ يقترض من الآخرين وينقطع عن العمل. غير أن الدافع الأكثر احتمالاً كان هو الدفاع عن النفس وخوفها مما قد يفعله إذا ما هجرته. تقول سوزان «**لم أستطع تركه وكنت خائفة منه. كنت أعلم أنه سيقتلني إن تركته. وكان عليَّ أن أطلب مساعدته، وهذا كان خطئي الكبير**».[8]

وفقاً لإفادة سوزان في المحكمة؛ انفجر جيفري غاضبًا ودفعها إلى الأرض، وبدأ بركلها في بطنها، ثم سحبها إلى السرير واغتصبها (وهذا ما فعله مراراً من قبل). وعندما فتحت عينيها سمعته يقول: «**موتي أيتها العاهرة**»، ولاحظت أنه يحمل سكينًا في يده. بيأسها من الخلاص، وبدافع من غريزة الأمومة، قامت سوزان بركله بين فخذيه، وأخذت السكين بينما راح هو يتلوَّى من الألم. قالت: «**كنت مرعوبة لأنه كاد يقتلني. لقد أدركت أنه سيأخذ السكين مني**

إن توقفت وسيقتلني».[9] طعنته مرارًا، ثم توقفت للحظة عندما طرق برادلي الباب، لتطمئنه بأن كُلّ شيء بخير، ثم أغلقت الباب وواصلت طعنه تاركةً 193 إصابة مختلفة: **«لقد طعنتهُ في رأسه ورقبته وصدره وبطنه وقدميه عن كُلِّ المرات التي ركلني فيها، وطعنتهُ في قضيبه عن كُلِّ المرات التي أرغمني فيها على الجنس حين لم تكن لدي رغبة».**[10] أكدت سيندي أخت سوزان شهادتها قائلةً: **«أدرك لماذا طعنته كثيراً هكذا. لقد طعنته بعدد المرات التي ضربها فيها على صدرها، وطعنته في قضيبه عن كُلِّ المرات التي اغتصبها فيها في الليل الحالك».**[11]

ذكرت سوزان بأنها كانت مضطربة بعد الأيام الخمسة للقتل. ومع أنها دفنت جسم جيفري في حفرة في فناء الدار وغطته بالتراب، إلا أنها بقيت خائفة من أن ينهض من قبره ويقتلها. وبعد خمسة أيام، أخبرت أمها بما حدث فأوكَلَتا محاميا ثم اتصلتا بالشرطة. وجدت الشرطة السكين مخبأً في زهريّة ووجدوا قطعة من طرف السكين في جمجمة جيفري رايت.

جادل الادعاء العام إزاء القتل العمد بدم بارد. وادعى أن سوزان لم تكن مدفوعةً بحماية نفسها ضِدّ الإساءة المستمرة على يد زوجها المدمن للكوكايين، بل كانت مدفوعة بالطمع، إذ كان لجيفري تأمين بمبلغ مائتي ألف دولار. لقد رأى الادعاء أن سوزان حاولت إغراء جيفري بقضاء ليلة جنسيّة مثيرة، ثم قيَّدَت يديه ورجليه بأعمدة سرير النوم وطعنته بقلبٍ باردٍ حتى فارق الحياة. كانت سوزان في نظر الادعاء العام متلاعِبة شريرة أتقنت تمثيل دور الزوجة الخائفة من زوجها المغتاظ. أنكرت سوزان علمها بشأن التأمين، وبالفعل،

لقد أخفى جيفري عنها الكثير من الأمور. وفي المقابل، أصبحت قلقة من قرار جيفري بالتأمين على حياته منها. أجمعَ عِدّة شهود – من أصدقاء سوزان وأختها ومصففة شعرها وجارها المباشر – على حقيقة إدمان جيفري للكوكايين وعُنْفه الذي سببه هذه الكدمات واسوِداد العينين الذي عانت منه مراراً. في الواقع، أُدينَ جيفري بالإساءة لفتاة كانت تعمل كراقصة تعرٍّ في أحد النوادي. في المقابل، لم تتلطخ سيرة سوزان بأيِّ نوع من الإساءة، بل كانت أمًّا مُحِبَّة بكُلِّ المقاييس.

– بعد قضاء 5 ساعات من المداولات، أجلت المحكمة حكمها إلى الثاني من مارس 2004. أحسّ القاضي أن جميع الطعنات المائة والثلاث والتسعين، والتوقف عن الطعن حين انتبهت لوجود ولدها، والدفن المقصود في فناء الدار يشير لسبق الإصرار، والقدرة على تمييز الخطأ من الصواب والتفكير العَقْلاني. أدانت المحكمة سوزان بجريمة القتل من الدرجة الأولى، وحكم عليها بالسجن 25 عاماً، على أن يُعادَ النظر في الحكم بعد خدمتها 12 عاماً.

تلقي هذه الحالة الضوء بوضوح على اختلاف تصميم سلوك القتل بين الجنسين. فالإساءة الجسديّة والجنسيّة والنفسيّة المتكررة هي إلى الآن أشهر العوامل التي تثير خيالات القتل للنساء، كما أنها أهم عوامل التنبؤ بالحالات التي تقتل فيها النساء شركاءهن. هذا بالإضافة إلى الإساءة إلى أطفالهن التي يمكن أن تشعل فتيل القتل في عقولهن. كما أن خوف سوزان على حياتها إن هجرت جيفري يلقي الضوء على الخطر الذي تواجهه النساء عندما يقررن الخروج من علاقة مؤذية. ومع أنَّنا لا ننظر للأزواج عادةً بوصفهم مفترسين

جنسيين، فإن قيام الزوج المسيء بمحاصرة زوجته والتحكم في غريزتها الجنسيّة بهوس واغتصابها أصبح في الحقيقة نوعا من أنواع الافتراس الجنسيّ.

وباختصار، إن الدوافع الرئيسة لجرائم القتل التي ترتكبها النساء تتمثل **بالدفاع عن النفس** والرغبة اليائسة في **التخلص من علاقة زوجيّة خطرة**. فالنساء اللائي يجدن أنفسهن في مثل هذه العلاقات المؤذية لا يمكن أن يكُنَّ مخطئات في تقديرهن بمقدار الخطر المحيط بهن. فالعديد من النساء اللائي مررن بظروف مشابهة لم يكنَّ أكثر حظًّا من سوزان رايت: التي على الأقل نجَت سوزان بحياتها.

خيالات النساء للقتل

هذا لا يعني إنه لا يوجد أيُّ نساء قادرات على قتل شركائهن الحاليين أو السابقين عندما يُهجَرْن. فهذه الضربات على المَكانة الاجتماعيّة تلعب دوراً أيضاً بالنسبة للنساء، ولكن ليس دائماً. من المحتمل أن ثَمَّة قضايا أخرى، كالتي تشير إليها الحالة التالية لإحدى النساء في دراستنا:

> * «الحالة (1) أنثى، 38 عاماً. [**من فكرتِ في قتلهِ؟**] حبيبي السابق. إنه كذَّاب ومخادع. كنت دوماً ما أجدُ واقيات جنسيّة في دُرجه؛ وقد قابلته مصادفة منذ 3 أسابيع برفقة زوجته وطفلته على بعد 350 ميلاً من المكان الذي ادَّعى أنه فيه. [**كيف فكرتِ في قتلهِ؟**] تَخَيَّلت أنني أؤجر شخصاً متخصصاً في التفجير ليفجره في سيارته؛ تنفجر السيارة ويتطاير بعيداً. [**ما منعكِ**

من قتلهِ؟] سيكون من الخطأ أن أفعل ذلك، فضلاً عن أنني لا أستطيع تمويل من يقتله. [**ما سيدفعكِ أكثر لقتله؟**] ربح جائزة مالية. [**منذ متى تفكرين في قتلهِ؟**] منذ أكثر من 270 يوماً. [**ما فعلتِـه بالضبط؟**] أبلغت عنه دائرة الإيرادات الداخليّة ورتبتُ لإتلاف ممتلكاتِه».

لاحـظ أنه في هـذه الحالة لم تثـر الخيانة مثل هذا الغضب الشـديد فحسـب. بل إن خداعه قد أجّـج النيران أكثر، وكذلـك حقيقة كونه يقـضي المزيد من وقته مع امـرأة أخرى وطفلها. وبـما أنها افتقرت إلى مـوارد تمويـل قاتـل يقتله، فقـد انتقمت منـه في المكان الـذي يصيب الرجال دائماً في مقتل: الدخل المادي.

وكما أظهرت دراسـتنا لأفكار القتل، فإن متوسـط الجهد الإدراكي المبذول من قبل الرجال للتفكير بقتل النسـاء اللائي هجرنهم كان أشد بمراحـل مـن الذي تبذله النسـاء. لقد خصص الرجال، خلال المسـار الزمنـي للتَخَيُّل، ما يقرب من 15دقيقـة يومياً للتفكير في القتل، وغالباً عـلى فـترات زمنيّة امتدت لأسـابيع أو أشـهر. في بالمقابل، اسـتهلكت النسـاء 4 دقائـق فحسـب في اليـوم، للتفكـير في قتل شركائهـن الذين هجروهن.

ومع ذلك، يأتي أحد أهم المؤشرات على مدى شعور الغضب لكِلا الجنسـين عند الرفض العاطفيّ، من تحليل مـا إذا كان التعذيب جزءًا من الخـيال. في هذا المؤشر، ثبت أن الرفض واكتشاف الخيانة الجنسيّة للشريك متساوٍ للنساء والرجال، حيث عانى 57 % من الضحايا من خيالات التعذيب. هنا بضعة أمثلة:

* «الحالة (3217) أنثى، 21 عاماً. أردت أن أجعله يشعر بالألم والإهانـة بقدر الإمكان. أردت أن أعرِّيه أمام الناس ثم أبرحه ضرباً حتى يموت».

* «الحالة (507) أنثى، 28 عاماً. [**من فكرتِ في قتلهِ؟**] حبيبي السابق. لقد هجرني وحطَّم قلبي. شعرت بالأسى وبأن حياتي لم تعـد ذات معنـى [**كيف فكرتِ بقتلـهِ؟**] - تَخَيَّلت أن أواعده كصديقـة ثـم أغويـه إلى السرير لممارسـة الجنس ثـم أطعنه بينما هـو يضاجعني. [**ما منعـكِ من قتلهِ؟**] لأنـني لم أزل أحبه. [**ما سيدفعكِ أكثر لقتلِه؟**] إذا رأيته برفقة فتاة أخرى».

إن الفرق الرئيس بين الجنسين ليس في وجود خيالات قاتلة حول التفكـير في قتـل الشركاء الذين هجروهم، لكـن في احتمال تنفيذ هذه الخيـالات. ففي حين يقتـل الرجال شريكاتهم لمُجـرَّد هجرهنَّ، تقتل النساء شركائهن الذين حبسـوهن وأساؤوا إليهن وهدَّدوهن، لأنهن وجدن في القتل وسيلة الخلاص الوحيدة.

المتحرّشون كمفترسين جنسيين

أحـد الأسـباب الرئيسـة التي قـد تجعل النسـاء يشـعرن أنه ليس لديهـن خيار آخر هـو أن العديد من الرجال الذين أُهينوا في علاقاتهم العاطفيّة السـابقة يتحولون إلى متحرشـين - نوع آخر من المفترسـين الجنسـيين. في فيلـم (جاذبيّة قاتلة)، طـاردت الشـخصيّة التي لعبتها غلين كلوز، (دور المتحرِّشة) الشـخصيّة التي لعبها مايكل دوغلاس (دور الضحيّة). قام بترك رسالة صوتيّة مسجلة على شريط في سيارته، تجسسـت على عائلتـه، تظاهرت بأنها حامل، وسـلَقت أرنب العائلة.

بعد النجاح الذي حققه الفيلم، انطلقت شائعة بأن ثَمَّة زيادة غير طبيعيّة في الإخلاص الجنسيّ بين الرجال المتزوجين. ولكن بعكس هوليود، يمثل الرجال، لا النساء، الغالبيّة العظمى من المتحرشين اللحوحين والخطرين.

وبالرغم من أن التحرش الجنسي حاليًّا يُعدُّ سلوكًا غير قانوني بجميع الولايات الأميركيّة ومعظم البلدان الأوروبيّة، إلا أن أبحاثنا قد كشفت بأنه استراتيجيّة شائعة بشكل مدهش للتزاوج البشريّ.[12] - ظهر بتواتر مذهل بدراستنا عن فكرة القتل حول الشركاء السابقين.

التحرش جريمة غير اعتياديّة، إذ أنه يُعرَّف قانونياً بالأثر النفسيّ الذي يتركه في الضحيّة. ويتألف من عِدّة أشكال من السلوكيات المتكررة - كالتتبُّع، والمهاتفة، والمراسلة بالبريد، والإهداء والتهديد والزيارة في مقر العمل - التي تثير الخوف لدى الضحيّة.[13] وإن لم تثر هذه السلوكيات الخوف فلا توصف قانونيًّا بأنها تحرش. العديد من هذه السلوكيات بالأصل أساليب عاديّة للمغازلة كإهداء الزهور، والمراسلة، والمهاتفة، والزيارة المفاجئة. فإن لاقت ترحيباً فهي مغازلة، وإن لم تلاقِ ترحيباً وأثارت خوفاً فهي تحرُّش.

الغريب في أمر التحرش هو أنه ينجح أحياناً. تأمل الحالة التالية من دراستنا:

«الحالة (3998) أنثى، تبلغ 21 عاماً. [المتحرِّش]: حبيبٌ سابق. انفصلتُ عنه، فلم يستوعب الأمر. كان يشعر بأنه يمتلكني أو يتحكم بي، وعندما أتخذُ قرارات [مثل الانفصال عنه] كان لا يتمالك

نفسه فينفجر غضباً. لم أستطع أن أواعد أيَّ شخص بعد انفصالنا لأنه سيغضب بشدة، وسيحاول قتاله».

في هـذه الحالة، أفادت المرأة بأن صديقها السـابق سـيظهر، ويهدد بـضرب كُلِّ رجل تواعده. انسـحب جميـع الرجـال، وأخبروها أنهم يحبونـهـا حقًـا ولكن يجب عليهـا الاتصال بهم بمُجـرَّد التخلص من متحرِّشـها الملاحق هذا. بعد 6 أشهر بدأت تواعد حبيبها السابق مرة أخرى لأنها كما تقول لم تجد رجلا آخر حولها - خوفهم جميعاً! وجدنا في دراسـاتنا للمتحرشـين أن 15 % من ضحايا التحرش انتهى بـهم الأمر إلى مواعدة متحرِّشيهم مرة ثانية، و6 % انتهى بهم الأمر لممارسة الجنس مع متحرشيهم.[14]

إن التحرش، كاسـتراتيجيّة اقـترانٍ ذكوريّة، فعاليّةٌ شـيطانيّةٌ ذاتُ حدَّيـن. فهـو **أولاً**، يفرض تكاليف على أيِّ رجـلٍ يقترب من مبتغاه، الأمـر الـذي يجعـل المواعدة خطـرة جداً. يخشـى الرجـال أحياناً من الأحبـاب السـابقين لشريكاتهـم، وذلـك لأنهـم يستشـعرون مقدار الغضـب والرغبة في التملك التي يشـعر بـها المتحرشـون لشريكاتهم العاطفيـات حتـى بعـد الانفصـال عنهـن. انطلاقـا من عـدم اليقين هـذا، يتجنَّـب الناس عـادة الخيـارات المحفوفـة بالمخاطـر.[15] فهم غالبـاً يتوقَّفون عن محاولاتـهـم الرومانسـيّة، وهـذا بالضبط ما يريده المتحرِّش بأفعاله.

ثانيـاً، يكلِّف التحرش الشريكةَ السـابقة، إذ يمنعها من أيِّ محاولة للدخـول في علاقة عاطفيّة مع رجـال آخرين. فالمتحرش يجعل الأمر يبـدو خطراً أن تُرى المرأة برفقة أيِّ شـخصٍ يُظهِـر اهتماماً عاطفيًّا بها

ولـو من بعيـد. لهذا السـبب يُضطر ضحايـا التحرش أن يستسـلموا متنازِلـين عـن علاقاتهـم الاجتماعيّة والرومانسـيّة. باختصـار، يمنع التحرُّش الشريكات السابقات من الاقتران بأشخاص آخرين مجدداً. الخسـارة الفادحة التي يسببها المتحرشون تخلُق مشكلة تكيُّفيّة بالنسبة لضحايـا التحـرش. بعـض النسـاء يحاولـن أن يوضِّحـن لشركائهنَّ السـابقين أسـباب انفصالـهـن عنهـم، وهذه طريقـة غير مُجدِيـة.[16] بينما تحـاول بعضهـن أن يتفادينهم بتغيير أرقـام هواتفهن وعناوينهن ونشاطاتهن اليوميّة. وفي حالات قليلة، تحاول ضحايا التحرش تغيير أسـمائهن وأن ينتقلـن إلى مدينـة أو بلدة أخرى. يتسـبب التحرش في آثـارٍ مدمرة على كُلِّ من الصحة النفسـيّة والعَقْليّة والعمل والإنتاجيّة والحيـاة العاطفيّة لدرجة أن بعـض الضحايا بدأن يفكِّرن في القتل كما في الحالة التالية.

«الحالـة (3272) أنثى، تبلغ 22 عامـاً. الضحيّة، ذكر، يبلغ 32 عامـاً. [من فكـرتِ في قتلـهِ؟] حبيبي السـابق. [كيف تعرفتِ عليـه؟] قابلتـه عـن طريق صديـق مشـترك بيننا. [مـا جعلك تفكريـن في قتلهِ؟] التقيتُـه في أبريل وتواعدنا طيلة الصيف، ثم انفصلتُ عنه لأنه أراد الزواج مني ولم أقبل. شعرت بأن الأمور بيننا تسـير بسرعة كبيرة. كنتُ قد انتقلتُ مع صديقتي في بداية الصيـف إلى شـقة جديـدة، لـذا لم أسـتطع كفالَتـه، ولم أرِد أن أكفلـه في الأصل. وبعد أن انفصلت عنـه انتقلَ إلى المبنى الذي أسكنُ فيه، بحيث لم يكن يفصلنا سوى طابقين. وبعد هذا بعد يتحـرش بي. كان يراقب شـقتي ويخـرجُ في كُلِّ مـرة أخرجُ أنا أو رفيقتي في السـكن. كان يترك لي رسـائل على بابي وسيارتي.

ويطـل من نافذته في كُلِّ ليلة ليراقبني أوقف سـيارتي، ثم يخرج ويحـاول أن يتكلم معي. بـدأتُ أكرهه لأنه سـجنني في منزلي. [كيـف تخَيَّلـتِ أنك تقتلينه؟] بـدأ كُلُّ شيء بحُلم. حلمت أنه خرج من شـقته للحديث معي وأنا أوقف سـيارتي فطلبت منه أن يدعني وشأني لأنني لم أعد أريد التكلم معه. لكنه لم يتركني. بل لم يتركني أخرج من سيارتي. فلم أعد أستطيع احتماله أكثر. كان لدي مسـدس في حقيبة الظهر فأخذته وأطلقت عليه النار في بطنـه أولاً، ولما تراجع إلى الوراء أطلقت عليه 3 مرات كلها في منطقة الجذع. وعندما استلقى على الأرض، استيقظت. بعد هـذا الحلـم، فكرت في الأمر مرتـين. [ما منعكِ مـن قتلهِ؟] أنا مسـيحيّة. لقد احتجتُ إلى وقت طويل جدا لأتناسـى الضغينة التي شـعرت بها نحوه. وبرغم أنني فكرتُ في قتله، إلا أنني لا أظننـي سـأقتل أيَّ إنسـان ما لم يؤذني جسـميًّا أو يـؤذِ أحدا من عائلتي أو أصدقائي. [ما قد يدفعكِ إلى قتلهِ؟] ما قلتُه سابقا».

هذه المرأة ليست الوحيدة التي فكرت في قتل حبيبها السابق الذي عاد يتحرش بـها.

«الحالـة (22) أنثى، تبلغ 20 عاماً. - [من فكرتِ في قتلهِ؟] حبيبي السـابق. [ما جعلكِ تفكريـن بقتلهِ؟] واعدتُه لعامـين ونصف العام. كان غيوراً ومتملِّكًا، وكان يزداد سـوءاً كلما استمرت علاقتنا. عندما انفصلتُ عنه جُنَّ جنونه. تصرف كما لو أنه كان يريد قتل نفسـه وأيِّ شـخص يتواصـل معي. وحتـى بعد ثلاثة أعـوام مـن انفصالنا، كان لم يـزل يتحـرش بي وبالرجال الذيـن واعدتُهُم. [ما هـي الطريقة التي فكـرت فيهـا لقتله؟] لم أفكر قـط في طريقة لقتله، كنـت أريده خارج

حياتي فحسب. لذا رُبَّما التسميم أو، بالنسبة له، حادث السير الفجائي يبدو طريقة أكثر واقعيّة. [ما منعكِ من قتلهِ؟] - لم أرِد إيذاءه. سأفضِّل أن يذهب إلى السجن. [ما يدفعك لقتلهِ؟] إذا آذى شخصا مقرَّبا إليَّ، وذلك لأنه في الواقع هدد أفضل أصدقائي. والغريب في الأمر أنه لم يهدد أبداً بقتلي أو إيذائي».

لم تفكر هذه المرأة بعمق بطريقة قتل. لكنها أرادت بكل وضوح أن تتخلص من حبيبها السابق. ومع ذلك، فإن بعض النساء ذكرن أفكار قتلٍ أكثر واقعيّة وسيناريوهات مفصَّلة للكيفيّة التي سيَقتُلنَ بها.

«الحالة (5) أنثى، تبلغ 24 عاماً. - [من فكرتِ في قتلهِ؟] حبيبي السابق. بدأنا نتواعد ثم أحببنا بعضنا. وببطءٍ، اكتشفت أنه يكذب عليّ حول بعض الأمور وسرقني. لأنفصل عنه في النهاية. لكنه لم يكن ليتوقف عن الاتصال بي. كان يفعل أشياء مثل التواصل مع أبناء أعمامي وأخي وأختي ليبقى على اتصال بي. ثم اكتشف أنني أواعد شخصا غيره وبدأ ينشر إشاعاتٍ سيئة عني. هاتفني من خطٍّ مجهول وزارني بمقر عملي. استمر هذا لثلاثة أعوام بعد انفصالنا. [ما هي الطريقة التي فكرتِ فيها لقتلهِ؟] توصلتُ إلى أنني سأترصَّده حتى يأتي إلى مقر عملي ثم أؤجر قاتلاً يطلق عليه الرصاص من سيارة عابِرة، لأنني أعرف أشخاصاً يفعلون مثل هذه الأمور. لكن الطريقة التي فكرتُ فيها مراراً هي أن أسأل عنه أبناء أعمامي فهو يهاتفهم ويماشيهم عادةً. ثم سأراقبه من بعيد وأعرف ما يفعله يومياً. وعندما أتأكد من وجود يوم يكون فيه وحيداً آتي إليه وأمثِّل أنني جئت لأعود إليه ثم أغريه بالخروج معي إلى خارج البلدة وأقتله بمسدس. [ما منعكِ من قتلهِ؟] جزء كبير من السبب يعود إلى ضميري، بالإضافة

إلى أنني سأصير محلّ شكّ إن عُثِر على جثته يوما ما، لأن الناس تعلم أنني لم أكن لأحتمله أبدا. [ما يدفعكِ إلى قتلهِ؟] إذا استمر في مطاردتي بإلحاح حتى بعد انفصالنا. كان هكذا في بداية الأمر، ثم اعتاد فيما بعد ولكنه لم يكفَّ عن ملاحقتي».

على الرغم من أن المعاناة خلال ثلاثة أعوام من المطاردة قد تبدو وكأنها الكثير، إلا أن هذه الفترة الزمنيّة هي مجرد عام فوق المتوسط: يمكن أن يستمر تحرش الشركاء السابقين لبضعة أيام، أو لعقد، أو وفقًا لدراستنا 24 شهراً. [17]

لدى النساء أسباب جيدة للخوف من الشركاء السابقين الذين يتحرشون بهن. فبين النساء اللاتي قُتِلن بواسطة شريكٍ انفصلن عنه، تعرضت 88 % منهن للتحرش قبل القتل. وفي أحد لقاءاتنا مع رجال الشرطة، ذكر أحد الضباط أنه ألقى القبض على رجل تحرش بحبيبته السابقة لمدة ثمانية عشر شهراً. ذكر الرجل أنه كان مهووسا بالتفكير في حبيبته السابقة وأنه كان يكره أن يراها تواعد غيره. وفي النهاية، قتلها بمسدس. لقد أخبر الضابط الذي اعتقله **«كانت حبيبتي ولم أكن أريد أن أدع أحداً يأخذها مني»**. ومع أن معظم المتحرشين لا يقتلون ضحاياهم، إلا أن معظم الرجال الذين يقتلون شريكاتهم السابقات، تحرشوا بهن. وهكذا، يكون التحرش أحد مؤشرات الخطر التي لا يجب على النساء تجاهلها.

المغتصبون كمفترسين جنسيين

ثَمَّة نوع آخر من المفترسين الجنسيين يكلفون النساء تكاليف باهظة - الأصدقاء الذكور، المعارف، الأحباب، والغرباء الذين

يتحوَّلـون إلى مُغتَصِبين. في الواقع، إن الاغتصاب هـو أحد دوافع خيالات القتل لدى النساء، مع أنها من النـادر أن تُترجم إلى جريمة قتل فعليّة. تكررت العديد من تلك الخيالات وكانت عنيفة جداً، مُشكِّلة دليلًا على الضَّرر الهائل الذي يلحقه المغتصبون بالنساء. لقد أثبتنا معدل انتشار الاعتداء الجنسيّ، بأدلة فعلية في دراستنا للأوهام القَاتلة، والتي تم فيها توضيح الآثار طويلة المدى والمأساويّة لهذه الهجمات بشكل مؤلم:

* «الحالة (86) أنثى، 18 عاماً. - [**من فكرتِ في قتلهِ؟**] مُغتصِب. التقيته في إحدى الاحتفالات الدينيّة بآخر يوم من امتحانات فصل الخريف النهائيّة. ذهبت مع صديقاتي لمنزل صديقنا للشرب والاحتفال بمناسبة انتهاء فترة الامتحانات. كنت أعرف كُلَّ الاشخاص هناك وأحبُّ التسكُّع معهم جميعًا. لكن بعد حوالي ساعة، دخل هذا الرجل الذي فكرت في قتله، فقد راودني شعور غريزي غريب بعدم الارتياح إليه. لا تسألني لماذا، لم أرتح إليه فحسب. وعلى أيِّ حال، ما أن مضى الوقت حتى شربت عِدّة كؤوس من الجعة، أستطيع أن أقول: ثلاث. أعلم جيداً حدودي في الشرب، ثلاث كؤوس من الجعة ليست كافية لأن تثملني. فيما بعد أعطاني الرجل كأساً رابعة وأظنه وضع فيه مخدِّرًا من نوع ما، لأنني بعد 30 دقيقة من شربها لم أستطع أن أستذكر أيَّ شيء. ما شربته من الكحول لم يكن ليثملني، ولكنني كنت ثملة لدرجة أنني لم أستطع تذكر أيِّ شيء حدث في تلك الليلة، وهذا حدث لأول مرة في حياتي. استيقظت في اليوم التالي عارية الصدر تمامًا، واكتشفت أنني

كنت نائمة بجانبه. طلبت منه أن يوصلني إلى المنزل حالًا، ولم أسأل كثيراً. وبعد يومين تقريباً، هاتفتني إحدى صديقاتي وسألتني عما حدث تلك الليلة. قلت لها إنني لا أذكر شيئاً سوى استيقاظي عارية الصدر في شقته. فقالت لي إن هذا الرجل أخبر جميع أصدقائه بأنه (**مارس الجنس مع فتاة عذراء**)، ووصل الكلام إلى صديقتي فأخبرتني. انزعجتُ كثيراً، ليس فقط لأنه قال هذا الكلام، بل أيضا لأنني كنت عذراء. وما ضايقني أكثر هو أنني لم أستطع معرفة إن حدث كُلّ هذا حقاً أم لم يحدث. ذكر طبيبي أنه لم يجد أيَّ إصابات أو كدمات، لكنه أخبرني بأنني لن أستطيع فهم شيء مما حدث لأنني لا أتذكر شيئاً. أخبرتُ أبي بالحادثة فهاتفه. وتحدثنا إليه ولم أرفع عليه أيَّ قضيّة لأنه غادر المدينة فوراً. لم أخطط لقتله أو كيف سأقتله. لكنني أردتُه ميتاً كي لا يكرر فعلته هذه مع فتياتٍ أخريات... أنا الآن حذرة من جميع الرجال، وفقدتُ ثقتي فيهم. [**ما سيدفعكِ إلى قتلهِ؟**] إذا ما حاول فعل فعلته مرة أخرى».

من الواضح، أن هذه الفتاة كانت محطَّمة نفسيًّا لدرجة أنها وصفت تفكيرها في القتل بأنه الأقوى والأكثر صراحةً. مع هذا، فإن غضبها يبدو طفيفا بالمقارنة مع غضب معظم النساء اللاتي تعرَّضن للاغتصاب، كما توضح الحالة التالية:

* «الحالة (120): شاب التقيتُه بحفلة. كنت صغِيرة جداً (13 عام (وهو (18 عام (. ثملت، فاستغل هذه الفرصة ليغتصبني مع أنني رفضت وطلبت منه أن يتوقف. فيما بعد، كنت مُهَانة وغاضبة جداً. ليكتشف أمري للجميع. كان عليّ أن

أدرس معه الفصل القادم وأراه كثيراً. كان هذا مُرعباً ومُهيناً. أصبحت غاضبة جداً وفكرت دائماً في قتله. تمنيت أنني أهينه وأضربه بشدة. أردت أن أبرحه ضرباً وأجعله يعاني. وأحياناً، أود أن أطلق النار عليه. أتمنى أن أرى في المنام كُلَّ لقاءاتي به حيث أخبره بكُلِّ ما أردت قوله، أو أكون عنيفة جداً معه فأركله أو أضربه بمضرب أو أصيبه بمسدس. [**ما سيدفعكِ لقتلهِ؟**] لرُبَّما لو آذاني هو أو غيره بشأن ما حدث: يذكروني به في المدرسة أو يضايقوني حيال ذلك».

حسناً، هذه ليست سوى حالتين من بين عشرات الحالات في دراستنا التي تَشهد على تكرار الاغتصاب المروِّع وجسامة الضَّرر النفسيّ الذي يُسبِّبه. يمكن لهذه الأضرار النفسيّة أن تدمر حياة الضحايا. لقد حاولت إحدى النساء (21 عاماً) قتل جدِّها بالفعل:

*** «يا له من منحرف جنسيّ. كان يرتاد إليَّ ليرى كيف أرتدي ملابسي، يختبئ في غرفة نومي أو حمامي ويلامسني. كنت للتوِّ قد انتقلت للعيش مع جدتي، وأصبحت خائفة جداً لأنني كنت في 15 من عُمْري. شعرت بالاشمئزاز من نفسي، وشعرت أن هذا ذنبي. استمر هذا أكثر من عام، وأصبت بالاكتئاب الشديد. تخليت عن جميع طموحاتي واكتسبت 30 باوند إضافياً (أي 6 , 13 كيلوجرام) لأجعل شكلي أقل جاذبيّة. ثم فقدْتُه في النهاية. آخر عهدي به كان عندما التقى بي وطلب مني ممارسة الجنس الفموي معه مقابل بعض المال. أخبرته بأنني سأقتله إنّ حاول لمسي مرة أخرى وأبلغ الشرطة. لم أهتمَّ بالحياة بعد ذلك الحين. لأنني كنت ميِّتة بالفعل».**

يـدل كمُّ الإحبـاط النفسيّ هذا الذي تشـعر به النسـاء المُغتَصبات بنحو قويٍّ، حسـب اعتقادي على أن بِنية المرأة النفسيّة مصممة لحماية مواردها الثمينة تكاثريًّا. تخشى النساء الاغتصاب بدرجة كبيرة، لأنه كان يمثـل تهديـدًا متكـرِّراً في تاريخ البشر التطـوُّريّ. وفي الواقع، إن تواتر مخاوف النسـاء من التعرض للاغتصاب أحد النتائج الأكثر لفتًا للانتباه بدراستنا للخيالات القَـاتلة. وكما هو الحال مع التحرُّش، فإن خوف النسـاء من الاغتصاب مُثبَتٌ جيداً. ومع أن التقديرات مختلفة لاختلاف تعريفات الاغتصاب من دراسة لأخرى، وبسبب الحالات الكثـيرة التـي لا تُوثَّقُ رسـميًّا، إلا أن ما يقـارب 13-25 %من جميع النساء اغتُصِبنَ في وقتٍ ما من حياتـهن.[18] الطبقة الاجتماعيّة ليست مانعـاً للاغتصاب. ففي إحدى الدراسـات على عينة تمثيليّة من نسـاء لوس أنجلوس البالغات من العُمْر أقل من أربعين عاماً، وُجد بشكل مدهش أن قرابة 22 % منهن قد اغتُصِبن أو أوذينَ جنسياً.[19]

أحد أسباب خوف النسـاء من الاغتصاب هو خشيتهن من القتل عـلى أيـدي مغتصبيهنَّ. وهذا كان موضوعًا رئيسـاً في دراسـتنا. لرُبَّما سـاهمت وسـائل الإعلام بتصوير أن المغتصبين يقتلون دائماً. تناولت الكثير من الأفلام والمسلسلات التلفزيونيّة الاغتصاب / والقتل معًا. وفي العديـد منهـا تُقتَل النسـاء بعـد اغتصابهن. لكن إحـدى الحقائق الغريبـة عن الاغتصاب، هي أن المغتصبين لم يقتلوا الكثير من النسـاء المغتصَبات. وفقاً لقاعِدة بيانات الجريمة لمكتب التحقيقات الفيدراليّة تقتل امرأة واحدة من بين كُلِّ 1596 ضحيّة اغتصاب.[20] يرى أستاذ الانثروبولوجيـا البيولوجيّة مايكل جيغليـاري، أن المغتصبين يقتلون في الواقـع أقـل من امـرأة من بين كُلِّ عـشرة آلاف امـرأة تُغتَصب في

الولايات المتحدة، هذا إذا أدخلنا إلى المعادلة كُلَّ جرائم الاغتصاب غير الموثقة.[21] من الصعب تقدير العدد الحقيقي لجرائم الاغتصاب مع القتل، لأن بعض الحالات تُوثق بوصفها جرائم قتل بدون ذكر حادثة الاغتصاب فيها.[22] وعلى أيِّ حال، فإن الخبراء في هذا المجال يتفقون على أن جرائم القتل مع الاغتصاب قليلة جداً، وقد تُقدَّر بـ 2 % من كُلِّ جرائم القتل. كان الدافع للقتل، في معظم الحالات واضحًا تمامًا -ألّا تترك أيَّ شاهد على الجريمة.

وجدنا في دراستنا لقَتَلة ميشيغان أحد الأمثلة المثيرة. اقتحم رجل (27عاما) منزل جاره المجاور للسرقة. وأثناء ذلك، سمع ضجيجاً في الغرفة المجاورة. هلع بشدة في البداية، لكنه سرعان ما هدأ عندما أدرك أن التي في الغرفة المجاورة كانت زوجة جاره التي كان منجذباً إليها من قبل. تصاعد الأمر، فقام باغتصابها فجأة. وبعد أن أدرك ما فعله قام بقتلها لحماية نفسه من السجن. في هذه الحالة، تحولت السرقة البسيطة إلى جريمة اغتصاب مع القتل.

مفارقة أخرى إزاء مخاوف النساء من الاغتصاب وجدناها بدراستنا. لقد عبرت الغالبيّة العظمى من النساء عن خوفهن من تعرضهنَّ للاغتصاب من شخص غريب. ومع ذلك، فإن العديد من جرائم الاغتصاب يرتكبها رجال تعرفهم النساء المغتصَبات حقَّ المعرفة - زوج الأم، أصدقاء الأخوات، المعارف، والأحباب - أكثر من الغرباء. من المثير للاهتمام، أن 9 % فقط من النساء بدراستنا ذكرن خوفهن من الاغتصاب والقتل على أيدي أشخاص معروفين في حياتهن، بينما ركزت نسبة 91 % على الغرباء.[23]

ثمَّة على الأقل تفسيران معقولان لخوف النساء المفرط من خطر الوقوع ضحيّة قتل على يد قاتل غريب. **الأول**، من المحتمل أن المغتصبين القَتَلة كانوا أكثر انتشاراً في ماضينا التطوُّريّ من الآن. لقد كان اغتصاب النساء منذ آلاف الأعوام، على أيدي المحاربين المستعمِرين هو القاعِدة. فقد تعرَّضت آلاف النساء للاغتصاب والقتل بسبب الحروب، على مدار القرن الماضي وحده فحسب، وكما هو موثق بإسهاب في رواية (**ضِدّ إرادتِنا**) للكاتبة سوزان براونميلر، ومؤخراً في كتاب (**الاغتصاب في نانكينغ**) الذي وثَّق اغتصاب وقتل النساء الصينيات على أيدي المستعمرين اليابانيين في أثناء الحرب العالميّة الثانية، وأيضاً كتاب (**حرب الاغتصاب**) الذي وثق جرائم اغتصاب وقتل نساء البوسنة والهرسك وكرواتيا في أثناء حروب أعوام 1992-1995.

إذا كان الاغتصاب ومن ثم القتل على يد غرباء سِمة مُتكررة في تاريخ النساء التطوُّريّ، فإن خوف النساء يعكس آليّة دفاع متطوِّرة لتجنُّب الغرباء، وقد انتقلت إلى البيئة المعاصرة. في ظل العيش في المدن الكبيرة والتنقل الجغرافي بسهولة، خلق العالم الحديث فرص الالتقاء بالغرباء بتواتر غير مسبوق في الماضي. ونتيجة لذلك، فإن دفاعات النساء ضِدّ الاغتصاب والقتل، والتي كانت متكيِّفة تماماً في الماضي مفرطة إلى حد ما في العالم الحديث.

التفسير التطوُّريّ الثاني لخوف النساء من الاغتصاب والقتل يكشف عما يُسمَّى «**التحيُّز التكيُّفيّ**»[24]. تذكر هنا، أن التطوُّر يفضِّل تجنُّب الأخطاء المحتملة الأكثر تكلفة. هذا يعني أن هناك طريقتين محتملتين للوقوع في الخطأ. يمكن أن تخطئ المرأة في الاعتقاد بأن

الغريب لا يملك أيَّ دوافع لاغتصابها وقتلها، في حين أن العكس صحيح. وفي هذه الحالة تكون المرأة معرضة لخطر قاتِل. أو إنها يمكن أن تخطئ في الإسناد المفرط لنيّة القتل والاغتصاب إلى الغرباء، في حين أنه في الواقع لا يوجد مثل هذا القصد لدى الكثير منهم. من الواضح أن النوع الأول من الأخطاء أكثر تكلفة. بينما ينتج عن الخطأ الثاني، والذي أسميه «**التحيُّز الارتيابي التكيُّفي**» القليل من التكاليف الطفيفة جرَّاء التجنُّب غير الضروري للغرباء في الكثير من المناسبات. لذا، فحتى إن كانت المرأة مخطئة في عزو نِيّة القتل والاغتصاب إلى الغرباء 999 مرة من أصل 1000، فإن التطوُّر سيفضِّل التحيُّز الارتيابيّ التكيفي إذا كان يحفز المرأة لتجنب الغرباء، ومن ثم حماية نفسها بمناسبة واحدة من كُلِّ ألف مناسبة تكون فيها حياتها معرضة للخطر.

هذان التفسيران ليسا بالطبع متعارضين. وقد يعملان معاً لتفسير هذه الظاهرة. فقد تكون النساء قد طوَّرن تحيُّزًا تكيُّفيًّا يجعلهن يبالغن في استنتاج نوايا الاغتصاب والقتل في الرجال الغرباء، وفي الوقت نفسه قد تكون آليّة الدفاع هذه أفرط تنشيطها في الأزمنة الحديثة، حيث تقابل النساء رجالاً غرباء أكثر من أيِّ وقت مضى.

عندما لا تكون النساء متيقناتٍ من نوايا المغتصِب، فإنهن يعمدنَ إلى افتراض أسوأ نتيجة ممكنة للهجوم؛ القتل. ولسوء الحظ، يستغل بعض الرجال هذا التحيز التكيفي في ترتيب تفكير النساء لتسهيل اغتصابهن. فهم يفعلون ذلك عبر التهديدات المقنعة بالقتل لتلبية رغباتهم ثم يعِدونهنَّ بإطلاق سراحهن إن استجبن. وبالفعل، ذكرت العديد من ضحايا الاغتصاب بأنهن استجبن لرغبات الرجال خوفاً

من القتل. من المفارقات أن هذا يتعارض مع الدليل على الاغتصاب. يترك معظم المغتصبين عندما يواجهون رفضاً عنيفاً من الطرف الآخر دون إيذائـه. وحتى لو حدث القتل في القليل من حالات الاغتصاب بسـبب مقاومة النساء على مرّ التاريخ التطوُّريّ، فإن الانتقاء الطبيعيّ قد يكون صمَّم النساء على اختيار أهون الضَررين؛ اختيار الاغتصاب على القتل.

يـبرز هـذا الغضـب الـذي تشـعر بـه العديد مـن النسـاء بعد تعرضهـن للاغتصـاب واضحاً في هـذا الاقتباس مـن المقابلات التي أجريناها:

* «اغتُصِبتُ في حفلة كنت فيها مخمورة للغاية، ولم أزل عذراء. جـاء لكليَّتي بعد عام وسـكن مع رجل آخر عـلى بعد منزلين، وبـدأ يقول أشـياء سـيِّئة عنـي. فكـرت في أن أغريه بممارسـة الجنس ثم أطلق النار على خصيتيه».

لا يقتصر الغضب من الاغتصاب المغتصبات فحسـب، بل يتمدد إلى شركائهـن وأهاليهـن وأصدقائهـن من الرجال والنسـاء معاً. لقد وجدنا أن الاشـخاص المقربين من ضحايـا الاغتصاب، كانت لديهم أيضاً خيالات تتعلق بقتل المغتصِب. أراد رجل شـارك في دراسـتنا أن يقتـل رفيقه وصديق حياته، لأنه حاول التحرش بحبيبته وهي نائمة. وأراد رجـل آخـر أن يقتـل عـمَّ حبيبته لأنه قـام بالتحرش بـهـا عِدّة مـرات قديماً ممـا قادها إلى محاولـة الانتحار: «**سـأطلق الرصاص على خصيتـه**». وإليكـم مقتطفًا مـن مقابلة مع رجل فكَّر في قتل شـخص اغتصب صديقته:

* «الحالة (2207) ذكر، 18 عاماً. - [**من فكرت في قتله؟**] طالب معي (25 عامًا) اغتصب صديقة لي. هاتفتني صديقتي وأخبرتني بالتفصيل كيفَ أعتدى عليها. لم يكونا تحت تأثير المخدِّرات. مشت معه إلى المنزل ثم اغتصبها وكأن شيئا لم يحدث. [**كيف فكرتَ بقتله؟**] تَخَيَّلتُ أن أجمع بعض الأصدقاء ثم نقوم بضربه ضرباً مبرِّحاً، بعدها نقيِّده وننتظر حتى يستعيد وعيه لأسأله عن سبب اعتقاده بأن ما فعله كان أمراً صائباً. ثم أطلق رصاصة على رُكبته اليسرى وأسأله كيف يبدو له أن يعامله أحدهم كأنه ليس إنساناً. ثم أطلق رصاصة على رُكبته اليمنى وأطلب منه أن يفكر فيما فعله وأن يصلي للإله من أجل المغفرة. ثم في النهاية أطلق رصاصتين على بطنه وأتركه يصارع الموت. [**ما منعك من قتله؟**] أولاً، لأن صديقتي تعمل على رفع قضيّة عليه. وبقتله سأزيد الأمور سوءاً. ثانياً، لديه عائلة بريئة في مكان ما ولا أملك حق أخذه منها. ثالثاً، كنت آمل أن يُعتقل ويُسجَن ويذوق مرارة الاغتصاب عندما يكون هو الطرف المعتدى عليه».

رجل آخر (21 عاماً) تَخَيَّل قتل رجل اغتصب صديقته:

* «أعطاها جرعة روهيبنول (مُخدِّر الاغتصاب) ثم هاتفها، وتفاخر بما فعله أمامها وأمام أصدقائه. تَخَيَّلت أنني أثبته على الأرض حيث يمكنني أن أضع رُكبتي على فمه وأسحقه بها. لكن صديقتي طلبت مني عدم إيذائه فوعدتها. إذا نجا من العقوبة فمن المحتمل أن يغتصب مرة أخرى، وهذا ما سيدفعني إلى قتله».

صديقات الضحايا أيضاً، فكرن بقتل المفترسين الجنسيين ممن اغتصبوا صديقاتهن:

* «الحالة (227) أنثى، 23 عاماً. - [**من فكرتِ في قتلهِ؟**] والد صديقتي المفضلة. لم يكن أباها الحقيقيَّ، بل كان زوج أمها. تحرَّش بصديقتي العزيزة لأعوام. رأيته بعينيَّ يلمسها، وقد أثار هذا غضبي. كان ينظر إليَّ بنفس الطريقة، فرأيت أنه قد يفعل المثل معي إن لم أقتله. بدأ كُلُّ هذا عندما كنتُ في الصف السابع عندما أخبرتني صديقتي بأن زوج أمها يجبرها على ممارسة الجنس معه منذ أن كانت في الثامنة من عُمْرها، وأنها لم تخبر أمها لأنها خشيَت من غضبه. كنا ننام وتحت وسادتنا سكين في كُلِّ مرة أنام عندها. كُلُّ ما أتمناه وأصلي من أجله هو أن نتمكن من قتله. [**كيف فكرتِ بقتلهِ؟**] يأتي كالعادة أثناء الليل ويحاول إجبارها على ممارسة الجنس، فأقفز من على السرير وأطعنه، ثم تنهض هي وتساعدني. [**ما سيدفعكِ أكثر لقتلهِ؟**] إن عاود المجيء في منتصف الليل. أريد أن أطعنه أكثر وأكثر».

تتجلى عِدّة مواضيع مهمة من خيال هذه المرأة القَاتلة. **أولاً**، اتخذت الفتاة عِدّة إجراءات لحماية نفسها من الوقوع ضحيّة لزوج أم صديقتها - خبأت سكيناً تحت وسادتها عندما شعرت بأنها في خطر. **ثانيًا**، خوفها من أن تتعرض لنفس الأزمات النفسيّة التي تعرضت لها صديقتها. **ثالثاً**، يميل أزواج الأمهات بالفعل إلى التحرُّش ببنات زوجاتهم أكثر من الآباء الأصليين.[25] ومع أن معظم أزواج الأمهات، بالطبع، لا يؤذون بنات زوجاتهم، الا أن وجود زوج أمٍّ في المنزل يزيد من خطر الإساءة الجنسيّة إلى عشرة أضعاف.

بالرغم من إنه من الواضح بدهيًّا بالنسبة لمعظم الناس أن المفترسين الجنسيين يتركون آثاراً مدمِّرة على ضحاياهم، إلا أن السبب وراء كون الاغتصاب مدمِّرًا جداً للنساء اللاتي لم يُقتلن، والذي يجعله واحداً من الانتهاكات الكبيرة لقواعدنا الاجتماعيّة، يستحق المزيد من الفحص الدقيق. إن تكاليف الاغتصاب، من منظور تطوُّريٍّ، باهظة. العنصر الأساسيّ في استراتيجيات الاقتران لدى النساء هو حريّة اختيار الشريك الجنسيّ. تذكر هنا، أنه بما أن النساء يستثمرن بشكل مكلِف في حمل وتربية الذُريّة، وبما أنهن لا يحملن إلا لمرات قليلة في حياتهن، فقد صاغ التطوُّر النفسيّة الأنثويّة على معايير صعبة لاختيار شريكٍ ذي امتيازات عالية. تتضمن هذه المعايير قائمة مفصَّلة بتفضيلات الاقتران، ومتابعة امتيازات الشركاء المرشَّحين عن قرب لمدة طويلة، وتقويم حبِّهم واستعدادهم الخالص لهن بعمق.

في إحدى اللحظات القاسية، يحطم المغتصِب كُلَّ الاستراتيجيات المُعَقَّدة التي طورتها النساء لانتخاب وجذب، والاحتفاظ بالرجل المناسب. المرأة المغتصَبة تخاطر بحمْلٍ غير مرغوب فيه من رجل لم تختره - رجل أقحم نفسه في حياتها رغماً عنها، وهو في الحقيقة أقلُّ دائماً ممن يمكن أن تختاره من الرجال.

كذلك تتعرض المرأة المغتصَبة إلى اللوم والعقوبة أو الهجْر من قِبل شريكِها، وأصدقائها، بل حتى عائلتها. - قد يشتبه البعض خطأً في أنها كانت مشاركة في الجريمة، أو أن الجنس القسري مُرْضٍ بنحو أو بآخر، أو أنها قد فعلت شيئاً عرَّضها للاغتصاب. وبالفعل، عبَّر العديد من الرجال الذين اغتصبت شريكاتُهنَّ عن شعورهم بأنهم تركوا مع «بضائع تالفة» ويذكرون أنهم لا يحتملون فكرة العيش مع امرأة تعرضت للانتهاك الجنسي من رجل آخر. ووفقاً لإحدى الدراسات،

فـإن أكثر من 80 %من العلاقات الزوجيّـة انتهت بالانفصال بعد أن اغتصبت المرأة.[26]

عندما نـدرك تماماً التكاليف الباهظة التـي يجلبها المفترسُ الجنسي على ضحيته وشريكها وأقربائها - **اقتحام حق المرأة في انتقاء شريكها، تشـويه سـمعتها، تقليل قيمتها التكاثريّة، تدمير أو تشويه قدرتها على الاقتران، تجنب أقربائها** - فيمكننا حينئذ أن نفهم كيف صمم التطوُّر نفسـيّة قتـل فعَّالـة كحـلٍّ للمشـكلات التكيُّفيّـة المعقـدة الناتجـة من محـاولات الاغتصاب، لقد كان على النسـاء وأقربائهـن وشركائهن، وعلى مدى التاريخ التطوُّري البشري الطويل، الدفاع ضِدّ التكاليف المتعـددة للإيذاء الجنسي. في ماضينا التطوُّري، لم تكن هناك قوانين أو شرطـة أو قضاة أو هيئات محلفين أو سـجون. بقيت العدالة في أيدي الضحايا وشركائهم وأصدقائهم وأقاربهم.

سـيكون صادمًـا إن لم يجهـز التطـوُّر النسـاء بالدفاعـات والاسـتراتيجيات المضـادة لتجنب تكبد تكاليـف الافتراس الجنسيّ، وإدارة التكاليـف في أعقابه. الخوف المسـتمر من الاغتصاب هو أول هذه الآليات. أما الآليّة الثانية فتتمثل في اختيار «**أصدقاء مُخْلصين**» - أي أصدقاء ذكور يهتمُّون بالمرأة بما يكفي للدفاع عنها، أو الذين يمنع وجودهـم المغتصبين المحتملين. الآليّة الثالثة هي إحاطة المرأة نفسـها بالأقـارب الذين يعملون كروادِع. والآليّة الرابعة هي اختيار النسـاء شركاء عاطفيـين يقومون بدور «حُرَّاس شـخصيين» لهن من الرجال العدوانيـين.[27] وبالطبع، فإن اللجوء إلى القتل هو أحد هذه الآليات الدفاعيّة.

تخدم النفسـيّة القَـاتلة - أفكار القتل والتهديد الفعلي للمفترسـين الجنسيين - عِدّة وظائف تكيُّفيّة أساسيّة للنساء. فهي **أولاً**، تحفز النساء

على تجنب الظروف التي يكنَّ فيها معرَّضاتٍ لخطر الاغتصاب. **ثانياً**، تشجِّع النساء على حماية أنفسهن، وكما حدث في حالة الفتاة التي وضعت السكين تحت وسادتها في كُلِّ ليلة قضتها في منزل صديقتها. **ثالثاً**، تدفع النساء على الاستعانة بالأصدقاء والعائلة. **رابعًا**، تنجح تهديدات القتل أحياناً في درء المفترس الجنسيّ، وكما حصل في حالة الفتاة التي هددت جدَّها بالقتل فتوقف عن التحرش. **خامسًا**، تؤدي إلى قتل المغتصِبين مما يسفر عن تقليل الجرائم الجنسيّة. كذلك ترسل إشارة قويّة للذكور الآخرين بأن المرأة غير قابلة للخداع الجنسيّ ولن تتسامح مع التعدي دون عقاب عنيف. وأخيرًا، يساعد القتل، عموماً، المرأة على الحفاظ على مقبوليتها في سوق الاقتران.

كما هو الحال مع معظم حالات الخيالات القَاتلة، تُترجم بعض الأفكار إلى أفعال. فمعظم الناس يقومون بحساب التكاليف والمنافع، ويفكرون في الحلول البديلة، ثم يدركون أن تكاليف القتل هي عالية جداً. لكن معدلات قتل المفترسين الجنسيين ما كانت لتكون عالية جدا ما لم تكن النساء مهيَّئات للجوء إلى القتل كحلٍّ من الحلول.

إليكم بعض الحالات التوضيحيّة من دراستنا لقَتَلة ميشيغان:

* كانت كالريس (14 عاماً) الحاصلة على شهادة الثانويّة العامة، تتسكع ذات مساء مع صديقها مارك في شقتها. سألها مارك عن ممارسة الجنس، فوافقت. تمدَّدا على الأريكة وكان مارك بين ساقيها: «**كان يدلك قضيبه في مهبلي محاولاً الانتصاب. استغرق وقتاً طويلاً. كنت أشعر بالتعب وبثقله على جسمي، كان تَدْليكه يضايقني، لذا طلبت التوقف**»، فرفض وصرخ: «**ستمنحينني هذا المهبل**». حاولت دفعه، لكنه قاومني. حاولت وحاولت ثم في النهاية أبعدته ونهضت.

كنت أسـألـه «مـارك، لماذا تفعل هـذا؟». في الماضي كان يتوقف فـوراً عندما أطلب منه. كان يقول «اللعنـة» أو ينزعج، لكنه في تلـك الليلة لم يـرد التوقف. لم أكن أعلم السـبب. أخافني هذا جداً. رأيت سكيناً على المنضدة. سحبني فبدأنا نتقاتل. التففت حوله وبدأت أطعنه، ليسـقط على الأرض قائلاً: «**لا أسـتطيع أن أحتمل هذا أكثر من ذلك**» وعندئذ توقفت.

لقد أسفر تشريح الجثة عن 12 طعنة. ووفقاً للطبيب الشرعيّ فإن كالريـس كانت متوسـطة الذكاء ولم تعانِ مـن أيِّ اضطراب في الفكر أو في المـزاج أثناء وقـت الجريمة المزعومة، وكان باسـتطاعتها التمييز بين الصواب والخطأ، لذا، لم تنطبق عليها الجنون القانوني. استعملت كالريس قوة كافية للدفاع عن نفسـها ضِدّ الاغتصاب حتى أنها قتلت مفترساً جنسيًّا.

لم تكن كالريس وحدها من استخدم القتل لإيقاف الاغتصاب:

* في يوليو 2002، في مدينة البوكيرك، نيومكسيكو، استيقظت امرأة «تدعى باسـم مسـتعار: ميرا» في السـاعة 1:30 صباحًا، لتجـد رجـلًا نائـمًا فوقها. كان لديـه مصباح يـدوي مركز على وجهها ومسدس موجه على صدرها. - هذا الرجل هو مايكل ماجلـر (51 عامـاً)، والذي فعـل هذا مرات عـدة من قبل. في الواقـع، كان مفترسًـا جنسـيًّا مدانًـا بثمانيـة عشر عامًـا لجرائم تتعلق بالجنس الإجباري. لقد تم إدراجه في موقع نيومكسيكو عـلى الإنترنت أحد مرتكبي جرائـم الجنس. لكن في هذه المرة، هو واجه امرأة أظهرت شجاعة كبيرة. كانت ميرا أمًّا عازبة في الثلاثـين من عمرها. قالت فيما بعد إنها «**تصرفت فقط غريزيًّا، وكانـت مدفوعة برغبة البقاء**» [28]. دفعت ميرا المسـدس بعيدًا

عـن صدرها، لكنه هدد حياتها قائلاً «**هل تريدين الموت؟**»[29] . قفـز شيء في ذهنهـا فجـأة - وصفتـه فيما بعد بأنـه «كحلم». وتمكنت من سحب المسدس من هذا المغتصب، ودفعته أرضاً، ثـم أطلقـت 3 رصاصـات على جسـده غرسـت في صـدره. لم تعـرف مـا إذا كان ميِّتًا أو حيًّا، كشـفت القناع عن وجهه حتى تتمكـن مـن التعـرف عليه لاحقًـا، وركضـت إلى منـزل أحد الجيران، واسـتدعت الشرطة. وعندما وصـل رجال الشرطة، كان ماجلـر ميتاً. قتلت ميرا لمنع الاغتصاب، وأوقفت بشـكل دائم مفترسًا جنسيًا متسلسلًا. ولم يتم إدانتها بأيِّ تهمة.

* في الثامـن عـشر من نوفمـبر عام 1998، أقتحـم رجل مقنَّع يرتدي قفازات، ومعه سـكين سـكنَ طالبـةٍ مراهقة في جامعة كارولينا الشـماليّة، بهدف السرقة. اسمه هو أدريان كاثي، وقد فعـل ذلـك من قبـل[30] ضربهـا بمقبـض السـكين ليوقظها ثم وضع السـكين أمـام رقبتها وتـهيَّـأ لاغتصابها. فكـرت الفتاة بسرعة بينما ينزع بنطاله ومدت يدها بخفة إلى الدُّرج وسحبت مسدسـها. كان الهدف واضحاً، ليسـقط بسرعـة أدريان كاثي سـابحاً بدمائه. كشـف تحليل حمضـه النووي أنه كان مفترسـاً جنسـيًّا مسؤولا عن الإساءة الجنسـيّة العنيفة إلى أربع طالبات أخريات.

* استيقظت ماريا بيتاراس بوقت متأخر ذات ليلة لتجد رجلًا غريباً متمدِّداً بين سـاقيها، بقناعٍ أسود. وبينما كان يضع سكينا أمـام رقبتها، سـحبت مسدسـاً مـن دُرجها وأصابتـه مباشرة. سـجل مركـز الطوارئ نداءهـا المرعب: «**لقد قتلـت رجلاً... كان للتـو في منزلي وحاول اغتصابي**».[31] وجدت الشرطة جثة

الرجل خالية من أيِّ جروح باستثناء ثقب رصاصة في عنقه، ولم يزل السكين في قبضته.

في جميع هذه الحالات، يمكن اعتبار النساء الشابات محظوظات، رغم كونهن سيعِشن حياة قاسية مع ذكريات أفعالهن الدفاعيّة العنيفة. قتل مفترسيهن الجنسيين حماهُنَّ من خطر الاغتصاب وحمى حياتهن، كما أنهن لم يُعاقبن قانونيًّا. غير أن فيرونيك أكوب (23 عاماً) الفتاة المهاجرة من ساحل العاج، والتي عملت في مدينة نيس الفرنسيّة، لم تكن محظوظة[32] لقد عملت السيدة أكوب خادمة بأجر ضئيل لافتقارها أوراق العمل. قام باغتصابها رئيس عملها الثري جورجس سكار (63 عاماً)، وأيضاً ابنه تيري سكار (22عاماً) عدة مرات. أفادت فيرونيك بأنهما كانا يمسكانها من رقبتها ويضعان يداً حول فمها لمنعها من الصياح. وكان كلما انتهى أحدهما يبدأ الآخر في اغتصابها أو يضاجعها من الخلف. كان الأب وابنه يتبادلان الأدوار. خياراتها محدودة. لكنها بعد الحادثة القاسية الثالثة، قررت أن تفعل شيئاً. خبأت سكيناً سرًّا، لتطعن الأب والابن معاً، مما أدى لجرح أحدهما وقتل الآخر. كشف الفحص الطبي لفيرونيك عن إصابات تَدُلُّ على اغتصاب شرجي قسري. قالت فيرونيك: «**قتلا فيَّ شيئاً ما، شيئاً يخص شخصيتي الحقيقيّة، فقتلتهما لأتطهَّر منهما**».[33] ولافتقارها إلى نفقات المحامي، عينت المحكمة محاميا فشل في إسناد دفاعها إلى أفعال الاغتصاب التي ارتُكبت في حقها بشكل متكرر. لتحُكِم بالسجن 20عامًا، قضت منها 9 أعوام، وتم العفو بعد ذلك عنها رسميًّا.

يبدو من غير التقليدي الجمع هنا بين العشاق السيِّئين، الأزواج المؤذين جنسيًّا، المتحرِّشين والمغتصبين في فصل واحد: «المفترسون

الجنسيون». لكنهم جميعاً مرتبطون بخيط مشترك - استعمال العُنْف لربح الوصول الجنسيّ للمرأة أو الحفاظ عليه. يستخدم الأزواج المؤذون الاعتداء الجسديّ للتحكم في شريكاتهم وإجبارهن ومنعهن من ترك العلاقة، ليتمكَّنوا في النهاية من الوصول الحصريّ إلى مواردهنَّ الجنسية. بينما يستخدم المغتصبون لنساء غير زوجاتهم أسلوباً عدائيًّا قاسياً لإرغامهن على جنس غير مرغوب فيه. ويلاحق المتحرِّشون والعشاق المهجورون ممن يرفضون الاستسلام لضحاياهم بلا هوادة في محاولة للتدخل في علاقاتهن الجديدة واستعادة نفوذهم الجنسي الذي كان مسموحاً به من قبل. إن المغتصبين، وسواءٌ كانوا غرباء، أو معارف، أو أزواجاً، يصطادون ضحاياهم ويقحمون أنفسهم بوحشيّة في حياة النساء التي ستتغير إلى الأبد.

مع أن الكثير من النساء يقتلن للدفاع عن أنفسهن ضِدّ الرجال الذين تحولوا إلى مفترسين جنسيًّا، إلا أنهن يمكن أن يقتلن لأسباب أخرى، وهذا ما سنتناوله في فصولنا القادمة. فصائدو الشركاء - من يسرق شريكًا رومانسيًّا - هم نوع آخر من المفترسين الجنسيين، وكما سنرى في الفصل القادم، هم يشكلون مشكلة مُحيِّرة للتنافس التطوُّريّ للعبة الاقتران.



الفصل السادس

صائدو الشركاء

«مَنْ لي بذلك الرَّجل، الذي لا تَستعبده أهَواؤه»

~ وليام شكسبير، هاملت

أحـد أكثر العروض المروِّعة لنفسـيّة القتل التي شـهدتـها، حدث في منزل أحد الأصدقاء. كنا مجموعة من الأصدقاء والأحباب نمضي عطلـة نـهايـة أسـبوع في منزل صديقنـا، أكلنـا، وشربنا، وتسـامرنا، واسـتمتعنا بوقتنا. من بين الضيوف كان هنـاك زوجان تزوجا حديثاً همـا (أمـبر وتـوني). بوقت مـن الأوقات، قـام أحد أصدقائـي، وهو رجـل طويـل وأكثـر انفتاحـاً (ريتشـارد)، بوضـع ذراعه حـول أمبر ليعطيها عناقًا طويلاً. ولأنّنا كنا جميعاً نُظهر سُـلوكاً ينم عن الملاطفة، لم يظـنَّ أحدٌ أبداً أن شـيئاً غريباً حصل باسـتثناء زوجهـا توني. مرت نصف سـاعة، وأنسـحب بعضنا إلى المطبخ. شـعرتُ حينها أن شـيئاً مـا حدث، لأن توني قد سَـكت فجـأة، وأصبحت عيناه فحمًا أسـودَ، وصرخ: «**لابُـدّ أن أفعل شـيئاً بريتشـارد هذا**». سـألته، مـا الذي كان يقصـده، إجاب: «**أشـعر في رغبة بطعن مفـك البراغي في رقبته**». لقد كان جاداً للغاية، أخذته لإحدى الغرف للتحدث على انفراد. - وبينما كنـت أحـاول تهدئته اعترف بأنه يعلم أن ريتشـارد يحاول أن يضاجع زوجته ولم يطق البتَّة عناقه لها.

سألته إذا ما كان يريد مني التحدث مع ريتشارد عن ذلك، وهوما فعلتـه لاحقـاً. حسـناً، هل كان عناق ريتشـارد لأمبر مُجـرَّد لفتة بريئة

وديّة، أو إنه كان يحاول حقاً اصطياد زوجة توني؟ لا أحد يعلم. أعقاب ذلك، انتشر بين المجموعة خبر رغبة توني المخيفة في طعن ريتشارد بمفك البراغي. لتصبح دفاعات الجميع المضادة للقتل بحالة تأهب شديدة لصد أيِّ محاولة للقتل.

عندما عاد توني إلى المطبخ، التقط مقصاً وبدأ بتقليبه مرارًا وتكرارً بين يديه. نظر الجميع إليه بحذر. خرج ريتشارد ليدخِّن بعيداً، تفرق الضيوف تدريجيًّا وانحسر التوتر. ولكن في تلك الليلة، تأكد ريتشارد وكُلُّ الأشخاص الآخرين في المنزل، من أن أبواب غرف نومهم كانت مغلقة بإحكام. كان توني معروفاً لدى الجميع أنه شخص مُسالم، لم يسلك بحياته أيَّ سلوك عنيف، لكن رغم ذلك لم يستطع أحدٌ أن يجزم ماذا كان سيفعل تلك الليلة. في صباح اليوم التالي، غادر الجميع، ولحسن الحظ تم تفادي ما كان سيحدث. لكنني، أدركت بأنني عشت مشهداً مروِّعاً لرغبة قتل ناتجة عن تهديد صيد شريك محتمل.[31]

أقدمُ سجلٍّ موثَّق لصيد الشركاء يمكن ملاحظته في قصص الكتاب المقدس؛ الملك داوود والجميلة الفاتنة بتشبع. ذات يومٍ تجسس الملك داود على حمام بتشبع الباهر من سطح منزل مجاور. كانت بتشبع متزوجة من رجل آخر اسمه: أوريا، لكن هذا لم يردع داوود؛ لأنه كان ملكاً. نجح داوود أخيراً بإغواء بتشبع ومضاجعتها، ثم أبتكر حلًّا بارعاً للإطاحة بمنافسه الجنسي بشكل دائم. أمره أن يتصدر جبهة المعركة ثم أمر قواته بالتراجع مما عرّضه للموت. دفن أوريا بسلام بقبره، وتزوج داود بتشبع، وأثمر عن هذا الزواج أربعة أطفال.

إن صيد شريك الآخر، هو أحد أكثر الاستراتيجيات القديمة للحصول على الشخص الذي تريده أكثر من غيره، وهي استراتيجية فعَّالة بنحو مثير للقلق ومحفوفة بالخطر. لقد تَغَلغلت فينا عبر دهور من التطوُّر، كما أنها تَغَلغلت في عالم الحيوان.

بين فيلة البحر القاطنة قبالة ساحل كاليفورنيا الشمالي، يتنافس ذكورها لامتلاك حريم من الإناث. معارك التنافس هذه عنيفة بشكل رهيب، حيث يقوم الذكور المتنافسون بتشويه وقتل بعضهم البعض بأنيابهم الحادة حتى يفوز أحدهم بمرتبة **ألفا (Alpha male)**، والذي سيحظى بالوصول إلى جميع الإناث. مكافأة ضخمة! فهي تكفل التزاوج من 85 % ضمن حريم الإناث، غير أن 5 % فقط من كُلِّ الذكور سينالونها. المحافظة على هذه المرتبة مكلفة للغاية. وذلك لاستمرار الذكور المهزومين الناجين من المعارك في محاولة التسلل للإناث، وينجح بعضهم بذلك. لذا، يجب على الذكر ألفا حماية الإناث بيقظة شديدة وغضب محتد. القيام بذلك يؤدي إلى خسائر فادحة، حيث أن القليل من ذكور فيلة البحر يمكنها أن تحافظ على مكانتها لأكثر من موسم واحد أو أثنين.

صيد الشريك شائع أيضاً في عالم الحشرات بشكل لا يصدق. وفي الواقع، إنه منتشر للغاية لدرجة أن الذكور قد طوَّروا مجموعة رائعة من الدفاعات ضِدّه.[1] فبعضهم يبعد منافسيه فعليًّا من المكان الذي يُحتمل أن يكونوا فيه أقرانًا ناجحين. في حين يصدر البعض الآخر إشارات تُخفي أو تُبطل إشارات جاذبة منبعثة من منافسيهم. – في الجنادب والصراصير، تُصدر الذكور إشارات صوتيّة صاخبة لتجذب الإناث، وما إن تنجح بجذب إحداها حتى تنخفض إلى إشارات

مغازلـة ناعمـة. بعض الحشرات تتخـذ طريقة مشـابهة لطريقة تنافس فيلـة البحـر. ذكـر الخنفسـاء، على سـبيل المثـال، يسـتوطن بمنطقة ما ويدافع عنها بكُلِّ قوة ضِدّ أيٍّ تطفل من ذكر غريب. -

بالنسـبة لأي شـخص وجد حبَّه / ها الحقيقي أو «الصيد الكبير»، فـإن صيده لا يزال يمثل تهديـدًا حقيقيًّا. دائماً ما يكون الأقران الأكثر جاذبيّـة غير متاحين مقارنة بالعدد الكبير من الذين يودون أن يقترنوا بهـم. - ينجـذب النـاس بشـدة للذيـن يتحلّـون بالوسـامة، الجمال، المَكَانة، الجاذبيّة، والإثارة الجنسـيّة. وعليه، ينجذب المرغوب بسرعة مـن حوض الاقـتران. لكن هذا لا يعنـي أنه لا يمكـن إغراؤهم مرة أخـرى. فبالرغـم مـن أن الحبيـب الغيور يبقى حـذراً ويقظـاً، إلا أن صائـد الشريك يختبئ مترصِّداً بدوره، منتظراً أيَّ هفوة منه لـحراسـة القرين، أيَّ فرصة لانتهازها، أيَّ فجوة في درع العلاقة لاستغلالها.

إن صيـد الشريـك لهـو مشـكلة مقلقـة لحـد كبـير في حياتنـا.[2] اكتشفت مع عالِم النفس التطوُّريّ ديفيد شميت أن 60 % من الرجال الأمريكيـين و53 % من النسـاء الأمريكيات قـد اعترفوا بمحاولتهم جـذب شريك أحد ما لإقامـة علاقة جديّة معه. وعـلى الرغم من أن نصـف هذه العلاقات باءت بالفشـل، إلا أن نصفها الآخر قد نجح. أما بالنسـبة للمواجهات الجنسـيّة قصيرة المدى، فيبدو الاختلاف بين الجنسين أكبر. فوجدنا أن 60 % من الرجال و38 % من النساء ذكروا بأنهم حاولوا جذب شريك ما للدخول في علاقة جنسيّة.

تشـير النسب المائويّة الأعلى لكِلا الجنسين إلى أن الآخرين حاولوا إغواءهـم لـترك علاقاتهـم الحاليّة - 93 % من الرجـال، و82 % من

النساء من أجل علاقة طويلة المدى، و87 % من الرجال و94 % من النساء من أجل علاقة جنسيّة قصيرة المدى. بينما تشير النسب المائويّة الأدنى إلى أن أحدًا ما حاول صيد شركائهم. وهذا يدل على أن العديد من صيادي الشركاء ماهرون تماماً فيما يتعلق بإبعاد تجارتهم بأمان بعيدًا عن أعين المتطفلين من الضحايا غير الغافلين أو لرُبَّما يُظهر أن شركاءنا يفضِّلون أن يحافظوا على أقران محتملين للدعم والسند لكن بسريّة. - أفاد ما يقرب من ثلث العينة المختبرة أن شخصًا آخر أخذ منه شريكًا.

وجد شميت أنماطًا مشابهة في أكبر دراسة لصيد الشركاء أجريت على 16964 شخصاً من 53 دولة - من الأرجنتين إلى زمبابوي، ومن بوتسوانا إلى تنزانيا.[3] في أمريكا الجنوبيّة على سبيل المثال، أفاد 66 % من الرجال و50 % من النساء بأنهم حاولوا إغواءَ أشخاص بعيداً عن شركائهم الحاليين وجرَّهم لعلاقة طويلة المدى. في بلدان الشرق الأوسط كإسرائيل، تركيا، لبنان، أفاد 67 % من الرجال و44 % من النساء بأنهم قد تم إغراؤهم للقاءات جنسيّة بينما كانوا مسبقاً بعلاقة رومانسيّة طويلة المدى. بينما كانت الأرقام أعلى من ذلك بالنسبة للرجال بالسعي للعلاقات قصيرة المدى، 70 من الرجال و38 % من النساء. أما القاطنون في شرق آسيا مثل دول اليابان، كوريا، الصين. فتبين أن لهم النسبة الأقل في معدل انتشار صيد الشركاء؛ ومع ذلك، أفاد 47 %من الرجال و34 % من النساء عن محاولاتهم لصيد شريك ما في علاقة طويلة المدى.

كشفت هذه الدراسة العالميّة أيضاً عن اختلاف عميق بين الجنسين في الأنماط المتعلقة بصيد الشركاء. فمن المتوقع أن يكون جرّ النساء

باعتبارهن أهدافًا لمحاولات صيد الشركاء، في علاقات قصيرة المدى أكثر من الرجال؛ وبعبارة أخرى، يقوم الرجال بمحاولات إغواء لصيد الشريك لعلاقة قصيرة أكثر مما تفعل النساء. لكن النساء كنّ أكثر نجاحاً من الرجال بإغواء وجذب الأزواج المرتبطين في لقاءات عابرة. - السبب هو أن الرجال هم أقل مقاومة للعلاقات العابرة قصيرة المدى من النساء. - يسعى الرجال توقاً لإقامة علاقات غراميّة، لكن فيما يتعلق بالبحث عنها، تكون النساء أكثر نجاحاً. يُظهر أشخاص من ثقافات مختلفة هذا التباين بين الجنسين: الرجال أكثر اهتماماً بالعلاقات قصيرة المدى، ولكن، من اللافت بأن الوضع يختلف تماماً في حالة العلاقات طويلة المدى.[4]

إن تواتر إغراء شخص ما مرتبط بقصد إقامة علاقة رومانسيّة طويلة المدى هو أكثر مساواة بين الجنسين. ففي جميع أنحاء العالم، وبمعدل تضمن 53 دولة في دراسة شميت، أفاد 81 % من كِلا الجنسين بأنهم قد نجحوا بإغراء شخص وإبعاده عن علاقته، ثمّ بدؤوا علاقة طويلة المدى معه. حتى في الشرق الأوسط، حيث تسود العادات والتقاليد الصارمة مع المرأة، قد يعتقد المرء أن القليل من النساء يتورطن في صيد الشركاء، لكن أعترف ما يقارب 64 % من الرجال بأنهم تم إبعادهم عن شريكاتهم من أجل علاقة جادة. والأمر سيان مع 54 % من النساء أيضاً. - وعند السؤال عن علاقاتهم الحاليّة، أفاد 8 , 11 %من الرجال و4 , 8 % من النساء حول العالم بأن شريكهم كان متورِّطاً منذ البداية مع شخص آخر عندما التقيا. وأفاد 9 , 9 % من الرجال، و6 , 13 % من النساء حول العالم بأن شركاءهم الحاليين قد تم صيدهم من العلاقات القائمة. ومن المثير ،

أن ما يقرب من 3 % كان بما يعُرف **بالصيد المضاعف**، حيث كان كلا الشريكين بالفعل بعلاقات جادة عندما جذبوا بعضهم البعض إلى علاقتهم الحاليّة.

تلعب السمات الشخصيّة دوراً تنبُّئيًّا مثيراً في انتقاء الشخص الذي سيقوم بصيد الشريك، ومن المستهدف في هذا **الصيد**، ومن سيستسلم له. - أولئك الذين يحاولون الصيد عادة ما يكونون أكثر انفتاحاً (مخالطين، اجتماعيين)، أكثر مضايقة (عدائيين، لئيمين)، أكثر نرجسيّة (أنانيين، متعالين) وأقل اتزانًا (مندفعين، عفويين) مقارنة بنظرائهم الذين لا يقومون بصيد الشركاء - نرجسيين كحيوانات الحفلات الفاخرة التي يجب عليك مراقبتها على الدوام.

تتأثر الشخصيّة أيضاً بمن يستهدف هذا الصيد. إن أهداف صائدي الشركاء وميلهم يتّجه نحو الأكثر انفتاحاً على التجارب الجديدة. كما هو متوقع أيضاً، نحو ذوي الجاذبيّة الجسديّة والجنسيّة أكثر من غيرهم. هم متناغمون تمامًا مع مهمتهم؛ يميل الذين يخضعون بلا تردد لجذب صائدي الشركاء، لأن يكونوا أكثر انفتاحاً وجاذبيّة جنسيّة.

تختلف الثقافات، بالطبع، في هيمنة وانتشار صيد الشركاء، ولكن لا تتعلق أكثر المؤشرات فاعليّة للاختلافات بخصائص الثقافات. قد يكون السبب هو معدلات الجنسين، أي نسبة عدد الرجال لعدد النساء في أيٍّ تجمع تزاوج مؤهل وجدير بالانتقاء. في البلدان التي يزيد فيها عدد النساء مقارنة بعدد الرجال مثل كرواتيا، استونيا، لاتفيا، ليتوانيا، بولندا، تكون النساء فيها أكثر انشغالاً واحترافاً في

صيد الشريك سواء لعلاقة طويلة أو قصيرة المدى. أما في الثقافات التي تكون فيها نسبة الرجال أكبر من نسبة النساء كالصين القاريّة، تايوان، كوريا، اليابان، تكون النساء أقل انشغالاً بصيد الشريك.

- كانت إحدى النتائج المثيرة من هذه الدراسات، هي أن الفائض النسبي للنساء سيزيد من مستويات صيد الشركاء، فيما لم يتم العثور على نتائج مماثلة للرجال. في الثقافات التي لديها فائض نسبي من الرجال، أفاد الرجال عن مستويات أقل من صيد الشركاء ومعدلات نجاح أقل عندما يحاولون ذلك. أعتقد أن التفسير لذلك هو أنه في الثقافات التي تعاني من ندرة النساء، فإن الرجال الذين يحالفهم الحظ بما يكفي لجذب شركائهم يقومون بحراستهم بشراسة، ويعملون لتحقيق رغباتهم، مما يجعل صيد الشريك استراتيجيّة أقل فعاليّة.

أساليب صائدي الشركاء

يستخدم صائدو الشركاء ترسانة من الأساليب الحاذقة لإغراء شركاء الآخرين.[5] أنهم يغازلون كثيراً، يزيدون مواردهم الماليّة، يعززون مظهرهم الجسديَّ، يصلون هدفهم بالكحول، يبرزون دعابتهم، يجاملون، يُظهرون الدفء والحماس، يُقدّمون نوعًا خاصًا من الرعاية والعناية، ويظهرون الكرم. يحاول الذكور الصائدون أحياناً السيطرة على منافسيهم في فعاليات رياضيّة، إخضاعهم اجتماعياً، بل ويتحدونهم في عراك جسديٍّ. ورُبَّما يقدمون أحياناً وصولًا جنسيًّا «غير مكلف». تعدُّ الأساليب العلنيّة بشكل خاص كالظهور عراة أما أحد الشركاء المحتملين، أو القيام بمبادرات جنسيّة صريحة أخرى أكثر فاعليّة بالنسبة للنساء؛ فالرجال أكثر تقبلاً لفكرة أن المسألة ستكون في المقام الأول عن الجنس.

أحد الأساليب الحاذقة هي أن يبدأ المرء بعلاقة صداقة مع شريك مستهدف، ثم تحويل الفرصة للقاء رومانسي؛ أسلوب الاستدراج والتبديل (**أو الطُعم والمفتاح**) فعّال للغاية. يدسّ الصائدون أنفسهم في حياة الأزواج كأصدقاء موثوق بهم، ليصبحوا عاطفيًّا أقرب، ثم لا يلبثون أن يتحولوا لشركاء عاطفيين عندما تسنح الفرصة. - وبالفعل، غالباً ما ينتهي المطاف ليصبحوا منافسين جنسيين. يوضح مبدأ «**الصداقة المتلائقة**» السبب في ذلك: إنَّنا نميل إلى اختيار الأصدقاء الذين يشاركوننا اهتماماتنا وقيمنا، وغالباً ما يشاركوننا نفس الصفات المحببة التي نمتلكها، وعليه ينجذب الناس بنسبة عالية إليهم.

أسلوب آخر شائع يستخدمه صائدو الشركاء يتمثل بمحاولتهم إبعاد شريكين من خلال إثارة الفتنة في علاقاتهما. أكثر الطرق شيوعاً لفعل ذلك هي **بالإيحاء**، أو محاولة إثبات أن الشريك الحالي يقوم بالخيانة. بعضهم يتبعون طريقة الانتقاص من قدر شريك المستهدف، مشيرين لعيوبه في العلاقة، وإخبار المرأة، على سبيل المثال، «**بانه لا يعاملكِ جيدًا**» أو «**أنتِ لا تستحقينه**». - وكما قد يَسخر البعض أحيانًا من المظهر الجسدي للمنافس، أو يشيرون إلى أنه لا يعطي الشريك المستهدف ما يتمنَّاه. على العكس، يقوم البعض بتعزيز الذات لدى الشريك المستهدف بمحاولة لزيادة تصوراته الذاتية عن الرغبة، والتلميح الذي يحمل في طياته أن البحث عن شريك آخر أفضل من الحالي ليست بفكرة سيِّئة.

أحد الأساليب الأكثر مكراً هو إقحام المنافس بعلاقة غراميّة قصيرة ليبرهن بذلك للشريك المستهدف أن شريكه الحالي غير جدير

بالثقة. إن أسلوب **التخفي الذكيّ** هو مُجرَّد الانتظار متأهبا لثغرة تلوح في العلاقة ثم انتهاز الفرصة في الوقت المناسب. الانتظار المتأهب هذا لا يتطلب أن يكون الصائد خاملاً، فقد يضطر لتغيير خطته لكسب المزيد من الوقت لأجل هدفه أو يدعوه إلى عمل محتمل، وإلا سوف يسقط بشكل غير متوقع. أحياناً ينتظر الصائد فترة طويلة ليشهد انتهاء علاقة الشريكين ليكون الكتف الدافئ الذي يُبكى عليه.

هذه الأساليب، وعندما يتم اكتشافها، تمنح ضحايا الصائدين دوافع للقتل.

الدوافع المختلفة لصيد الشركاء

لقد استكشفنا الأسباب التي أوردها الناس لرغبتهم بصيد شريك آخر، وكانت الإجابات تتوافق مع الاختلافات بين ما يبحث عنه الرجال والنساء في الشركاء، والتي تناولناها من قبل. أفاد الرجال بأن صيد الشريك قد سمح لهم بالاقتران مع نساء جميلات المظهر، وقالوا بأنه قدم فرصة «**التواجد مع شريك جنسي شاب وصحي**». على النقيض، أفادت النساء بأن صيد شريك كان «**طريقة جيدة للفوز بشريك غني**»، أو «**قوي وذي مَكَانة**». إحدى الفوائد الفريدة من صيد الشركاء التي خرجت من مقابلاتنا، والتي شاركها كُلٌّ من النساء والرجال: **الاستمتاع بشريك أثبت جدارته في علاقة سابقة.** يستنتج الناس بأن الشخص الذي اجتاز علاقة سابقة يجب أن يكون «**صيدًا جيدًا**» - ومن هنا تأتي التعليقات المتكررة والساخرة بأنك عندما تكون في علاقة ما تصبح مرغوباً أكثر. - يسمي عُلماء البيولوجيا التطوُّريّة هذه الظاهرة «**محاكاة الشريك**».

نظريّة تطوُّريّة أخرى «**انتقاء الشريك**»، دعمت دراسة أجريناها عن المنافسين الذين يراهم الناس الأكثر تهديداً. لقد أجرينا أنا وزملائي دراسة عبر الثقافات المختلفة، طلبنا فيها من أناس من هولندا، كوريا، وأمريكا، تصنيف إحدى عشرة صفة للمنافسين المحتملين التي ستجعلهم أكثر إزعاجًا. تراوحت هذه الصفات المتنافسة من «**يمتلك حسًّا فكاهيًّا أفضل منك**» إلى «**جذاب وجنسيّ أكثر منك**». - أفاد الرجال في الثقافات أجمع، أكثر من النساء، أنهم عانوا الألم والأسى، عندما يتفوق عليهم المنافس في الجوانب والإمكانات الماليّة، فرص العمل، والقوة البدنيّة. بينما أفادت النساء في هذه الثقافات، أكثر من الرجال، عن قدر أكبر من الحسرة والألم عندما يكون لدى المنافس مظهر أكثر جاذبيّة.

خطر صيد الشركاء

على الرغم من أن صيد الشريك قد تكون وسيلة فعّالة في جذب الشخص المرغوب فيه، إلا أن على صائدي الشركاء أن يدركوا بأنها استراتيجيّة محفوفة بالمخاطر. وجدنا في دراستنا على اعترافات تضم قائمة طويلة من الجوانب السلبيّة لصيد شريك وإبعاده عن علاقته. تراوحت هذه الجوانب من تحذير الأصدقاء وأفراد العائلة والشعور بالذنب، إلى الضَّرر الذي يلحق بالسُّمْعة الاجتماعيّة. وفي حين ينخرط الكثير بصيد شريك إلا أنهم لا يترددون أبداً في إبداء استيائهم من سلوك الآخرين إذا قاموا بفعل الشيء نفسه. اثنان من التكاليف الباهظة تتجلى في نماذج تسمى (**تأثيرات الثأر**)، يمكن أن تترتب عليها نتائج مؤسفة للغاية:

الأولى: هي بزيادة القلق حول صدق وإخلاص الشريك. إن نجح أحدهم في جذب وصيد شريكك وإبعاده عن علاقته الملتزمة، فقد أثبت أنه سريع التأثر والخضوع. من يعرف أكثر من الصائد الناجح، كمّ يشكل صيد الشريك خطراً على أيِّ علاقة؟

الثانيّة: هي القتل. ففي بعض الأحيان يصبح الأشخاص الذين يتعرَّضون لصيد شركائهم عنيفين للغاية، وهو خطر يخشاه الرجال أكثر. في دراستنا، شعر العديد من الرجال بالقلق من أن الزوج السابق للمرأة قد «يختل عَقْليًّا»، بينما عبَّر الكثيرون عن خوفهم الواضح من محاولة قتلهم على يد الزوج الذي تم هجره. أحد الأمثلة الحيّة على هذا، يأتي من قصة رجل سأدعوه (مارتين)، الذي وبعد عِدّة أشهر من مغازلته المتصاعِدة لامرأة سأدعوها (نيكول) نجح في دعوتها لترك زوجها. فتركت منزلها وعاشت في شقتها الخاصة المؤلفة من طابقين.

بعد بضعة أيام، اتصل مارتين بنيكول التي قامت بدورها بدعوته على العشاء، لبّى الدعوة، وبعد وجبة الحلويات غادراً إلى السرير ليتشاركا علاقة جنسيّة متَّقدة. بقيت ليلة بأكملها، وعند الساعة السادسة صباحاً استيقظا على ضجة دراجة ناريّة توقفت في الخارج فجأة. إنه زوج نيكول. اعتلى الخوف مارتين، لأن سيارته التي يعرفها جيداً كانت في الخارج، وأصابه ذعر شديد من أن يقوم بقتله، توجه خائفاً إلى الباب الخلفي للشقة محاولاً الهرب، لكن لم يكن ثَمَّة مخرجٌ، فالباب الأمامي للشقة هو المخرج الوحيد.

بدأ الزوج بقرع الباب بغضب، تسللت نيكول إلى الباب، وقفلته خلفها - وبالطبع حبس مارتين أيضًا - وتمكنت من تهدئة زوجها

وإقناعه بالمغادرة. بالنسبة لمارتين، كان هذا آخر لقاء جنسي مع نيكول، حيث تأثر جداً بشعور الموت المرعب الذي عاشه ذلك اليوم. هذا الخوف، وكما اكتشفنا في دراستنا عن القتل، كان له ما يبرره تماماً.

قد نتساءل، إذا كان صيد الشريك استراتيجيّة سائدة وناجحة لإيجاد الشريك المناسب، إذاً لم هو مستهجن جدًا اجتماعيًّا، ولماذا يثير مثل ردود الفعل العنيفة هذه. إذا قام شريكك بالانجذاب لأحد آخر وترك علاقته بك، لماذا تصرّ على رغبتك به رغم كُلِّ شيء؟ يمكن أن تكون الإجابة بأن هذا يعود إلى الطبيعة غير العاطفيّة لاستراتيجيات الاقتران المتطوِّرة.

إن التكاليف التكاثريّة يمكن أن تكون باهظة للذين يفشلون بالمحافظة على شريكهم.[6] بالنسبة للرجال، قد ينتج عن الإخفاق لمرة واحدة في حراسة الشريك عن خيانة جينية – تخصيب الزوجة بنطف أحد المنافسين. وكما ناقشنا من قبل، وبالإضافة للخسارة المباشرة لفرص التكاثر، يجازف الزوج باستثمار أعوام أو عقود من جهوده لتربية ولد منافسه، ظناً بأنه ولده. الأسوأ من ذلك، تذهب جهود الأمومة التي تبذلها زوجته لرعاية ابن منافسه بدلاً من ابنه. وإذا ما خرجت هذه الغلطة للعلن، فتسوء سُمْعة الزوج المخدوع، مما يقلل من قيمته التكاثريّة، وتدنِّي وضعه الاجتماعيّ، وزيادة فرص تعرضه في المستقبل لصائدي شركاء آخرين. وفي نهاية المطاف، سيعاني الزوج المخدوع من فقدان الفرص البديلة، وهي فترات استحقاق كان بإمكانه اتباعها كبدائل لو لم يشارك في هذه الشريكة تحديدًا.

إن الفشل في صدّ صائدي الشركاء يمكن أن يؤدي أيضاً إلى ارتداد الشريكة باطراد. إذا ما قامت الشريكة بترك أحدهم من أجل أحد المنافسين، فإن الشريك سيفقد قيمتها التكاثريّة المستقبليّة بالكامل. وسيفقد كُلَّ جهودها الأموميّة التي يمكن أن تُستثمر من أجل أطفاله المستقبليين، وكُلَّ فرصه في الوصول إلى قرابات اجتماعيّة قد يجلبها لهُ اقترانه بها. بالإضافة إلى أنها ستكون على دراية بكُلِّ معلوماته الشخصيّة، عاداته، نقاط قوته وضعفه، المعلومات التي يمكن أن يستغلها المنافسون عندما تشاركهم بها. [7]

كذلك قد تعاني النساء من التكاليف التكاثريّة إذا ما أخفقن بصدّ الصائدين. لكن قد تكون الهفوة الواحدة أقل كلفة على النساء مقارنة بالرجال، لأنهن لا يخاطرن بالخيانة الجينية، كما يفعل الرجال. فكما رأينا سابقاً، يضمن التخصيب الداخلي للمرأة بأنها ستكون أمَّ أطفالها، بغض النظر عن الخيانة الجنسيّة لشريكها. مع ذلك، فإنَّنا نعلم بأن الرجال يوجهون الموارد للنساء اللواتي يمارسن الجنس، لذا فإن اللاتي يفشلن بصد صائدي الشركاء سيجازفن بهذه بفقدان هذه الموارد. تعاني النساء، كالرجال، من الخطر المتزايد لالتقاط الأمراض المنقولة جنسيًّا من عشيقات أزواجهن. وإذا قام شريكها بترك العلاقة، فإنها تفقد بالكامل الموارد التي سيُعاد توجيهها إلى شريكته الجديدة وأطفالها. – وبالرغم من أن خطر سوء سُمْعة المرأة المخدوعة قد لا يكون ثقيلاً كضَرر سُمْعة الرجل المخدوع، إلا أنها يمكن أن تتضَرَّر أيضاً. يستنتج الناس بشكل طبيعي أن الشريكة المهجورة قد تملك بعض العيوب الخفيّة، أو أنها تعاني من برود في الرغبة أكثر مما يوحي مظهرها الخارجيّ. وكما سنرى لاحقاً، فإن السُمْعة المدمِّرة

وقيمة الشريكة المتضَرِّرة قد تشكل دوافع قويّة للقتل. - قد يبدو أمراً عَقْلانياً أحياناً عندما تقوم بترك الشريك الذي انحرف وضلَّ، إلا أن التطوُّر زوَّدنا بآليات فعّالة لحراسة الشريك، والتي تحاول جاهدة إبقاءه أو على الأقل منع أيِّ أحد من أن يكون مع من نحب.

الحذر من صائدي الشركاء

تُفسر هذه التكاليف التطوُّريّة الجوهريّة الاستراتيجيات التي طورناها لحراسة الشريك. لقد طوَّر البَشر، وكما في الجراد، الصراصير، الجنادب الأمريكيّة، فيلة البحر، الشمبانزيّ، عِدّة أساليب لصدّ صائدي الشركاء. في دراستي البحثيّة الأولى لتحديد هذه الدفاعات، اكتشفت 19 أسلوب مختلفاً لحراسة الشركاء، وهي استراتيجيات مستخدمة لصدّ صائدي الشريك ومنع الشريك من الانحراف، تراوحت من الحذر واليقظة إلى العُنْف.[8] تضمنت الأمثلة عن الحذر واليقظة: الاتصال بالشريكة في أوقات غير متوقعة لمعرفة مع من تكون، جعل أصدقائه يتحقَّقون من الشريك، التسلل بنحو مفاجئ وغير متوقع لرؤية ماذا تفعل، عدم السماح له بالغياب عن ناظرها في الحفلات. أما الأمثلة عن العُنْف فتتجلّى مثلاً بضرب أيِّ شاب يبادر بالتودد أو إبداء إعجابه بالشريكة، صفع امرأة أخرى قامت بالتحرش أو إبداء إعجابها بالشريك، تهديد الشريك، دعوة أصدقاء ليشبعوا المعجب ضرباً مبرِّحاً.

في حين تضمنت أساليب أخرى: **إخفاء الشريك** (عدم أخذها إلى حفلة ما عندما يتواجد فيها ذكور عِدّة)، **احتكار وقت - الشريك** (قضاء كُلِّ وقت الفراغ معها حتى لا تتمكن هي من مقابلة أحد)

تهديدات لفظيّة (التهديد بقطع علاقتها به إذا ما قام بخيانتها) **الانتقاص من قيمة المنافسين** (لفت نظرها إلى عيوب الشباب الآخرين) **استعراض الموارد** (كشِراء هديّة باهظة الثمن) **تحسين المظهر الخارجيّ** (جعل نفسه أكثر جاذبيّة أمامها) **تعزيز الدافع الجنسيّ** (الأداء الجنسي الأمثل لإبقائه معها) **إشارات الحيازة الجسديّة** (كالإمساك بيدها عندما يكون الرجال الآخرون حولها) **والزخرفة الاستحواذيّة** (كالطلب منه أن يرتدي خاتماً يدل على أنه مرتبط بها).

يختلف الرجال والنساء في عدد المرات التي يؤدون فيها هذه الاستراتيجيات التصنيفيّة.[9] الرجال عادة يقومون بإخفاء الشريكة أكثر مما تفعل النساء، واستخدام إشارات الحيازة الجسديّة (كالطلب منها أن ترتدي معطفه) استعراض الموارد، تهديد المنافسين، واستخدام العُنْف البدني كاستراتيجيّة تَدُلُّ على حراسة الشريك. بالمقابل، تميل النساء لتعزيز وتجميل مظهرها الجسديّ، ومغازلة رجال آخرين كاستراتيجيّة لحراسة الشريك.

هناك قضيّة حاسمة أخرى تَكْمُنُ في تخمين مدى الجهد الذي يبذله الفرد ويخصِّصه لحراسة الشريك وصدّ صائدي الشركاء: يمكن أن يؤدي شدة الجهد إلى القتل. - قد تزداد حراسة الشريك لدرجة الاقتران بشريك ذي قيمة عالية، لتجنب أيِّ خسارة تكاثريّة كبيرة. ويمكن أيضاً أن تزداد عند ظهور أيِّ منافسين مهتمين بهذا الشريك. إحدى المفارقات المقلقة في سوق الاقتران هي إنه كلما زادت قيمة الشريك، حاول المنافسون صيده أكثر.

كشفت دراستنا التي أُجريت على 107 من المتزوجين حديثاً، تنبؤات لمدى حدة الجهود المخصصة لحراسة الشريك[10]. مال الرجال المتزوجون من نساء شابات وجذّابات، ممن يتمتّعن بقيمة تكاثريّة عالية، إلى إخفاء شريكاتهم أكثر من الآخرين، واستعراض ثورات غضبهم عند أقل إشارة توحي بالخيانة، وكذلك تهديد الرجال الآخرين باستخدام العُنْف. شملت الأمثلة على الإجراءات المُحدَّدة التي قام بها الرجال التالي:

- رفض اصطحاب الشريكة إلى حفلة يتواجد فيها رجال كثيرون.
- الإصرار على قضاء كُلِّ وقت فراغها معه.
- الصراخ على الشريكة عندما تتحدث مع أحد آخر.
- إخبار الشريكة أنه سيموت إن ابتعدت عنه.
- الانتقاص من ذكاء الرجال الآخرين.
- التحديق بخشونة بوجه شاب آخر ينظر إلى الشريكة.

ومع أن شباب المرأة وجاذبيتها الجسديّة يعدُّ من أهم المزايا والسمات الأوَّليّة المفضلة للاقتران بالنسبة للرجال، إلا أنها تلعب دوراً مهماً في تقرير مدى شدة وحدّة الجهود التي سيبذلها الرجال للمحافظة على شريكتهم.

على النقيض، لم تتأثر حراسة الشركاء للنساء بمظهر أزواجهن أو أعمارهم. لكنها ارتبطت بدخله المادي ومدى إصراره لبلوغ أعلى التسلسل الهرمي للمَكانة الاجتماعيّة. لقد كانت النساء المتزوجات من رجال لديهم موارد وفيرة، ومبادرة للكفاح والسعي، أكثر عرضة

لإظهار مستويات متزايدة من الحذر واليقظة مقارنة بغيرهنَّ، والتعبير عن الضيق العاطفي بأدنى إشارة تَدُلُّ على خيانة شريكها، وتكرس جهداً كبيراً لتعزيز مظهرهنَّ، وإظهار المزيد من الخضوع للمحافظة على الشريك. شملت الأمثلة على الإجراءات المُحدَّدة التي قامت بها النساء التالي:

- ❖ البقاء بجانب الشريك في حفلة ما.
- ❖ رفض التهديد بالانفصال إذا ما قام الشريك بخيانتها.
- ❖ جعل نفسها «جذابة للغاية» للحفاظ على اهتمام الشريك.
- ❖ اخباره بأنها ستتغير من أجله.
- ❖ تطلب منه أن يلبس خاتماً للإشارة بأنه قد ارتبط بها.

وتماماً مثلما تؤثر رغبة النساء في الرجال ذوي المَكَانة والموارد الوفيرة على انتقائهم كشريك أساسي، تستمر هذه الصفات نفسها بتأثيرها على الجهود المبذولة من قبل النساء للحفاظ على الرجال المنجذبين لها وصدّ المنافسين بعيداً عنها.

يتمثل الشكل الأكثر تطرفاً لسُلوك حراسة الشركاء بقتل المنافس، وقد كشفت دراستنا لقَتَلة ميشيغان هذا الأمر كمسألة لافتة ومنتشرة على نطاق واسع. أحد المتورِّطين في هذا السُلوك، كان رجلًا من أصول هنديّة (ديباك) يبلغ 45 عاماً ومتزوجًا من (أنديرا) البالغة 39 عاماً، مع المتطفل عليهما (بادراك). القصة بدأت عندما سمح ديباك لبادراك بالبقاء في منزله فترة مؤقتة ريثما يبحث عن مكان آخر. امتدت الفترة لأسابيع وأشهر، وبدأت شكوك ديباك تزداد حتى توصل إلى

قناعـة تامة بأنه سـيقوم بأخـذ زوجته منه. قام بـشراء بندقيّة صيد من أحـد محـلات البنادق المحليّة مـع ذخيرتـها – قال لاحقاً بأنه اشـترى هـذه البندقيّـة خوفاً من بادراك. وبعد مضي ثلاثة أسـابيع، قرر ديباك مواجهتهـما بعلاقتهما، وبالفعـل اعترف بادراك بأنـه على علاقة حب مـع زوجتـه، وكان يريـد إبعادها عنه، ثم أمسـك بيد أنديـرا وتوجها مسرعـين إلى السـيارة، ليقوم ديباك بتوجيه بندقيتـه باتجاههما – ادعى ديبـاك لاحقـاً أنه كان يريد أن يخيفهما فحسـب. وبينـما كانت البندقيّة موجهة نحو بادراك، أطلق ديباك النار مصيباً بذلك أنديرا.

بعد ذلك اسـترد ديباك تحكمه بالبندقيّة وركَّز على منافسه، وأطلق النار عليه حتى سقط بادراك أرضاً. ثم أطلق النار مجُدَّداً ليقتله. عندما سُـئل ديباك من محققي الشرطة، اعترف بقتل منافسـه، لكنه ادعى أنه لم يكـن يقصـد قتل زوجته، فهو كان يحبها ويعشـقها بجنون، وعندما سُـئل لماذا قتله، كان يجيب على الدوام بأن بادراك كان يحاول أن يدمر حياته من خلال أخذ زوجته منه.

حالـة أخرى تتعلق برجل يدعى (بوبي)، يبلغ من العُمْر 37 عاماً، والذي استمر زواجه لمدة 8 أعوام ولديه طفلان. المشكلة بدأت عندما دخلـت زوجته بعلاقة عاطفيّة مع (راندي) . بوبي ومع أن علاقته مع زوجتـه متذبذبة، إلّا أنـه لم يكن يريد الطلاق. لكـن، زوجته أصرّت وذلك بسبب «**خلافات لاتحلّ**». وفقاً لما صرّح به بوبي، وبغض النظر عن شـكوى زوجتـه حول تعاطيه للماريجوانـا: «**كُلُّ شيء كان على ما يرام، وفجأة أرادت الطلاق**». تطلقت وتزوجت زوجته راندي لتدوم الخلافات لأعوام بين بوبي وراندي.

ذات مرة، سخر راندي من بوبي عندما جاء لزيارة أطفاله، قائلاً» **سأرفس مؤخرتك**»، وهو تهديد حقيقي لأن راندي ضليعٌ في فنون الدفاع عن النفس. لكن جاءت القشة الأخيرة عندما أشتكى أطفال بوبي من سوء معاملة راندي - صفعهم، ضربهم بقسوة والسخرية منهم، إضافة إلى أنه كان يجبر ابنة زوجته على لبس ملابس ضيقة لتحرجها. باءت بالفشل محاولات بوبي في معالجة هذا الموضوع عن طريق القانون والمحاكم ولم تؤدِّ إلى نتائج إيجابيّة.

في أحد الأيام، أوصل بوبي أطفاله إلى منزلهم، عندها بدأ راندي بالسخرية منه مجدداً قائلاً: «**عليك أن تعطيني نفقة الأطفال لأنك لن تراهم مُجدَّداً**». وعندئذ قفز لعَقْل بوبي شيء: «**إما أنا أو هو**». بعد فترة، عاد بوبي بسيارته إلى بيت منافسه راندي الذي فتح لهُ الباب، مدَّعيًا بأن ثَمَّة شيئاً يخصه يريد أن يعطيه إياه. عندها أفرغ بوبي خمس رصاصات في جسم راندي. أفاد بوبي للشرطة لاحقاً: «**هذا الشقي كان يظن بأنه يستطيع أن يعُنّف أطفالي دون أن يطاله القانون أو أيُّ عقوبة، قدّمت شكوى للشرطة وللمحاكم، لكنهم لم يستطيعوا فعل أيِّ شيء، اعتمدت على نفسي، وتدبَّرت أمر ابن العاهرة هذا، والآن لن يقوم بتعنيف أطفالي فصاعداً**».

في هذه الحالة كما في العديد من الحالات الأخرى، نرى تأثير المنطق الصارم لعِلم النفس التطوُّريّ - التنافس الجنسيّ وصيد الشركاء، مع القشة الأخيرة المتمثلة بإساءة صائد الشريك ومضايقة أطفاله؛ الحوامل الثمينة الناقلة لجيناته. لم يكن القتل هو خيار بوبي الأول لهذه المشكلات التكيفيّة، ولكن ثبت أنه الحلُّ النهائيّ.

النساء كذلك لا يعفون من الرغبة القويّة في قتل صائدي الشركاء.
في الساعات الباكرة من صباح أحد أيام شهر تموز، تم العثور على جثة جينيفا محترقة في حقل بواسطة أحد المارة. لقد قُتلت منذ وقت طويل: كان جسمها متعفنًا. أبلغ مايكل عن اختفائها منذ خمسة أيام مضت. وأخبر الشرطة بأنه قلق عليها لأن زوجته انجلينا قامت بتهديدها لأنها عشيقته. وكما أفاد أن حديثاً حاداً جرى بينهُ وبين زوجته في اليوم السابق لاختفائها بشأن علاقته السريّة بجينيفا، شاهدتهما يمارسان الجنس في إحدى المرات وواجهت جينيفا بذلك. بوقت لاحق، قالت انجلينا للشرطة إن جينيفا كانت تتباهى بعلاقتها الغراميّة مع زوجها وقالت لها «**أيتها العاهرة، أنا أقوم بالعناية بزوجك، لا تقلقي إني أهتم به**». القشة الأخيرة جاءت عندما اكتشفت انجلينا رسالة غراميّة من جينيفا إلى زوجها. لم يفِ مايكل بوعده الذي قطعه لزوجته بأنه سيقطع علاقته: لقد أراد الاحتفاظ بزوجته وعشيقته. في نهاية الجدال بينهما خرجت انجلينا قائلة: «**لا بأس، لا تفعل أيَّ شيء، أنا من سيقوم بالانتقام من هذه العاهرة**». ثم رآها مايكل تخرج ومعها بندقيّة، وأعتقد أنها ستلاحق جينيفا. وكما صرَّح بأنه يظن أنها خدعت عشيقته للذهاب معها في سيارتها ثم قامت باختطافها.

لم تعترف انجلينا بجريمة القتل. لكنها أقرت بوجود أفكار دارت في ذهنها إزاء قتل جينيفا. مع ذلك، أصرّت على أن هذا لم يدفعها للقتل. في نهاية الأمر، جاء شاهد آخر واعترف بأنه قام بمساعدة انجلينا في التخلّص من جثة جينيفا. تم إدانة انجلينا بتهمة القتل العمد. ومع أنها قد رسمت نهاية لصائدة زوجها، إلا أنها ستمضي بقيّة حياتها وراء القضبان.

في دراستنا لخيالات القتل، سجلنا العديد من حالات أفكار القتل التي كانت دوافعها صيد الشريك من قبل أحد المنافسين، وكانت تتسم بالعُنْف بطبيعتها. وإليكم بعضها:

* «الحالة (217) ذكر: فكرت في قتل صديقي السابق، كان على علاقة جنسيّة مع عشيقتي السابقة، وأنكر في وجهي مباشرة. تشاجرنا لدرجة أنَّنا رفعنا السكاكين على بعضنا. كان يعاشر صديقتي بينما كنت ذاهباً في رحلة مع فريق المدرسة إلى لندن. وعندما عدت، كذبا عليَّ هما الاثنان واستمرا بالمواعدة مع محاولة إبعادي عن كشفهما. كنت على وشك أن أقتله، لولا أن فتاة ما وقفت أمامي وسارع أصدقائي بإمساكي وأخذوا السكين مني. لقد كنت فعلاً على وشك أن أفقد سيطرتي على نفسي. تحدثت إليه في بادئ الأمر، لكنه استمر في استفزازي. أنهيت الحديث معهُ لكنه ظلّ يحاول إغاظتي، بالإضافة إلى أني رأيته يمسك سكينه بيده عندما كان يظن أنني لا أراه».

* «الحالة (434) ذكر: اكتشفت بعدما أدركت أن الأمور مع حبيبتي يمكن أن تعود إلى مجراها، بأن شاباً كان معها، وكان يضع يده على مُؤخرتِها ويتحرش بها في الحفلات. لقد كان على دراية بأن لديها شريكًا لكنه لم يكترث. سمعت هذا وأردت أن أقتله.... ليس بالسكين أو البندقيّة، فقط أن أضربه حتى الموت.... أركله، أهشم عظامه».

* «الحالة (272) ذكر: لقد كان يُغازل صديقتي ولم أكن راضياً البتَّة. طلبت منه أن يتوقف عن هذا لكنه لم يستجب أبداً. وهذا ما قادني إلى الجنون. لم أفعل أيَّ شيء. في بادئ الأمر غازلها، ثم بدأ يقول لي عنها

كلاماً جنسيًا. وفي إحدى المرات وأمامي قام بوضع يده على مؤخرتها. عندئذ، فكرت حقاً في قتله. [كيف فكرتَ في قتله؟]، أولاً: أهجم على رأسه بكلتا يديَّ، ثم أوقعه على الأرض وأركله على خصيتيه. ثم أحطم رجولته بأسناني، ثم ينزف حتى الموت [ما منعك من قتله]، أنا شخص متحضر، وهذا الأمر يخالف أخلاقي وديني».

وهكذا، وبالرغم من أن الرجال هم عنيفون أكثر عندما يتعلق الأمر بالاعتداء الجسديّ إلا أن هذا لا يعني أن النساء ليس لديهن خيالات إجراميّة متطرفة لقتل منافساتهنَّ، وهذه بعض الحالات التي تبين ذلك:

* «الحالة (69)، أنثى: قامت بسرقة حبيبي، وكانت وقحة وخسيسة معي ومع أصدقائي. عاملت أخي الصغير بسوء.... وددت لو أحرقها حتى رقبتها ثم أقوم بإطاحة رأسها بجزّازة العشب».

* «الحالة (119)، أنثى: كانت تتصل بحبيبي وتطلب منه أن يذهب لبيتها، وعندما فعل ذلك، خانني معها...... وودت حينها أن أدعسها بسيارتي».

تكشف هذه الخيالات عن اختلافات واضحة بين الجنسين في الثأر ودوافع القتل. يميل الرجال للتركيز على المبادرات والعروض الجنسيّة التي يقوم بها صائد الشريك، والتي تعد مؤشراً لخطر التهديد بالخيانة الجينية. بينما يميل غضب النساء للتركيز على جاذبيّة منافس محتمل والتهديد الذي يُشكّله على التزام الشريك وتفانيه. بالنسبة للمرأة، تكون المشاركة العاطفيّة للمنافسة مع شريكها، العامل الأكثر قلقاً. وفي حين يركز الرجال بشكل حصريّ تقريبًا على التورط

الجنسيّ للشريك مع منافس، تقلق النساء بشدة من الإشارات الحميمة النفسيّة، والتي تَدُلُّ على خسارة طويلة المدى للشريك.

يتجلّى ثأر النساء الذي يمكن أن يُعبّر عن جاذبيّة إحدى المنافسات في أحد الخيالات الخاصة بالقتل التي قمنا بتسجيلها: العارضة كيت موس.

* «الحالة (19)، أنثى: كان حبيبي يخبرني مراراً وتكراراً كم هي جميلة وجذابة عارضة الأزياء كيت موس. في الحقيقة إنها مُجرَّد عاهرة نحيلة. [**الطريقة**]: هي أن آخذ شماعة ملابس سلكيّة وأغرزها في عينيها حتى الموت. ثم أعلق جسمها النحيل في خزانتي وأُري حبيبي بأنها لم تعد جذابة الآن».

كيف يمكن لامرأة أن تكنّ كُلَّ هذا الكره والقسوة الفتّاكة لإحداهن رغم أن حبيبها لم يقابلها ولا مرة في حياته؟ التفسير المعقول هو أنه في بيئات الأسلاف القديمة، كان أيُّ شخص يثير إعجاب شريك أحدهم، يُعدُّ خطراً حقيقيًّا محتملاً، وذلك لأن تجمعاتنا السابقة كانت حميمة وعاطفيّة للغاية. أما في مجتمعاتنا الحديثة، فقلد أصبحنا وإن جاز التعبير، نعرف أشخاصاً لم نلتقِ بهم أبداً - - كالمشاهير الذين نتابعهم بشغف في الأفلام والتلفاز أو في الحملات الإعلانيّة. وهذا هو مثال آخر عن كيفيّة تحكم آلياتنا النفسيّة غير المصممة للتعامل مع عصرنا الحديث. ضع في اعتبارك حقيقة أن الرجال يُثارون جنسيًّا فحسب من خلال صور النساء العاريات اللاتي هنّ لسن أكثر من مُجرَّد أشكال وصور على شاشة التلفاز أو الحاسوب. هذه هي

تكيفـات الانجذاب في عالمنا الحديث، والتي تتضمن محفِّزات جديدة لم نواجهها في مسيرة ماضينا التطوُّريّ.

مـن هـذا المنظور، يمكننا الاسـتنتاج أن شـعور الخطـر القادم من عارضة الأزياء، لهُ أُسُـس منطقيّة بالكامل. بالنسبة لتلك المرأة، كان انجذاب صديقها لعارضة الأزياء كيت يمثل رغبتهُ بجسمها الرشيق الـذي لرُبَّما هي غير قـادرة على أن تضاهيه. وعلى الرغـم من أن الثأر الموجَّـه لكيـت موس قد يبدو لوهلـة ليس بتلك الأهميّـة أو أنه مبالغ بـه، إلا أنه قد يعمل عملـه جيداً ويبقيها محترسـة ومتيقظة لأيٍّ خطر حقيقـي لصيد شريكها الذي قد يتجسـد في إحدى المنافسـات ذوات الأجسام الرشيقة.

وتمامـاً، مثلما رأينـا في خيالات النسـاء لقتل منافسـاتـهن، كانت المـرأة التـي تَخَيَّلـت قتل مـوس، غاضبـة بجنون من هـوس انجذاب شريكهـا لجاذبيتهـا وجمالهـا. كما أنـها قامت بتشـويه سـمعتها ونعتها «**بعاهرة نحيلة**». في المقابل، ركز رجل واحد في دراسـتنا التي شملت خمسة آلاف خيالٍ للقتل، بالتركيز على المظهر الجسديّ لمنافسه.

الأكثـر الأهمية، كانت خيالات النسـاء والأسـاليب المتعلقة بقتل منافسـاتـهن، تتضمـن غالبًـا تدمـير جمالهـن وسـحقه، وكـما توضح الحالات التالية.

* «الحالـة (2075) أنثـى، 19 عاماً: [**من فكرتِ في قتلهـا؟**] ويندي [**ما علاقتهـا بـكِ؟**] هي ابنة عميّ [**السـبب؟**] حاولت أخـذ كُلِّ شيء مني، وأن تسرق أصدقائي. لقد اعتقدت، لسبب ما، أن تعدد علاقتها الجنسيّة

أمر رائع، لأنها تعيش على نفقة الشباب الذين تعاشرهم. [**كيف فكرتِ بقتلها؟**] أهشم رأسها بالحائط مراراً وتكراراً. [**ما منعك من قتلها؟**] العواقب، لم أرد أن أدمر حياتي من أجل إنهاء وجودها البائس. [ما سيدفعكِ أكثر لقتلها؟] الأدرينالين. حيث سأكون بمزاج سيِّئ».

* «الحالة (2479) أنثى، 18عاماً: نامت مع عِدّة شبان مرتبطين معي أو مع صديقاتي، وألقت باللوم عليّ، إنها كاذبة، رغم أنه لا يوجد أحد يصدق حماقتها [**كيف فكرتِ بقتلها؟**] لم يكن لديّ خطة كاملة، لكنني أردت أن أجعلها قبيحة المظهر كما هي في الداخل، [**ما منعكِ من قتلها؟**] أنا من الأشخاص المتوازنين الذين لا يمكن أن يفعلوا ذلك، لكن لو أنها حاولت أن تقاتلني سوف أقوم بضربها حتى الموت».

أما الحالات التالية فستوضّح ميزة رئيسة أخرى لغضب النساء من منافساتهن، والتي تركّز على العلاقة العاطفيّة لشركائهن مع منافستهن:

* «الحالة (310) أنثى: صديقة حبيبي. لقد اكتشفت أنهما يخدعان من حولهما، وأنها لاتزال لديها مشاعر اتجاهه - كُلُّ ذلك أثناء علاقتي به. لقد تَخَيَّلت إطلاق النار عليها وطعنها، وتَخَيَّلت الدم يخرج من صدرها ورأسها يرتجف ويهتز إلى الوراء. أردت أن تعرف أنني أنا التي أقوم بذلك، [**ما منعكِ من قتلها؟**] - شعوري الأخلاقي وإدراكي بأني لن أكون قادرة على فعل ذلك. [**ما سيدفعكِ أكثر لقتلها؟**] إذا استمرت بإظهار مشاعرها اتجاهه».

* «الحالة (15) أنثى: كنت أواعد هذا الشاب لأكثر من خمسة أعوام ونصف العام، وكان أصدق إنسان عرفته. قبل أسبوعين قال لي إنه

سيذهب إلى المنزل ليكمل دراسته، وفي اليوم التالي اكتشفت بأنه تأخر عن بيته قرابة ثلاثين دقيقة. لقد غادر من عندي وذهب للحديث مع تلك الفتاة (صديقته) التي تعيش لوحدها، وبات عندها. أنا لم أقابلها من قبل، ولكن سمعت أنها قامت بشراء سيارة صديقي القديمة، وأصبحا صديقين منذ الصف التاسع. ذهبت إلى منزلها في صباح اليوم التالي، ووجدته عندها، لكنه قال إنه لم يفعل شيئًا. صدَّقتُه؛ فقد كان بحاجة فقط للحديث. لا أعتقد أنه كان يعاود الاتصال بها، لكنها كانت تتصل به كُل يوم، كرهتها، وفكرة قتلها كانت ستخطر ببال أيٍّ واحدة عندما ترى حبيبها في بيت إحداهن [المنافسات]. لم تدعنا وشأننا وبدأت أعتقد بأن هذه البدينة العاهرة تريد حبيبي بالفعل».

لاحظ أن المرأة في هذه الحالة تؤمن أن صديقها لم ينم البتّة مع منافستها، لكن العلاقة النفسيّة (العاطفيّة) التي كشفت عن اختيار شريكتها المنافسة عند الحاجة للتحدث، مقترنة بالتهديد المستمر لصيد ناجح طويل الأمد، وتلوح في الأفق باعتبارها العنصر الأكثر تهديدًا للعلاقة بين صديقها ومنافستها.

قتل صائدي الشركاء

ليس القتل بالتأكيد الحلّ الأكثر شيوعًا لمشكلة صائدي الشركاء، لكنه قد يكون الحلّ الأكثر جديّة للكثير ممن يواجهون ألم هذه المشكلة. في الحقيقة، إن قتل منافس معتدٍ جنسيًّا لهو أمر شائع جداً في الكثير من الثقافات، لدرجة أنه غالبًا ما يُعترف به كوسيلة مشروعة للتعامل مع صائدي الشركاء.

يعيش أفراد قبائل الجيسو القاطنون في الحدود الشرقيّة لأوغندا، على الزراعة وغالباً ما يتطلب العمل مغادرة الزوج لأسابيع أو حتى أشهر في كُلِّ مرة. ومع أن هذا الأمر قد يعطي فرصة لصائدي الشركاء من فعل ما يحلو لهم، إلا أن عائلة الزوج وأصدقاءه يحملون على عاتقهم حراسة الزوجة. قد يكون في بعض الأحيان ثَمَّة هفوات، ويمكن أن يأتي صائدو الشركاء رفيعو المَكَانة تحت ستار أحصنة طروادة، وكما هو موضح لنا في الأمثلة التاليّة:

* «ذهب بولوغوا واميني، وهو رجلٌ يافعٌ من منطقة نائية في بوجيسو شرق أوغندا، كما يفعل الكثير من رجال الجيسو لأوغندا ليعمل على مزارع القطن. ترك زوجته للعناية بممتلكاته. وبعد 3 أشهر عاد لمنزله، وعند وصوله لكوخه سمع أصواتاً غريبة - زوجته وقريب له يدعى (يواني موداما). لا يمكن لقريبه أن يكون هنا لغرض بريء، فلا يجوز لأيِّ رجل من الجيسو أن يدخل بيت الآخر إذا ما كانت الزوجة لوحدها؛ سُلوك لا أخلاقي. طرق بولوغوا الباب بغضب شديد، ففتحت لهُ زوجته، أبعدها بقوّة وأمسك بقريبه الذي كان يحاول الهرب. تصاعد الصراع بينهما حتى قام الزوج بضرب منافسه على رأسه عِدّة مرات بالعصا. وعندما قتله نهائيًّا ذهب وسلَّم نفسه لأقرب مركز للشرطة. في إفادته أعترف بكُلِّ شيء، واعُتبر أن له لديه مُبرَّرًا مُقنعًا»[11].

علق أحد شيوخ القرية ممن كانوا لديهم معرفة عميقة بقوانين وأعراف شعب الجيسو قائلاً: «**لماذا! كان بكوخ أخيه؟ والباب مغلق، يستحق ما حصل**».[12] وأوضح أن هذه الجريمة شنيعة لأن المعتدي

كان قريبًا جداً من الزوج. من منظور شعب الجيسو، يعد قتل رجل متلبسٍ بجرم الخيانة مع زوجة رجل آخر، عَملاً مُبرَّراً تماماً.

في قبائل الوارلبيري أيضاً، وعندما يتم القبض على رجل يزني مع زوجة أحد ما، فيجب أن يُسلِّم نفسه للزوج المخدوع[13] والذي بدوره يقاضيه من خلال طعنه برمح في الفخذ أو الساق. هذا التقليد يخفف من سُمْعة الزوج المخدوع ويعيد لهُ شرفه. أما إذا ما حاول الجاني الفرار من هذا العقاب، فإن الوارلبيريُّون سيقابلونه ببطش وعُنْف مميت.

عقاب مماثل، عند قبائل التيوي القاطنة على جزيرتين صغيرتين قبالة الساحل الشمالي لأستراليا، لرجل زنى مع زوجة رجل آخر[14]. لقد كان عليه أن يقف في وسط القرية بينما يرميه الزوج المُهان بالرماح، أمام كُلِّ أنظار القبيلة بأكملها. وإذا ما تفادى الرماح الموجهة يقوم حينها الأزواج الآخرون، ولاسيما شيوخ القبيلة، بالتقاط الرماح وقذفها عليه مرة أخرى. الطريقة الوحيدة لإعادة شرف وسُمْعة الزوج المخدوع، هي أن يصيب الرمح ساق المذنب فينتج عنه جرحٌ ينزف بغزارة.

أما قبائل الدسياكاني في بابوا غينيا الجديدة، فيتبعون أساليب مشابهة في التعامل مع صائدي الشركاء. يصنع الرجال سهاماً خاصة تحتوي على العديد من الخطّافات، والتي تنفصل بدورها عند دخول السهام في جسم الضحيّة. جروحها تكون مؤلمة، والشفاء منها يستغرق فترة طويلة. وعلى غرار الوارلبيري والتيوي، إن حاول المُذنب الهرب وتفادي العقوبة، فإن شعب الدسياكاني

سيقوم بمواجهته بمصير ونهاية وحشيّة أكثر عُنْفاً، حيث يُرمى من الخلف وغالباً حتى الموت.

وفي شرق إفريقيا، يعرف جميع رجال قبائل النوير: «**أن من يُقبض عليه متلبِّساً بجرم الزِّنى فسيعاني من جروح خطيرة أو الموت على يد الزوج المخدوع**»[15]. وفي شمال سومطرة «**يملك الزوج المتضرِّر الحق بأن يقتل المتلبس بالزنا مثلما يقتل خنزيراً بحقول الأرز**»[16] أما في شعوب اليابيز، فعندما يمسك رجل زوجته تزني مع رجل آخر يكون، «**كان لديه الحق في أن يقتلها والزاني معها أو أن يحرقهما في المنزل نفسه**»[17] أما في شعوب التيف في وسط نيجيريا، فإن الرجل الذي يتعمَّد قتل عشيق زوجته في فترة أربعة أشهر أو أكثر يتلقى عقوبة الموت، أما إذا قام بقتله عند اكتشافه متلبِّساً، فجزاؤه هو 18 شهراً من الأعمال الشاقة فحسب.[18]

وبالطبع، في الثقافات الغربية، لا يستخدم الرجال الرماح للتعامل مع صائد الشريك، ولا يكون القتل هو الاستراتيجيّة الأكثر تفضيلاً. لكن البعض في تلك الثقافات أحياناً يعدُّون صيد الشريك جريمة تُبرِّرُ القتل.

يخفّف الفرنسيون عقوبة القتل المرتكبة نتيجة الألم عن عاطفة الغَيْرة الخطيرة. وهناك قوانين مماثلة كذلك في إيطاليا، بلجيكا، رومانيا، إسبانيا، بولندا، بلغاريا، الدنمارك، جرينلاند، أورغواي، سويسرا، يوغسلافيا، والبرازيل. أستند منطق هذه القوانين إلى افتراض أن الرجال الذين يرتكبون مثل هذه الجرائم يكونون تحت تأثير عواطف لا يمكن التحكم بها ولا يمكن مقاومتها وتجعل

الظـروف حينهـا - القتـل - مُبرَّرة. يفـرض القضاة وهيـأة المحلفين عقوبات مُخفّفة على مثل هذه الحالات.

في تكسـاس، حتـى عـام 1974، كان قانونيًّـا أن يقتـل الرجل من وجـدهُ متلبِّسـاً في سريـر زوجته، مـن دون أيِّ عقاب عـلى الإطلاق: «مـن وجد متورطًا بالزنا مع زوجتـه شريطة أن يحدث قبل أن ينفصل **الطرفـان**». [19] أي، إن أكتشـف الـزوج الاثنـين معاً عـلى السرير، ثم ابتعـد قليلاً وفكر بذلك ثم عاد وقتلهما، حينهـا تُعدّ جريمة، لكن أن أرتكب القتل في لحظة القبض عليهما سويًّا، فقد استوفى المعيار القانوني «**الرجل العاقل**» - سيصبح مشوشاً لدرجة أن يرتكب القتل. القانون في تكسـاس، على الأقـل حتى عام 1974، يعتـبر أن دوائر القتل جزءٌ من طبيعتنا البشريّة. وهذه البدهيَّة لا تقتصر على تكساس.

في القانـون العـام، يمكـن أن يُخفّـف الحكم على الرجـل الذي يقتل زوجتـه وعشـيقها بعـد رؤيتهما في حالـة تلبس صريح - ممارسـة الزنى - لدرجـة القتل غير العَمد، لأنه يرتكب تحـت تأثير حالة عاطفيّة تُفقد التحكـم. يواجـه هذا التخفيـف بعض المعارضـات، إلا أنه يحصل على بعـض التعاطـف مع دوافع القَاتل. في أربع ولايـات، يعد الدليل الذي يُظهـر أن المتهم رأى زوجته بحالـة تلبس مع أحدهم عندما قام بالقتل، هـو دليل بـراءة تام. في جورجيا، على سـبيل المثال يتـم تبرئة الزوج من هذه الجرائم، وتعدُّه بمثابة الدفاع عن النفس. الزوجات هنا، وحسـب وجهـة رأي المحاكـم، يمثِّلـن الرقـة والعفـة ، وفي فعلتهـن هـذه خرق واضـح على الأزواج تعديله، هذا المعتقد ظهـر بمنتصف الثمانينات من القرن الثامن عشر ولم يُلغَ حتى أواخر القرن العشرين. [20]

ومن اللافت للنظر في كُلِّ ثقافة، ثَمَّة قوانين مُسنّنة، تتضمن دائمًا قيودًا على من يمارس الجنس غير الشرعيّ[21] فبعد سِفاح القرابة، والذي تحظره المجتمعات أيضًا على الصعيد العالمي، يتم اعتبار سُلوك الرجل الذي يمارس الجنس مع زوجة رجل آخر على أنه من أكثر السُلوكيات الممنوعة[22] لقد حاولت العديد من المجتمعات أن تسنّ مجموعة روادع مقبولة للحدِّ من صيد الشركاء. توصلت شعوب الوارلبيري، والتيوي والدسيماكاني، إلى حلٍّ يحدُّ من القتل - إلحاق إصابات جسميّة خطيرة بجسم المُذنب. إلحاق إصابة دمويّة بصائد الشركاء هذا يخدم عِدّة وظائف حاسمة: تردع المُذنب من محاولة مستقبليّة لصيد شريكة أحد ما. وترسل تحذيرات لصائدي آخرين أن يتراجعوا عن نياتهم، فضلاً عن أنها تعيد، إلى حد ما، سُمْعة وشرف الزوج المخدوع.

بالطبع، القتل العمد ليس حلًّا مقبولًا في معظم المجتمعات اليوم. لكن ثَمَّة طريقة بديلة ومبتكرة لحالة صيد شريكة ما: **إصدار غرامة ماليّة**. في حُكم قضائي، أمر القاضي أن يدفع أحد المتطفلين لطبيب أسنان، مائتي ألف دولار، بسبب قانون «**تنفير المودة**» عندما أكتشف علاقته بزوجته[23]. ومع أن هذا النوع من العقوبات هو نادرٌ، إلا أنه يعكس حدساً إنسانيًّا واسع الانتشار إزاء انتهاك أحدهم زوجة أحد آخر.

الرادع الذي من المحتمل أن يكون أكثر فاعليّة هو معرفتنا العميقة بأن صيد شريك ما ينتهي بنا إلى الموت. إعطاء مثل هذه المبالغة والدرجة من الخطر لعمليّة صيد الشريك يجعلنا نتوقع بأن التطوُّر

خلق دفاعات خاصة للتعامل مع هذا التهديد. كشفت دراستنا بأنّنا فعلاً لدينا نُظم لهذه الدفاعات، تمعَّن الحالة التالية:

* «الحالة (32) ذكر، 17 عاماً: لقد ذهبنا إلى نفس المدرسة الثانويّة وواعدنا الفتاة نفسها. كان لهذا الشاب عدد من المشاكل القانونيّة كالاعتداء وتعاطي المخدِّرات. أنا كنت أواعد فتاة في المدرسة الثانويّة ولم يكن هذا راضياً عن ذلك البتة. لقد كان يشعر بالغَيْرة ولا يريدها أن تتحدث إليّ ولا أن أتحدث إليها. أتصل بي وهددني بأني سأندم إذا لم أتوقف عن التحدث معها. كانت تراودني أفكار بأنه سيباغتني ولرُبَّما يقوم بإيذاء عائلتي. في إحدى المرات قام بدفعي وتوعدني. عندما كنت ألمحه، كان يشد على يديه بغضب وتظهر القسوة على وجهه، ويبدأ بالكلام بنبرة عالية. كان هناك الكثير من المرات التي ظننتُ بها أنه سيقوم بإطلاق النار عليّ بمسدس. حاولت استشارة أحد ما. لكن لم ينفع. لذا قمت بفعل ما يطلبه مني وقطعت علاقتي نهائيًّا بصديقته السابقة. فكرت أن هذا الشخص سيهدأ بهذا الوعد لأنه قد أساء فهم الموقف، وظننتُ أنني إذا قمت بتصحيح الأمر، فإن شعوره بالكراهية اتجاهي سيتناقص. [**ما سيدفعه أكثر لقتلك؟**] إذا ما حاولت صدّه أو أن أقاتله، كان سيقتلني بلا شك».

في دراستنا للكشف عن الدفاعات المطوّرة ضِدّ القتل، وجدنا أنه ثَمَّة إدراكًا حادًّا بالخطر الذي يُنذر بقتلنا نتيجة صيد شريك ما. تم الكشف عن هذا الخوف في بحثنا الذي طلب من الناس تخيل أنفسهم يواجهون سيناريوهات مختلفة: **تخيل أنك أحد المشاركين!**

(تخَيَّل حالتين، الأولى: عدت إلى المنزل باكراً ووجدت شريكك

العاطفي عارياً في وضع جنسي مع أحدهم - ما هي احتمالية قيامك بقتل هذا المتطفل؟ تَخَيَّل الآن حالة السيناريو الثانية: وُجدت عارياً في أحضان شريك عاطفي لأحدهم - ما هي احتمالية أن يقوم الشريك الغاضب بقتلك؟)

كانت النتائج مذهلة: بالغ معظم المشاركين في تقدير احتمال تعرض حياتهم للخطر؛ أعطوا تقديرات أعلى للسيناريو الثاني عن الأول، رغم موقفهم الموازي. بيت القصيد: بالغ معظم الناس بتقدير احتماليّة حدوث عواقب باهظة التكلفة كجزء من استراتيجيّة مطوّرة لتجنّب هذه العواقب. وفي حالتنا، أرتعب معظم الرجال عند تَخَيُّلهم أنفسهم أنهم وُجدوا على سرير زوجة أحدهم. إنه انعكاس لشعور الرجال المتطوِّر للسياقات التطوُّريّة المتكررة عندما كانت حياتهم بخطر حقيقي. تكشف الاقتباسات التالية من مقابلات تحوي بعضها وصفًا صريحًا وفظًّا عن نفسية الدفاعات ضِدّ القتل فيما يتعلق بمخاطر صيد الشركاء:

* «الحالة (147) ذكر: لقد مارست الجنس مع صديقته... وعندما اكتشف هو ذلك، قام بإخبار العديد من الناس أنه سيقتلني. هذا الشخص يتصف باللاعَقْلانيّة وعدم التحكم بمشاعره، لذلك ظننتُ أن أيَّ محاولة منه قد تكون بالكامل غير عَقْلانيّة. [**كيف تجنبت القتل؟**] - حاولت الابتعاد عنه وألا أُقحم نفسي بعلاقة مع فتاته. هذا أفضل فعل ممكن في ذلك الوقت. [**ما منعه من قتلك؟**] - احتاج وقتاً ليفكر بذلك. [**ما سيدفعه أكثر لقتلك؟**] إن استمررت بعلاقتي الجنسيّة مع صديقته».

وكما توضح هذه الحالة، يمكن أن يؤدي الجنس مع امرأة أحدهم

لتهديد بالموت. وهنا كان هذا التهديد فعّالاً للغاية: توقف المتطفل عن الجنس مع تلك المرأة، لأنه أخذ هذا الخطر على محمل الجد، وكان ذكيًّا بهذا.

كذلك تُدرك سارقات الشركاء من الإناث مخاطر استراتيجيات الاقتران الخاصة بهن:

* «الحالة (419) أنثى: قمت بسرقة شريكها، وأعتقد أني بالغت بردة فعلي نتيجة شعوري بالذنب، توقفت عن التحدث معي، وبدأت أظن بأنها ستقوم باقتلاع القابس الكهربائي من محرك سيارتي أو حتى قطع الفرامل. لقد بدأت أشعر بالخوف وامتنعت عن قيادة سيارتي لقرابة أسبوع. [**كيف تجنبتِ القتل؟**] سوّيت وضعي معها. - إنني أعلم بأنها في الحقيقيّة لا تريد أن تقتلني ومع ذلك، فقد كنت متيقظة لكُلِّ الاحتمالات في ذهني، وكما تعلم، لا يمكنك أن تكون بأمان مع ذلك؟»

من الجدير بالذكر في هذه الحالات، ومع أن كُلَّ شخص أخذ التهديد على محمل الجد، إلا أن كُلًّا منهم توقع أن يكون الخوف مبالغاً فيه. هذا الفكر (العَقْلانيّ) يجعل من أيِّ محاولة قتل بعيدة الاحتمال، ولأن تكاليف القتل باهظة وشديدة للغاية، فإن عواطفنا المطوَّرة تقودنا لأن نغالي في التقدير من احتماليّة الموت في أيِّ وقت وفي أيِّ حالة تكون فيها فرص القتل ممكنة فعليًّا. لقد طوَّرت عقولنا إدراكًا حادًّا لمثل هذا التهديد، والذي إذا ما تم تنفيذه سيكون مميتاً بلا شك.

هذا الخوف يدفع أشخاصًا للتوقف عن صيد الشركاء، كما توضح تلك الحالات التالية:

* «الحالة (647) أنثى، 25 عاماً: [**من يفكر بقتلكِ؟**] شريكة سابقة لحبيبي. لقد كانت مجنونة به. ذات مرة حاولت إخراجي من الطريق السريع. ومرة أخرى طاردتني بسرعة قصوى بسيارتها وهي تحمل مسدسًا. [**كيف تجنبتِ القتل؟**] أبلغت الشرطة وحاولت تجنبها قدر الإمكان. [**ما منعها من قتلكِ؟**] - لرُبَّما حقيقة أن لها طفلًا. [**ما سيدفعها أكثر لقتلكِ؟**] لو أنني بقيت على علاقتي مع حبيبها السابق. لقد خرجت من علاقتي! بعد هذه الحوادث، لقد روعتني للغاية».

* «الحالة (494) أنثى، 23 عاماً: ميراندا، شريكة حبيبي السابق. كانت تغار مني، وتخشى أن يكون مهتـمًا بالعودة لي. تغار مني عندما نكون أنا وهو مع بعضنا [**ما جعلكِ تعتقدين بأنها تحاول قتلكِ؟**] - بدأت أحافظ على تواصلي معهُ من خلال البريد العادي، وكان يستمتع بذلك، مبتعِدة عن حقيقة أن لديه شريكة حاليّة، ومبتعِدة عن حقيقة أنني كنتُ أراسله بعيداً عنها. خلال تبادل الرسائل، كان واضحاً من أنه مهتمٌّ بالتواصل عبر الهاتف والخروج معي. ترك رقم جهاز الإشعار الذي يخبره بالرسائل وقمت بإرسال رسالة صوتيّة لـهُ. وبعد حصولها على شفرة الوصول لبريده. عرفت بأنني أنا المرسلة، واتصلت بي وقالت بأنها ستنتقم مني إذا لم أتركه وشأنه. حصل ذلك عِدّة مرات وهددتني بمواجهتي عند بوابة مدرستي. [**كيف تخيَّلتِ أن تقوم بقتلكِ؟**] ستأتي بعد انتهاء دروسي إلى المدرسة، ثم تجرُّني إلى مكان ما بمساعدة أصدقائها وتقوم بضربي حتى الموت. [**كيف تجنبتِ القتل؟**] توقفت عن التواصل معهُ!! لقد أدركت لاحقاً أنه شخص أحمق. وبعد كُلِّ هذا، لم أخسر أيَّ شيء فعلياً».

لقد وضحت هذه الحالات مبدأ التطوُّر-المشترك. تطوُّر صيد الشركاء كاستراتيجيّة اقتران أساسيّة في الترسانة البشريّة وكما

وضحت الإحصائيات المذكورة في هذا الفصل تعدُّ حقيقيّة لحد كبير. وكما رأينا بالطبع، إن ضحايا صيد الشركاء قد طوّروا دفاعات لمنع أيِّ انتهاك أو تعدٍّ على شركائهم. وبالرغم من أن العديد من هذه الدفاعات غير قاتلة، إلا أن التهديد بالقتل هي واحدة منها.

عندما يصل الأمر لصيد الشركاء، لربُّما لا يكون كُلُّ شيء عادلاً في الحُبّ والحرب. إن خطر القتل أحد المخاطر التي يمكن أن نتعرض لها عند إغراء شريك أحد ما. لكن القتل قد يحدث أيضاً عندما لا نتوقع حدوثه - في ملاذ منازلنا الآمن، ومن لحَمنا ودمنا. وهذا هو موضوع فصلنا القادم.

الفصل السابع

الدّم والماء

«أن ينجب أحدهم أطفاله وأن يقوم بتربيتهم، هو السبيل الوحيد دوماً الذي يستطيع من خلاله الرجال والنساء أن يضمنوا فيه سلالتهم الوراثيّة»

~ مارتن دالي ومارغو ويلسون [1]

وجـدت ديـان داونـس (27 عامـاً) عاملـة بريـد مطلقـة، مـن سـبرينغفيلد، أوريغـون. حـب حياتـهـا، زميلها لو لويسـتون. لكن المشكلة كانت، إنه متزوج[2]. بدأت علاقتهما العاطفيّة كعلاقة عابرة، لكـن الأيام امتدت إلى أسـابيع ثم إلى أشـهر. لويسـتون، ومع ذلك، رفـض أن يقابـل ديان مُجدَّداً عندمـا يتواجد أطفالها رغم توسُّـلها لهُ، لأنـه لا يجـد أيَّ علاقة تربطه بهم. في المقابل طلبـت ديان منه أن يترك زوجتهُ نورا لتدوم علاقتهما. قرر لويستون قطع علاقته بـديان، الأمر الذي جعلها بحالة ارتياب شـديد. محققو الشرطة وجدو رسالة كُتب فيها: «**ماذا حصل؟ أنا مسـتاءة جداً، ما قالته لك (زوجتك) أو فعلته لتجعلـك تتصرف بهـذه الطريقـة؟ لقد تحدثـت إليك صباحـاً للمرة الأخـيرة. حطمـت قلبـي عندما سـمعتك تقول (لا تتصـلي أو تكتبي لي بعـد الآن). لا أزال أفكـر بك كأفضـل أصدقائي وكحبي الوحيد، وأنـت تواصل الإصرار على أن ابتعد عنك وأجد شـخصاً آخر. لابُدَّ أنك تمزح صحيح؟....**»[3]

في إحـدى الأمسـيات البـاردة المصادفـة 19 مـن أيار/ مايـو عـام 1983، وبعد أقل من شـهر من كتابة ديان هذه الرسالة، قامت بوضع أطفالهـا الثلاثـة في سـيارتها وذهـب إلى رحلـة. فـي المقعـد الخلفي،

جلست كريستي (8 أعوام) وتشيرل (7 أعوام)، وداني (3 أعوام). وحوالي الساعة 9:45 مساءً، أوقفت سيارتها وأخرجت مسدسا وأطلقت النار على أطفالها، ثم قامت بإطلاق النار على معصمها الأيسر، وقادت ببطء إلى المستشفى، سمع موظفو غرفة الطوارئ بسبب صوت بوق سيارتها المدوّي. أخبرتهم بأنها هُوجمت من قبل أحد الغرباء على طريق البلدة المظلم؛ «**رجل أبيض كثيف الشعر**». وعندما رفضت تسليم مفاتيح سيارتها، قام بإطلاق النار على أطفالها، ثم صوبها. وصل رجال الشرطة على الفور وشكُّوا بما قالته. لماذا لم يطلق المهاجم النار على الشخص الأصعب في السيارة أولاً بدلاً من الأطفال العاجزين؟ ولماذا لا يوجد غير جرح بسيط في معصمها؟

مَات تشيرل، ولدها الأوسط، وبأعجوبة، عاشت داني رغم أنها حتى هذا اليوم مقعدة، أما كريستي فشفيت من جروحها وزودت الشرطة بدليل إثبات خلال محاكمة والدتها؛ سُئلت عما إذا كان هناك أيُّ غريب في تلك الليلة أُطلق عليهم النار، أجابت «**كلا**». وحينما سُئلت «**من أطلق عليك النار؟**»، قالت: «**أمي**». أُدينت ديان داونس بتهمة القتل العمد، وحُكم عليها بالسجن مدى الحياة، وفشلت كُلُّ محاولاتها في الطعن بهذا الحكم.

لماذا يقتل الأهل أبناءهم

قتلُ الأطفال من قبل أحد الأبوين هو من أكثر أنواع القتل المُبهمة والمُروِّعة. أن يقتل أحدهم طفله، يعني أنه يعارض كُلَّ ما نعرفه عن الطبيعة البشريّة. ونظراً لأن علماء الأحياء السُلوكيّة تقريباً لا يقومون بدراسة شاملة للبشر، فقد تُرك البحث العلميّ حول

أسباب قتل الأبوين لأطفالهم في الغالب لعُلماء الاجتماع وعُلماء الجريمة، والذين بدورهم ركَّزوا على الظروف الاجتماعيّة مثل الحالة الاجتماعيّة والاقتصاديّة، الفقر، التفاوت بالدخل، والتعرّض للعُنْف الإعلامي كأسباب لعمليات القتل هذه.

أنا أعتقد أن نظريّة القتل التطوُّريّة والنفسيّة تُحرز تقدماً أفضل. للوهلة الأولى، قد تبدو هذه الجرائم أنها تدحض النظريّة التطوُّريّة للقتل. فأطفالنا، وقبل كُلِّ شيء، هم المركبات التي نُمرّر من خلالها جيناتنا. قتلُ أمٍّ لطفلها يبدو متعارضاً مع النظريّة التطوُّريّة بالمرة. فبينما قد يكشف الأب أن هذا الطفل أو ذاك ليس بطفله الحقيقي، تكون الأم واثقة تماماً بأن أطفالها هم ذُرِّيتها الحقيقيّة. في الواقع، إن الرابطة بين الأم وأطفالها هي قويّة للغاية لدرجة أن أمهات القَتَلَة المتسلسلين، ورغم الأدلة القاطعة على جرم أبنائهن، إلا أنهن غالباً ما يقفن بجانبهم حتى أيامهم الأخيرة، رافضات لأيِّ جرائم مروِّعة موجهة إليهم.

حسناً، هل يعدّ قتل الأطفال حالة مرضيّة، شكلًا من أشكال الجنون، خللًا وظيفيًّا في الآليات الأبويّة التطوُّريّة؟ أو أن هناك تفسيرًا أعمق لهذا السُلوك، لا علاقة لهُ بأيِّ خلل نفسيّ؟

يكْمُنُ أحد المفاتيح الأساسيّة في حقيقة أن للبَشر عددًا قليلًا جدًا من الأطفال مقارنة بمعظم الأنواع الأخرى. علاوة على ذلك، إنَّنا نمضي عادةً أعوامًا وأحيانًا عقدين أو أكثر بإطعامهم، تعليمهم المهارات، إبعادهم عن الأذى، تنشئتهم اجتماعيًا ليكونوا أعضاءً مشاركين بمجتمعنا. - ولأن استثمارنا إزاء أطفالنا باهظ جداً، وَجَب

علينا أن نكون انتقائيين بنحو استثنائي بشأن الشركاء الذين سننفق مواردنا المحدودة عليهم. سيفضل التطوُّر الآباء الذين يمنعون استثماراتهم بأطفال يُعدُّون ملكية خاسرة، وفي الحالات القصوى، سيفضل التطوُّر التكيفات التي تدفع قتل الأطفال ممن يتدخلون بشدة باحتمالات نجاحنا التكاثريّ.

إذا ما كان ثَمّة تفسير تطوُّري لقتل أطفالنا، فيجب أن نجد أدلة على عمليات القتل هذه عبر الثقافات البشريّة بظروف يمكن التنبؤ بها، وفي الواقع وجدنا ذلك. يحدث قتل الأطفال في جميع الثقافات التي توفر بيانات متاحة.[4] فبدءًا من قتل أطفال شعب الكونغ سان ببوتسوانا، إفريقيا، إلى قتل الفتيات الرّضع العاصف بالصين اليوم، ينتهي المطاف لبعض الآباء في كُلِّ ثقافة بقتل لحمهم ودمهم. علاوة على ذلك، يعد قتل الرّضع أحد أنواع القتل التي ترتكبها النساء أكثر من الرجال. ففي عينة كنديّة ضمت 141 رضيعاً قُتلوا على يد أحد الأبوين، على سبيل المثال، كان 62 % منهم قد قتل على يد أمهاتهم الوراثيّة.[5]

فيما يلي وصف من أحد عُلماء الأنثروبولوجيا لشعب الأيوريو، السكان الأصليين المقيمين في بوليفيا وباراغواي، للممارسة الشائعة لقتل الأطفال:

* «عشنا مع شعب الأيوريو قرابة 6 أشهر قبل أن نبدأ إجراء مقابلات مع نسائهم... وككُلِّ الأمهات في كُلِّ مكان في العالم، شعرن بالأسى عندما يكون أطفالهن الرّضع مرضى، ويبتهجن عندما يخبرن بأنهم جميلون. لقد أصبحت بعض

النســاء ضمن عينة الدراسة التي نقوم بها مقربات منا جداً. بعد فترة وجيزة انتقلنا إلى قرية أحداهن، إيهو، والتي قامت بالترحيب بنا واستقبلتنا بدجاجة كهديّة. كانت تزورنا كثيراً وعندما لاحظت بأنه ليس لدينا أطفالٌ، أخبرتنا بأنه لو كان لدينا فسيكونون بكُلّ تأكيد مميزين وجميلين. لقد كنا مرتابين فعلاً، عندما عرفنا لأول مرة عن قتل إيهو لصغارها.... من الصعـب جـداً أن تصـدق أن أحـداً مثلها كصديقـة لطيفة، زوجـة مخلصة، وأم شـغوف يمكنهـا أن تفعل شـيئاً بغيضًا كهذا». [6]

كم هذا مروِّع! يوجد على الأقل ثلاثة ظروف رئيسة يمكن فيها للضغط الذي يولده التطوُّر خلق تكيّفات لقتل الأطفال. [7]

الأول: هو عندمـا يكون لدى الطفل عيب خلقيّ خطير أو مرض أو تشوُّه. في هذه الحال، لن يتوقع، في ماضي أسلافنا، لمثل هذا الطفل العيـش والازدهـار بغض النظر عـن الجهود التي بذلهـا الأبوان. قتل هذا الطفل سـيحررهما من بذل اسـتثمارهما ويكـرّس جهودهما لطفل آخـر - سـليم. - تدعم الحقائق هذا التنبـؤ للنظريّة، حيث اتضح بأن التشـوه الجسـديّ هو مؤشر عالميّ على قتل الأطفال. في سـجل جميع الثقافات، يقتل الآباء، وفي معظم الحالات الأمهات، أطفالهم الرّضع نتيجة تشوهات بارزة أكثر من أيِّ سبب آخر. [8] فـي شعب الأيوريو وجـد الباحثون، أن النسـاء «**يفحصن مولودهـن الجديد بحثاً عن أيِّ علامات تشـوُّهٍ. وإذا ما وجدن شـيئًا غير مرغوب، يتم قذفه بعصا في حفرة ويدفن، ولا تلمسه أيُّ أيدٍ بشريّة**». [9]

الثاني: هو عندما تكون إحدى الأمهات لديها أطفال مسبقاً، وسيصبح الاستثمار في رضيع جديد عبئًا كبيرًا على مواردها لتربية الآخرين. مُجدَّداً، نجد الكثير من الأدلة عبر الثقافات، على صحة هذا التنبؤ. في شعب الأريونتا، وهم السكان الأصليون لأستراليا، لاحظ عُلماء الأنثروبولوجيا «**أنهم لا يترددون بقتل أيِّ رضيع جديد - بعد ولادته - إذا ما كان ثَمّة طفل أكبر لايزال يحتاج لتغذية من الأم**». [10] ويبدو أن نفس هذه الدوافع والأسباب القاسية تلعب دوراً بارزاً في بعض الثقافات التقليديّة عندما تُقدم المرأة التي لديها توأمان على قتل أحدهما. [11]

في كتابه «**القرابة والزواج في بلاد العرب**»، المنشور عام1885، تحدث ويليام سميث، عن معضلة البقاء هذه التي واجهها أسلافنا بلا شك: «**لقد ولَّد الضغط الذي سببته المجاعة حالة الوأد. لقد عانى بدو العرب باطراد من الجوع في أوقات كثيرة من العام. الوحيدون الذين لديهم ما يكفي من الطعام هم الأقوياء فقط، أما بالنسبة للفئة الأكثر فقراً، فكانت الفتاة عبئاً عليهم، وكان وأدها أمراً شائعاً باعتبارهم غير متمدنين، ويصارعون بقوة من أجل البقاء**». [12]

وصف عالم الأنثروبولوجيا التطوُّري نابليون شانون، والذي قام بدراسة شعب اليانومامي - لعِدّة عقود حالة مؤلمة لامرأة قتلت طفلها: «**كانت باهيمي، حاملاً عندما بدأتُ عملي الميداني، لكنها قامت بقتل رضيعها - كان ولداً - مُبررة بدموع بأنها لا تملك خياراً آخر. الرضيع الجديد هذا سيتنافس مع أريواري، أصغر أطفالها، والذي كان لا يزال يرضع وربُّما يعرضه للفطام المبكر، لذا اختارت أن تنهي حياة ولدها الجديد بدلاً من ذلك**». [13]

أما الظرف **الثالث**، والمرتبط ارتباطاً وثيقاً بالثاني، هو عندما يكون للمرأة أطفال من دون زواج أو علاقة ملتزمة مع رجل مستعد لدعم أطفالها. في هذه الحالة، ثَمَّة دافعان تطوُّريان أساسيان يدخلان حيز التنفيذ: مكتبة سُر مَن قرأ

الأول: يتمثل بخوف المرأة من عدم امتلاكها موارد لتربية أطفالها بشكل ناجح. وعليه، يكون الاستثمار فيهم غير مثمر. من الحالات المحزنة التي توضح مدى الأسى واليأس الذي تشعر به بعض النساء بمثل هذه الظروف هي حالة ماريا كارمن رودريغيز غونزاليس. أُتهمت ماريا بتهمة التخلي عن رضيعها في أوستين، بتكساس 2001[14] عثرت الشرطة على طفلها مرميًّا بصندوق كرتوني. أفادت ماريا ذات 25 عاما، للشرطة بأنها حملت بعد أن اغتصبها رجل «قيوطي» - لقب يطلق على المهربين للمهاجرين غير الشرعيين عبر الحدود المكسيكيّة إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة. لقد كافحت بمجرد وصولها إلى الولايات المتحدة للعثور على الطعام لنفسها. وعندما ولدت، لم تجد رجلاً للزواج. لقد كانت غير قادرة على العناية بطفلها، سألت الجيران أولاً عما إذا كان أيٌّ منهم يريد طفلاً. لكنهم رفضوا. لذا وضعته في علبة كرتون وتخلّت عنه. لسوء الحظ، هي لم تكن تعلم بأنها يمكن أن تتجنب الوقوع في مشكلة قانونيّة بالكامل من خلال الاستفادة من قانون **الملاذ الآمن للطفل في** تكساس، والذي يسمح للنساء بترك الرّضع الأقل من شهر في محطات الإطفاء ومراكز الطوارئ من دون أن تُسأل - وهذا أنموذج مثاليٌّ للأساليب التي تغيرت بها العوامل البيئيّة التي تشكل تطوُّرنا بمرور الوقت.

الدافع الثاني، الأكثر استفزازًا الذي يبدو بسياقنا المعاصر غريباً،

يأتي من العقبة التي قد يشكلها أطفال المرأة في العثور على شريك على المدى الطويل. فإنجاب الأطفال من علاقة سابقة يقلل من قدرة المرأة على جذب شريك يحميها ويعينها. ينظر الرجل عُموماً إلى الأطفال من رجل آخر، كتكلفة باهظة على العلاقة كزوج أم.[15] بالطبع، هنالك الكثير من الرجال سعداء لكونهم أزواجًا لأمهات. لكن، وكما سنرى لاحقاً، أن هناك العديد من التوتر والقلق يسود العلاقات الخاصة بأزواج الأمهات أو زوجات الآباء. في الواقع، وبالنسبة للمرأة العزباء، يعد استعداد الرجل للاستثمار في أطفالها هو عنصر رئيس في جذبها بنجاح. العديد من الأمهات العازبات يرغبن في الاستقرار مع رجال لا يرغبن بهم، إذا ما أظهروا رغبة في الاستثمار في أطفالها.

هذه بالطبع حُجَّة مثيرة للقلق الشديد. - إنها توحي لدرجة من القسوة والأنانيّة اتجاه الأطفال، وهو لأمرٌ مرعب. لحسن الحظ، تتعارض العديد من القوى مع تكيُّفات القتل - الدفاعات المضادة للقتل للضحايا المحتملين، ومصالح الأطراف الأخرى المعنيّة كأقارب الزوج والمرأة، والخوف من تضَرُّر السُمْعة الاجتماعيّة، فضلاً عن قضاء أعوام وراء القضبان في وقتنا الحالي. مع ذلك، قد لا تكفي أيٌّ من هذه القوى. وهذه بالضبط حالة ديان داونس التي وجدت نفسها، وأطفالها ضحايا غير مرغوب فيهم في سعيها للاقتران مع حب حياتها.

تندرج قضيّة سوزان سميث المشهورة ضمن هذه الفئة: «**بعد ظهر يوم غائم في 25 أكتوبر 1995 دقت السيدة سميث بقوة باب شقة واقعة بالقرب من الطريق السريع. روت قصتها للشرطة التي وصلت بعد بضع دقائق من الحادثة، قائلةً إن شاباً أسودَ هاجمها ثم قام بخطفها**

تحت تهديد السلاح عند إشارة المرور. ثم أجبرها أن تقود عِدّة أميال ورماها خارج السيارة. وعلى الرغم من توسلها، قام بسرقة سيارتها وبداخلها طفلاها مايكل (ثلاثة أعوام) وأليكس (عام واحد) كانا جالسين بالمقعد الخلفيّ».

لمدة 9 أيام خدعت السيدة سميث (33 عاماً) والتي تعمل كسكرتيرة، مقاطعة يونيون كاونتي في كارولينا الجنوبيّة بأكملها. ثم ما لبثت أن أخفقت قصتها المفبركة عن المهاجم الأسود، لتعترف بأنها وضعت طفليها وحزمتهما في المقعد الخلفي، ثم ركنت سيارتها على أحد أرصفة القوارب في بحيرة جون د. لونغ ليك، وتركتها تنزلق إلى قاع البحيرة. عندما أخرجت الشرطة السيارة من قاع البحيرة وجدوا الطفلين في المقعد الخلفيّ ما زالا مرّبطين بأحزمة الأمان.

اعترفت سوزان سميث في النهاية بأن صديقها الجديد، توم فيندلاي، كان يشعر بالبرود اتجاه الالتزام بعلاقتهما، ولم يقتنع بتواجد طفليها اللذين أنجبهما شريك سابق. وفي رسالة الانفصال كتب لها: «**ستكونين زوجة رائعة لرجل محظوظ، لسوء الحظ لن أكون أنا ... سوزان.... لقد انجذبت لك بالفعل، أنتِ امرأة تملك مواصفات رائعة، وأنتِ حقاً رائعة لكن كما قلت لكِ من قبل، يوجد بعض الأشياء تخص حياتك وهي غير مناسبة لي ... نعم، أنا أعني أطفالك**». [16]

لقد كانت سوزان مذعورة جداً بشأن فقدان عشيقها الجديد، ورأت في التخلص من أطفالها السبيل الوحيد لاستعادته. كانت مسألة اقترانها تتصدر أولوياتها، ولكنها عمليًّا قد تدنّت بسبب

طفليها الصغيرين. ومع وجود إمكانيّة للظفر بالشريك الأفضل والمرغوب أكثر ـ كان عشيقها وريثاً لأكبر شركة توظيف في يونيون كاونتي - كان الأطفال هم العائق الوحيد.

تظهر البيانات المتعلقة بقتل الأطفال على أيدي آبائهم من جميع أنحاء العالم هذا النمط. قتلُ الأمهات الوراثيات أطفالهن أعلى بكثير من آبائهم، لاسيما بين الأعمار الصغيرة، وذلك لأنهن يواجهن عبء الأطفال الباهظ للغاية. في كندا على سبيل المثال، تلد النساء العازبات أطفالاً بنسبة 12 %، لكنهن يقتلن أكثر من 50 % منهم.[17] في قبائل الآشاي القاطنة في البارغواي، فإن الأطفال الفاقدين للأب المستثمر لديهم معدلات بقاء أقل من 10 % من الذين لديهم أب مستثمر.[18] أيهو، امرأة من شعب الآيوريو وصفت لنا كيف قامت بقتل أطفالها الثلاثة الأوائل لأنها أنجبتهم من علاقات عابرة. وفي وقت لاحق وجدت الحُبّ الحقيقي وتزوجته، وأنجبت أربع بنات رعتهن حتى سن البلوغ.

إن كانت نظريّة التكيّف مع القتل تفسيرًا صحيحًا للدوافع الكامنة وراء عمليات القتل هذه، فعندئذ نتوقع أن ترتكب النساء الشابات نسبيًّا المزيد منها: تعاني الشابة التي تقتل رضيعاً من تكاليف الإنجاب أقل بكثير مما تعاني منه المرأة الأكبر سناً، ذلك لأنها لديها المزيد من الوقت المتبقي لإنجاب المزيد من الأطفال. ومُجدَّداً تؤكد النتائج عبر الثقافات هذا الأمر. في الواقع، تقتل المراهقات أطفالهن بمعدل يزيد 30 مرة عما تفعله النساء اللاتي تكبرهن بعقد من الزمن.

معظم النساء اللاتي يقتلن أطفالهن، يقتلنهم قبل أن يصلوا لعُمْر ثلاثة أعوام أو عامين، مما يجعل معنى القيمة التكاثريّة منطقيًّا. إن

كان الأطفـال سـبباً في انخفاض قيمة الاقتران للمـرأة، إذاً ما الداعي للاسـتثمار فيهم لعِدّة أعوام؟ فتلهم فيما بعد؟ الأدلة تدعم هذا المسار مـن الاسـتدلال. عادة ما تقتل الأمهات أطفالهـن عند الولادة أو بعد ذلـك بوقت قصير، مما يحدُّ بشـكل كبـير من التكاليـف، ويحافظ على اسـتثمارهن لظروف أكثـر فائدة. قتل الأطفال خـلال الأعوام الأولى يفوق عدد الأطفال الذين قتلوا في جميع الأعمار الأخرى مجتمعة. [19]

ثَمَّـة قضيّة أخرى مؤثرة بنحو خاص، كما أنهـا تتناول جانبًا قبيحًا بـارزًا في الطبيعة البشريّة. [20] إلا وهي قضيـة ميلودي أج: امرأة تبلغ مـن العُمْر 24 عامـاً، مطلقة، وتعاني ماليًّا مع ابنتهـا تيفاني البالغة من العُمْـر أربعـة أعـوام، وولدهـا جوناثـان البالـغ من عامـين. تعلقت بشـخص يُدعى مارك، لقد صادفته عندما كانت تسعى لإيجاد عمل. سرعـان ما وقعا في الحُبّ، وتواعدا لعِدّة أشـهر، ثـم انتقلا من تناول الطعام في المطاعم إلى علاقات جنسـيّة في شـقة ميلـودي الصغيرة. - كان لمـارك دخل عالٍ ومنزل واسـع، وفي النهايـة دعاها للعيش معه. بدا لـها الأمر وكأنـه هِبة من الآلـهة. اغتنمت ميلودي فرصة العيش مع شخص تحبه، والذي بدوره سيقضي على مخاوفها الماليّة. لكن ما لم يخبرهـا مارك به، أنه كان متزوِّجًا ويعيش مـع زوجته وأطفاله الثلاثة في نفس المنزل الذي دعاها للانتقال إليه، بالقرب من واكو، تكساس.

لتنفيـذ هذا الأمر غير المألوف، أخبر مارك زوجته أن ميلودي هي مدبـرة منزل سـتعيش معها، وسـتقوم أيضًا برعاية الأطفـال، مقابل الحصـول على الإقامة والطعام. زوجة مارك بالطبع لم يكن لديها أدنى شـك عن إنهما كانا عاشـقين. أخبرت ميلودي فيما بعد للشرطة، عند وصولهـا للمنـزل، واكتشـافها أن حبيبها لديه زوجة وأطفـال، بأنـها

أرادت المغادرة، غير أن مارك هددها وقال لها بأنه سيقتلها هي وطفليها فيما لو فكرت في مغادرة المنزل. دوافع ميلودي للبقاء كانت مشوشة بشكل واضح، وعندما سألتها الشرطة لاحقاً لماذا بقيت عند مارك؟ أجابت ببساطة: «**لأنني أحبه**».

الشيء الأسوأ كان هو عدم رضا مارك لمجيء طفلي ميلودي معها. حتى إنه قد حرّض أطفاله ليزعجوهما، لاسيما ابنتها ذات الأربعة أعوام. أحد الشهود روى أن صبية مارك يضربونها بقبضات اليد، ويضربون رأسها في الأرض، ويركلونها في ظهرها.

كان مارك صريحاً في إخبار ميلودي بأن طفليها عبءٌ عليه، وفي مرحلة ما سمعت ميلودي من مارك وزوجته بأنهما يُسبِّبان مشاكل جمة، ولابدَّ من رحيلهما.

بغضون ذلك، لعب مارك دور الرجل الغيور: حرس عشيقته عن كثب، رفض رحيلها، وحرّم عليها التواصل مع أيِّ شخص على الهاتف إذا لم يكن يستمع إلى المحادثة. قالت ميلودي فيما بعد بأنها كانت تشعر وكأنها تعيش في سجن.

أمضت ميلودي رغم ذلك تعيش ضغط تدريب ابنتها على الدخول إلى الحمام لمدة عامين، لأن تيفاني بدأت تبلل سراويلها، الأمر الذي أغضب أمها كثيراً. - سمعت إحدى الشهود ميلودي وهي تقول غاضبة لابنتها «**سأقتلكِ**»، وتكرر قولها: «**أنتِ ميِّتة لا محالة**». وفي مواقف أخرى كانت تسمعها هذا: «**أنتِ تاريخ سيِّئ .... سأتخلص منكِ بطريقة ما**». بداية النهاية حدثت عندما فقدت مثانة تيفاني التحكم تاركةً بقعة داكنة على إحدى أرائك غرفة المعيشة

الأنيقة، لتقوم والدتها هذه المرة بسحبها ودفعها بعُنْف وضربها على جانب رأسها، بعد ذلك انصرف كُلُّ أفراد العائلة لأداء مراسم صلاة يوم الأحد.

وعندما عادوا تأجج غضب ميلودي مُجدَّداً برؤية البقعة المبللة على الأريكة. استخلص قاضي التحقيق في القضيّة أن أحدًا ما قام بضرب تيفاني على رأسها بأداة حادة، بحيث لم تتمكن بعدها أن تُشفى. انهارت الفتاة المسكينة ذات الأربعة أعوام على الأرض تتلفظ أنفاسها، حاولت أمها حينها جعل العقاب أخفَّ، قائلة بأنها كانت تصفعها فقط، محاولة أن تعلمها التوقف عن التبوُّل في سراويلها. غير أن تشريح الجثة كشف عن أورام دمويّة كبيرة في الجبين، وكسر في قصبة الأنف، كما أن اختصاصي الأمراض اكتشف تلونًا أرجوانيًّا حول عينيها، ما يسمى **بعيني الراكون**، والذي يحدث من صدمة شديدة للجزء الخلفي من الرأس، مسبباً اصطدام الدماغ بمقدمة الجمجمة الداخليّة، ونزيف الأوعية الدمويّة الشعريّة حول العينين. كما كشف تشريح الجثة عن كدمات حول الرقبة، وكدمات على كامل جسم الفتاة الصغيرة، بعضها كان حديثاً وبعضها كان أقدم.

بينما كانت تيفاني ساقطة على الأرض، دخلت أمها إلى المطبخ لتعد طعام العشاء. لاحظ مارك أن تيفاني لا تتنفس بشكل طبيعي فقام بإخبار زوجته وميلودي بذلك، وحاول أن يقوم بالتنفس الصناعيّ لها. بعد عِدّة ساعات من المحاولات العقيمة لإحياء تيفاني، والتي رُبَّما خلالها كان من الممكن أن تُنقذ تلك الطفلة، اتصل شخصٌ ما بالطوارئ (911).

في تحقيق إضافي، قالت ميلودي للشرطة: «**أصيبت تيفاني في رأسها بأداة وأعتقد أن مارك من فعلها**». وعلى الرغم من اعترافها السابق بأنها هي من ضربت ابنتها بذلك اليوم، فقد أخبرت الشرطة أيضاً بأنها صفعت ابنتها على رأسها من الخلف وهي لا تعتقد بأن هذه الضربة كافية لقتلها، لكن الأدلة تشير بأن ضربتها هي المسبب بذلك.

لا يوجد شيء في ماضي ميلودي يشير إلى أنها ستصبح قاتلة. لقد ترعرعت في عائلة من الطبقة الوسطى، حصلت على درجات عالية، واستمتعت لمدة عامين في فريق مدرستها للتشجيع. لقد قَدَّم أبواها تربية مستقرة، ولم يعاملاها أيَّ معاملة سيئة، بل وبقيا متزوجين حتى يومنا هذا ...**أحذر قد يكون أحدٌ مثل ميلودي بجوارك أو بجواري!**

تشير هذه القصة الحزينة للاضطرابات الداخليّة التي غالباً ما تُميز العلاقات بين الأمهات والأطفال في جود الآباء البدلاء لا الوراثيين. وهكذا فإن كانت الضغوط التطوُّريّة قد صنعت تكيفات تقودنا فعليًّا لقتل أطفالنا أحياناً، لكن ما مدى الخطورة التي يجب أن تسود العلاقات بين الأطفال والآباء البدلاء - الآباء الذين لا تربطهم أيُّ قرابة جينيّة بالأطفال الموكل إليهم تربيتهم ورعايتهم؟

قاذفات وسهام الآباء البدلاء

«**زواج المرأة من جديد، يصنع عداوة لأطفالها**» - مَثل فرنسيّ قديم.
[24] في الأسود الإفريقيّة، يستمر حمل الإناث قرابة 110 أيام. وبعد الولادة، ترعى الأم أشبالها لقرابة عام ونصف العام. في أثناء فترة الرعاية، تبقى بلا إخصاب، لأن الرضاعة تثبط الإباضة. فترة الحمل

والرضاعـة هذه تمتـد قرابة العامين قبل أن تتمكن مـن التكاثر مجُدَّداً. وحتى يصل الأشبال للنضج التكاثريّ، تبقى الإناث في العرين، بينما يجب على الذكور المغادرة. يحاول الذكور المغادرون التعاون مع ذكور آخرين لتشكيل ائتلاف، أو فرقة متجوّلة «**قوة دلتا**»، يكون لـها مهمة وحيـدة في الحياة - **إطاحة الذكور البالغين من أيِّ عرين والاسـتيلاء عـلى الإناث**. وإذا نجحوا بذلك، فإنهم لا ينتظرون بصبر حتى تكمل الإنـاث فترة الرعاية ليبدأن بالإباضة. تتضمن مهمتهم قتل الأشـبال للإسراع بعمليَّة إخصاب الإناث مرة أخرى.

في سـهل سيرينغتي في إفريقيا، تقتل نسـبة مثيرة للاهتمام تصل إلى 25 % من أشبال الأسود من قبل أسود أمهاتها الجُدد.[25] ثم تستأنف الأمهـات الإباضـة ولا تُظهـر أيَّ هواجس بشـأن التـزاوج من قاتلي أشبالـهن. - يُنجب هؤلاء الذكور القَاتلون لأشبال الأسود المُبعدين أكثـر من الذيـن لا يقتلون. لا يوجـد أيُّ عالم إحياء مختـص بالحيوان قام بدراسة الأسود الإفريقيّة، يشك في أن الذكور قد طوروا تكيفات للقتل. بل تم اكتشاف تكيفات مشابـهة تدفع لقتل ذُريّة أحد الذكور المخلوعين في الغوريلا، النمور، الفهود، وأسـود الجبال. هذه النتائج ليسـت مفاجئة لأيِّ عـالم إحياء في القـرن العشرين. فالمـوارد الأبويّة لـلأم قيِّمة للغاية. لقد طـوَّر الذكور بعِدّة أنواع تكيفات لضمان إنفاق هـذه المـوارد على ذُريَّتها بـدلًا من ذريّة الذكور المنافسـة. وفي حين أن ذكور الأسـود قليلو الصبر لينتظروا حتى تُنهي الإناث فترة الرضاعة لإخصابهنَّ، فإن قتل أشبال المنافس ستسرّع من التكاثر الناجح.

لقد أكتشـف عالما النفس التطوُّريّـان الرائدان مارتين دالي ومارغو ويلسون، أفضل عامل من عوامل قتل الأطفال من قبل أحد الأبوين

- وجود (زوج الأم/ زوجة الأب) في المنزل. في أمريكا، فإن الأطفال الذين يعيشون مع أحدهما أكثر عرضة للقتل أربعينَ إلى مائةٍ مرةٍ من الأطفال الذين يعيشون مع كلا أبويهما الأصليين.[23] إحصائيات مشابهة تظهر في كندا وباقي الحضارات الغربيّة الأخرى. غالبيّة حوادث القتل هذه تحدث على يد أزواج الأمهات، ولرُبَّما لأنه عند الطلاق، ينتهي الأمر بحوالي 90 % من الأطفال إلى العيش مع أمهاتهم.

في إحدى الدراسات الكنديّة، وباستخدام بيانات مدوّنة من أعوام (1974 - 1990) كان معدل وفيات الأطفال نتيجة الضرب من آبائهم الأصليين هو 6 , 2 لكُلِّ مليون حالة وفاة فقط [24]. أما بالنسبة لأزواج الأمهات في الزيجات المسجلة، فأرتفع معدل الأطفال الذين يموتون نتيجة الضرب 27 مرةً ليصل إلى 6 , 70 لكُلِّ مليون. أما بالنسبة للشركاء المقيمين عند الأمهات من دون زواج فكان معدل القتل هو5 , 576 لكُلِّ مليون. من الجدير بالملاحظة أن وسائل قتل الرّضع التي يقوم بها أحد الأبوين الأصليين والبدلاء تختلف بشكل أنموذجيّ. في إحدى دراسات الاعتداءات القَاتلة للأطفال الصغار، وصل معدل ضرب الأطفال حتى الموت من قبل أزواج أمهاتهم إلى 82 %، وإلى 42 % مع الآباء الأصليين [25]. على النقيض، وصل معدل أطلاق النار من قبل الآباء الأصليين إلى 25 %، و5 , 1 % بالنسبة لأزواج الأمهات. من المرجح أن الآباء الأصليين يرغبون أن يُنهوا حياة أطفالهم بسرعة وبدون ألم نسبيًّا. في حين يضرب أزواج الأمهات حتى الموت، سواء على مدى فترة طويلة من الاعتداءات المتكررة أو من خلال نوبة غضب مروِّعة.

هذه الأرقام المرعبة هي بلا شك أقل تقدير مما هي عليه في الواقع، وذلك لأن بعض حالات قتل الرّضع لا تُكتشف، بينما يعزى بعضها إلى «**أسباب طبيعيّة**». العديد من الحالات التي كانت تُنسب سابقًا إلى «**متلازمة موت الرضيع المفاجئ**» وحالات الوفيات العرضيّة تظهر في الواقع كحالات قتل متعمد.

وفي حالات الإيذاء الجسديّ التي تم التبليغ عنها في كندا، كان المجموع الإجمالي هو أقل تقديرًا من العدد الحقيقي الكليّ لحالات الاعتداء. والسبب أن الكثير من الحالات لا يتم التبليغ عنها - يتعرض 1 من كُلِّ 3 آلاف طفل دون سن المدرسة ممن يعيشون مع أبويهما الأصليين لاعتداء جسديّ، مقارنةً بتعرض 1 من كُلِّ 75 طفلاً يعيشون مع أحد الأبوين الأصليين وزوج أم أو زوجة أب.[63]

ومُجَّدداً، نرى نفس النمط في كُلِّ أنحاء العالم. من الأمثلة على ذلك، هم صيادو-جامعو شعب الآشي في البارغواي. في إحدى الدراسات، قتل 19 % من الأطفال الذين يعيشون مع أبويهما الأصليين قبل أن يبلغوا الخامسة عشرة من العُمْر. - ساهم المرض، نقص الغذاء، وتقلص المواد الطبيّة الحديثة بذلك لا شك. لكن إذا كان هذا الرقم يبدو مرتفعًا لك، ففكر في هذا الرقم: مات 43 % من الأطفال الذين تربُّوا من أم وزوجها قبل سن الخامسة عشرة.[27]

ومع أن معظم جرائم قتل الأطفال تحدث عندما يكون الأطفال صغارًا جدًا، فإن بعضها يحدث في سنٍّ أكبر. في حادثة حديثة وقعت في المملكة المتحدة، أُتهم مايكل بالدوين، 36عاماً، بقتل ابنة زوجته البالغة 15عاماً تُدعى جينا.[28] ادعى بالدوين بأن جينا وقعت من

أعلى الدرج خلال جدال عائلي مما أدَّى لمقتلها من غير قصد. صديق بالدوين في السجن، مارك داندو، قال إن بالدوين قد اعترف أمامه بضرب جينا حتى الموت خلال جدال بينهما بشأن حملها. وبما إنه ليس سوى زوج أمِّها، غضب للغاية وقام بصفعها على رقبتها بحيث سمع صوتاً يدل أنه قام بكسرها. ووفقاً لتصريحات داندو فإن بالدوين لم يبدِ أيَّ ندم حيال هذا: «**لقد حصلت على ما تستحقه، يا لها من حمقاء**». [29] حُكم على مايكل بالدوين بتهمة القتل العمد.

قصص سندريلا

مع أن أغلبيّة حالات قتل أطفال الزوجة تُرتكب من قبل الآباء البدلاء، إلا أن ثقافتنا وغيرها، ومن المفارقات، تميل إلى التركيز أكثر على مخاطر زوجات الآباء. يُعرف قاموس ويبسر «**زوجة الأب**»: **(1) زوجة والد أحدهم نتيجة زواج لاحق. (2) امرأة تفشل بتقديم العناية والاهتمام المناسبين.** - تعود بنا قصص سندريلا عن وحشيّة زوجة الأب إلى أصل هذا الاعتقاد، والذي يظهر في العديد من الثقافات. في قصة الأطفال «**شجرة العرعر**»، التي كتبها في ألمانيا الأخوان جريم، تقتل زوجة الأب ابن زوجها وتقطع رأسه وتضعه في صندوق مليء بالتفاح. بعدئذ تقوم بلفه بوشاح، وتتلاعب به أمام ابنتها «**غير متعمدة**». [30] ثم تقوم بطهي الصبي الميت في الحساء، وتوجه ابنتها أن تدفن عظامه تحت شجرة العرعر. في القصة، يتحول الصبي المدفون، إلى طائر حسن الغناء، ليقوم سكان مدينته بإعطائه حجر الرحى كمكافأة له. وفي النهاية يقوم بخداع زوجة أبيه للخروج ومن ثم يُسقط الحجر على رأسها، ويسحقها حتى الموت. ثم يعود بأعجوبة إلى الحياة ويعيش مع إخوانه بسعادة تحت ظلّ أبيهم الوراثي.

وفي قصة الأطفال الروسيّة «**بابا ياجا**» يفقد الزوج زوجته ثم يتزوج مُجدَّداً: «... **لكنه لديه ابنة من زواجه السابق، فتاة صغيرة، لم تجد الرحمة في معاملة زوجة أبيها الشريرة، والتي اعتادت على ضربها والتفكير بقتلها صراحة**».[31] في إحدى المرات، قامت زوجه أبيها بتشجيعها للذهاب معها لزيارة أختها، تلك الساحرة الشمطاء الآكلة للحوم البشر، الأكثر وحشيّة منها. لكن، وكما هو الحال في قصة «**شجرة العرعر**»، انتهت قصة «**بابا ياجا**» نهاية سعيدة، حيث خططت الفتاة للهرب، ثم العيش بسعادة مع والدها الذي أطلق النار على زوجته عندما أكتشف مكرها وخبثها.

مع أن تفاصيل القصتين مختلفة، غير أن الموضوع الجوهريّ لكليهما كان ذاته – التركيز على مكر زوجة الأب. من الهند إلى روسيا، ومن اليابان إلى أمريكا الشماليّة، تحمل كُلُّ قصص الأطفال التي تتحدث عن وحشيّة زوجة الأب صدى نفسيًّا عالميًّا. وعليه، يمكننا التساؤل: لماذا لم تكن قصص أزواج الأمهات القاسين شائعة؟

هل طوّر البشر تكيفات لقتل أطفال شركائهم؟

قتل أطفال الأزواج يُرعبنا، كما هو مقدر. ولسوء الحظ، روعت النتائج العلميّة التي كشفت أن أطفال الزوج أو الزوجة يعانون من خطر مرتفع للقتل، العديد من عُلماء الاجتماع لدرجة أن البعض ذهبوا إلى مستويات غير عاديّة لإنكار وجودها.[32] ومع ذلك، فإن البيانات واضحة تمامًا، وأعتقد أن نظريّة التكيف مع القتل تقدم أقوى تفسير لأنماط جرائم قتل الأطفال.

بصراحة، إن أزواج الأمهات أو زوجات الآباء لهم دافع ضئيل للعناية بأطفال غيرهم. وفي الواقع، هم لديهم دوافع قويّة جداً لإقصائهم عن طريقهم. عندما يقوم زوج أم بقتل طفلها، فإنه يمنعها من استثمار مواردها في ذُرِّيَّة منافسه. ويُحرِّر مواردها للاستثمار في ذُريّته.

وكذلك، هو يُحرّر المزيد من موارده الخاصة بحيث يمكن إعادة توجيهها إلى أطفاله الأصليين. إذا ما كانت الأم صغيرة نسبيًّا، فإن القتل سيعجِّل، نظريًّا، من سرعة استعدادها للتكاثر مرة أخرى. وفي النهاية، سيواجه الجيل القادم، أي الأطفال الأصليون لزوج الأم، منافسة أقل مع أطفال منافسه. هذه الفوائد، المتكررة على مدى الزمن التطوُّري، قد وفرت ضغوطًا انتقائيّة يمكن أن تشكل وبسهولة دوائر نفسيّة لقتل أبناء الأزواج في ظروف معينة.

خشي البعض من هذا التفسير التطوُّري، لأنهم بدوا قلقين من أنه إذا كان «**طبيعيًّا**»، فسيخدم كثيرين كحُجَّة لتبرير مثل هذه الجرائم، وستُعزى الجرائم المرتكبة إلى هذه الدوافع المتطوِّرة. قلق آخر، يتمثل بوصم الآباء البدلاء بنحو ظالم، في عصر أصبحوا فيه هم الأساس العائلي. لكنني أود القول، بأنه إن كان للعَقْل البشريِّ دوائر نفسيّة متطوّرة تقود لقتل أطفال شركائنا، وبالطبع لارتكاب العديد من جرائم القتل الأخرى، فلابُدّ علينا أن نفهم وندرس كيف تؤثر هذه الآليات على سُلوكنا، بغض النظر عن مدى نفورنا من الفكرة. إنَّنا نأمل فحسب، ومن خلال إدراك وفهم خفايا علم النفس، التدخل بشكل فعّال لمنع حالات القتل.

دفاعات أطفال الشركاء

لحسن الحظ، ولأن قتل أطفال الشركاء كان يمثل خطراً شديداً طوال التاريخ البَشريّ، فقد صاغ الانتقاء أيضاً تكيفات أبويّة مصممة لحماية أطفالهم عند الخطر؛ الأولى، هي تكيفات منع القتل عند الأمهات والتي غالباً ما تنجح في منع قتل أطفالهم. تنتقي الأم العزباء عادةً شريكها بعناية؛ **أحداً يحبه أطفالها، وُيبدي ولعاً بهم**. - كما إنها عادة ما تكون يقظة للتفاعل الذي يبديه شريكها مع أطفالها بمجرد دخوله المنزل. - تُجنِّد العديد من الأمهات الأقارب للمساعدة في مراقبة الأطفال. وإذا أبدى الشريك أيَّ انتهاك فإنهن يهدِّدن بالانفصال أو الطلاق، ويواصلن ذلك، لينقذن أطفالهن من الخطر.

في المقابل، تطوَّر للأطفال دفاعات ضِدّ القتل خاصة بهم. أحد هذه الحالات والتي ذكرناها في الفصل الأول، تتمثل **بالخوف من الغرباء**، والذي يتجلى عالميًّا عند الرّضع بين 6 إلى 9 أشهر، وبالضبط، عندما يكونون قادرين على الزحف بعيداً عن مُقدمي الرعاية.[33] لا يتوجب على الرّضع تعلم تجنب الغرباء. فهذا الخوفُ الذي يبدو غير منطقيٍّ مُستمدٌ مما تُسمّيه عالمة الأنثروبولوجيا سارة هردي في كتابها «الطبيعة الأم»: **التَحيُّز المُضمَّن عميقاً جداً، والذي يستمر رغم كُلِّ الطُمأنينة التي يقدمها الأهل**».[34] - إن الخوف الشديد من الغرباء الذي يُظهر على نحو موثوق عند الرّضع عبر الثقافات، ما هو إلا عن وسيلة دفاع ضِدّ القتل مُصممة لإثارة حماية ورعاية الأبوين. ووفقاً لجميع الأدلة المتاحة، هو تطوُّر كاستجابة لاحتمالية قويّة، وكما صاغتها هردي «**تمثل تهديداً مزمناً خلال مسيرة تطوُّر أشباه البشر**».[35] حقيقة أن الأطفال يخشون الرجال الغرباء في

كثير من الأحيان وبحدّة أكثر مما يخشون النساء الغريبات، يكشف عن دقة تصميم هذا الدفاع ضِدّ القتل. تشير الإحصائيات إلى أن الرجال الغرباء، أكثر من النساء، يشكِّلون الخطر الأكبر فعليًّا على الأطفال الذين لا تربطهم بهم أيُّ صلة.[36]

النمط الثاني من دفاعات الأطفال ضِدّ القتل، هو تأثيرهم على اختيار الأم لشريكها الجديد.[37] يقيّم الأطفال مواقف ونوايا الشريك الجديد لأمِّهم، ويحاولون حثَّ أمهاتهم على رفض من يشعرون أنهم قد يكونون قساة. في المقابل، هم يرحبون بحرارة للذين يبدو أنهم على استعداد لمنح الفوائد، لذا غالباً ما يركز الرجال المهتمون بالاقتران بأم، بتأثيرهم على الأطفال كأسلوب رئيسٍ في استراتيجيتهم العامة بالمغازلة.

دفاعات أخرى للأطفال، تشرع بمجرَّد دخول رجل غريب في المنزل، منها: التواري عن الأنظار، تجنب العداوة مع زوج الأم، تجنيد حماية الأم، البقاء بعيداً عن المنزل، وترك الأسرة مبكراً. في الواقع، يترك الأطفال الذين يعيشون مع أزواج أمهاتهم أو زوجات آبائهم المنزل بفارق عامين من أولئك الذين يعيشون مع كلا الوالدين الوراثيين.

يدرك الأطفال جيدًا هذه المخاطر الكامنة لأزواج الأمهات / زوجات الآباء، وهي النتيجة التي تم إثباتها بدراساتنا عن خيالات القتل، وفي بحثنا عن متى يظن الناس أنهم في خطر. - إليكم بعض الأمثلة التي تُسلط الضوء على الرعب الذي يعيشه أطفال الزوج أو الزوجة.

«الحالة (585) أنثى، 25 عاماً: [**من تعتقدين إنه سيقتلكِ؟**] زوج أمي؛ كان زوج أمي، وانتهى المطاف به في السجن بتهمة إساءة معاملة والدتي. ذات يوم بدأ بضرب أمي في غرفة المعيشة، بينما كنا أنا وأختي في غرفة نومنا. سمعت أمي تصرخ، وظننتُ أنه سيقوم بقتلها. ثم بدأت أفكر بأنه قد يقتلني وأختي. اعتقدتُ أنه سيضربني ويخنقني. [**كيف تجنبتِ القتل؟**] بقينا أنا وأختي هادئتين في الخزانة، كنا نختبئ منه. أتذكر أنني قمت بإغلاق فم أختي حتى لا تحدث أيَّ ضجيج. بينما بقيت تعضَ يدي. [**لماذا فعلت ذلك؟**] لم أعتقد أنني أملك خياراً آخر. عندما تكون طفلاً فكُلُّ ما تعرفه عن كيفيّة حماية نفسك، هو أن تختبئ. تفكر أحياناً لكن تعرف أنك ضعيف. [**ما منعَهُ من قتلكِ؟**] - لا أعرف، لقد غادر تلك الليلة [**ما سيدفعهُ أكثر لقتلكِ؟**] إن قمت بالتدخل ومحاولة إيقافه وهو يضرب أمي. [**ماذا تعتقدين أنه قد يفعل، بخلاف قتلك؟**] اعتقدت أنه قد يتحرش بي جنسيًّا».

في هذه الحالة، نلاحظ دفاعاً مهماً كان فعّالاً ضِدّ القتل - البقاء بعيداً عن ناظري زوج الأم، ومنع أختها من إصدار أيِّ صوت يدل على مكانها. ويبدو واضحاً أيضاً أن هناك تهديدًا بالافتراس الجنسيّ. لحسن الحظ، عاشت هذه الفتاة وهربت من قاذفات وسهام زوج أم مميت. وكذلك فعل الشخص التالي، المُروَّع من قبل زوج أمه:

> «الحالة (108) ذكر، 23 عاماً: [**من تعتقد إنه سيقتلك؟**] زوج أمي... لقد تزوجا للتو. لكن احتد التوتر بينهما وأصبح انعزالياً وانطوائيًّا. بدأت أمي تقلق بشأن صحتي النفسيّة، لأنه بدأ بالتعدي عليَّ. ذات مساء، عدت للمنزل وقد كان يحمل مضرب بيسبول. وضعه بين ساقيَّ ورفعه للأعلى، قمتُ بالدوران غريزيًّا وأُفلت المضرب من يده وضرب

بالحائط. هذه المرة كنت فيها خائفًا جداً من ثأره، اعتقدت أنه من السهل جداً بالنسبة لهُ أن يتخلَّص منِّي نهائيًّا. من وجهة نظر زوج أمي، إذا تم إبعادي عن الطريق ستكون المشاكل في حياته أقل. [**كيف تعتقد إنه سيقتلك؟**] - تَخَيَّلتُ أنه سينفجر عليّ في أثناء جدال أو بعده، ثم يضربني بمطرقة حتى الموت. كنت خائفاً من انتقامه. إحدى المرات صفعني على وجهي، ومرة أخرى دفعني إلى الحائط بقوة. أخبرت أمي بكُلِّ شيء، لكنها لم تلحظ أيًّا مما أشرت إليها، أو على الأقل تجاهلت ما رأت، لأن الأمر على ما يبدو خارجٌ عن سيطرتها. بعد ذلك أخبرت معلمي في المدرسة والذي بدوره بلّغ الشرطة وتحدث إلى أمي أيضاً. بقينا بعيدين عن بعضنا لفترة من الوقت حتى غادرت المنزل. [**ما منعهُ من قتلك؟**] - اعتقد الخوف من السجن. [ما سيدفعهُ أكثر لقتلك؟] بصراحة بالنسبة لي كانت القضيّة مسألة وقت لا أكثر قبل أن يقوم بقتلي».

هذه الحالة جذابة لعِدّة أسباب، وتسلط الضوء على سلسلة من الدفاعات المضادة للقتل لصبي يحاول الدفاع عن حياته ضِدّ قاتل محتمل - هو زوج أمه. وكما يكشف تعليقه الأخير، «**مسألة وقت لا أكثر**»، فإنه كان مدركاً تماماً من أنه يعيش مع قاتل قبل أن يقوم زوج أمه بتنفيذ رغبته بالقتل. لم تكن مخاوفه هذه عابرة. بل استمرت وتفاقمت مع تصاعد إساءات زوج أمه. ومع إنه مُجَرَّد صبيٍّ صغير، إلا أنه اتخذ خطوات استثنائيّة للبقاء على قيد الحياة.

بالرغم من أن أعداد الأطفال الذين يتعرضون للقتل من قبل زوجات آبائهم أقل من أعداد الأطفال الذين يتعرضون للقتل من قبل أزواج أمهاتهم، إلا أنه لابُدَّ من توتر يعكِّر صفو العلاقة، كما أوضحت وبشدة دراستنا، حيث كان الدافع وراء العديد من

خيـالات القتـل التي أثيرت خلال تجارب الاعتـداء من قبل زوجة الأب.

«الحالة (85) أنثى، 18 عاماً: [**من فكرتِ بقتلها؟**] زوجة أبي. لقد كانت دائماً تقول لي أشياء مهينة وتضربني وأحياناً تدفعني من أعلى السلالم.... في أحد الأيام بعدما قامت بدفعي من أعلى السُلم إلى أسفله أخبرت أبي. لكنـه لم يصدقني. حينئذ بدأت أفكر حقـاً بقتلها [**كيف فكرتِ بقتلها؟**] فكـرت بجزّ حلقها بسـكين المطبخ. [ما **منعكِ من قتلهـا؟**] - إن قتلتها لانتهـت حياتي وبقيت هي (الرابحة). [**ما سـيدفعكِ أكثـر لقتلها؟**] إذا حاولـت إيذائـي مرة أخـرى، كان هذا الأمر سـيغضبني بشـدة. لكنني عوضاً عن ذلك تركت المنزل، وانتقلت إلى العيش مع صديقي».

تكشـف هذه الحالـة عن عمق الصراع، فضلاً عـن الحلول البديلة المتاحة لحلّ مشكلة زوجة الأب المسيئة. غالباً ما يـهرب الأطفال ممن يعيشـون مع زوجات آبائهم ويغادرون المنزل بعُمْر مبكر. وفي بعض الحـالات قد يُجبرون لمغادرته، الأمر الذي سـيقدّم حلاً لمعضلة زوجة الأب من دون اللجوء إلى القتل.

«الحالة (2123) أنثى، 19 عاماً: [**من فكرتِ في قتلها؟**] زوجة أبي البالغة من العُمْر 43عاماً. كانت لطيفة في البداية عندما تزوجت أبي، ولكن هذا كان مُجرَّد واجهة. لقد كانت أحقر امرأة عرفتها بحياتي. الأمر الذي كان يدفعها للغضب الشـديد هو عدم معرفتها بكُلِّ التفاصيل الصغيرة. لقد كانت تحاول في كُلِّ مرة إقناع أبي بأني شـخص سيِّء جداً. أَلَّفتْ أكاذيب عنـي في العديد من القضايـا. وعندما كنت مراهقة كانـت تقوم بتفتيش غرفتي وسـيارتي أسبوعيًّا. بالطبع هي كانت تريد أن تجد دليلاً على أنني

مدمنة مخدِّرات. أنا لست كذلك ولم أكن كذلك. بعُمْر 16 عاما قامت بتفتيش حقيبتي، ووجدت فيها حبوب منع الحمل، وعقاباً على هذا أُخذت سيارتي (التي اشتريتها بنقودي الخاصة ومن عملي)، وأجبروني على ترك وظيفتي بعد المدرسة، ثم منعوني من رؤية صديقي المفضل، وكذلك الخروج. [**كيف فكرتِ بقتلها؟**] فكرت بالكثير من الطرق: (1) أن استأجر صديقاً لي يقوم بقنصها (هو وافق على ذلك، لكنني خشيت أن أُعتقل). (2) أن أعبث بسيارتها. (3) أن أدعسها بسيارتي. (4) أن أجد رقم ضمان اجتماعي لي ولأختي ثم أطلق النار عليها بدم بارد والفرار بهويّة جديدة (5) طالما أحببت أن أخنقها بكلتا يديَّ. [**ما منعكِ من قتلها؟**] السبب الوحيد هو اعتقادي أنني لن أستطيع أن أفلت من العقاب. [**ما سيدفعكِ أكثر لقتلها؟**] لو ضربت أختي».

أما الحالة التالية فستسلط الضوء على الموضوع المركزيّ للصراع على الموارد:

«الحالة (2076) ذكر، 21 عاماً: [**من فكَّرتَ في قتلها؟**] زوجة أبي، البالغة من45عاماً. لم أكن أبداً مسروراً من مواعدة أبي لهذه العاهرة الغبيّة. لكن الصدمة الأقسى كانت عندما عرفت بأنها تزوجت أبي فعليًّا في فترة الصيف الذي كنت فيها خارج البلدة. ومن حينها أصبح التواصل أقل معها ومع أبي (ما عدا اتصالي الشهري بهم من أجل النقود). لقد كانت تحاول دائماً أن تتصنع وتتظاهر بأنها مهتمة بشأني أمام أبي لكنها بالحقيقة عكس ذلك، إنها ساحرة قبيحة شريرة لا تريد شيئاً من أبي سوى النقود، وهي تحتقرني لأنني أنا الشخص الوحيد الذي يدرك هذه الحقيقة. [**كيف فكرتَ بقتلها؟**] أفقدها الوعي بواسطة الكلوروفورم وبعدها آخذها الى مكان منعزل في البلدة، ثم أقطع جسمها إرباً وأقوم بحفر حفرة وأرميها

بأكيـاس تحوي محلولًا كيميائيًّا، ثم أضيف المـاء ليبدأ التفاعل الكيميائي ثـم أطمر الحفـرة بإضافة القـاذورات والتراب. [**ما منعك مـن قتلها؟**] في الحقيقـة كان يتوجـب عليّ دائـماً أن أفعل ذلك بغـض النظر عن مدى صعوبة أن تجرب هذه الخطة التي سـيوجد فيهـا بعض الثغرات بالطبع، لكنني ظننتُ أنه سيتم القبض عليّ. الشيء الأسوأ، أن التفكير فيها ليس بخطأ، لكن تنفيذها خطأ».

هذه المرارة والحقد والعدوانيّة التي يكشفها هذا الشاب في أفكاره عن القتل، تَـدُلُّ على أن صراعات الموارد المتطوِّرة تلعب دورها. على الغالب، تَكْمُنُ مصالح زوجة الأب بحجز كُلِّ مصادر قرينها الجديد لصالحهـا، وصالح أطفالها، والتي سـوف يصارع من أجلها ابن زوج غـير مرغـوب فيـه. إن كانت هـذه الصراعـات على المـوارد وأصول الإساءة التي تُبديها زوجات الآباء تكشف من خيالات القتل لأطفال الـزوج، فإنها تظهر وبشـكل مُعَقَّـد في مخاوف أطفال الـزوج المضادة للقتل. تمثل الحالة التالية تجسيدًا أنموذجيًّا لذلك:

«الحالـة (219) ذكر، 21 عامـاً: [**من فكرت في قتلها؟**] زوجة أبي، كانت تغـار مـن وجودي وتأثيري عـلى أبي ضِدّها. هي لا تحـب إلا مصالحها. ودائـماً مـا كانـت تبحث عـن أخطائـي وهفـواتي وتحـاول إصلاحي بما يناسب مصالحها. وعندما لا يتم الأمر تقوم بإبلاغ أبي الذي كان يعاقبني بالضرب. وعندما أدركت مدى تأثيرها على أبي وقدرتـها على التحكم به ليقوم بضربي من أجل سـعادتها، بدأت أتساءل ما الذي يمكن أن يحدث بعد؟ كانت تنظر إليّ بنظرات سـاخطة عندما لا يقع ناظر أبي عليّ، كانت لطيفـة أمام العائلـة، لكن الأمر كان مختلفاً عندمـا نكون لوحدنا. لم أكن أعلـم إن كانـت تود قتلي أو أنـها فعلاً كانت ستفعل ذلـك. لكن الأمر

كان ممكناً بلا شك. لم أكن أريد ليلتها أن أقضي الليلة هناك وكنت دائماً أقفل باب غرفتي تحسُّباً منها. كنت طفلاً صغيراً ولم يكن أبي يصدقني في أيِّ شيء على الإطلاق. [**ما سيدفعك أكثر لقتلها؟**] إن قمت بمواجهتها وإثارة المشاكل في العائلة».

لماذا فكرة زوجة الأب الشريرة هي أكثر ارتباطاً في قصص الأطفال مقارنة بقصة زوج الأم التي تشكل لغزًا مثيرًا للفضول. قد يكون هناك تفسيران معقولان، **الأول**: رُبَّما كان العيش مع زوجة الأب أكثر انتشاراً في التاريخ البشريّ منه في الوقت الحالي. في الماضي، تتوفى الكثير من الأمهات أثناء الولادة، تاركات خلفهن أطفالهن مع رجالهن الذين يعاودون الزواج. بينما يقدم لنا عالم النفس مارتن دالي، التفسير الثاني: «**رأيي في قصص زوجة الأب القاسية، هو أن الأشخاص الذين كانوا يَروون تلك القصص هم الأمهات الأصليات. كن يخبرن أطفالهن كم هي شنيعة زوجة الأب برسالة ضمنيّة: أسوأ شيء يمكن أن يحدث لك هو: أن أختفي وأن يحل والدك محليّ**».[38]

عندما يقتل الأطفال آباءهم

في مسرحيّة سوفوكليس الشهيرة «**أوديب مَلكاً**»، يقوم الابن بذبح والده، دون أن يعرف بأن من قلته هو والده، ليصبح مَلكاً. ثم ينتهي به الأمر بالزواج من والدته، دون أن يعرف أنها والدته. عندما يكتشف مأساة ما فعله وما اقترفت يداه فقأ عينيه، ثم ذهب بعيداً إلى المنفى. بالرغم من أن هذه الرواية المثيرة قد أوقدت **نظريّة فرويد لعقدة أوديب**، والتي تؤكد أن الصبية في أعماقهم يحملون رغبة قتل

آبائهم، إلّا أنه في الحياة الواقعيّة نادراً ما يقوم الأطفال بذلك، وعندما يفعلون، عادة ما تكون الأسباب واضحة تمامًا.

خلال الفترة التي دامت لعام واحد في ديترويت، والتي قامت خلالها الشرطة بتسجيل ما يتراوح بين 400-500 حالة قتل، كان هناك فقط أربع حالات قتل فيها الأبناء أحد آبائهم، ثلاثة منهم كانوا ذكوراً. تعتبر ديترويت أنموذجاً يمثل أمريكا وأوروبا في هذا الصدد. تبلغ نسبة قتل أحد الآباء من قبل الذكور إلى الإناث حوالي 15 – 1. [39] احتمال وقوع الآباء ضحيّة القتل هو ضعف احتمال وقوع الأمهات. أفضل التقديرات تشير إلى أن نسبة قتل الأبوين من قبل الأطفال تصل لنسبة 1 % –2 % تقريباً من جميع جرائم القتل. [40]

في العديد من هذه الحالات، كان الأب مُعنِّفاً للأم، وبالتالي، يقوم الولد بدور الدفاع عنها وحمايتها كما في الحالة أدناه:

* «بعد ظهر يوم الأحد، المصادف الثاني من يناير، قُتل الضحيّة (ذكر، 46 عاما) في منزله بطلق ناري من مسافة قريبة. القَاتل (ذكر، 15 عاما) هو ابن الضحيّة، والظروف كانت مشابهة لتحقيقات الشرطة. للضحيّة، والذي كان يعمل منظفاً، سجل إجرامي يتضمن إدانتي اعتداء. كان المنزل عبارة عن مسرح للعُنْف المتكرر، حيث أعتدى الضحيّة على زوجته وأطفاله وقام بتهديدهم بنفس السلاح الذي قُتل به في النهاية، حتى إنه أطلق النار ذات مرة على زوجته. في يوم الجريمة، كان الضحيّة ثملاً يوبِّخ زوجته على أنها (عاهرة) و (ساقطة) وضربها، عندها قام الولد بإنهاء هذا التاريخ الطويل من الإساءات». [41]

الحالات الثلاث الأخرى في عينة ديترويت، تحمل أوجه تشابه مذهلة. في جميع الحالات، كان الأب يضرب زوجته قبل أن تقع الجريمة؛ احتوت جميعها تاريخًا طويلًا من الاعتداء، بحيث لم يكن إطلاق الزناد هو الحدث الوحيد الذي حصل في يومها. في كُلِّ حالة من تلك الحالات يقوم المراهق بالاستيلاء على سلاح العائلة ويتوسل أباه أن يتوقف لكن بلا جدوى.

في دراستنا لخيالات القتل، وجدنا قضايا مشابهة. انظر إلى الأمثلة التالية:

* «الحالة (233) ذكر، 22 عاماً: [**من فكرت بقتله؟**] والدي. كان يضرب أمي، وأخي الأكبر وفي بعض الحالات عندما ينزعج منهم يقوم بضربي. - كان مدمن كحول ومخدِّرات، زانيًا، مقامرًا، كاذبًا، سارقًا.... في كُلِّ مرة يؤذينا، كنت أريد قتله [**كيف فكرت في قتله؟**] وددت أخذ السكين الذي يهددنا به وأطعنه حتى الموت. [**ما منعك من قتله؟**] - لم يكن بإمكاني أبداً أن ألحق به ألماً جسديًّا، لأنني كنت خائفاً جداً منه ومما سيحدث. [**ما سيدفعك أكثر لقتله؟**] - لا أدري ماذا كنت سأفعل لو بقي بعد أفعاله القاسية».

* «الحالة (629) ذكر، 20 عاماً: [**من فكرت في قتله؟**] أبي. والذي كان يومها يبلغ من العُمْر 43 عاماً. قبل بضعة أعوام، عندما كنت في الكليّة، بدأت أفقد اهتمامي بالدراسة وبدأت درجاتي بالتدهور. طبعاً لم يكن سعيداً، ولم يكن يفهمني بل بدأ يؤنِّبني على ذلك. وفي إحدى المرات قام بضربي بِحزامه. وبصراحة، أساء إليّ لفظيًّا بأنني قد فقدت (رجولتي) وأهانني، وأقسم بأنه سوف يقتلني ليحافظ على كرامته. هذا ما دفعني

للجنـون وودت أن أقوم بقتلـه أولاً. [**كيف فكـرت بقتله؟**] - بإطلاق النار على دماغه. [**ما منعك من قتله؟**] - هو والدي على أيٍّ حال، كما أن علاقتي به قد تحسنت عندما تحسنت درجاتي».

تجاوز الاعتداء الجسـدي مـن قبل الأب، والموجـه لأطفاله الذين يفكرون بقتله، أو اتجاه شـخص تربطه به قرابة وطيدة، كُلَّ المحفزات الأخـرى للخيـالات القَـاتلـة. لقد اكتشـفنا أيضاً محفزين أساسـيين لا يتضمَّنـان الدفـاع عن النفـس أو الدفاع عن الأقربـاء ضِدّ التهديد الجسـديّ، بل يتوافقـان مع منطق التنافس التطـوُّري. أحدهما مرتبط بخيانة الأب للأم:

* «الحالـة (17) ذكـر، 21 عامـاً: [**من فكـرت في قتلـه؟**] أبي الذي كان آنذاك يبلغ من العُمْر 49 عاماً. خان أمي بعلاقة غراميّة. التقى بفتاة شابة وتـورط معهـا، بعدها طلّـق أمي وتركنـا نتضوّر جوعـاً. [**كيف فكرت بقتلـه؟**] - بضربه على رأسـه بمـضرب بيسـبول. - وبالفعل ظلت هذه الفكـرة مسـيطرة عـليّ طيلة 150 يومـاً لمدة عـشر دقائق. [**ومـاذا فعلت فعليًّا؟**] قمت بشق إطارات سيارته والعبث بها».

صبيّ آخر وصف لنا خيالات قتل أكثر وضوحاً وقوة، أثارها تخلي الأب عنه وعن أمه، مما سبب لهما ألمًا كبيرًا:

* «الحالـة (148) ذكـر، 18 عاماً: [**من فكرت في قتلـه؟**] - أبي الحقيقي الذي تخلى عني، وعن أمي. لقد كان يتصرف بحماقة مع أمي. لأبي عائلة أخرى وقد رأيتهم. كان يتلاعب بمشاعر أمي، ثم تركها مع طفل ترعاه لوحدها. كنا في أزمة ماليّة كبيرة. لقد كنت أرى أمي تبكي طول الوقت. هي لم تكن تذكر اسمه أو ما فعله، لكنني كنت أعلم، كيف يمكن لأحد

ما ترك أم لوحدها بهذه الطريقة؟ في إحدى المرات احتجت إلى حذاء جديد، لأن حذائي القديم أصبح ممزقاً، قالت أمي يومها لي: (آسفة يا حبيبي، حسناً انظر إلى ما نستطيع أن نفعله، فقط صلِّ إلى الله، وسيُلبي حاجتنا). وبدأت التأقلم مع الوضع. لكن بعدئذ أصبحت متمرِّداً، لكن ليس على أمي بالطبع. اشتد الغضب بداخلي وودت رمي الصخور من الفناء الخلفي لمنزلنا. جلبت لي جدتي ذات مرة كيس ملاكمة تدربت عليه. ثم أدخلتني دورة للفنون القتاليّة. كنت الأفضل في عُمْري، وفزت ببطولات، وعلى حزام أسود. ثم في عُمْر الحادية عشرة انسحبت من صنف الملاكمة - لألعب كرة القدم. تعرضت للضرب من طلاب الصف الثامن لأني قمت بحماية زميل لي من الصف السادس. ثم أصبحت فيما بعد قائد الفريق ولم يعد أحد يعبث معي. كنت دائماً أود أن أنخرط في قتال أو منافسة لكي أفوز وألحق الخسارة بالطرف الآخر. وفي أحد الأيام عدت إلى المنزل ورأيت أمي منهكة من كثرة العمل، حزنت وغضبت كثيراً وأصبحت أعامل كُلَّ الأشخاص في لعبة كرة القدم بسوء وحقد حتى ولو لم يقوموا بأذيتي، بعد ذلك اكتشفت أن أبي من يستحق فقط أن أعامله بهذا السوء. [**كيف فكرت بقتله؟**] - أردت أن أسحق وجهه بركبتي ثم أتركه في قفص مليء بالحيوانات المتضوِّرة جوعاً. فكرت أيضاً بتقطيع خصيتيه وقضيبه ورميهم في الخلاط وجعله يشربه. كما أردت أيضاً أن أوسعه ضرباً على وجهه بمضرب البيسبول حتى يفقد وعيه، ثم أطعمه للحيوانات الجائعة. [**ماذا فعلت فعلياً؟**] صليت، وطلبت من الله ألا يدعني أفكر هكذا، وأن يعطيني القوة كي أسامحه وأن أكون متسامحًا مثله. [**ما سيدفعك أكثر لقتله؟**] - إذا حاول أن يلمس أمي أو يؤذيها بأيِّ طريقة».

وأحيانـاً تتجاوز التكاليف التي يتكبدها أحد الأبوين على الطفل، سـوء المعاملة والهجر كذلـك. ثمة عيِّنتان في دراسـتنا أرادا قتل أبيهما بسبب تكلفة لا يمكن تَخَيُّلها:

* «الحالـة (69) أنثـى، 20 عامـاً: [من فكرتِ في قتلـه؟] أبي الحقيقي، وهو الآن بعُمْـر الأربعـين. لقد قتل أمي عندما كنت بعُمْر الخامسـة! وبين الحين والآخر أفكر باحتمال خروجه من السـجن، أنا لا أريـد لهُ الحريّة، أنا أريدهُ أن يمـوت. [كيـف سـتقومين بقتله؟] لدي فكـرة واحدة عـن كيفيّة القيام بذلك – طعنه حتى الموت بسكين الجزار، ذات الطريقة التي قتل بـها أمي».

إن إسـاءة معاملـة الأبوين، الهجـر، والتكاليـف الباهظة الأخرى التـي يتكبدها الأقارب، تتغلغل في أفـكار الأطفال الذين يفكرون في قتل آبائهم. وبالرغم من أن دراستنا توصلت إلى تكافؤ أفكار الرجال والنساء إزاء قتل آبائهم الوراثيين، إلا أن الرجال ينفذون هذه الأفكار أكثر من النسـاء، ويرتكبون معظم جرائـم القتل المتعلقة بالأبوين. في إحدى الدراسـات التي أجريت على 155 حالـة قتل للأبوين في كندا بين أعـوام 1974_1983، ارتكب الصبيـة 88 % منها، بينما ارتكبت البنات 12 % منها فقط.[42]

قلـة مـن النسـاء بدراسـتنا عبّرن عـن خيـالات صريحـة إزاء قتل أمهاتـهـن. – هـذه الخيـالات أثـيرت بسـبب الاعتـداءات النفسـيّة والجسديّة التي سببتها الأمهات لهن، لكن مع جدل مذهل.

* «الحالـة (494) أنثـى، 23 عاماً: [من فكرتِ في قتلهـا؟] أمي، البالغة مـن العُمْـر 39 عامـاً. – كانت لا تترد بقول أشـياء مهينـة بحقي لتؤذي مشـاعري؛ أشـياء وقحة، وقاسـية، لم يكن يتوجب على من هي بعُمْري

سماعها. عندما كنت أصغر كانت تقول لي أشياء مثل أنه لا أحد يهتم بأمري، وبأن أبي لا يحبني، وأنني عبء عليها، ولولا وجودي لكانت تزوجت مرة أخرى. كانت تتذمر طوال الوقت وتشتكي باستمرار مني. أدانتني وأهانتني لإحراجي أمام الآخرين. وعندما كبرت قليلاً ضربتني ونادتني (بالوقحة) و (العاهرة)، وبأنني لا أنفع لأيِّ شيء. قد لا أكون قدِّيسة لكنني لا أفعل هذه الأشياء التي تقولها عني. [**كيف فكرتِ بقتلها؟**] (1) خنقها بسلك التلفون (2) أن أصرخ بوجهها وأقول لها كُلَّ الكلام الذي كانت تنعتني به (3) أتأمل عجزها (4) استمتع بهذا المشهد (5) وأخيراً أضربها بالمطرقة حتى الموت ثم تقطيعها إرباً. [**ما منعكِ من قتلها؟**] - بعد التفكير في الأمر كثيراً أدركت أنني لا أستطيع. لقد خشيت أنني لن أتمكن من سحبها لتقتلني بدلاً من قلتها، لن أفعل هذا إلا في نوبة غضب. لقد أدركت كم أحبها، وكم أكرهها أيضاً. [**ما سيدفعكِ أكثر لقتلها؟**] وصلت معها إلى حالات كثيرة تدفعني للجنون، لكنها ما تزال على قيد الحياة. حقاً أردت قتلها، لكن حتى لو كان بجانبي سكين، لما ألتقطه وقمت بفعل أيِّ شيء. أحيانا كنت أتساءل إذا ما كانت هذه الحالة هي الحد الأقصى الذي يمكن أن أصله معها، أنا أؤمن بأن الأسوأ قادم لا محالة ولذلك فأنا لا أعلم أبداً ما أنا قادرة على فعله».

وهنا، لا يسع المرء إلا أن يشعر بالحزن الكبير على هذه الفتاة التي كانت تكبر مع أمٍّ لا تكف عن انتقاداتها وأذيتها النفسيّة، مخلّفة جرّاء ذلك فتاة تشعر أنها غير محبوبة وغير مرغوب بها، ضعيفة، ومتهمة جوراً. هذه الحالة تعكس الموضوع الذي ذكرناه سابقاً في حالتي دين داونز وسوزان سميث - أمهات غير متزوجات شكّل أطفالهن عليهن عبئاً أثناء بحثهن عن علاقة رومانسيّة في سوق الاقتران الذي

يسوده التنافس. يوجد بالمقابل، لكُلِّ أم تقوم بقتل طفل لتمهيد البحث عن شريك عاطفي، الآلاف يقمن باعتداءات مؤلمة قد لا تصل لدرجة القتل. وعلى الرغم من أنه من غير المحتمل إحصائيًّا أن الفتاة المذكورة أعلاه، وهي الآن امرأة تبلغ من العُمْر ثلاثة وعشرين عامًا، ستلاحق والدتها بسكين أو مطرقة، إلا أنها تتوقع أن تسوء الأمور ولا تستبعد أن احتمال أفكارها الاجراميّة قد تدفعها يوما ما لتصبح واقعاً.

قابيل وهابيل

«أرتبط القتل منذ أن ولدت أمنا حواء هابيل وقابيل، مع ابنة لكُلٍّ منها. ثم أمر الله آدم قائلاً: (من أجل ذُريَّتهما، أعطي لقابيل الفتاة المولودة مع هابيل، وأعطي لهابيل الفتاة المولودة مع قابيل). وفعل ذلك آدم. - الفتاة المولودة مع قابيل كانت جميلة للغاية، فقال حينها قابيل: (يا أبتاه، دع الفتاة المولودة مع أخي تبقى معهُ، وأبقي هذه الفتاة معي). فأجاب آدم: (لقد أَمرَ الله بغير ذلك). أحب قابيل هذه الفتاة بجنون مفرط؛ وذبح أخاه. وهكذا، بسبب امرأة سفكت أولى الدماء على سطح الأرض». [43]

يعد قتل أحد الأقرباء نادراً جداً إحصائيًّا، وإن حدث، فغالباً يتضمن قتل الإخوة لإخوتهم. وجدت عينة واحدة ضمت 508 حالات قتل في عام واحد في ديترويت، أن قتل الأخ لأخيه يشكّل فقط 1,4 % من المجموع الكلي؛ 7 حالات فقط. [44]

لكن عبر التاريخ البشريّ، كانت عمليات القتل هذه متأصلة. في المجتمعات الزراعيّة، حيث يرث فيها ابن واحد مزرعة العائلة،

بينما يُستبعد الآخرون بالكامل، يكون قتل الأخ لأخيه أكثر شيوعاً. في قبائل بيسون-هورن ماريا القاطنة في الهند، شكلت هذه الحالات 7,5 % من عينة مؤلفة من 107 حالات قتل.[45] بينما كشفت إحصائيات مشابهة عن نسبة تصل إلى 6 % بين شعوب قبائل البيل، و10 % بين شعوب الموندا والأوراون القاطنة في الهند. الأرض في هذه المجتمعات بالطبع، المصدر الحاسم من أجل البقاء وجذب النساء، الأمر الذي يبرهن مُجدَّداً الرابط العميق بين الاقتران ودوافع القتل.

حالة أنموذجيّة وقعت بين ثلاثة إخوة في قبيلة الموندا: باهادور سينغ موندا، سومان سينغ موندا، ومادان سينغ موندا.[46] عاش هؤلاء الأخوة معاً. وبعد موت أبيهم، استولى باهادور بصفته الأخ الأكبر على نصف الأملاك تاركاً النصف الآخر لأخويه الأصغرين، الأمر الذي أثار غضب سومان ومادان اللذين اعتقدا أن أخاهما خدعهما ولم يقسم قسمة عادلة. هذه الأرض والمصادر التي تنتجها، تعد أمرًا حاسمًا، وعاملًا أساسيًّا في جذب الزوجات أو فتيات النشاني - **الفتيات الراقصات**. عادة ما يحتفظ رجال الموندا والأوراون الأثرياء بواحدة أو أكثر من فتيات النشاني اللاتي يرفِّهن بالرقص والخدمات الجنسيّة. خشي سومان ومادان أخاهما الأكبر؛ لأن باهادور لديه تاريخ طويل من العُنْف والسيطرة على أخويه الأصغرين. لذا عانيا من قسمته غير العادلة بصمت. في نهاية المطاف، حشد سومان قواه وطالب بقسمة عادلة لممتلكات العائلة. واتخذ خطوة أكثر جرأة من خلال رفع القضيّة إلى كبار القبيلة ليحصل على دعمهم. هدد سومان باهادور بأنه سيدعوه إلى

اجتماع في القرية لفض الخلاف والنزاع حول الملكيّة. كان باهادور حينها منزعجاً من تقلّب الأمور هذا، وأن أخاه الصغير قام بفضحه بنحو شائن محاولاً أن يتحدَّاه. ومن دون سابق إنذار، رمى باهادور سومان بسهم في صدره، ليموت على الفور.

من منظور تطوُّريّ، يجب أن يكون قتل الأشقاء نادراً، لأن الأخوة يتشاركون بنصف الجينات. أنتج التطوُّر نفسية فعّالة لحُبّ الأخوة والأخوات.[47] لكن، هناك النصف الآخر من الجينات الذي لا يتشارك به الأخوة، وهو الذي يفسح المجال لمساحة من الصراعات المحتملة. عندما يكون في الغالب لدى الآباء موارد محدودة، يتنافس الأخوة مع بعضهم البعض من أجل هذه الموارد في بعض الحالات. تعود حكايات الصراع الشديد بين الأخوة على مدار تاريخنا البشريّ المسجل. ذُكر في كتاب سفر التكوين من إنجيل الملك جيمس: «**وَأَمَّا إِسْرَائِيلُ فَأَحَبَّ يُوسُفَ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ بَنِيهِ لأَنَّهُ ابْنُ شَيْخُوخَتِهِ، فَصَنَعَ لَهُ قَمِيصًا مُلَوَّنًا، فَلَمَّا رَأَى إِخْوَتُهُ أَنَّ أَبَاهُمْ أَحَبَّهُ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ أَبْغَضُوهُ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُكَلِّمُوهُ بِسَلاَمٍ**».

تدور دوافع قتل الأخوة في هذه القصص، على الدوام حول المصادر الأبويّة وغير الأبويّة التي تلعب في النهاية دوراً حاسماً في جذب النساء. الروايات الإنجيليّة عن قابيل وهابيل تسلط الضوء جليًّا على نفسيّة صراع الأخوة. - ذبح قابيل أخاه هابيل، وذلك من أجل أرض وامرأة. دردانوس، نجل زيوس وايليكترا، قتل أخاه الأكبر للاستيلاء على المملكة، ثم استثمر موارده الجديدة في تأسيس قوات طروادة. قتل الأخوة لاعتلاء العرش وبذلك قتل المنافس الرئيس للموارد، هو جزء لا يتجزأ من التاريخ الأوروبي.

قد يبدو هذا التاريخ بعيداً، غير أنّنا وجدنا حالات مشابهة في دراستنا لنفس المخاوف للقتل. إليكم هذه القصة عن رجل كان صريحاً في الاعتراف عن خداعه لأخيه من أجل الميراث:

* «الحالة (489) ذكر، 47 عاماً: [**من فكر في قتلك؟**] أخي البالغ من ال عُمْر 34 عاماً. عندما مات أبي، قمت ببيع المنزل الريفي. فطلب أخي حصته من هذا البيع، لكنني رفضت أن أعطيه إياه. لقد أقسم بأنه سيقتلني يوماً ما. [**كيف فكر بقتلك؟**] لرُبَّما سيزورني في منزلي ويقتلني حينها. [**كيف ستتجنب القتل؟**] - لا أعرف. [**لماذا اخترت ردة الفعل هذه؟**] لأنني حقاً على خطأ».

يُقدم معظم الناس تبريرات للخيانة أو للسرقات. لكن هذا الرجل يعترف بصدق بخطئه، ويتوقع أن يقتلهُ أخوه. تحدث العديد من حالات قتل الأخوة الحديثة، بالطبع، بشكل أقل من عهد الممالك، أو قطع الأراضي، أو الميراث. قتل أحد الرجال من مدينة كانساس أخاه أثناء جدال إزاء من سيحصل على المال مقابل أسنان ذهبيّة وجدوها. وأيضاً، قام أحد الرجال في غانا بإطلاق النار على أخيه عندما فشل بترتيب حفل زواج له. وفي بنجالور، الهند، قتل شاب (16عام)، أخاه (30عام) من أجل بضع مئات من الروبيات والتي تعادل دولارين أمريكيين فقط. في جميع هذه الحالات تَرجّح وجود تاريخ طويل من صراع الأخوة على الموارد، والسبب الظاهري، كالنزاع على مقدار زهيد من المال، هو فحسب يُشعل شرارة التأجيل التراكمي والمتصاعد للتَوَتُّرات.

في دراستنا لمخاوف الناس من أن يُقتلوا، كانت المعاناة نتيجة

الاعتداء الجسديّ المفرط على يد الأخوة الأكبر تحدث باستمرار. أفاد أحدهم أن أخاه حاول خنقه بالوسادة، حتى قام بركله وحرر نفسه. بينما أفاد آخر بأن أخاه وضع رأسه في الماء لدرجة أنه «**أعتقد أنه سيموت**». بينما كشف آخر عن تجربة مخيفة مشابهة:

* «الحالة (132) ذكر، 19 عاماً: [**من فكر في قتلك؟**] أخي الأحمق. لم يكن لديّ أدنى فكرة عما ينوي القيام به. رأيت لمعان جنون في عينيه، رأيته عِدّة مرات من قبل، وعرفت أن عليَّ الابتعاد عنه. في إحدى المرات كنت على الشاطئ برفقته نمارس هواية ركوب الأمواج، وعدنا أنا وهو للتحدث مع والدنا الذي كان على الشاطئ. كنا نتحدث، والجميع في مزاج لطيف. لكن، في النهاية، انقلب موضوع الحديث عليّ وعن منافسة أخي لي؛ أنا من الأشخاص الذين يدرسون كثيراً بينما ينصب اهتمامه هو على الرياضة. دار الحديث حول من سيفوز بالقتال إذا ما تقاتلنا. تجاهلت أنا ذلك، مع علمي بأنني سأخسر. - عدنا إلى الماء، وعندما كنا على وشك الولوج عميقاً، أمسك بي، ووضع ذراعه حول رقبتي، وأغرقني تحت الماء. حتى هذه اللحظة بدأت ألهث بحثاً عن التنفس، كانت رئتاي فارغتين، وكان أخي لا يتردد في إبقاء رأسي تحت الماء فترة أطول وأطول في كُلِّ مرة يحاول إغراقي فيها. ظن أبي في بادئ الأمر أن هذا مُجرَّد لعب، لكنه بعد ذلك أدرك بأن أخي لن يتوقف ما لم يتدخل هو، وبالفعل قام بالتدخل. لو كنا وحدنا أنا وأخي على الشاطئ لن يكون هناك أدنى شك بأنه سيبقيني تحت الماء حتى أتوقف عن الحركة. كنت أرى تعبيراً غريباً على وجهه عندما يكون غاضباً، ترافقه نظرات الجريمة في عينيه. نظرات التصميم العازم للقتل. [**كيف تجنبت القتل؟**] - لم أفعل شيئاً، كان أقوى مني، ولم أكن أستطيع أن

أجاريه، أو أردّ له الضربات بسبب الضعف في أطرافي الذي سببته صدمة المياه الباردة، ولافتقادي لقوة ذراعي، إلى أن قام أبي بإبعاده عني».

تشير الحالة أعلاه، أن التفكير بقتل الأخ لا يقتصر حول اجتذاب النساء، أو الأرض، أو الموارد الماديّة. ثمة موضوع آخر شائع يتمثل **بالحسد**. والذي كان له دور رئيس في الحالة المذكورة. يكون الحسد قويًّا على نحو خاص بين الأخوات. روى ثلاث نساء في دراستنا عن خيالات لقتل أخواتهن - واحدة لإدخالها بمشكلة خطيرة مع والديها؛ وواحدة لكونها كانت متفوقة في صفوف الدراسة والرياضة، ولأنها سوف تُعيَّن ملكة حفل التخرج في المدرسة الثانويّة؛ وأخرى، وهي في عُمْر الحادية عشرة، عندما أنجب والداها فتاة أخرى وكرَّسا كُلَّ اهتمامهما عليها. وهنا، صرحت هذه الفتاة عن رغبتها بإحراق الطفلة المولودة بالمياه الساخنة جداً عندما تعتزم الوالدة تنظيفها. إحدى النساء كشفت عن مخاوف أن تقوم أختها بقتلها «**لأنني أجمل وأذكى منها**»، وأعتقد بأنها سوف تلقي حمضاً حارقاً على وجهها.

وأيضًا، هناك تقليد مروِّع من «**جرائم الشرف**» في بعض الثقافات، عندما يقوم الأخوة بقتل أخواتهم من أجل «**شرف العائلة**». تنطوي العديد من هذه الحالات على خيانة المرأة، أو ممارستها للجنس غير الشرعي. في عمان، الأردن، قام رجل بطعن أخته الأكبر حتى الموت، بسبب الحاق العار بعائلتها من خلال زيجاتها المتعددة، وممارستها للجنس غير الشرعي. رجل أردني آخر قتل أخته، وطعنها 25 مرة،

لأنها تزوجت من رجل مصري لا ترغب به عائلته مع أنها كانت حاملًا في الشهر الثامن في ذلك الوقت. بينما قام رجل هندي يبلغ من العُمْر 45 عامًا، مومتاج علي، بطعن أخيه، عشيق علي، البالغ من العُمْر 32 عاماً، عندما اكتشف بأنه كان على علاقة بزوجته.[48] عندما تعاني عائلة أو عشيرة من وصمة العار، فإنها تعرِّض مكانتها المستقبليّة وسمعتها وفرصة تكاثرها للخطر، وعليه، يكون قتل القريب الحل الأنسب لذلك.

من الواضح أن حالات القتل داخل العائلات، لا تتبع أجمعها تكيفات القتل المتطوِّرة. فبعض الحالات، كحالة أندريا ييتس التي قامت بإغراق أطفالها الخمسة، أو الحالات التي نسمعها في نشرات الأخبار كحالة الرجل الذي قام فجأة بقتل عائلته كاملة ثم قام بقتل نفسه، تبدو أنها نتاج حالة مرضيّة؛ تُظهِر إشارات خلل في الدوائر النفسيّة. وبالفعل، ومثل جميع الأعضاء الجسدية والآليات النفسيّة، يمكن أن تتعطل دوائر القتل أحياناً.

هذه الأنواع من عمليات القتل التي تسببها الأمراض تدمر النجاح التكاثريّ للقَتَلة. وهو ما حدث على مرّ التاريخ التطوُّري البشري. لكن الأنماط العامة لعمليات القتل داخل العائلات تتوافق تمامًا مع النظريّة. إن الاعتراف بأن مصادر التوتر الكامنة هذه موجودة داخل عائلاتنا، لا يمكن إلا أن يساعد في درء المزيد من جرائم القتل من هذا النوع.

في هذا الفصل، لم أركز على القَتَلة بجوارنا، بل، وعلى القَتَلة

المختبئين ضمن دائرتنا الأقرب، آبائنا، أمهاتنا، أزواج أمهاتنا، زوجات آبائنا، أخواتنا، وإخواننا.

أما في الفصل القادم، فسننتقل إلى ميدان أوسع، إلى التسلسل الهرميّ الاجتماعيّ البشريّ، وسنضع في الحسبان أيضاً حالات خاصة للقَتَلة المتسلسلين والسفاحين.

الفصل الثامن

المَكانة والسُمْعة

«إن المعاناة من إهانة شرف المرء دون صدِّه، هو بمثابة الاعتراف بنقص الرجولة»

~ جي.جوبليس، جرائم العاطفة[1]

«وهكذا فإنّنا نجد في طبيعة الإنسان ثلاثة أسباب أساسيّة للصِدام. الأول: التنافس، الثاني: عدم الثقة، والثالث: المجد. السبب الأول يجعل البشر يغزون لتحقيق الكسب؛ والثاني من أجل الأمان؛ الثالث من أجل السُمْعة. في الأول يستخدم الناس العُنْف ليجعلوا من أنفسهم سادة على الآخرين، وعلى زوجاتهم، وأبنائهم وماشيتهم؛ وفي الثاني ليدافعوا عن أنفسهم؛ وفي الثالث من أجل أمور تافهة، ككلمة، أو ابتسامة، أو اختلاف في الرأي أو أيّ علامة أخرى على الحطّ من قيمتهم إما مباشرة في شخصهم، أو من خلال عائلتهم، أو أصدقائهم، أو أمّتهم، أو مهنتهم، أو حتى اسمهم»

~ توماس هوبس، اللفياثان[1]

تتمتـع مدينة أوسـتين، تكسـاس، حيـث أعيش وأعمل، بسُـمْعة طيبـة كمدينة هادئة وممتعة. تحمـل الملصقات والقمصان في كُلِّ مكان تعليق «**أبـقوا أوسـتن خلابة**». إنـها مدينة متسامحة حيث لايزال فيها الهبيون المسنون يدخنون الحشيش علانية بتسريحاتهم المضفرة البيضاء الرياضيّـة. - معدل الجريمة منخفض نسـبياً، وتعد معدلات الدخل ونوعيّـة الحيـاة عاليـة مقارنة بمعظم المـدن بهذا الحجـم. ولكن لدينا نصيبنا من القَتَلة المجاورين في أوستن أيضًا.

اندلعـت أعمال عُنْـف ليلة الجمعة، 6 أكتوبر عـام 2000، في فودو روم، وهو نادٍ في الجزء الحديث في وسط المدينة المزدهرة. مايك أدلمان، الذي كان يسـتريح بعد أسبوع عمل شـاق، مع مجموعة من أصدقائه باحتسـاء العديد من كؤوس البيرة، قام بشـكل مـازح بلمس مؤخرة فتـاة تدعى كمبيرلي هـالي عندما كانت ترقص. - أغضـب هذا الفتاة جداً، فهاتفت صديقها كريستوفر مارش سريعاً وأخبرته. قفز مارش إلى سيارته مسرعاً باتجاه النادي وقام بمواجهة أدلمان طالباً منه أن يقدم اعتذاره على الملأ. بالطبع سـخر أدلمان مـن هذا الطلب، محرجاً بذلك مارش أمام صديقته، وأقرانه الآخرين. وبدا أن الخلاف سينتهي عند هذا الحد. وفقاً لأحد التقارير، غادر كريستوفر مارش وكيمبرلي هالي،

بينما تابع مايك الاستمتاع بسهرته. ليعود قرابة الساعة الثانية وثلاثين دقيقة بعد منتصف الليل إلى منزله.

أثناء القيادة في الوهج الدافئ ليلة الخريف في أوستن، سار أدلمان نحو المنزل، غير مدرك أن كريستوفر مارش المهان يتبعه مع كيمبرلي إلى جانبه. وبالرغم من أن مارش حافظ على مسافة بينه وبين مايك بغية الحذر إلا أنه كان يشتعل غضباً. كان هناك مضرب بيسبول معدني على المقعد الخلفي لسيارته. تتبع مارش مايك حتى وصوله لمنزله وبينما كان منشغلاً بركن سيارته أسرع مارش واختبأ لوهلة وراء سلة المهملات منتظراً قدومه.

وبوصول مايك لمنزله، خرج مارش من اختبائه وضربه بمضرب البيسبول المعدني. لم يكن لدى أدلمان أيِّ إمكانيّة للدفاع عن نفسه، قام بضربه تسع أو عشر مرات متواصلة، وبحسب أحد الشهود، استمر مارش بتوجيه الضربات حتى بعد وقوع مايك أدلمان مغمياً عليه. ومع ذلك، لم تهدأ ثورة غضب مارش بعد، حيث قام بتحطيم نافذة الشاحنة على مايك مما زاد الأمر سوءاً ثم غادر. لم يسترد أدلمان وعيه أبداً. ومات بعد خمسة أيام، لقد سحقت جمجمته، ومات دماغه. عندما تم القبض على مارش أصرّ أن كُلَّ ما كان يريده هو اعتذار عام من أدلمان على فعلته مع صديقته.

هذه الظروف التي قتل فيها كريستوفر مارش مايك أدلمان ليست بعيدة وفريدة من نوعها. لقد سمعنا جميعاً عن اندلاع ثورات غضب وثأر، غالباً بين الرجال، تسفر باطراد عن عُنْف لا يمكن التحكم به. الإهانات العلنيّة لمَكَانة الرجل - في هذه الحالة التي تفاقمت

بسبب الإذلال الإضافي أمام أقرانه - هي خطيرة للغاية. لفهم سبب دفع الرجل للقتل على شيء يبدو تافهًا كالإهانة العلنيّة، لابُدّ علينا استكشاف النفسيّة التطوُّريّة الكامنة في المَكَانة والسُمْعة وأهميّة شرف الرجل.

المنطق التطوُّري لحالة التنافس

إن الرجال الذين يفتقدون للمَكَانة، وكحقيقة أساسيّة، يصبحون خاسرين في لعبة الاقتران. وذلك لأن رجالًا آخرين سيقومون بإهانتهم من دون عقاب، أخذ مال غدائهم -إذا ما جاز التعبير، وسرقة شريكاتهم. لقد تم الكشف عن الروابط المُعقَّدة بين المَكَانة وتنافس الاقتران، والتي يعيها جميع الرجال، في الحالة التالية من دراستنا لخيالات ومخاوف القتل، أعتقد الرجل أن حياته كانت في خطر ومع ذلك رفض التراجع.

* «الحالة (116) ذكر: [**من فكر في قتلك؟**] حسناً كنت أسير في مركز تسوق مع صديقتي، وأنا في طريقي رأيت فتى أسود ضخمًا يمشي باتجاهي مع بعض الأصدقاء. في ذلك الوقت لم يكن هناك أحد في الجوار وكانت صديقتي تسير بجوار الحائط، بينما كنت جانبها قدر الإمكان. هذا الفتى كان نوعاً ما على طرف المجموعة المؤلفة من أربعة أو خمسة فتية سود، كنا في مسار لابدَّ أن نتصادم به، لكن مازال هناك حيز كبير على يسارهم لذلك ظننت إنَّنا لن نصطدم. تابعت المسير واقتربوا أكثر، لكن كوني مفتول العضلات لم أكن أريد أن أتراجع أبداً لأنني كنت أسير مع فتاة ولذلك لم أفعل، وعندما مررنا بجانب بعضنا، اصطدم ذلك الفتى قليلاً بكتفي، كان يجب عليّ حينها أن أتوتر في ذلك الموقف الذي

لم يكن من اختياري ولم يكن خطئي، كان لدى الفتى الأسود متسع من المكان ليتحرك لكنه لم يختر ذلك. على أيٍّ حال هو استدار وقام بتعليقات تحريضيّة ... ثم تصاعدت الأمور، وصرخ عليَّ قائلاً: (سأقتلك، أيها الوغد). في البداية، أدلى بتعليق (شاهدها وهي تصرخ) أو شيء من هذا القبيل، فرددت عليه وأهنته أمام أصدقائه لذلك لم يستطع أن يتفادى هذا الأمر. - بدأ القول (ما الذي قلته أيها الوغد؟) وأنهى كلامه (سأقتلك، يا بن العاهرة). كان هناك الكثير من المشاحنات لذا اعتقدت أنه سيخرج سكيناً أو سلاحاً ويطلق النار عليّ أو يطعنني. [**كيف تجنبت القتل؟**] - عندما كان يفتش في جيبه عما أعتقده موجوداً كسكين أو مسدس، قام موظفو أمن المول بالانقضاض عليه وأنهوا الأمر [**ما سيدفعه أكثر لقتلك لاحقاً؟**] أيُّ شيء، كُلُّ ما أعرفه أنه كان على حافة الجنون وأنه سيقتلني». -

على الرغم من الرؤى الطوباوية والتفكير بالتمني حول قيم المساواة، تخضع جميع المجتمعات البشرية لقواعد صارمة، وأحيانًا محبطة فيما يتعلق بالمَكَانة للرجال، كانت إحدى فوائد المَكَانة هي لإغراء النساء. انهيار كيمونات السلام والمحبة (مجموعات يتشارك فيها الأفراد الموارد والدخل والعمل) في حقبة الستينات والسبعينات، يعود إلى طبيعة تلك القواعد الصارمة لهذه القاعِدة. فمع أن الجميع كانوا يصرون على القيم الواضحة المتمثلة بممارسة الحُبّ المتحرر للجميع، إلا أن القادة الذكور لتلك الكيمونات كانوا يمارسون الجنس مع النساء بحصة غير متكافئة. كان التجاذب متبادلًا بينهم، حيث سعت النساء بشغف لممارسة الجنس مع القادة. بينما ساد استياء مرير بين الرجال المستبعدين، وكذلك منافسة ضارية بين

النساء لجذب نفس الرجل. لقد بدأ الأشخاص يخزنون الممتلكات الشخصيّة، منتهكين بشكل صارخ المُثل التي طالما عاهدوا أن يدعموها ويساندوها، والتي تضمنت المشاركة بكُلِّ شيء بالتساوي. لتنهار الرؤى المثاليّة للمساواة الحقيقيّة، والحُبّ المتحرّر، وليقضى على التسلسل الهرمي تحت وطأة الطبيعة البشريّة.[3]

يميل اكتساب المَكَانة والحفاظ عليها لأن يكون أكثر أهميّة عند الذكور منه عند النساء - على الرغم من أن السعي وراء السُمْعة والمَكَانة المرموقة يُعدُّ دافعاً مهماً في حياة النساء أيضاً. في ماضينا التطوُّري، أعطت المَكَانة المرموقة الرجال والنساء على حد سواء غذاء أفضل، أرضاً أكثر، ودعماً اجتماعياً أفضل. لكنها ضمنت مكافأة إضافيّة للرجال - هي المزيد من الشريكات الراغبات بالاقتران.

إن فوائد الاقتران التي حققها الرجال ذوو المَكَانة الرفيعة، وتكرارها من جيل إلى جيل، على مدى عِدّة آلاف من الأعوام، خلقت ضغطًا تطوُّريًا، فضلَ بقوة دافعًا قويًا بين الرجال للسعي على المَكَانة، بالإضافة إلى حراسة متيقظة ضِدّ أيِّ خطر محتمل. - لقد فضَّل الانتقاء الرجال ممن لديهم الحافز للمضي قدمًا، والذين يتعلمون أفضل الطرق للقيام بذلك - مثل إعطاء اهتمام تفضيلي لمن هم في القمة - ويراقبون بعناية أولئك الذين يهددون باغتصابهم.

مفاوضات التسلسل الهرميّ: قتل التنافس

المناورات المُعَقَّدة والشاقة هي المناورات المطلوبة للمرء إذا ما أراد أن يرتقي في التسلسل الهرمي للمراتب الاجتماعيّة. لكن يبدو

أن ثمة حواجز ستعيقنا عند كُلِّ منعطف. في البادئ هناك من في مواقع السلطة، وهم عادةً متمسكون بمحطاتهم، مما يعوق الآخرين عن التقدم. ثم من هم في مجموعة الأقران، والذين يتوجب علينا منافستهم في صراعنا للارتقاء بضع درجات على الهرم. لا يبدو هذا كافياً تماماً، نحن أيضاً علينا أن نقلق بشأن من الأصغر سناً، والذين ينوون الصعود من الأسفل. - نظراً للرابط الوثيق بين مَكَانة الشخص في التسلسل الهرمي وبين قدرته للوصول إلى موارد مطلوبة للتكاثر، سيكون غريباً إذا ما لم يطوِّر البشر مجموعة من الحلول للتغلب على العديد من هذه الحواجز التي تحول دون صعود المَكَانة.

أحد الأساليب المحببة والمفضلة تتمثل بالانتقاص من قدر المنافس لفظيًّا. عالِم النفس في جامعة هارفارد ستيفن بينكر، لاحظ أن هذه الأساليب شائعة بين أساتذة الجامعة الذين يتمتعون بمَكَانة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقيمة المتصوَّرة لأفكارهم. قد يعتقد المراقبون من الخارج بأن الأفكار تعتمد ببساطة على أُسسها الموضوعيّة، أما مقنعة أو لا، وبأنّ النظريات أيضاً إمّا أن تكون مدعَّمة بدليل أو لا. غير أن الطريقة التي يُقيّم بها الأكاديميون مساهمات بعضهم البعض، كانت طريقة مُعَقَّدة أكثر من ذلك. كتب بينكر أيضاً عن الأفكار الأكاديميّة: **«مناصروهم لا يكرهون دائماً مساعدة الأفكار، لكن مع وسائل الهيمنة اللفظيّة: التخويف (بصراحة ...) التهديد (ليس من العلمي أن ...) السلطة (كما بيّن بوبر...) الاهانة (هذا العمل يفتقد الدقة لـ ....) الاستهانة (هناك قِلة يعتقدون بجديّة بأن...)»**.[4] وهناك أيضاً **«السؤال اللاذع، الهجوم المضاد المدمر، الانتهاك الأخلاقي، الحقد الذريع، الطعن الساخط ...»**.[5] هذه الحالات توضح تماماً بأن

الكلمات قد تتحول لأسلحة فتّاكة في معركة المَكَانة.

على الطرف الآخر، ثَمَّة استراتيجيّة متطرفة للقتل. فحتى في الوسط الأكاديمي، والذي غالباً ما يوصف بأنه برج عاجي بعيد عن واقع «**الحياة الحقيقي**»، لم يأخذ القتل بالحسبان فقط، بل تم ارتكابه، كحلٍّ لإزالة العقبات الإنسانيّة التي تتداخل مع صعود المَكَانة. القتل هو بالتأكيد الحل الأقل استخدامًا، لكن حالات القتل التالية في داخل ذلك البرج العاجي، تكشف عن شرعية خطر كامن قابل للاشتعال.

في عام 1978، تابع طالب متخرج اسمه ثيودور ستريليسكي، أستاذ الرياضيات الدكتور كارل ديليو، وضربه ضربة عنيفة على رأسه بمطرقة صغيرة. بعد اثنتي عشرة ساعة، قرر بأنه لا يريد أن يمضي حياته هارباً، ليُسلّم نفسه للشرطة. **ماذا كان دافع القتل لديه؟** ادّعى في المحكمة أن هذا الأستاذ أجلَّ تخرجه أكثر من مرة بنحو غير عادل، وأكّد أن قتله فعل صحيح «**منطقياً ومعنوياً**». [6] أُدين ستريليسكي بتهمة قتل من الدرجة الثانية، وحُكم عليه بالسجن لمدة سبعة أعوام.

وفي عام 1991، لم يطق، غانج لو (27 عاماً)، المتخرج من قسم الفيزياء في جامعة آيوا في الولايات المتحدة، الاحتفاظ بغضبه طويلاً. [7] لقد كان لديه أملٌ كبيرٌ بأن أطروحته للدكتوراه حول فيزياء البلازما ستحتل مرتبة الشرف وستقوده لربح جائزة الألف دولار. لكن أساتذته في الجامعة خذلوه بسعيه هذا، وبدلاً منه، رشحت لينهوا شان زميلته والمنافسة الرئيسة له. أعطى اثنان من أساتذة الجامعة وهما، الدكتور كريستوفر غويرتز، والدكتور روبرت سميث، أصواتهما الحاسمة لصالح شان للحصول على

الجائـزة. قدّم لو شـكوى لنائبة رئيس الجامعـة آيوا، ت. آن كليري المختصـة بالشـؤون الأكاديميّة، لكنها خلصـت إلى أنه لا يوجد ما يبرر في شكواه.

تـم تجاهل احتجاج لو، وقرّر أن يعالج المشـكلة بنفسـه. في الأول مـن نوفمبر، دخل كعادته بعد ظهر الجمعة إلى قاعة الفيزياء والفلك، في الطابـق الثالـث. لكـن هـذه المرة، كان في ذهنه أشـياء أخرى غير النقاشـات الأكاديميّـة والأوراق والأقلام. لقد أخفى مسدسـاً عيار 38 وتقـرب مـن الأسـتاذين غويرتـز وسـميث، ليطلق عليهـما النار مباشرة عن كثب. مات الأسـتاذ غويرتز بينما جرح الأسـتاذ سميث. لم يكتفِ لو بـهذا، بل وجَّه المسدس باتجاه لينهوا شان وأطلق النار في وجهها ثم واصل عمليته نزولاً إلى الطابق الثاني حيث ذهب إلى قسم الرئيـس متعقبـاً رئيس الإدارة دوايت نيكلسـون، ثم عـاد إلى الطابق الثالـث في قاعة المؤتمرات وعاود إطلاق النار على سـميث، وغويرتز وزميلته شان. ليموت الاستاذ سميث جرَّاء ذلك.

لم يـزل لـو غـير راضٍ بعد، حيث غـادر المبنـى وقطع ثلاثـة مبانٍ ووصـولاً إلى قاعـة جيسـوب، حيـث يقـع هنـاك مكتـب الشـؤون الأكاديميّة، سـأل السـكرتيرة بهدوء عن إمكانيّة تحدّثه مع آن كليري، وعندما سُـمح له بالدخول، وبعد تبادل عِدّة كلمات، أطلق النار على وجهها، وفارقت الحياة في اليوم التالي.

قام أصدقاء لو بتسـليم رسـالة غير مؤرخة تكشـف ثلاثة أسباب رئيسـة لهيجان ثـورة غضبه - الجائـزة الأكاديميّة الممنوحة لمنافسـته، وخذلان أسـتاذه بكتابته رسـالة توصية له، وخسـارته لعمله. لو قام

بقتل هؤلاء الأشـخاص الذين اعتبرهم حاجزاً لصعوده في التسلسل الهرمي للمَكَانة الأكاديميّة.

في عالمنا الحديث، يبدو واضحاً أن القتل ليس استراتيجيّة ناجحة للمـضي. ولكن، بالنسـبة لمعظم تاريخنـا التطوُّري لم يكـن هناك قوى شرطـة، ولا أنظمة قضائيّة، أو سـجون. لقد صُقلت نفسـيتنا في فرن التطـوُّر لـحيـاة المجموعات الصغيرة، وفـي هذا السـياق، سـيكون القتل تحت ظروف معينة أسلوباً ناجحاً لكسب المَكَانة والحفاظ عليها في التسلسل الهرمي.

لقد تم تأكيد قوة هذه الدوائر النفسـيّة من خلال انتشـار خيالات القتل التي ظهرت في دراسـتنا، والتي أثارتها تـهديدات المَكَانة. تأمل هـذه الحالـة التالية لرجـل غاضب من منافـس تفوق عليـه مرتين في مسابقة رياضيّة:

* «الحالة (110) ذكر، 25 عاما: خسرت أمامه مرتين في الدور التأهيلي لبطولة تصفيات للرياضيين. وهذا يعني أنني قاسيت السفر لمدة يومين من مسـافة بعيدة، ثـم الجولة تلو الأخرى في المرحلـة التمهيديّة، فضلاً عن عدم الراحة الشـديد من الملابس السـخيفة التي تسـمى **البدلات**، ولا تنفع لشيء. لقد كان لديه مسـبقاً ثمانية عروض في هذه المسابقة من أصـل اثنين للتأهل. لكنه كان يفعل ذلك فحسـب لإرضاء غروره. أنا حقاً قتلته عِدّة مرات في مخيلتي، غالباً عندما أقوم عادة بالتدريب أو بعد ممارسـة نمطٍ من العُنْف الفعليّ في تسلية ما. لقد فكرت بسحق جمجمته بمضرب البيسـبول عندما اسـتمررت بالمحاولة من أجل الحصول على عروض الرياضيين في المسـابقة... تَخَيَّلـت عضه، خنقه، تعريضه لنحل

قاتل، استعمال مشرط الجراحة، تخيّلت أيضاً أن أدوس على رأسه. [**ما سيدفعك أكثر لقتله؟**] أن أسمعه يخطط لعرقلتي مجدداً ثم تتبعها فرصة مناسبة لارتكاب جريمة مثاليّة».

الحالة التالية، أنموذج للعديد من دراساتنا التي واجه فيها الرجال مشاكل الاقتتال الداخلي من أجل المَكانة، والمنصب، والحظر من قبل الرؤساء. كما إنها تُسلط الضوء بشكل كبير على الخسائر النفسيّة التي تلحق للخاسرين في مثل هذه المواقف.

* «الحالة (146) ذكر، 41 عاماً: [**من فكرت في قتله؟**] زميلي في العمل، مديري مهنيًّا. لقد كان انتهازيًّا ومتلاعباً للغاية. أعطاني هذا الشخص انطباعاً بأني خاسر بائس. كان يستهزئ بي في حضرة الآخرين، الأمر المحرج والمؤلم للغاية لي. كرهته وتمنيت له الموت. في الواقع، ومن الناحية المهنيّة، كنت ناجحاً جداً لدرجة أنه بدأ بالمبالغة بشأن أخطائي البسيطة التي أرتكبها. شعرت بالذل جرّاء ذلك. فيما بعد أصبح شخصاً محباً للنزاع. أدلى بتعليقات خبيثة عني، وجعلني أبدو كالأحمق. لقد منعني من بلوغ مستقبلي ومن تقدمي بعملي، لم يكن يقدّر ما كنت أقوم به، لكن عندما كنت ارتكب خطأً ما لا ينساه أبداً ولا يجعل أيَّ شخص في العمل ينساه أيضاً، كان يتحدث عن ترقيتي في العمل مستقبلاً لكنه كان العائق الأساسي للأمر. [**كيف فكرت بقتله؟**] - فكرت بالعبث بفرامل سيارته، الأمر الذي أعرف كيف أفعله. وحينئذ لن يستطيع كبس الفرامل على الطريق السريع. فكرت بزرع مادة متفجرة داخل سيارته، وفي اللحظة التي يقوم بتشغيل سيارته، تنفجر القنبلة. أثناء ذلك، بدأت أشك بجدارتي وكفاءتي وأصبحت محبطاً للغاية، وظهرت عندي مشكلة إدمان الكحول. [**ما منعك من قتله؟**] خوفاً من أن يُقبض

عليّ وأُعدم. [**ما سيدفعك أكثر لقتله؟**] إذا لم يكن هناك فرصة أخرى لمعاقبته، أو إذا لم يكن هناك أشخاص آخرون سيلحق بهم الأذى من جرّاء ذلك. [**وماذا فعلت فعلياً؟**] لقد دمّرته مهنيًّا. بحثت عن حلفاء لي في مكان العمل وشكلنا حلفاً ضِدّه، بعد وقت قصير لم يعد مديراً أبداً، كان هذا بالنسبة لي أكبر ترضية وتعويض لي».

هناك العديد من الحلول التكيفيّة لمشكلة المنافسين والرؤساء الذين يعوقون محاولاتنا للصعود إلى مراتب أعلى. لحسن الحظ، في هذه الحالة كما في معظم الحالات، لجأ العامل لوسائل أخرى، وتمكن من الإطاحة برئيسه. لكن الأمر يستحق الوقوف عنده، لنفكر مليًّا أنه في كُلِّ موقف قتل تم تنفيذه، وكُلِّ رجل «يستشيط غيظاً»، هناك المئات أو الآلاف ممن فكّروا واستمتعوا بخيالات صريحة حول القيام بنفس الشيء بالضبط - القتل.

مثلما يوجد أشخاص يتَخَيَّلون قتل الذين يعرقلون صعودهم في التسلسل الهرمي يوجد أيضاً بالمقابل، الأشخاص المعرقلون الذين يشعرون بالقلق أحيانًا من أنهم سيكونون ضحايا. بَرز هذا في دراستنا عن الخيالات المضادة للقتل، والحالة التالية توضح هذا الأمر تماماً:

* «الحالة (297) ذكر، 23 عاماً: زميل عمل، كنا على معرفة ببعضنا في منظمة. هو كان يفعل أيَّ شيء حتى لا يخسر. كلانا كان يسعى لتقلّد منصب المكتب السياسيّ، وعرف أنه لن يفوز ضِدّي. بدأ يخبر الناس بأشياء سلبيّة وغير صحيحة عني لكي يشوِّه سمعتي. أصبح محبطاً وكان من الواضح بأنه أقل كفاءة مني. كان يائساً لدرجة أن فكرة التخلّص مني بدت جذابة بالنسبة لهُ. هو لم يكن يريد قتلي فعليًّا لكن

الفكرة بالتأكيد قد خطرت بباله. أصبح شخصاً عصبيًّا وقلقاً عندما يكون بقربي ولم يكن يعرف التصرف بشكل جيد بحضوري. كان يلجأ للكذب في العديد من المناسبات لكي يناور في الكثير من المواقف. لم تتجاوز أفكاره حدودها، لكنني متأكد تماماً بأنه سوف ينفذها لو كنا لوحدنا ولا أحد حولنا. [ما سيدفعه أكثر لقتلك؟] لو أنني استمررت بإحراجه على الدوام وبالإشارة إلى نقاط ضعفه، بالتأكيد هذا الأمر سيدفعه للجنون، ومن المرجح أنه سيقوم بقتلي لو كشفت خداعه».

بالرغم من أن الرجال يشكلون الغالبيّة العظمى ممن يعبّرون عن خيالات القتل التي تحرّضها المنافسة أثناء صعود سلم المَكَانة، إلا أن هناك قِلّة من النساء أيضاً اختبرن مثل هذه الخيالات:

* «الحالة (130) أنثى، 19 عاماً: [من فكرتِ في قتلها؟] فتاة قابلتها عندما كنت طالبة في المدرسة الثانويّة ضمن فرقة موحدة للشباب. لم تكن أبداً ودودة في البداية، لكنني حاولت إعطاءها فرصة أخرى. ومع الوقت لم نصبح قريبتين من بعضنا أبداً. كانت تعامل الآخرين بسوء على الدوام في سبيل الحصول على مرادها الذي تصله دائماً. كانت تتكلم بتعالٍ واضح ليس فقط معي وإنما مع أصدقائي أصبحنا في عامنا الدراسي ما قبل التخرج. حينها في تلك الفرقة الشبابيّة، كان هناك نشاط يسمى (أحبة وأصدقاء) يتم من خلاله اختيارك كملكة أو ملك، وتحصل على مَكَانة شرفيّة في هذه الفرقة. حسناً، ما قد حصل هو أنني ترشحت لهذا المنصب معها ومع اثنتين من زميلاتنا. لم أطقها يوماً من الأيام، لكنني شعرت بأن الوقت قد حان لتعرف فرقة الشباب حقاً كم أنا ودودة، ولم أتعالَ بحديثي مع أحد. ظننتُ أن الشباب سيسرون بذلك ويصوّتون لي. قمت بعملي على أكمل وجه، وأنفقت الكثير من

النقود، بينما لم تقم هذه الفتاة بأيِّ شيء سوى أنها قدمت المتعة الجنسيّة لصبية المجموعة، وانتهى بها الأمر أن فازت باللقب وتحدّتني بذلك. وما أن فازت حتى أصبحت وقحة مع الشباب، وقلّ اهتمامها باللقب. الشباب حتى الآن يقولون لي بأنني كنت من يستحق ذلك اللقب. أنهيت هذا، ولكن حتى يومنا هذا لا تزال هذه الفتاة لديها الجرأة أن تكون وقحة معي! [**ما منعك من قتلها؟**] حسناً، بالطبع لنكن واقعيين، كان ذلك في المدرسة الثانويّة وبالطبع كان سينتهي الأمر بي في السجن، إن لم يُحكم عليّ بالإعدام. كنت أود حينها أن أكمل تعليمي، وأن أكوِّن عائلة، وما ورد في جلستي هذه من أفكار لم تكن لتحصل على الإطلاق. [**كيف فكرت في قتلها؟**] لم أفكر بإجراء معين. لأنني لم أكن حقاً سأقوم بذلك على الإطلاق».

لم يقتصر الأمر على أن الخيالات القَاتلة للنساء أقل شيوعًا في فئة التدخل الهرمي، ولكنها عندما تحدث، تكون أقل وضوحاً، وأقل احتمالاً عن التفاصيل بشأن الوسيلة المستخدمة. - ورد في دراستنا فقط استثناءٌ واحدٌ لتلك التعميمات. هذه كانت امرأة، تبلغ من العُمْر 19 عاماً، أرادت أن تقتل مدير والدها السابق: «**قام هذا الرجل بطرد أبي من وظيفة مستقرة من أجل أسباب تتعلق بالربح، أُفسدت عائلتي منذ ذلك الحين، أردت أن أعذبه بالفقر، أجعله يجوع حتى الموت أو أجعله يعيش في بلد من العالم الثالث**». لاحظ أن هذه الحالة - لا تتضمن التدخل مع المَكَانة أو المنزلة الخاصة بها، بل بوالدها وبالتكاليف المتعاقبة لكامل عائلتها.

في حياتنا المعاصرة، يتم تحديد مَكَانة الرجل من خلال مزيج مُعقَّد من الأشياء، بما في ذلك: النجاح الوظيفي والثروة المصاحبة له. لكن،

من الواضح أن العديد من العوامل الأخرى تلعب دورها أيضاً مثل نفوذ المهنة، والأناقة، والثقافة الاجتماعيّة الرفيعة، والمظهر، والرجولة المميزة. تحمل التدرجات الاجتماعيّة معها متاهة مُعَقَّدة من المشاكل التكيفيّة، ويجب على الذين لا يريدون أن يتدنُّوا في سلم المراتب إلى درجة أدنى، أن ينتبهوا بحذر إلى سلعتهم - سمعتهم ومكانتهم الاجتماعيّة.

السُمعة، الشرف، وجرائم قتل الفُحُول

ثَمَّة مثال شائع للأطفال يعزه الآباء ليشجعوهم على المضي قدماً: «**يمكن للعصا والحجارة أن تكسر عظامي، لكن لا يمكن للكلمات السيئة أن تؤثر بي**». على المرء البحث مطولاً وبشكل مفصّل ليجد قولاً مأثوراً خاطئاً كهذا القول. الأصح للواقع يتمثل بإحدى الأقوال الواردة في أحد أسفار التوراة المَنْحولة: «**ضَرْبَةُ السَّوْطِ تُبْقِي حَبَطًا، وَضَرْبَةُ اللِّسَانِ تَحْطِمُ الْعِظَامَ**».[8] بعملة اللياقة التطوُّريّة، وكما سنرى، ستحمل السُمْعة الاجتماعيّة عواقب أليمة أكثر من كسر عظم أو جرح.

وفقًا لمارتن دالي ومارجو ويلسون:

«**يُعرف الرجال بين أقرانهم بأنهم (النوع الذي يمكن أن يستفزَّ) أو (النوع الذي لن يقبل أيَّ هراء). كأشخاص تعني كلمتهم الفعل، وآخرون مليؤون بالهراء، كفتية يُمكن الحديث مع عشيقاتهم والإفلات من العقاب، أو الذين لا تريد أن تعبث معهم.... في معظم البيئات الاجتماعيّة، تعتمد سُمْعة الرجل جزئياً على الحفاظ على قدرته بالتهديد الموثوق بالعُنْف...إن مصالح شخص ما لابُدّ أن تتعرض للانتهاك من قبل المنافسين ما لم يتم ردعهم. الردع الفعّال هو قضيّة**

إقناع منافسينا بأن أيَّ محاولة لدفع وتقديم مصالحهم على حسابنا ستؤدي إلى عواقب وخيمة، وستنتهي المناورات التنافسيّة بخسارة لا يمكن التصدي لها». [9]

وهذا يقودنا لتفسير سبب كون التحديات العامة لمَكَانة الرجل - لاسيما الإهانة والسُمْعة - خطير للغاية. تنسب الشرطة غالباً حقيقة أن العديد من جرائم قتل الذكور للذكور ناتجة عما يطلقون عليه **«مشاجرات تافهة»**، كتلك التي حدثت بين مايك أدلمان وكريستوفر مارش في النادي الليلي. أو كما وصفها أحد المحققين لجرائم دالاس في الولايات المتحدة: **«تنجم عن خلافات صغيرة لأشياء لا قيمة لها»**. [10] عندما لا تكون الإهانات موجهة إلينا يمكن ببساطة أن نعُدَّها سخيفة. أما إذا تعلّق الأمر بالسُمْعة، فإن ما يبدو إهانات تافهة ستكون غير سخيفة بالمرة، وستجعل الآليات الذهنيّة والنفسيّة للرجل لأن يكون أكثر عدوانية كاستجابته لتلك الإهانات. هذا ما يدركه كُلُّ الرجال، فالناس ينظرون - رجالاً ونساءً - إلى الإهانات العامة باعتبارها تحدّياً لرجولة الرجل، ولفحولته، ولقيمته كحليف، ولقدرته على حماية امرأته من الاعتداءات الجنسيّة. إن فشل الرجل الذي يتعرض للإهانة بالرد أو حاول تجاهل التحدي، فإنه سيفقد ماء وجهه، وسيطلق عليه **«المسخرة»** بلغه وسط المدينة. في ماضينا التطوُّري الطويل وحتى يومنا هذا، فإن فقدان الكرامة، وما يتبعه من تدنٍّ في المَكَانة، يؤدي إلى عواقب كارثيّة للرجال في لعبة الاقتران.

رغم اعتقادنا أن المجتمعات اليوم تحترم الرجل أكثر عندما لا يبالي بالإهانة أو التهديد بدلاً من مواجهتها، إلا أن هذه الإهانات لها عواقب فعّالة، لأنها تحمل في طياتها رسائل عميقة تستطيع أدمغتنا

المطوّرة قراءتها. ترسل الإهانة التي ترتكب دون رد إشارةً أوليّةً إلى الشخص الذي ألقى كلماتها، بأنه يستطيع الإفلات من المساء عليه. في ماضينا السحيق - وحتى يومنا هذا - كانت الإهانة توحي للمتحديّ أنه يستطيع؛ انتهاك حدود الشخص المُهان؛ الاستيلاء على أرضه؛ الوصول لزوجته أو عشيقته. بل وتخبره أن الضحيّة يفتقر للشجاعة الشخصيّة، وللقوة الجسديّة، أو إلى قوة الحلفاء الداعمين له. لسوء الحظ، يرسل هذا التحدي الذي لم يُرد عليه أيضاً رسائل، لاشعوريّة، للحشود المراقبة. وقد يرى بعضهم أن الشخص المهان قابل للاستغلال ومُشجّع لانتهاكات أخرى عليه.

تنتشر إهانات السُمْعة في المجاميع الاجتماعيّة كالنار في الهشيم. ويغدو من الصعب استرداد سُمْعة ضائعة. هذه هي الأسباب الأساسيّة التي تجعل الرجال أحياناً عنيفين بشكل غير ملائم في الرد.

تعد إهانات الشرف أقوى محفزات للقتل، لدرجة أن بعض الدول حاولت سنَّ قوانين رادعة لهذه الدائرة النفسيّة. فعلى سبيل المثال، سنَّت ولاية فيرجينيا، قانونًا يجرِّم تحقير أحدهم لرفضه المشاركة في نزاع: «**إن أرسل امرؤ لآخر رسالة، مكتوبة أو مطبوعة، تحمل لغة شائنة أو مهينة بسبب عدم مشاركته بنزاع، أو عدم مبادرته أو قبوله بتحدٍ ما، فإنه يكون مذنباً بارتكاب جُنْحة. وعند الإدانة، يُسجن لمدة لا تزيد عن ستة أشهر، أو يتم تغريمه بما لا يزيد على مائة دولار**».[11]

في دراستنا، ثبت أن الإذلال من قبل منافس من نفس الجنس أمام الآخرين، أحد الأسباب الأكثر شيوعًا للأفكار القَاتلة، حيث ظهر

بنسبة 28 % من خيالات القتل عند الرجال. خُذ بعين الاعتبار الحالة التالية:

* «الحالـة (278) ذكـر، 23 عاماً: [**مـن فكرت في قتلـه؟**] كنت ما أزال يافعـاً، وأملـك خبرة لا بـأس بها في فنـون الدفاع عن النفـس. وكذلك جريئـاً، متهوراً، ومتسـلطاً، والكُلُّ كان يعلم ذلـك إلا أنا. كان ثمة فتية يقفـون أمـام خزانتـي، ووقتها كنت هدفاً سـهلاً بالنسـبة لهـم. كرهتهم ويكرهوننـي. في إحـدى المـرات قـام أحدهـم برمـي كتبـه عـلى رأسي وضحك حينها كُلُّ أصدقائه، وعندما وقفت لمواجهته، أغلقوا خزانتي، وخطفـوا حقيبتـي من يدي، وقامـوا ببعثرة أغراضي الموجـودة فيها، ثم قاموا بدفعي وإطلاق التعليقات المهينة عليّ وعلى أمي. سألوني عما كنت سـأفعله، ولم أقل شيئًا. - [**كيف فكرت في قتله؟**] حسناً، أي وسيلة تود مني أن أخبرك عنها؟ الأكثر ساديّة؟ الأسرع؟ لدي الكثير من الخيالات القويّـة، وهي هـربي الوحيد من حياتي التي تشـبه الجحيـم. لكن الأكثر احتمالاً هي أن أكسر سـاقيه حتى لا يتمكن من الركض، ثم أضربه حتى يتـأذى كُلُّ ما بداخله، بعدها أربطه بطاولـة وأقطر الحمض الحارق على جبينه، على طريقة تقطير الماء الصينيّة، حتى تصل عينيه وتحفر فروة رأسه وتذيـب دماغـه، لكن ليس قبـل أن يجن من كثـرة التعذيـب والألم. [**ما منعـك من قتله؟**] الله أولاً، ثم الأخلاق، والقانون، والاشـمئزاز الفعلي مـن طريقة قتلي له في ذهنـي. - أو لرُبَّما لافتقاري القدرة على فعل ذلك. [**مـا سـيدفعك أكثر لقتلـه؟**] لا أعلم، كان ذلك منـذ زمن طويل مضى، رُبَّما لو كنت أملك سلاحاً في ذلك الوقت، وقام بفعل شيء شنيع للغاية مثـل طعن فتاة ما. أو احتمال أن يقوم بإيذاء جسـمها أمامي، أو الشروع بمحاولة قتلي».

يميـل الإذلال العام أمام الآخرين إلى خيالات عنيفة بنحو خاص حول قتل المُـذِلّ، ومثلما وضحت الحالة أعلاه غير الفريدة من نوعها. أن تسـليط الضوء على تفاصيل موسّـعة لهذه الخيـالات القَـاتلة، يُبرز حجـم التكلفـة الاجتماعيّـة والمعانـاة النفسـيّة التـي يعـاني منهـا من تضَرَّرت سمعته.

هـذه الضراوة في الرد على إهانات المَكَانة هي عالميّة عبر الثقافات. الأنثروبولوجـي الرائد في الثقافة المكسـيكيّة، أوسـكار لويـز، أجرى عِدّة مقابلات مع رجال مكسـيكيين حول ما تعنيه كلمة ماتشو Ma-cho (الفَحـل)، وما هي الأدوار التي تلعبها المنافسـة عـلى المَكَانة. - يستعرض لويز هذه القصة عن أحد الرجال لشرح قواعد هذه اللعبة:

*** (لقـد تعلمـت أن أُخفي خوفي وأظهر شـجاعتي فحسـب، لأنـه من خلال ما لاحظته، فإن التعامل يتم مع الشـخص وفقًا للانطبـاع الذي يتركه. هذا هو السـبب الـذي يجعلني خارجياً هادئـاً بينـما أكون حقـاً خائفاً في داخـلي.... وفي الجـوار إما أن يكون هناك رجل خشن «Picudo» أو وغـد «Pendejo».**

المكسـيكيون، وأعتقـد أن الجميـع في العـالم، معجبون بالشـخص الذكـوري، كما نقول نحن... المرء الـذي لديه الجرأة الكافية للوقوف ضِـدّ فتى أقـوى وأكبر منـه. إن أتى شـخص ما وقال لي «سـأضاجع أمـك»، سـأُجيب: «سـأضاجع أمـك آلاف المـرات»، وإذا تقـدّم هو خطوة وتراجعت أنا، فإنّني سـأفقد هيبتـي. لكن إذا تقدّمت وبسرعة سـوف أجعله يبدو أحمقَ وسـيعاملني الآخرون باحترام. لن أستسلم أو أقـول «كفـى» وإلا سـيقوم الآخـرون بقتـلي. أفضـل الذهاب إلى

الموت مبتسماً. هذا ما نعنيه نحن بكلمة ماتشو «الفَحل»، أي أن نكون ذُكُوريين حادِّين). [12]

هذه العلاقة بين الخشونة بالدفاع عن المَكانة وأهميّة أن تبدي رغبة في القتل، تتكشف بوضوح في هذا الاقتباس من دراسة عالم الاجتماع بينو أرلاشي، عن ثقافة المافيا في جنوب إيطاليا:

*** (ما يعني «التصرف كرجل مافيا؟». يعني «جعل المرء محترماً» أو «رجلاً ذا شرف» قادرا على الانتقام بالاعتماد على قوته الخاصة ضِدّ أيِّ اعتداء على شخصيته، وقادرا على التعامل بالمثل ضِدّ أي إساءة من عدوٍّ ما.... أن تأخذ حياة أحد وخصوصاً قتل عدو مخيف يعدُّ أمراً مشرِّفاً في أعلى درجاته. الرجل «س» استثنائيٌّ؛ لأنه قام بخمس عمليات قتل. جرائم القتل، بين أعضاء المافيا بأراضي جويا تورو، تَدُلُّ على شجاعة الرجل وقدرته على فرض نفسه. يرافق هذا تلقائياً الكثير من الثقة بالنسبة للقاتل، وكلما كان الضحيّة مهيباً وذا سلطان، كان القَاتل أكثر أهليّة وجدارة بالتقدير).** [13]

وجدت الكثير من هذه التعبيرات في الدراسات الأنثروبولوجيّة للشعوب القبليّة. في قبيلة داني القاطنة في مرتفعات غينيا الجديدة، يعد الرجل الذي **(لم يقتل وبلا بطش هو عديم القيمة «kepu»**. (وعلى بعد آلاف الأميال في قبائل اليانومامو، فنزويلا، يتم التمييز اجتماعياً بين الرجال الذين قتلوا «**Unokai**»، والرجال الذين لم يقوموا بالقتل«**Non-unokai**». [14] يفسر قَتَلة قبيلة داني واليانومامو أيضاً العلاقة بين الحفاظ على المَكانة، وبين فرصهم في الاقتران. في كُلٍّ من

هـذه المجتمعات، يسيطر الرجال القَتَلة على حصة أكبر من البضائع ويحصلون على المزيد من الزوجات.[15] في قبيلة داني مثلاً «**قِلّة من رجال الكيبو لديهم أكثر من زوجة، وبعضهم لا يمتلك أيَّ زوجة**». وإذا ما حالف الحظ أحدهم لامتلاك زوجة، «**ولم يكن لديها أصدقاء أو عائلة قويّة، فإنه قد يفقدها وكُلَّ ما يملك لرجال آخرين**».[16]

ومن المثير للاهتمام، أن هناك اختلافات ثقافيّة في تواتر إثارة العُنْف الفعلي إزاء الإهانات التي تسيء إلى المَكَانة. تميل ثقافات البحر المتوسط مثل إيطاليا واليونان، على سبيل المثال، إلى أخذ الإهانات اللفظيّة بجديّة أكثر من الثقافات الأوربيّة الشماليّة مثل السويد والنرويج.[17] الحجة المثيرة التي قد تم اقتراحها لتفسير هذه الاختلافات تسمى بنظريّة «**ثقافة الشرف**»، التي قدمها عالما النفس ريتشارد نيسبت ودوف كوهين[18]. هذه النظريّة تم تطويرها بشكل خاص لشرح الاختلافات بمعدل جرائم القتل بين الولايات الشماليّة والجنوبيّة في أمريكا. معدل جرائم القتل، وبرغم وجود بعض الاستثناءات، كان يرتفع أكثر كلما كانت الولاية أبعد جنوباً. ولايات ألاباما، وجورجيا، ميسيسبي على سبيل المثال، وصل معدل القتل فيها إلى 9 ,15-8 ,14-3 ,14لكُلِّ مائة ألف. بينما تصدرت تكساس القائمة بمعدل وصل إلى 1 ,17. [19] وتقاربت أوهايو، وبنسلفانيا 6 ,7-1 ,7. - هذه النظريّة، قد لا تعطي تفسيراً شاملاً عالمياً، لكنها تستحق الذكر والتأمل فيها.[20]

وفقاً لنظريّة «**ثقافة الشرف**»، نشأ الضغط على السُمْعة العامة للرجل المتمثلة بخشونته، وشجاعته الجسديّة في ظل الأنظمة الاقتصاديّة الرعويّة بالعالم. في هذه الأنظمة الاقتصاديّة واجه الرعاة

عبر العصور خطر فقدان ثروتهم بالكامل إذا ما تم سرقة حيواناتهم، كما كان يحدث في أغلب الغارات. عندما يكون جميع ما تملكه مخزوناً في أجسام قطيعك، فستواجه خطر الخسارة الكارثيّة على يد المهاجمين. لذا، أصبحت السُمْعة العامة للرجل حرفيًّا مفتاح بقائه الاقتصادي. وأضحى الموقف العام من العدوانيّة والشجاعة في الدفاع ضِدّ المهاجمين أمراً حاسماً لردع عصابات الغزو وسارقي القطيع. ومع مرور الوقت، أدّت تنشئة الرجال في اقتصادات الرعي إلى قولبتهم اجتماعياً للتصرف بهذه الخشونة والاستجابة بالعُنْف ضِدّ الإهانات العامة، والحفاظ أيضاً على تكاليف سمعتهم الاجتماعيّة بأي ثمن. وفقاً لنيسبت وكوهين، فإن الولايات الجنوبيّة في أمريكا قد سُكنت في المقام الأول، من قبل مهاجرين من ثقافات الرعي - من إيرلندا، وويلز واسكتلندا - لذا ترسخت ثقافة الشرف في الجنوب.

على النقيض من ذلك، سكن الولايات الشماليّة في المقام الأول المزارعون مثل البيوريتانيون والصاحبيون، والألمان، والهولنديون. ونظراً لأن المصادر الاقتصاديّة للمزارعين مرتبطة بالأرض، فلا يمكن سرقتها بهجوم فجائي. وعليه، كان لدى المزارعين، وعبر العصور، حصة أقل في صقل الخشونة الدفاعيّة.

يجادل نيسبت وكوهين، بأن المعدلات الأعلى للقتل بين الذكور البيض الذين يعيشون في الجنوب، تعود إلى ثقافة الشرف الأكثر انتشارًا في الجنوب. وهما يوضحان أيضاً حقيقة أن معدلات القتل بين الذكور السود لا تختلف من الشمال إلى الجنوب بسبب الهجرات الحديثة نسبياً للسود الجنوبيين إلى الولايات الشماليّة.

بالرغم من أن هذه النظريّة قد تبدو غير قابلة للتصديق، إلا أن نيسبت وكوهين قاما بجمع عِدّة أدلة علميّة تؤكد على أن الاختلافات بين الثقافات الجنوبيّة والشماليّة جوهريّة وحقيقيَّة ومن المحتمل أن تفسر الاختلافات بمعدلات القتل. تَظهر هذه الاختلافات لثقافة الشرف بدراسات المواقف والسُلوك والتجارب التي يتم فيها إهانة المشاركين علناً. الجنوبيون على سبيل المثال، هم «أكثر اتفاقاً «بنسبة 13 % من الشماليين على عبارات من قبيل: «**للرجل الحق بقتل آخر دفاعًا عن النفس**» أو «**للرجل الحق بقتل آخر دفاعًا عن عائلته**».[21] ويُبدي الجنوبيون على الأرجح موافقتهم ضعفي الشماليين على عبارة «**للرجل الحق بقتل رجل آخر دفاعًا عن منزله**»[22]. في دراسة أخرى، سُئل المستجيبون عن مدى تبرئة رجل، يدعى فريد، أطلق النار على شخص كان يتكلم من وراء ظهره على أنه مخادع وكاذب، وقام بخطف زوجته والاعتداء جنسياً على ابنته البالغة 16 عاماً. أجمع عدد أكبر من الجنوبيين، أكثر من الشماليين، بأن فريد كان له ما يبرره في قتل خصمه. الفرق الثقافي الأكثر إثارةً جاء على حادثة الاعتداء الجنسي على ابنة فريد، حيث أكد - الجنوبيون بنسبة 47 % على براءة فريد وحقه في إطلاق النار على خصمه في مقابل 26 % من الشماليين فقط. كان الجنوبيون كذلك، وبنسبة أكبر من الشماليين، يؤكدون على أن فريد لم يكن «**رُجوليًّا كفاية**» إلا عندما ردَّ بعْنف على هذه المذلة والاهانات المتعددة بحق شخصيته وبحق شرف عائلته.

بسلسلة ذكيّة من التجارب، أنشأ نيسبت وكوهين حالة اصطدام مباشرة يقوم فيها شخص مشارك بالتجربة عمداً بلقاء أحد المشاركين بمدخل ضيق، ومن ثم يناديه «**يا أحمق**». تم تكرار هذا الإجراء على

عِدّة تجارب مع مشاركين مختلفين. سُئل المراقبون المستقلون الذين شاهدوا هذا الصِدام ولم يكونوا أيضاً على معرفة بالأصول الجغرافيّة للمشاركين في البحث عن ردود فعل المشاركين من حيث مدى غضبهم من ناحية، أو صمتهم من ناحية أخرى. لوحظ أن الجنوبيين هم أكثر غضباً وأقل صمتاً من الشماليين بعد نعتهم بالحمقى. في تجربة أخرى مع نفس المجموعة، طلب من المراقبين بعد الإهانة، قياس مستويات الكورتيزول المؤشر الفسيولوجيّ للتوتر النفسي، ومستويات التستوستيرون. وبالرد على الإهانة العلنيّة ارتفعت مستويات الكورتيزول لدى الجنوبيين بشكل كبير أكثر من الشماليين، كما ارتفعت أيضاً معدلات التستوستيرون بشكل حاد. تبين أن هرمون التستوستيرون قد ارتفع كاستجابة لتوقعات القتال أو المنافسة. لذا فإن البيانات الفسيولوجيّة تدعم البيانات النفسيّة، مبيّنة أن نفسيّة الشرف قد كانت فعّالة أكثر عند الجنوبيين منه عند الشماليين.

وفي تجربة أخرى أيضاً، قام نيسبت وكوهين بإرسال (بيان تحقيق) إلى مجموعة من الصحفيين حيث طُلب منهم أن يكتبوا مقابل أجر لصحفهم المحليّة. وفيما يلي ملخص للتفاصيل ذات الصلة ببيان التحقيق:

> **طعن فيكتور جنسن (قوقازي، يبلغ 28 عاماً)، مارتين شيل (قوقازي، يبلغ 27 عاماً)، في حفلة. وفقاً للشهود: سكب شيل كأساً من الجعة على بنطال جنسن. بدأ الاثنان بالجدال وتوجّب فصلهما. صاح شيل بصوت عال، بأن أخت جنسن، آن، هي «عاهرة».**

سُئل العديد من الرجال عن ردود فعلهم في حال قام أحدهم بنعت أختهم بهذا النعت.

ترك جنسن الحفلة وأثناء مغادرته قام شيل وأصدقاؤه بالضحك عليه مضيفاً وبصوت عال بأن والدة جنسن وأخته كلاهما «عاهرتان».

عاد جنسن إلى الحفلة بعد عشر دقائق، وطلب من شيل أن يتراجع عن كلامه «وإلا». ضحك شيل عليه وقال «وإلا ماذا يا رامبو؟». - سحب جنسن سكيناً بطول أربع بوصات من معطفه وطعن شيل مرتين، والذي كان غير مسلح حينها.[23]

حكم المقيّمون على المقالات اللاحقة للقصة من مدى استفزاز جنسن لارتكاب جريمة القتل، وكم كان يستحق اللوم، وكيف تعاطف الكتّاب مع جنسن. - أظهر صحفيو الجنوب أكثر من صحفيي الشمال، ميلاً باعتبار أن جنسن قد أُثير من الضحيّة، وقلّلوا من لومهم لارتكابه الجريمة، بل وتجابوا معه بتعاطف أكبر.

إذا ما أُخذت هذه الدراسات مجتمعة، فإنها ستُظهر بوضوح اختلافًا ثقافيًا قد يفسر ارتفاع معدلات جرائم القتل من قبل الذكور في الجنوب. ولكن هل يعني هذا بأن ظاهرة القتل الناتجة عن استجابة لإهانة علنيّة هي في الواقع شيء ثقافي بالكامل؟ ليس تماماً. يبدو من على الأرجح أن القيم الثقافيّة تحدد عتبات مختلفة لتنشيط دوائر القتل التي نمتلكها جمعياً، غير أن الدوافع الكامنة للقتل هي نفسها عند الرجال في الشمال والجنوب. القاطنون في ثقافات الشرف

في الولايـات الجنوبيّـة، يُثـارون بسرعة أكـبر ويبرزون هـذه الدوافع الذكوريّة العالميّة، لكنها تبقى كما هي.

بينـما كنـت أفكـر في نظريّة نيسـبت وكوهـين، أدركت بـأن هناك عامـلًا آخر يمكن أن يلعب دوراً في جعل ثقافات الرعي أكثر عرضة للدفـاع العنيف عن المَكَانة. فـي المنافسـة التطوُّريّـة البشريّة، كلما زاد تباين رجال في الوصول للموارد والنسـاء، أصبحت الاستراتيجيات التنافسـيّة للرجال أكثر خطـورة. بعبارة أخرى، كلما ربح الرجل أكثر - من سـلع ونسـاء - من كونه مُهيمناً، كان أكثر اسـتعدادًا للمجازفة في تحقيـق هذه الهيمنة. تنص هـذه النظريّة على أن الرجال أكثر عرضة لمحاولـة القتل عندما يكون لديهم احتـمال الحصول على مكافأة ثمينة - الفائز الأكبر. إنهم أكثر اسـتعداداً لاتباع استراتيجيّة العُنْف «**الفائز يأخـذ كُلَّ شيء**» ولرُبَّـما في نهاية الأمر لن يحصلـوا على شيء. ثقافات الرعـي المبكـرة سـتقدم مثل هـذه الفـرص، وعليه، سـتكون غارات قطعـان الآخرين شـائعة للغاية. هـذا المنطق العنيف الـذي يأخذ فيه الفائـز كُلَّ شيء، قـد يقطـع شـوطًا طويـلًا نحو تفسـير إحـدى أكثر الثقافـات الفرعيّـة عنفًـا في الوقـت الحـاضر - عصابـات المخدِّرات داخل المدن.

المتاجـرة بالمخـدِّرات هي مصلحـة يمكن أن يربـح فيها اللاعبون المهيمنون مبالغ هائلة من المال في ثقافة يسـيطر عليها فقر شديد. هذه المبالـغ الهائلة التـي يتم ربحها عـن طريق قتال العصابـات، قد تفسر بنحو جيد لماذا بعض أفراد هذه العصابات يريدون المخاطرة بحياتهم في معاركهـم، وقد تفسر أيضاً لماذا أصبحت المَكَانة هي تلك السـلعة التي يتم الدفاع عنها بضراوة في ثقافة العصابات.

لقد تطوَّر القتل كأحد الحلول، وإن كان خطيراً، لمشكلة تكيفيّة تتعلق بالسُمْعة. وبما أن المَكَانة الأمر الأكثر أهميّة لنجاح اقتران الرجال، فإنهم يمارسون أكثر هذا النوع من القتل. في دراستنا لقَتَلة ميشيغان، حدد 71 رجلاً، في مقابل 11 امرأة، بأن السُمْعة أحد الدوافع الجوهريّة للقتل. هذا لا يعني أن السُمْعة لا تحظى بتقدير كبير من قبل النساء، لأنها بالطبع، لها قيمة. لقد كشفت إحدى الجوانب المذهلة بدراستنا لخيالات القتل، أن للنساء نمطًا يهدد سمعتهنَّ ويثير خيالات القتل، بل يعدُّ سلعتهنَّ الاجتماعيّة الثمينة - سمعتهنَّ الجنسيّة.

السُمْعة الجنسيّة

في دراستنا، لم تكن دوافع أفكار قتل النساء تتعلق بالسيطرة الجسديّة من نساء أخريات، أو بالإهانة للقوة أو بالفحولة، فهن لم يكترثن باتهامات بالجبن، أو الحرج من الفشل في القتال أو التراجع عن تحدٍ علني. العامل الأكثر شيوعاً، حتى الآن، يتمثل بإهانة السُمْعة الجنسيّة للمرأة والذي يعدُّ خطراً مدركاً يعترض جاذبيتها في سوق الاقتران، إليك المثال التالي:

* «الحالة (24) أنثى، 19 عاماً: [من فكرتِ في قتلها؟] فتاة ذهبت معها للتعليم الإعدادي. كانت جيدة والمفضلة لي. قمت بعلاقة مع شاب قبل الصف الثامن، لقد وثقت بها كصديقة جيدة، لكنها قامت بإخبار كُلِّ شخص عن قصتي مضيفة إليها تفاصيل إضافيّة. قالت عني بأنني، عاهرة وفاسقة، ولأننا كنا بالمدرسة المتوسطة فقد صدقها الجميع. لقد دمرت سمعتي، لم يعد لدي أصدقاء، وأصابتني حالة اكتئاب لم أستطع

الخروج منها لعامين. [كيف فكرتِ بقتلها؟] لم أخطط أبداً لقتلها، أنا فقط أردت أن تخرج من حياتي بسبب كُلِّ الأذى الذي ألحقته بي. هي ميتة بالنسبة لي أساسًا. [ما سيدفعكِ أكثر لقتلها؟] - لُرُبَّما، لو تناولت أدوية خطيرة أو أصبت بحالة اكتئاب أعمق».

لأن الرجال يضعون امتيازاً للإخلاص الجنسيّ، فإن النساء اللائي يكتسبن سُمْعة مشوَّهة، فضفاضة، شهوانيّة، فاسدة، سيكُنَّ على دراية كاملة بأنهن سيعانين من نكسة خطيرة تؤثر على جاذبيتهن للاقتران بشريك على المدى الطويل. بل حتى الشائعات التي تعترض السُمْعة الجنسيّة للمرأة، وإن لم تكن صحيحة، فقد تصدق أحياناً، مما تجعلها أقل جاذبيّة للرجال الذين يطمحون لعلاقات جديّة.

في الحالة السابقة، أدى الضَّرر الذي لحق بالسُمْعة الجنسيّة للفتاة في التعليم الإعدادي إلى إصابتها بالاكتئاب لمدة عامين. هذا الضَرر جاء على يد صديقة تحولت إلى منافسة جنسيّة. لكن أحياناً قد يأتي من رجال أقاموا علاقات قصيرة مع نساء ثم قاموا بالتباهي بهذا الأمر، وكما توضح الأمثلة التالية:

* «الحالة (242) أنثى، 22 عاماً: [من فكرتِ في قتله؟] زميلي، فتى بعُمْر 17 عاماً حينها. كنت على علاقة حميميّة معهُ ومارسنا الجنس معاً. ولكنه في اليوم التالي من الأسبوع، شرع في إخبار الغالبيّة العظمى من أصدقائه بأنَّنا مارسنا الجنس سويّة. وفي إحدى المرات كنت أمشي معهُ ومع أصدقائه وكان يضحك معهم (وأدركت أنهم يعرفون شيئاً ما)، تشاجرت معه ونعتني بالعاهرة، عندها فكرت بقتله. [كيف فكرتِ بقتله؟] - مبدئياً، قتله بخيالي بكلتا يديَّ، ثم فكرت بخنقه، وضربه

حتى الموت. [ما منعكِ من قتله؟] لقد ضربته وهذا الأمر مكّنني من التخلص قليلاً من غضبي، لذلك لم يكن هناك حاجة لقتله، فقد تم ضربه على يد فتاة أمام أصدقائه».

* «الحالة (133) أنثى، 29 عاماً: لقد كذب عليّ عندما قال لي بأنه يهتم لأمري، وأحرجني رغم أنني دائماً ما أعطيه فرصاً جديدة. جُرحت من علاقتي به وعندما اكتشفت بأني حامل لم أجده، فقد اختفى. أجهضت في منزلي، وبعد أشهر أخبرته بذلك ليتهمني بالكذب وأخبر كل أصدقائه بأني كاذبة. وددت لو أموت حينها، حتى لا تؤذيني هذه الحالة على الإطلاق. قبل أن يحدث هذا الأمر كنت أحب حياتي، لكني شعرت بالخراب وبأن أحداً لن يحبني. أردت قتله لكنني شعرت باليأس لأنني أعتقد أنه قد آذاني قدر المُستطاع، لم يبقِ شيئًا آخر يفعله ليؤذيني، إلّا أن يؤذي أحدًا من عائلتي».

وهكذا، تعد سُمْعة المرأة الجنسيّة مهمة للغاية. وفي الواقع، ظهرت حالة واحدة من دراستنا لخيالات المقاومة للقتل، خشي فيها رجل القتل على يد امرأة نام معها. وبالرغم من أن هذا النوع من الحالات غير مألوف، لكن الحقيقة، إن هذا الرجل كان مدركاً بشكل ملحوظ لتهديد محتمل من امرأة قام بتشويه سمعتها.

* «الحالة (115) ذكر: [من يُفكر في قتلك؟] صديقتي. كانت نوعا ما مزاجيّة. بعد ما نمنا سويّة لأول مرة كانت تمازحني وتقول يجب أن تقتلني من أجل (حماية شرفها). وضعت يديها حول عنقي، وتظاهرت بأنها تخنقني، لكنها فعليًا بدأت تقطع عني الهواء. حتى عندما بدأت في اللهاث، أبقت يدها حول رقبتي، ولم تفلتني إلا عندما بدأت تلاحظ

بقعـاً جـرّاء ذلك. عندما أبقت يديها، كنت مقتنعـاً تماماً بأنها فعلاً تحاول أن تنهـي حياتي... بعدهـا أصبحت هادئة جداً وانسـحبت، الأمر الذي بدا غريباً. لطالما هي في العادة ذات طبيعة مرحة تماماً، لكنها كانت تنوي قتـلي عندما قطعت الهـواء عني. [**كيف تجنبت القتل؟**] - قمت بتحريك ذراعي محاولاً كسر قبضتها، لكن هذا لم يجدِ نفعاً. لقد تجنبت القتل لأنها قـررت أن تتوقف عن خنقي. لم أكن مسـتعدًا تمامًـا لموقف مثل هذا، لذا كان رد فعلي غريزيًا. لم يبدُ لـي أنها شعرت بالندم فيما بعد لما فعلته، رغم أنهـا لرُبَّما كانت مدركـة للجنون الذي اقترفته. حقاً لم أعرف كيف كانت تفكر [**ما سـيدفعها أكثر لقتلك؟**] هذا أمرٌ من الصعب أن أجيب عليه، لكن رُبَّما كان بإمكانها بسهولة أن تخنقني حتى الموت».

مـن المـؤشرات القويّة على مـدى أهميّة السُـمْعة الجنسـيّة للمرأة، هـي أنـه أحياناً يمكـن أن يؤدي الـضَّرر بـهـا إلى دفع أصدقـاء المرأة أو عائلتهـا إلى أفـكار قاتلة اتجـاه مقترف الإهانـة. - في الحالة التالية، تكونت لصديق امرأة خيالات قتل عندما تم تشـويه سـمعتها علانية مـن قبـل منافس قديم لـهُ. هذه الحالة تـبرز أيضاً في الوقـت ذاته على أهميّـة قـدرة الرجل على الدفاع عن سُـمْعة المرأة الجنسـيّة حفاظاً على سمعته الخاصة:

* «الحالـة (64) ذكـر، 12 عاماً: [**من يُفكر في قتلك؟**] - زميل عُمْره 18 عامًـا. واجهت مشـاكل معه، منذ أن انتقلت إلى بلـدة صغيرة في الصف الثالث. كان طوال المدرسـة الابتدائيّة يتنمَّر عليّ. لكنه غادر مدرستنا في التعليم الإعدادي ثم عاد إليها في المرحلة الثانوية. في بداية الأمر وجدت أن سـلوكه غريب، ومع الوقت لم تعد كلماته المسيئة تزعجني، لكنه بدأ يعلـق تعليقات وقحة تخـص صديقتي. في إحدى المـرات وأمام الجميع

في الكافيتريا نعتها بالعاهرة وقال بأنه سيغتصبها، أغضبني هذا جداً. [**كيف فكرت بقتله؟**] - كان لدي فكرتان، الأولى أن أتناسى ما قاله ونصبح (أصدقاء) ثم آخذه في أحد الأيام إلى مكان بعيد وأطلق النار عليه وأدفنه في مكان خططت له مسبقاً. الثانية، أن أدعسه مراراً وتكراراً بسيارتي ثم أقوم بسحبه إلى منزله واستعرض جثته المشوهة أمام عائلته، هذا حقاً ما أردت أن أفعله، لكنني كنت أعلم أنني لن أنفذ من العقاب. [**ما منعك من قتله؟**] حقاً لا أعرف، فقط ذلك الشعور بأنني إذا قتلته وهربت، فسأكون قد قتلته بسرعة دون أن يتعذب، أردته أن يموت ببطء وكنت أعلم أنه لا توجد طريقة لفعل ذلك. [**ما سيدفعك أكثر لقتله؟**] - لو كنت معه لوحدي من دون شهود».

ثَمَّة محفز آخر لخيالات النساء القَاتلة يتعلق بالضَرر السمعي لمظهرهن الجسمي. الرجال يقدّرون الجاذبيّة الجسميّة أكثر من النساء عند البحث عن شريك، وهذا هو السبب الذي يقف وراء الإشكاليّة الكبيرة في أثناء المنافسة بين النساء، ويفسر لماذا يتعيَّن على النساء استخدام هذه الأساليب بنحو متكرر للانتقاص من مظهر منافساتهن الأخريات علانية. لقد وجدنا في دراستنا للخيالات أن التكاليف التي تتكبدها النساء من كونهن ضحايا لهذا الانتقاص تكون مؤلمة نفسياً أحيانًا بما يكفي لتنشيط دوائر القتل:

* «الحالة (7) أنثى، 12 عاماً: فتاة، كانت تنتقدني باستمرار أمام باقي الناس، لكنهم عادة كانوا يعرفون أنني الشخص الوحيد الذي يدرك كم كانت حقيرة وبائسة. في أحد الأيام عندما ذهبت لأتبرع بالدم، ضايقني المعلم بكلامه عني بأنني نحيلة جداً ولا تنطبق عليّ شروط التبرع (كان عجوزا قذراً، أنا لست نحيلة إلى هذا الحد، أنا متوسطة تقريباً). قلت

لـه حينها: (لا، أنا متأكدة من أنني سـأفي بمتطلبـات الوزن بأكثر من 10 أرطال أو نحو ذلك، لكنني أعتقد أنني مصابة بفقر الدم). - لتقوم هذه الفتـاة الشريرة، وأمـام زملائي في الصف بالتهكم علـيّ قائلةً (ألا ينبغي عليـكِ أن تكـوني نحيلـة حتى تصـابي بفقر الـدم؟) وهذه كانت القشّـة الأخـيرة. بعد سـتة أعـوام من حماقتها هـذه، أردت أن أؤذيهـا... أردت أن أمسـكها مـن شـعرها وأضرب جبينهـا على طاولة المخـبر حتى تفقد الوعـي، ثم أقوم بركلها على وجهها. [**ما سـيدفعكِ أكثر لقتلها؟**] - إن قـام أحـد في الصف بالضحك على تعليقها، سـأفقد عَقْلي تماماً، لن أقوم بقتلها لكن بالتأكيد ستتلقى ركلة مني. [**وماذا فعلتِ فعلياً؟**] كتبت على جدران الحمام بأنها عاهرة غبيّة».

توضـح الحالتـان الأخيرتـان أن الأفـكار القَـاتلة لا تكـون غالباً نتيجـة لحادث واحد، ولكـن يتم تحفيزها بتتويج عـدد من الأحداث التي تتسبب في التكلفة على مدى فترة زمنيّة طويلة.

القَتَلة المتسلسلون: بريق المجد

بينـما كنت أتفحص أسـاليب القتل التـي تقف المَكانـة الاجتماعيّة دافعـاً مهـماً وراءها، أصبحـت مقتنعاً أن هـذه الدائرة النفسـيّة ذاتها، تلعـب دوراً في جرائم القتل التي يرتكبها نوعان بشـعان من القَتَلة - المتسلسلون والسفاحون. أنا لم أجرِ بحثاً مكثَّفاً حتى الآن يخص هذين الصنفين من القَتَلة، غير أن الأسـاليب الخاصـة بهم، والتي يمكن أن تفسرهـا دوافع المَكانة، هي مقنعة بـما فيه الكفاية وأود تضمين ذكرها هنـا. إنَّنا نميل لعزو دوافع هذين النوعين من القتل إلى الشر المحض، أو إلى أحـد الاضطرابـات المرضيّـة. بالتأكيـد أن تشـارلز مانسـن،

وجيفري دامر [قَتَلة متسلسلين] يبدوان مختلَّيْنِ، وبالتأكيد سيتم تشخيص بعض هؤلاء القَتَلة، سريريًا، على أنهم مصابون بالذُّهان، أو بجنون العَظَمة، أو باضطراب الشخصيّة المعادية للمجتمع، لكنني أود المجادلة أن الدوافع الكامنة التي تدفعهم إلى القتل، هي ذاتها التي تقف وراء عمليات القتل اليوميّة من أجل المَكَانة والسُمْعة. وفقاً لهذه النظريّة، فإن القَتَلة المتسلسلين يقتلون لأنهم يسعون للانتقام لمكانتهم المفقودة، بينما يقتل السفاحون للوصول إلى القمة في التسلسل الهرمي للمَكَانة والبقاء فيه على الدوام.

جرائم القتل من القَتَلة المتسلسلين متواضعة إحصائيًا: تمثل 1-2 % من جميع حالات القتل. ومع ذلك، فإن هؤلاء القَتَلة يرهبوننا - ويذعروننا - بشكل خاص. إن القدرة على القتل مرة بعد مرة، مع الافتقار التام للإحساس بالندم الذي عادة ما نشهده بعد إمساك المجرمين تستدعي انتباهنا بوصفها فعلًا وحشيًّا قاسيًا، تجاوز حدود الطبيعة الإنسانيّة. السؤال عن الأسباب التي تجعل شخصًا ما يتحول إلى مفترس متسلسل يقتل بدم بارد بشراً آخرين، محيّرٌ وغامضٌ، وأنا لا أصرح بأن لدي إجابة على هذا اللغز. ومع ذلك، لقد صُدمت خلال قراءاتي المكثفة عن القَتَلة المتسلسلين، بحقيقة أن العديد منهم على ما يبدو كانوا مدفوعين من المَكَانة الاجتماعيّة.

لقد كنت أقرأ كتب الجريمة الحقيقيّة حول القَتَلة المتسلسلين لأكثر من عقدين. معظم هذه الكتب تقدّم دراسات حالة رائعة بدلاً من النتائج العلميّة المنهجيّة. أحد هذه الكتب الأكثر امتاعاً كان لعالم الأنثروبولوجيا البارز، إيلوت ليتون، بعنوان «**صيد البشر**»، والذي قدم دعمًا رائعًا للحجة؛ أنَّ دافع المَكَانة هو مفتاح عمليات القتل هذه.

غالباً ما يسعى القَتَلة إلى الانتقام من أولئك ذوي المَكَانة الأعلى، وأن يكسبوا مَكَانة مميزة من خلال السُمْعة السيئة (الشهرة). أشار ليتون إلى أن القَاتل المحترف يعمل غالبًا «**على هوامش الطبقة العليا أو المتوسطة، وعادةً ما يكون شخصيّة محافظة [سياسيًّا] للغاية يشعر بأنه مستبعد من الطبقة التي يرغب بشدة الانضمام إليها. وفي حملة انتقام موسعة، يقتل أشخاصًا غير معروفين له، لكنهم يمثلون (في سلوكهم أو مظهرهم أو موقعهم) الطبقة التي رفضته**».[24]

لقد لاحظ ليتون بأن القَتَلة المتسلسلين والسفاحين «**من الأكثر وعيا طبقياً في أمريكا، مهووسون بأيٍّ فارق في المَكَانة، والطبقة، والسلطة.... غير أنهم يجدون أنفسهم غير قادرين على الحفاظ على مكانتهم الاجتماعيّة؛ فجوة واسعة بين توقعاتهم وواقعهم لدرجة أنهم لا يستطيعون إلا أن ينفثوا غضبهم على المجموعة المكروهة**».[25] الملقب بخانق بوسطن، البيرت دي سالفو، والذي اغتصب وتحرش ثم قتل 13 امرأة على الأقل في الستينات، قال بأن القتل يشعره وكأنه «**يضع الشروط على الناس من الطبقة العليا**».[26] إدموند كيمبر، القَاتل المتسلسل الذي قتل على الأقل 8 نساء خلال سبعينات القرن الماضي، قال بأنه يفعل ذلك «**كتظاهر ضِدّ السلطات**».[27]

ارتكب تشارلز ستاركويزر أول عمليّة قتل خلال عمليّة سطو. بعدها بفترة قصيرة، شرع بعمليات قتل استغرقت أسبوعًا، قتل فيها 10 أشخاص آخرين، ثم تابع القتل كمهنة في الخمسينات من القرن الماضي. لقد ترعرع ستاركويزر فقيرًا وشعر بالغضب الشديد حيال ذلك: «**مَلَلت كوني لا أملك شيئاً وبأنني نكرة، الفقر لا يعطيك شيئاً**». وبينما كان يعيش في كوخ صغير، شعر بالسخط من أن «**كُلّ**

هؤلاء الأطفال الملاعين مهتمون، بـ: ما نوع العمل الذي يقوم به والدك؟ وما نوع المنزل الذي تعيش فيه؟».[28] وفي فترة شبابه، كان يقف خارج المطاعم الفاخرة ويراقب الناس في الداخل يأكلون الطعام الذي لا يستطيع أن يدفع ثمنه. كان يسمع أقوالاً مثل «**أن الرجل يصنع عالمهُ الخاص**»، لكنه لاحظ أن «**الأشخاص الذين يقولون مثل هذه الأشياء هم من يرتدون ملابس جميلة، ويأكلون بمطاعم فاخرة ويعرفون ماذا يقولون للفتيات**».[29]

تُظهر العلاقة الوثيقة بين المَكَانة ومخاوف الاقتران بنحو صريح في هذه الحالات. فعلى سبيل المثال، قال ستاركويزر عن عمله المتدني كجامع للقمامة: «**تستحق الفتاة أفضل من ناقل نفايات أو من مُجَرَّد مغفل يعمل هذا العمل القذر. لا يكون أيُّ طفل بخير من دون نقود**».[30] عند شرحه للدافع وراء القتل الذي يقوم به، قال بأنه يدرك أن «**الناس الموتى يكونون جميعهم بنفس المستوى**»[31] وكشف أنه كان يريد أن يقوّض من مَكَانة ضحايا الطبقة العليا. وبعد القبض عليه وإدانته، لم يعبر عن ندمه، بل أفصح عن الرغبة المشتركة بين جميع القَتَلة المتسلسلين في تحقيق المَكَانة من الشهرة السيئة: «**الأفضل أن تُترك لتتعفن بإحدى الهضاب العالية وراء الصخور (السجن) وأن يتذكرك الناس، بدلاً من أن تدفن حياً ببعض الأماكن الآسنة**».[32] يبدو القتل، بالنسبة لتشارلز ستاركويزر، استراتيجيّة للشهرة في عالم يعتقد إنه لا فرصة للصعود في المَكَانة.

بينما عانى تشارلز مانسون، أحد أشهر القَتَلة المتسلسلين بالقرن العشرين، من استياء عميق حيال من هم في مواقع السلطة ممن يعتقد أنهم أحبطوا جهوده بالشهرة والثروة. كان يطمح أن يكون

نجم روك مشهورًا، وألف أغنيّة، سجلتها فرقة ذا بيتش بويز. ومن المثير للاهتمام أن هذه الفرقة قامت بتغيير كلماته «تختفي من الوجود» المنذرة بالموت، إلى «**توقف عن المقاومة**» الأمر الذي أغضب مانسون، لتبتعد الفرقة عنه فيما بعد.

وعندما فشل بتحقيق طموحه كنجم روك، أبتكر مانسون مخططه الغريب القَاتل للمضيِّ قدماً. لقد خطط لقتل الاغنياء البيض في لوس أنجلوس، ثم سرقة محفظاتهم، ووضعها في حمامات محطات البنزين الواقعة بأحياء الجوار التي يسكنها السود. كان يظن أن الأمريكيين من أصل أفريقي سوف يجدون المحفظات ويستخدمون بطاقات الائتمان، الأمر الذي سيقود الشرطة إلى استنتاج أنهم ارتكبوا جرائم القتل. لقد كان الهدف من هذه الخطة الملتوية هو تأجيج التَوَتُّرات العِرقيّة، وبالتالي بدء اقتتال عِرقيّ.

كان تصوره الوهمي أن الكثيرين سيموتون بحمام دم تغذيه الكراهية العنصريّة، وسيخرج السود منتصرين، وفي النهاية سيلجؤون له لكي يقودهم. لقد كان مانسون متعصبًا للغاية، وأعتقد أن السود كانوا أدنى مستوى من الناحية الفكريّة من البيض، وهذا هو السبب في أنهم سيكونون بحاجة إليه.

تشارلز مانسون هو بالتأكيد أحد القَتَلة المتسلسلين ممن يمكن وصفهم بأمانة بأنهم يعانون من اضطراب نفسي. لقد أعلن صادقاً أنه كان ثَمَّة قصر سري تحت صحراء كاليفورنيا من المفترض أن يختبئ فيه هو وعائلته خلال الاقتتال العرقيّ، وقضى هو وأتباعه عِدّة أيام في البحث عبثا عن مدخله. واعتقد أيضاً، أو

أدعى على الأقل، بأن فرقة البيتلز يتواصلون معه سراً من خلال سجلاتهم، وأن أغنية «الطير الأسود» كانت جزءًا من تعليمات له لبدء الحرب. الكلمات «**هرج ومرج**» و«**خنازير**» المكتوبة بدم الممثلة الأمريكيّة شارون تايت وبدم ضحايا آخرين على جدران قصورهم، وردت في أغاني فرقة البيتلز من ألبوم وايت. هكذا، ورغم أوهامه وجنون العَظَمة الصريح، يبدو واضحاً أن الدافع الأساسي وراء جرائم القتل التي ارتكبها هو وأتباعه كان لتحقيق المَكَانة في السلطة.

تيد بندي، أحد أكثر القَتَلة المتسلسلين غزارة في العالم، حيث وصل عدد ضحاياه إلى 36 أنثى ضحيّة، بدأ ممارسته القتل بعد عرضه للزواج من امرأة جميلة تدعى ستيفاني بروكس، المنتمية إلى طبقة أعلى، والتي رفضته لأنها شعرت بأنه يفتقد إلى الإدارة الحقيقة والأهداف المستقبليّة الواضحة، وهو النمط الاجتماعي الرفيع الذي تريده في الرجل. ترعرع بندي في طبقة متوسطة متدنِّية كان يكرهها. وشعر بالقلق إزاء المَكَانة التي كانت تغضب طفولته، بسبب الدخل الزهيد الذي كان يحصل عليه زوج أمه من بيع الخضار في حدائق السوق. - بعد اعتقاله، كشف بندي أنه كان يشعر بالذل والخزي من ركوبه سيارة زوج أمه القديمة نوع رامبلر. لقد كان يطمح للمزيد، وفي مراهقته قام بسرقة السيارات الفاخرة والممتلكات الثمينة لكي يكسب المَكَانة التي يتوق إليها.

لقد بدا واضحاً، ورغم رغبته في أن يصبح محامياً، أنه يمتلك القدرة الذهنيّة والفكريّة لمثل هذه المهنة، إلا أنه افتقر المثابرة لتحقيق هدفه - لقد ترك دراسته في جامعة واشنطن، كليّة الحقوق، لكنه

استمر بالتظاهر بأنه طالب حقوق. لقد كان الزواج من امرأة ذات مَكَانة أعلى، يمثل له طريقًا أكيدًا للوصول إلى المَكَانة التي كان يتطلع إليها، ولكن عندما رفضته، بدأ هيجانه بالقتل. وفي مؤشرٍ آخر على العلاقة الوثيقة بين المَكَانة ومخاوف الاقتران، أوضح بندي دوافعه للقتل قائلاً: «**سرقة أكثر المقتنيات قيمة في هذه الطبقة هي نساؤهم الشابات الجميلات والموهوبات**».[33]

إن القَتَلة المتسلسلين والسفاحين، على الأقل «الناجحين»، يحققون دائماً نوعاً معيناً من المَكَانة - غالباً ما يتحولون إلى أسطوريين أو سيِّئي السُمْعة. صوّر فيلم» الأرض الوعرة»، والذي قام ببطولته كُلٌّ من مارتن شين وسيسي سبيسك، القتل المشين الذي قام به تشارلز ستاركويزر وصديقته التي رافقته مما جعل اسم ستاركويزر حيًّا حتى الآن. وأصبح تشارلز مانسون محور عشرات الكتب والعديد من الأفلام، والتي لها تأثيرها الدائم والكبير على ملايين المشاهدين المتشوِّقين لرؤية مانسون وعائلته أو أتباعه. في حين حصل على الشهرة السيئة كُلٌّ من تيد بندي، مطاردي الليل، وسفاحي التلال. إن الشهرة تجلب النساء سواء أتت من مصدر ذائع الصيت أو من مصدر سيِّئ. القَتَلة بدءًا من تيد بندي إلى مطاردي الليل، قد لفتوا انتباه عشرات النساء المعجبات. وفي الواقع، تزوج الكثير منهم وأنجبوا أطفالًا بعد القبض عليهم وإدانتهم. ومن المفارقات، أن القَتَلة المتسلسلين بعصرنا الحديث يخططون للزواج والإنجاب، أطفال تشارلز مانسون وتيد بندي هم بيننا الآن.

القتل للوصول إلى القمة

يبدو أن السعي للحصول على مَكَانة عالية هو دافع أساسيّ وراء الوحشيّة المدهشة للعديد من السفاحين. هؤلاء هم الرجال - وأغلبهم كانوا رجالاً - الذين يقتلون لتحقيق الهيمنة والحفاظ عليها بنظام ثقافي أو سياسي من خلال استراتيجيّة صارمة للقتل. لقد كانوا رجالاً مثل جوزيف ستالين في روسيا، بول بوت في كمبوديا، صدام حسين في العراق، عيدي أمين في أوغندا، وملك المخدِّرات بابلو اسكوبار في كولومبيا، ورجل المافيا جون غوتي في أمريكا.

وعلى الرغم من أنَّنا نعلم جميعاً أن هؤلاء القَتَلة قد استخدموا القتل كسلاح للحفاظ على سلطتهم، غالباً على نطاق واسع جداً، فقد يكون من غير المعروف لنا جيداً، أن القتل كان أيضاً وسيلة أساسيّة أرتقوا من خلاله في سلَّم المَكَانة وعزّزوا سلطتهم.

جون غوتي، والمعروف أيضاً بالدون «تفلون» **[نسبة إلى إحدى أكثر المواد المُزلِقة بالعالم]**. لقدرته المتكررة على تجنب إدانته بتهم جنائيّة، أرتقى في السلطة داخل مافيا نيويورك بسبب براعته بالقتل. هو بدأ كقاتل مأجور بمستوى متوسط، لكنه سرعان ما شق طريقه إلى أعلى التسلسل الهرمي، ليصبح رئيساً لجماعة مسلحة تديرها عائلة غامبينو. بدأ صعوده متجهاً للانحدار، عندما تم القبض على عصابته وهي تبيع المخدِّرات، وهو نشاط يتعارض تماماً مع سياسة عائلة غامبينو. ليأمر بعدئذ باول كاستيلانو، رئيس عائلة غامبينو، بحل جماعة غوتي. غوتي بدوره قام بحركة جريئة قادت لصعوده فوق كاستيلانو: لقد دبر لقتله فعلاً. في يوم السادس عشر من ديسمبر 1985، وبعدما أنهى

باول كاستيلانو عشاءه في سباركس ستيك هاوس في مانهاتن، قام غوتي بخرق جسمه بست رصاصات.

في النصف الآخر من العالم، بدأ صدام حسين المولود عام 1937 في قرية صغيرة بالقرب من تكريت الواقعة شمال غرب بغداد، العراق، مسيرته بالقتل في عام 1958 وهو في الحادية والعشرين من عُمْره - اغتال شيوعيًّا بارزاً في تكريت حسب أوامر عمِّه.[34] كلفه ذلك قضاء 6 أشهر في السجن، بعدها تم إخلاء سبيله لعدم توفر الأدلة. بعد عام، انضم صدام إلى فريق من البعثيين القَتَلة وحاول بمحاولة غير ناجحة قتل رئيس الوزراء العراقي آنذاك، الجنرال عبد الكريم قاسم. فرّ صدام في أعقاب محاولته الفاشلة من البلاد، وحوكم غيابيًّا في عام 1960 بالإعدام في حالة القبض عليه. وفي عام 1963، عاد صدام بعد ثورة رمضان للعراق، ليسجن بتهمة معارضة النظام الحاكم.

هرب بعد ذلك لمدة أربعة أعوام، ثم عاد عام 1967، ولعب دورا رئيسًا في انقلاب أطاح فيه البعثيون بالنظام الحاكم في العراق عام 1968، أصبح صدام حسين رئيساً لجهاز الأمن الداخلي، وبدأ بقتل أعداء النظام البعثي، ليترقَّى بسرعة بدرجات الحزب، وبات في النهاية رئيساً للعراق عام 1979. أول أعمال صدام حسين كرئيس كانت إصدار أوامر قتل لقائمة طويلة من خصومه السياسيين، وبالطبع، كان القتل هنا هو أسلوبه الرئيس للمحافظة على السلطة.

لقد وهب المنصب لصدام ملذَّات العديد من العشيقات طوال عقود هيمنته. هذه المَكانة المرموقة تدفقت بيسر إلى ابنيه: عدي

وقصي. لم يقتصر الأمر لعدي على العشيقات فقط، وإنما كان وفقاً لتقارير عِدّة، يستمتع باغتصاب أيِّ فتاة مرت بخياله. «**لقد كان الاغتصاب هو أحد هواياته**»، كما ذكر السكرتير الخاص السابق لعدي، عباس الجنابي، «**لم أبالغ بهذا بالمرة**».[35] شهد الجنابي شخصيًّا العديد من عمليات الاغتصاب التي أرتكبها عدي على نساء جميلات وفتيات يافعات لم يتجاوزن الحادية عشرة من العُمْر. لقد حاول عدي، ذات مرة، إغراء راقصة باليه روسيّة زائرة في عام 1994، لكنها رفضت بأدب عرضه. أوعز عدي رجاله بتتبعها ليصوروها وهي تمارس الجنس مع مدرِّبها. دعاها عدي لحفلة خاصة، وفاجأها بعرض فيلمها ثم شرع باغتصابها. امتيازات السلطة هذه، وبمقدمتها الوصول الجنسي إلى النساء الراغبات أم لا، توالت إلى الأقارب كذلك.

القتل أيضاً، في جحيم عالم المخدِّرات، يعد أضمن طريقة لتحقيق الهيمنة. بابلو اسكوبار، المولود في 13 يناير عام 1949، بدأ حياته الإجراميّة كلصٍّ مراهق بين شوارع ميديلين، كولومبيا.[36] وفي العشرينات من عُمْره، بدأ بناء إمبراطوريّة المخدِّرات التي أصبحت معروفة باسم «**كارتل ميديلين**». لقد مهَّدت الجثث المتساقطة طريقه للصعود إلى السلطة في عالم المخدِّرات. لا أحد يعلم بالضبط عدد الموتى الذين قتلهم بيده أو عن طريق إصدار أوامر بقتلهم على يد أتباعه، لكن الخبراء يقدِّرون بأنه كان مسؤولاً عن أكثر من مائة جريمة قتل[37].

ولد عيدي أمين دادا، في حوالي عام 1924 في قبيلة كاكوا، أوغندا. كان والده مزارعًا مُسلمًا ووالدته كانت من قبيلة لوغبارا[38]. بَرَع

أمـين في الرياضـة وأصبح بطل أوغنـدا للملاكمة فـي الـوزن الثقيل لمدة تسـعة أعوام، بدءًا من عام 1951وحتـى 1960. وفي عام 1960، وعندمـا كانت أوغندا تحت الحكـم البريطاني، أصبح عيـدي جنديًّا، وترقّـى بسرعة إلى مرتبة ملازم، الامتياز الـذي يمكن لواحد من كُلِّ اثنـين من المواطنـين الأصليين الأوغنديين أن يحققـوه. أمر أمين، عام 1962، قواتـه بذبـح رجال القبائل المسؤولين عن سلسـلة من سرقة الماشـية. وعندمـا قامـت السـلطات البريطانيّـة بإجـراء التحقيقـات اكتشـفوا بأن الضحايا قـد تم ضربهم وتعذيبهـم وفي بعض الحالات دفنـوا أحياءً. لكنهـم تغاضوا عن أسـاليب أمين المتَّقـدة، نظراً إلى أن استقلال أوغندا لم يبق له سوى أشهر قليلة.

بعـد فترة قصيرة، تلقى أمين دعماً في أول انتخابات أجريت بأوغندا بعد الاسـتقلال، خلفاً لميلتـون أوبوتي الذي أصبح رئيسـاً للوزراء عام 1962، ثـم عـيّن نفسـه بعدئذ رئيسـاً بموجب الدسـتور الجديـد. لعِدّة أعـوام، توتـرت العلاقة بين أمـين وأوبـوتي. في عام 1969، اسـتهدف القَتَلَة أوبوتي، لكنه استطاع الهرب والنجاة بحياته. أعلن منافس عيدي أمين الوحيد في الجيش، بيرينو أوكويا، بأنه أقترب ممن كانوا وراء محاولة الاغتيال، وإنه سـيتم الكشـف عن أسـمائهم في 26 يناير 1970. واليوم الـذي سـبق الاجتماع قُتـل بيرينو هـو وزوجته في منزلهما. شـك أوبوتي بـأن أمين كان وراء اغتيالـه فقام بعزله من منصبـه القيادي وأجبره على الاستقالة من منصبه الإداري. قد تبدو استراتيجيّة أمين المبنيّة على القتل للوصول للقمة بأنها فشلت، لكن هذه لم تكن نهاية قصته.

في عـام 1971، علـم الوالد الأكـبر كما أصبح يسـمى لاحقاً، من خلال اتصالاته بأن أوبوتي يخطط لاعتقاله واتهامه بإسـاءة اسـتخدام

ملايين الدولارات من الأموال الحكوميّة. في 25 يناير 1972، قام أمين بانقلاب ناجح بينما كان أوبوتي خارج البلاد. وقد أعلن في استيلائه على السلطة قائلاً: «**أنا لست طموحًا، أنا مُجرَّد جندي همهُ وطنه وناسهُ**». [39] الأعوام الثمانية من حكمه أثبتت خلاف ذلك.

أمر أمين، في غضون أشهر من الاستيلاء على السلطة، بإعدام جميع أولئك الذين اعتبرهم موالين لأوبوتي. وقتل 32 ضابطاً في الجيش في سجونهم، وتقريباً ستة آلاف من الجنود. وفي عام 1972 أعلن «جزار إفريقيا»، الاسم الذي أصبح يعرف به على نحو متزايد، بأن أوغندا هي» **بلد الرجل الأسود**» وأمر جميع الباكستانيين والهنود بالمغادرة على الفور. [40] بعد عِدّة أعوام من ترسيخه لسلطته، زاد من حجم جيشه بنحو مثير واستنزف كُلَّ المال الذي كان من الممكن أن يُصرف لمساعدة سكان أوغندا، وشن حملة عنيفة لقهر ما تبقّى من داعمي أوبوتي والقبائل المنافسة.

لقد قتل القضاة، والدبلوماسيين، والوزراء، والأكاديميين، ومُلاك البنوك، وقادة قبائل، وصحفيين، وآلافًا من المواطنين العاديين الذين كان يشكّ بأنهم معارضون لهُ. تتراوح تقديرات العدد الإجمالي لضحاياه من مائة إلى خمسمائة ألف؛ ويصل لما يقارب ثلاثمائة ألف.

أُجبر أمين في نهاية المطاف إلى الفرار من البلاد، آخذاً معه أربع زوجات، وأغلى عشيقاته الثلاثين، وعشرين من أطفاله. [41] لقد عاش لعُمْر يناهز الثمانين، ومات في منفاه في المملكة العربيّة السعوديّة بصحبة زوجاته وعشيقاته وأطفاله.

الحقيقة القاسيّة، هي أنه على مدار تاريخ البشريّة، استخدم الرجال القتل، والجماعي غالباً، كاستراتيجيّة للوصول إلى السلطة وقمع المنافسين المحتملين من الصعود والاستيلاء عليها قتل بول بوت في كامبوديا، وجوزيف ستالين في روسيا الملايين من الناس. حافظ فرانسوا دوفالييه (المعروف بالأب دوك) ثم ولده جان كلود دوفالييه (الأبن دوك) على السلطة في هاييتي لعقود عن طريق قتل ما يقارب ستين ألفاً من الهاييتيين.[41] بينو موسوليني في إيطاليا، يون أنتونيسكو في رومانيا، الأمير ياسوهيكو أساكا في اليابان، ماو تسي تونغ في الصين، كيم إيل سونغ في كوريا الشماليّة، فيرناند ماركوس في الفليبين، آنتي بافليتش في كرواتيا، سلوبودان ميلوشيفيتش في صربيا، محمد سوهارتو في إندونيسيا، جوسي إفراين مونت في غواتيمالا، ني وين في بورما، وآلاف من القادة الآخرين من ثقافات العالم كسبوا وحافظوا على السلطة من خلال القتل. تتجلى الاستراتيجيّة المنهجيّة وراء «جنونهم» الإجراميّ بشكل صارخ في هذا الاقتباس لزعيم شاب من ثقافة داني في أوقيانوسيا، والذي ارتقى في صفوف قبيلته بأن أصبح قاتلًا مُحترفاً:

«كنت أعلم أنه من المفترض أن أكون قائداً. لقد أخبرني والدي بذلك. لكن الجميع قالوا لا يمكنني القتل لأنني كنت صغيراً جدًا. لقد بدأت بسرقة خنزير، وعندما نجحت بذلك، عاودت السرقة مراراً وتكراراً. في كُلِّ مرة أنجح فيها تتشامخ الشجاعة في قلبي، وأشعر بنفسي كمغوار. رويداً رويداً جرَّبت أن أقتل رجلاً، ونجحت، لأعود إلى المنزل مكللًّاً بهذا الانتصار. كنت أرغب في خوض الحرب والقتال مع الآخرين، لكنهم ما زالوا يعدُّونني طفلاً. شعرت بالغضب.

وذهبت، على أيٍّ حال، والقوس والسهام في يدي. قتلت أحدهم ثم قتلت وقتلت حتى مات العديد منهم. وفي النهاية تم الاعتراف بي من قبل الناس كسيّد أعلى. أنا لا أخشى أحداً». [43]

غالباً ما يعمل القتل بشكل أفضل من باقي الاستراتيجيات الأخرى للطغاة وغيرهم ممن يريدون الصعود إلى السلطة من خلال قتل خصومهم. إن ممارسة العنف غير القَاتل مع الخصوم أو نفيهم هي مُجرَّد حلول مؤقتة. فمن المحتمل أن يعود الأعداء الذين يبقون على قيد الحياة. بينما لن يعود المنافس الميت على الإطلاق. يرسل القتل إشارات فعّالة للآخرين في المجموعة. إنه يردع أيَّ متحدٍ محتمل من خلال استغلال خوفه المتطوِّر من القتل.

يخبرنا التكرار المطلق للقتل، خلال التاريخ البشريّ المُسجّل، باعتباره استراتيجيّة ذُكُوريّة للحصول على مَكَانة القوة المهيمنة، بأن هذا السلوك قد كان، منذ زمن طويل ومازال حلًّا تكيفيًّا في التنافس التطوُّري. لقد تجذّرت الدوائر النفسيّة الكامنة وراء القتل من أجل المنافسة لإحراز التّقدُّم والبقاء بدماغ الذكر عبر مسيرة التطوُّر، لأنها تعمل بنجاح.



الفصل التاسع

القَتَلة - داخلنا

«لقد قابلنا العدو... وكان هو أنفسنا»

~ والت كيلي، كرتون بوغو

على مـدار فصول هـذا الكتاب، اطلعنـا على القَتَلـة المحيطين بنا، بـدءًا مـن الرجل الذي أُهين شرفه إلى المرأة التي ترى في القتل المخرج الوحيد. أن للقتل تأثيرًا على حياة كُلِّ واحد منا. هل شـعرت من قبل بانتصاب شـعر جسـمك بمرور رجل ذي مظهر مفزع وسطك؟ هل شـعرت من قبل بعيون شخص غريب يراقب كُلَّ تحركاتك وأُجبرت على عدم الالتفات لتخمّن غايته؟ هل تعرف أحداً قد قُتل؟ هل سبق وفكرت بقتل أحد ما؟ القَتَلة في كُلِّ مكان حولنا، هم أنا وأنت. لرُبَّما هـم في الغرفـة المجـاورة أو في المنـزل المجاور أو في الحـي المجاور. لا يـهم المكان الذي تعيش فيه. فلا يوجد مكان آمن على الأرض.

شـعر كُلُّ واحد منا تقريباً بخطر جسـيم بمرحلة ما، متحسسـاً نِيّة شـخصٍ مـا لديه دافع للقتل. لا نعلـم أبداً كم منّا بقي على قيد الحياة اليوم بسـبب تمكّنهم من الفرار من خطـر كان يـهددهم. لكننا نعلم، اسـتنادًا لتقارير الآلاف من المشـاركين في دراسـاتنا، بـأن معظمنا قد تـصرف باشـتباهه وجود قاتل محتمل وسـطنا بشيء من هـذا القبيل: تفـادي الغريـب الخطـير؛ الإفلات مـن المفترس الجنـسي؛ الهرب من منافس مغتاظ؛ الاختباء من عدو منذر بالسـوء؛ تأمين أسلحة الدفاع عـن النفـس؛ البحث عـن ملاذ آمن من أقـرب الأقرباء؛ أو التشـبُّث بأقرب أصدقائنا.

أبقت أساليب الدفاع المطوّرة، عبر الزمن، القتل تحت السيطرة. لكنها أيضاً، في الوقت ذاته، أسفرت عن نتائج لا يُحمد عقباها كخلق استراتيجيات قتل أكثر دقة، وإتقانًا، وتعقيدًا مصممة للتحايل على أيِّ أسلحة دفاعيّة. - إن سباق التسلح التطوُّريّ-المشترك الدائم متواصل ليومنا، مع كُلِّ تكيّف بعَقْل قاتل يقابله تكيّف آخر لمنع القتل. إنَّنا جميعنا في هذه اللحظة من الزمن، نتاج عمليّة تطوُّر-مشترك لا هوادة فيها بين **القتل** - **والدفاع ضِدّه**.

لقد قام الناس بقتل بعضهم البعض بمعدلات مروعة لآلاف، ورُبَّما ملايين، الأعوام. ولفهم الأسباب التي تقف وراء هذا، كرَّس عُلماء النفس، الأطباء النفسيون، عُلماء الاجتماع، مختصُّو الجرائم، وعُلماء الأنثروبولوجيا الكثير من الجهود في القرن الماضي. في سياق بحثي، أصبحت مقتنعاً بأن كل النظريات السابقة لا تعمل ببساطه. لا يمكن لنظريّة **التعلُّم الاجتماعيّ** للعُنْف الإعلامي، التي تبنَّاها باحثا العُنْف البارزان رويل هويسمان ولين إيرون، تفسير سبب شيوع القتل في الثقافات التي تفتقر للتلفاز والأفلام وألعاب الفيديو العنيفة. هي لا يمكنها أن تفسر أيضاً لماذا قامت قبائل اليانومامي، الجيفروان، الساي انغا، الدغوم داني، الجيبوسي، الماوري، البولينيزيون المفترض بأنهم مسالمون، ومئات الشعوب القبليّة الأخرى التي تستخدم أسلحة يدويّة بسيطة والهراوات الخشبيّة والأقواس والرماح، بالقتل عبر التاريخ بمعدلات أعلى من نظرائهم الأمريكيين المدجَّجين بالسلاح والمتابعين للأفلام العنيفة. وكذلك لا يمكن لنظريات إساءة معاملة الأطفال والعِلّة المرضيّة، التي يتبنّاها كُلٌّ من ريتشارد روديز في كتابه «**لماذا نقتل**»، وجوناثان إتش بينكوس في كتابه «**الغرائز الأساسيّة**»، أن تفسر لماذا يقوم أشخاص بجوارك لا يوجد عليهم دليل واضح

لخلل نفسي – مثل سوزان سميث، كلارا هاريس، كريستوفر مارش، دايـن زامورا، ديـن داونز، جـين هاريس، سـوزان رايت، وآلاف القَتَلة الآخرين – بارتكاب جرائم القتل.[1]

لا بُـدَّ علينا التعامل مع هذا الواقع غير السـار بـأن القتل كان حلًّا فعَّالاً بشكل ملحوظ للعديد من التحديات التي واجهناها بالتجارب التطوُّريّـة للبقـاء والمنافسـة التكاثريّـة: الصعـود في سـلم المراتـب الاجتماعيّة، خلق سُمْعة تردع المنتهكين، حماية وحفظ عائلاتنا، الهرب من العلاقات المسيئة بعُنْف، الوصول إلى أحباء جدد، وجميع الحالات التـي واجهتنـا على طـول الطريـق في هـذا الكتـاب. تواجـه الغالبيّة العظمـى من النـاس أفكاراً عـن القتل في ظـروف مُحدَّدة يكـون فيها القتل وسـيلة فعالة لحل المشـكلات – صدفة غير محتملة إلى حد كبير إذا لم يكن العَقْل مصمَّمًا للقتل. يجب ألا يدفعنا اشـمئزازنا الأخلاقي للقتـل لرفض الأدلة الدامغة على أن نفسـيّة القتـل العميقة كانت ولا تزال مكوِّنًا أساسيًّا للطبيعة البشريّة.

لقد تحطمت الأساطير السابقة حول الشعوب المتناغمة التي كانت تعيش بماضٍ يسوده السلام والطمأنينة.[2] وكما رأينا في الفصل الأول، فـإن الأدلـة الأثريّة للمقابـر الممتلئة بالهيـاكل العظميّة التي تحشـوها رؤوس السـهام وكذلـك الجماجم المتـضَرِّرة، تظهر تاريخًـا طويلًا من القتل. البـشر المعاصرون هم منحدرون من أولئك الأسـلاف الذين قتلوا، بل ولـم يقتلوا فقط لمرة واحدة. تكيفاتنا للقتل الجماعي، لرُبَّما تكون الأكثر إثارة للقلق في هذا التاريخ للجنس البشريّ.

القَتَلة بالفطرة

في الروايات الأنثروبولوجيّة للحروب القبليّة، نجد أدلة قويّة على

أن القتل من خلال الغارات كان وسيلة استراتيجيّة للفوز بالمنافسة القاسية من أجل البقاء والتكاثر. لم تعد الغنائم التي كانت تتدفق على المنتصرين تفاجئنا الآن - كالأراضي والطعام والشراب والأسلحة والنساء.

لنأخذ على سبيل المثال، حالة ثقافة قبيلة الماوري القديمة في نيوزيلندا. في رحلة بحثيّة أجريت مؤخراً حول العالم لدراسة القتل بين هؤلاء السكان الأصليين لنيوزيلندا، حصلت على هراوة قتال خاصة بشعب الماوري. هذه الهراوات تسمى عندهم **بَاتو**، ويوجد منها مجموعة فرعيّة تسمى مَير، وهذه هي التي حصلت عليها. يبلغ طولها فقط مترين إلّا أنها ثقيلة بشكل مذهل، كما أن الإمساك بها كشخص من الماوري القدماء يضفي إحساسًا غريبًا بالقوة.

استهدف محاربو الماوري بالمقام الأول الذكور من الأعداء. كما قتلوا بعض الأطفال، وأجبروا بعضهم على الاستعباد، كما وهبوا النساء الشابات كمكافأة للمحاربين المنتصرين. أصدرت بعثة تبشيريّة عام 1828 في نيوزيلندا تقريراً مروِّعاً عما يقوم به مقاتل الماوري من تهكم على الرأس المأخوذ والمحفوظ لزعيم العدو، وهو تقليد خاص بالأعداء الأشد بغضاً:

> **«أردت الحرب أليس كذلك؟ لكن (المير) نالت منك: وبعد طبخك، ستصبح طعاماً بفمي. أين والدك؟ قد طُبخ. وأين أخوك؟ قد أُكل. وأين زوجتك؟ هناك تجلس زوجة لي. وأين أطفالك؟ هناك والأثقال على ظهورهم، ويحملون الطعام كعبيد لي».** [3]

شهادات مقلقة لقيمة سرقة شابات العدو تظهر في روايات الحرب

القبليّة في جميع أنحاء العالم. فيما يلي مقتطفات من إحدى هذه الغارات بين قبائل اليانومامو في الغابات البرازيليّة المطيرة:

(غُـــزاة! صراخ يهز كُلَّ هنـدي نائم. قفـزت «ديميوما» من أرجوحتهـا. – دَوَّى الشـابونو «البيـوت» بأكملـه. سـمعت ضجة.... كانت أمها مسـتلقيّة على أرض متسخة ويخرج الدم من فمها. طارت الأسهم بكُلِّ اتجاه. كان والدها مرابطاً ويرمي بسـهامه على الأعداء الذين كانوا في كل مكان حول الشابونو. ولازالـوا يتدفقـون مـن المداخـل. ركضـت النسـاء والأطفال هاربـين إلى أيٍّ مـكان للاختبـاء. قـام العديـد مـن المحاربـين البارزين بمحاولات للهرب أيضاً.

الأشـجع، مثل والـد ديميوما، لم يركض، ووقف يرمي بسـهم تلـو الآخر ويضرب عـدواً تلو الآخـر. أُصيب جانبـه، إلّا أنه تابع القتال ولم يتوقف أو ينسـحب. قاتل حتى أنهى ما لديه من سـهام. أدركت حينها ديميوما لمـاذا كان الرجال يطلقون عليه أحيانًا العسير على القتل.

كانـت ديميوما تحـاول جاهدة الوصـول لوالدها، حتـى أُلقي القبـض عليها من قبل المحاربين الأعداء. كانوا على وشـك أن يقتلوهـا، لكن محارباً قديماً منهم صاح: «لا، لا! لا تقتلوها، ألا ترونـهـا تتمتع بصحة جيدة؟ بإمكانهـا أن تحمل لنا العديد من الأطفال». أعترض المقاتلون الشـباب عليه، وكانوا على وشك الرفـض، لكنـه كان مقاتـلاً قديـما شرسًـا ومحترمًا، قـال لـهم: «اقتلـوا فقط الصبية والأطفال والجرحى وعلينا أن نحافظ على الفتيات ذوات الصحة الجيدة». لقد كان على حق والجميع كان يعرف ذلك). [4]

سبعون بالمائة من نساء اليانومامو تم سبيهن عبر الخطف خلال الغارات.[5] تظهر أنماط مماثلة بين سكان جزر تونغا في جنوب المحيط الهادئ، وفقًا للمستكشف جورج فاسون، الذي عاش بينهم لمدة 4 أعوام بدءًا من عام 1796. بعد مقتل الرجال في المعركة، تقدمت النساء وعرضن أنفسهن كسجينات لإنقاذ حياتهن: «**لقد أصبحن مُلكاً للمقاتل الذي يقوم بأخذهن أولاً. هؤلاء السجينات هن استثمار اقتصادي لمالكيهن، لأنهن يعتدن على القيام بأعمال صناعة النغاتو من لحاء الشجر. كما أنه من المفترض أن يلبين حاجتهم الجنسيّة**».[6]

الإحصائيات تؤكد ذلك. في قبائل داني غينيا الجديدة، على سبيل المثال، يقتل الشباب الذكور في المعارك بنسبة 29 % مقارنة بنسبة النساء التي تصل فقط إلى 4,2 %.[7] هنالك سبب واحد يفسر مقتل الرجال أكثر من النساء اللواتي يُنقذن في الحرب: **الاحتفاظ بمصادر التكاثر**. وهذا هو الدافع الرئيس في الحرب كما هو الدافع الرئيس للقَتَلة بجوارِكَ.

يقدم النصر على مدى التاريخ الفرص التي من شأنها أن تزيد من نسبة صعود الرجال في سلم المَكَانة، والتي كما رأينا في الفصل الماضي، هي دافع قوي للغاية في حياة الرجال. في جنوب شرق آسيا منذ قرابة 1000 عام قبل الميلاد، ووفقاً وحسب عالمة الآثار لاورا لي جنكير: «**لقد أدت الغارات ضِدّ الجماعات المتنافسة إلى تعزيز الوضع والتأثير السياسي عبر توفير النساء للزواج المتعدد، وزيادة الإنتاجيّة الزراعيّة، والحرفيّة من عمل المستعبدين، وتوفير ضحايا القرابين للحصول على المَكَانة – تعزيز الأعياد الطقسيّة التي تحتفظ بها صفوة النخبة. يكافئ المقاتلون الذين خاضوا غزوات أكثر وعادوا بغنائم وأسرى أكثر بوسام المَكَانة الاجتماعيّة**».[8]

تحقيق المجد عن طريق المجازفة بحياة شخص آخر رُبَّما لم يتم إثارتها وصياغتها بشكل بليغ أفضل من شعر شكسبير المشهور، تلك الكلمات المؤثرة من مسرحيّة هنري الخامس:

نحن القِلَّة السعيدة، نحن العُصبة المُتآخية. فلعَمْري أن من يسفك دمه اليوم معي فهو أخي. ومهما كان وضيع النسب. فإن هذا اليوم سيرفع إلى مقام السادة. أما السادة الراقدون اليوم في فراشهم بإنجلترا، فسيعدون أنفسهم من الملعونين، لأنهم لم يكونوا معنا. وسيحسون أن رجولتهم رخيصة تافهة، عندما يتكلم أحد ممن حارب معنا في يوم القديس كرسبيان.[9]

وأيضاً، قدم لنا التقدم في تقنيات الحمض النووي دليلاً جينيًّا قويًّا على أن القتل الجماعي، الذي يعدُّ الصفة المميزة للحرب يعمل بنحو فعال في المنافسة التكاثريّة. تذكَّر اقتباس القائد المغولي جنكيز خان عندما عبّر عن سعادته بهزيمة أعدائه ومضاجعة زوجاتهم وبناتهم. استراتيجيّة جنكيز خان هذه كان لها عواقب تكاثريّة عميقة. جمع الاختصاصي بعلم الوراثة من أوكسفورد كريس تايلر سميث وزملاؤه، ست عشرة عينة دم تعود لسكان يقطنون في أماكن كانت تابعة للإمبراطوريّة المغوليّة على مدى عقدٍ من الزمن. وفي تحليل الحمض النووي للكروموسوم Y - تبين أن 8 % من الرجال يحملون «البصمة «الكروموسوميّة لحكام المغول.[10] وهذا يعني بأن 16 مليون رجلاً في تلك المنطقة، أي تقريباً 5 ,0 % من سكان الأرض اليوم، هم أحفاد لجنكيز خان. حكم العديد من أبناء جنكيز خان أقاليم كبيرة، وساروا على خطى والدهم تماماً، حيث كان لديهم العديد من الزوجات والجواري. توشي، الابن الأكبر لجنكيز خان، كان له على الأقل أربعون ولداً. وهكذا، على مدى التاريخ التطوُّري، كانت

الحرب وسيلة فعَّالة في إزاحة ودفع ذُرِّيّة المنافسين نحو الانقراض، والمساهمة في زيادة أعداد البشر المنحدرين من المنتصرين.

لقد رأينا، في التاريخ الطويل للحرب، العديد من الدوافع الرئيسة للقاتل المجاور التي لعبت دوراً على نطاق واسع، مثل: **التنافس على الموارد ذات الصلة بالإنجاب؛ القتل لمنع القتل؛ اكتساب المَكانة والسُمْعة والشرف؛ الانتقام من المنافسين؛ قهر الذكور المتنافسة؛ قتل أطفال المنافسين؛ صيد نساء المهزومين؛ واستغلال فرص جديدة للتكاثر.**

المعضلات الأخلاقيّة

توفر دراسات الأنواع الأخرى سياقًا مفيداً لفهم تطوُّر القتل. إنَّنا نعلم الآن أن قتل أفراد من نفس النوع، وعلى عكس الأسطورة التي نشرها عالم الحيوان الشهير كونراد لورنتس، هو في الواقع منتشر في جميع أنحاء عالم الحيوان. بين الثديَّات، يذبح النمور، والأسود، والذئاب، والضباع، وأسود الجبال، والفهود، أفراد نوعهم. وأيضاً بين الرئيسيَّات، تقتل قرود اللانغور، وقرود البابونج، وقرود العوّاء الأحمر، قرود السافانا، الغوريلا الجبليّة، السعدان الأزرق، أفراد نوعها. لقد أذهلت حرب الشمبانزي جومبي العالِمة جين غودال، وكُلَّ من تتبع خطواتها وآثارها المروعة. لم يعد باحثو الحيوانات يشكُّون في أن هذه الأنواع تمتلك تكيفات لقتل أفراد نوعها. هذا لا يثبت أن البشر لديهم ذات التكيفات؛ فلكُلِّ نوع تشكيلة فريدة منها. غير أنه يسلط الضوء على تكيفات القتل المطورة عند الثديَّات والرئيسيَّات وتقترح بأنه لا يمكن أن يكون ثَمَّة أسباب تدفعنا للشك حول وجود تكيفات مماثلة في البَشر.

إن الدراسات العلميّة التي أجريتها في مختبري، والتي أشرت إليها في هـذا الكتاب، قد قدمـت أيضًا أدلة قويّة على عَقْـلٍ مصمَّمٍ للقتل: التحليـلات الإحصائيّـة لمئات ملفات حـالات القتل في ميشـيغان؛ الخيالات التفصيليّة القَـاتلة لآلاف الأشخاص من الولايات المتحدة إلى النمسـا إلى سـنغافورة إلى بيرو؛ دراسـة الدفاعات الرادعة للقتل والتي تكشـف عـن توافق وثيق الصلـة بين مخاوف النـاس من القتل والظـروف التـي يقتل النـاس خلالهـا؛ دراسـة السـيناريوهات التي ميـزت الظـروف الدقيقة والمُحـدَّدة التي يقول الناس أنهم سـيقتلون فيها؛ المقابلات مع رجال المباحث والشرطة؛ التحليلات الإحصائيّة لقاعِـدة بيانـات مكتب التحقيقـات الفيدرالي الضخمـة لنحو نصف مليـون جريمة قتل؛ الأدلـة عبر الثقافات المنتشرة على نطاق واسـع، والمقدمة من علماء الأنثروبولوجيا البيولوجيّة والثقافيّة.

مـن المؤكـد أن تراكـم الكثـير من الأدلـة التي تأتي مـن العديد من مصـادر البيانـات المختلفـة، يجعلنـا نتوقـف عـن الرؤية مـن منظور النظريات الضعيفة السابقة التي لا تستطيع ببساطة أن تفسر لماذا يقتل الناس في ظـروف متعددة أو حتى قابلة للتنبؤ. يجب أن يتحول عبء الأثبات الآن على أولئك الذين لا يزالون يشـكُّون في أن للبشر عقولًا مصمَّمة للقتل. إنَّنا بحاجة إلى تغيير جذريّ بطريقة تفكيرنا في القتل، وقد آن الأوان لإزالة الغشاوة عن العيون.

أنا أتوقع أن يتفاعل بعض العُلماء باستياء أخلاقيّ مع نظريّة العَقْل المطوَّر للقتل. أيُّ شـخص يقترح بأن القتل جزءٌ من طبيعة الإنسـان، لابد أن يكون منحرفاً حسب اعتقادهم. كعالم نفس تطوُّريّ أصبحت معتـاداً عـلى النقاد الذين يخلطـون بين ماهِية الشيء وبـين ما **ينبغي أن يكون**. عندما نشرت بحثي عن رغبة الرجال بامتلاك أكثر من شريكة

جنسيّة، على سبيل المثال، خشي البعض من أنني أتغاضى عن الذين يخدعون زوجاتهم، أو أقدم أعذاراً. وبالمثل، قد يفترض البعض خطأً أن نظريّة تكيفات القتل تنطوي على الموافقة على القتل أو قبوله. **كلا، بالطبع**. أنا أود أن تكون اقتراحاتي بديلة لأولئك الذين يخلقون أساطير عن ماضٍ إنساني سلمي، أو ممن يعزون القتل بوقتنا المعاصر إلى أمراض الثقافة الحديثة، أو الذين يتشبَّثون بنظريات المتغير الواحد - المستندة على أسس الأخلاق الخطيرة - التي عفا عليها الزمن. لا يمكن حلّ مشكلة القتل بالتخلص من تلك الجوانب من الطبيعة البشريّة التي لا نرغب بوجودها.

قد يقلق البعض إذا ما اعترفنا بأن للبشر عَقْلًا مصمَّمًا للقتل، فسيستغل محامو الدفاع ذلك كتبرير لموكليهم وانقاذهم من السجن. - حُجَّة الأشياء «الطبيعيّة» هذه هي مغالطة منطقيّة خاطئة كشفت من قبل الفلاسفة قبل عقود، وأشك في أن يكون لها وزن كبير داخل محاكمنا القانونيّة. هناك العديد من الأشياء «طبيعيّة «كالأمراض والطفيليات، لكننا نقرر أنه لا وجود لماهيتها. الموت في الشيخوخة هو شيء طبيعيّ - لأجسادنا، لسوء الحظ مدة صلاحيّة، لقد صُمِّمت لتَسَنَّ. لكننا قررنا أن الدواء الحديث وسيلة للعيش ضِدّ الطبيعة. وبالمثل، القتل هو طبيعيّ بالنسبة للبشر في ظروف محدودة، ولا يعني بأيِّ حال من الأحوال أن نقبله أو نبرِّره.

قلق آخر ينبع من الاعتقاد الخاطئ بأن تكيفات القتل تنطوي على حتميّة القتل. لقد حاولت بكُلِّ ثنايا هذا الكتاب تبيان أن القتل قد تطوَّر كأحد التكيفات ضمن جملة من الاستراتيجيات الطارئة لحلّ مشاكل التكيف المُحدَّدة للغاية والمتعلقة بالبقاء والمنافسة التكاثريّة. يمكن مبدئيًّا تفعيل أو تعطيل هذه الاستراتيجيات الطارئة. لدينا

تكيـف متطوِّر مولـد للثَّفَن، ولكـن يمكننا تعطيـل تفعيله من خلال إنشـاء بيئات خالية من الاحتكاك بأسـفل القدم. وكذلك يمكننا منع القتـل، مـن حيـث المبدأ، من خـلال الفهم العميـق للدوائر النفسـيّة الكامنـة وتصميم البيئـات التي تمنع تفعيله. إن التأثـير الرادع لقضاء الحيـاة في سـجن، والذي عبَّر عنه الكثـير من الناس باعتبـاره العامل الحاسـم الذي منعهم من تحقيق خيالاتهم القَـاتلـة، يوضح لنا تأثيرنا على قرارات القَتَلة المحتملين.

إحدى أكبر المفارقات فـي حياتنا المعاصرة، هي إنَّنا نحمل نفسـيّة القَـاتـل، المتكيفـة بنحـو متقن في ماضينـا التطـوُّري، إلى عالم حديث تغيرت فيه ظروف حياتنا بشكل هائل.

العقول القَاتلة في عالمنا الحديث

لقـد أوضحت الحالات التـي سُردت في هذا الكتـاب، بأن البشر المعاصريـن لم يفلتـوا من تحديـات التنافـس الجنسي، صيـد الشركاء، الـشركاء المسـيئين، والمفترسـين الجنسـيين. إنَّنـا لا نـزال نكافـح من أجـل الحصول عـلى المَكَانة وحفظ ماء وجهنا، كـما إنَّنا لا نزال نواجه تـهديـدات مميتة مـن قبل أحد الأقرباء أو زوجـة الأب أو زوج الأم، أو حـتى هجمات من ذكور غزاة. الدوافع الكامنة وراء القتل لا تزال سـائدة في حياتنـا. لم يعد معظمنا يعـدُّ القتل حلًّا مقبـولاً اجتماعيًّا أو أخلاقيًّا لـهذه التحديات، إلا في سـياقات محـدودة للغاية مثل الدفاع عن أنفسنا وعائلاتنا وأصدقائنا. ومع ذلك، لابُدّ علينا أن نتعامل مع الآليات النفسـيّة التي أدخلتها دهور من التطوُّر في عقولنا. إنَّنا نملك قدمًا في ماضينا القديم وأخرى في حاضرنا الحديث.

حقيقة أن سـلوكنا المعاصر تقوده آليـات عَقْليّة مطوِّرة، تبرز جليّة

في تقييماتنا المعاصرة عن متى نكون في خطر. أحد الأمثلة هو خوفنا من أن نقتل على يد غريب ما، في حين أن معظم حالات القتل يرتكبها أشخاص نعرفهم.

عاش أسلافنا البشر في مجموعات صغيرة تتراوح تقريباً بين 50 إلى 150 فرداً. ونتيجة لذلك، كان كُلُّ شخص في المجموعة على معرفة بكُلِّ أفرادها؛ لم يكن بينهم غرباء. وبالفعل، عومل كُلُّ غريب ظهر بنحو غير متوقع بارتياب، وغالبا ما انتهى الأمر بقتله.

بسبب الافتقار لوسائل النقل الحديثة، كان أسلافنا يلتقون مصادفة بمن هم أقل أو أكثر شبهاً بهم. المختلفين عنهم، قاموا بتغيير مظهرهم بزينة أو لباس أو ندبات مختلفة على الجسم. وفي حال لم يزل مختلفين يكون احتمال أنهم يكنُّون نِيّة عدائيّة الاحتمال الأكبر. إذا ما حكمنا من خلال الأدلة من الثقافات القبليّة على الغارات والكمائن، فإن الغزوات التي شنتها الجماعات الفتاكة على الغرباء قد قتلت أكثر من معارفها داخل الجماعة. كره الغرباء هذا منطقيٌّ للتكيف في ماضي الأسلاف.

أما حياتنا الآن في العالم الحديث، ومع حركتنا الجغرافيّة الهائلة وحياتنا الحضريّة الحديثة، فهي مليئة بالغرباء بالطبع، ومن مختلف المجموعات العرقيّة. لكن دوائرنا النفسيّة لم تلحق بالواقع بعد. لم تزل مخاوفنا المتعلقة بالقتل مرتبطة بالغرباء، على الرغم من أن معظم التهديدات المميتة تأتي من أشخاص نعرفهم. في بحثنا عن حالة الخوف من القتل، وجدنا رهاباً غير متكافئٍ من مجموعات عرقيّة أخرى. كان البيض في عينات دراستنا قلقين من القتل على يد «**هذا الرجل الأسود**» أو «**هذا الضخم الأسود**» أو «**هذا الأسود المخيف**». بينما أعرب الأمريكيون الإفريقيين في عينات دراستنا، ولا سيما النساء،

عن مخاوفهم من أن يُقتلوا على أيدي «**رجال بيض عنصريين علانية**». والواقع أن الغالبيّة العظمى من عمليات القتل الفعليّة تحدث داخل الجماعات العرقيّة والأثنية. في الولايات المتحدة الأمريكيّة، بلغت نسبة قتل البيض على يد بيض آخرين 88 %، بينما بلغت نسبة قتل السود على يد سود آخرين بنسبة 94 %.[11] إن التعابير التي نبديها من رهاب الغرباء، هي مفارقة تاريخيّة، يتجلى من خلالها الخوف المتكيف بدرجة عليا مع ماضينا التطوُّري، على شكل رِهاب عِرقيّ وكراهيّة لا مبرر لها في عالمنا الحديث.

هناك دليل آخر يُظهر أن دوائرنا النفسيّة بدائيّة ولم تلحق بظروف عصرنا بعد، يتمثل بالخوف الشديد الذي تُظهره النساء من أن تُغتصب أو تقتل على يد غريب ما. في الواقع، ترتكب غالبيّة حالات الاغتصاب من قبل رجال تعرفهم النساء، وقلة قليلة منها تنتهي بالقتل. في حين، تميل النساء إلى الاستهانة بالخطر الذي يواجهنه من الرجال المألوفين، لأنه ازداد بمرور الوقت مع تطوُّر أنماطنا الاجتماعيّة وعيش المزيد والمزيد من النساء بعيدًا عن الدرع الواقي لعائلاتهم.

تعاني النساء اللاتي يعشن على مقربة من أهلهن عُنْفاً أقل على يد أزواجهن مقارنة باللاتي يعشن على بعد مئات أو آلاف الأميال.[12] فمن المرجح أن معدل النساء اللاتي يقتلن على يد أزواجهن في العصر الحديث أعلى مما كان عليه في أي وقت مضى في بيئات الأسلاف. إن التهديد بالانتقام في الماضي، لمقتل ابنة أو أخت على يد شريك غيور، كان من شأنه أن يرفع تكلفة قتل الزوجة ويثني عن قتل العديد من الرجال القَتَلة. معظم نساء عالمنا الحديث يفتقدن هذا السند الداعم.

حقيقة أن عقولنا لم تدرك التفويضات الجديدة لظروفنا الحديثة تفسر العدد المرتفع بشكل مقلق لعمليات القتل التي لا تزال تُرتكب

كل عام، رغم كل الروادع الحديثة التي طورناها. لدينا قوانين صارمة، وشرطة محترفة، وأساليب تحقيق قضائيّة مُعقَّدة وسجون عتيدة. كُلُّ هذه الروادع تؤدي عملها جيداً. وبالفعل، كان السبب الأكثر تكرارًا في بحثنا لعدم الاستمرار في التفكير في القتل هو الخوف من الوقوع وقضاء الحياة خلف القضبان. عندما طلبنا من الناس تقدير احتماليّة تنفيذ خيالاتهم القَاتلة إذا ما تمكنوا من الفرار قبل أن يكتشفوا، اعتقد معظم الرجال أن الاحتمال سيتضاعف أربع مرات. الكثير منا مدينون بحياتنا لحقيقة أن القتل مكلف للغاية في العالم الحديث.

وهكذا، ورغم أن المجتمع الحديث، مع الشرطة والسجون، يجعل القتل أكثر تكلفة مما كان عليه في أي وقت مضى، إلا أنه لا يزال يتعين علينا مواجهة ذلك التساؤل المربك: هل جميع أشكال القتل اليوم هي غير ملائمة في ميزان العُملة التطوُّريّة للياقة التكاثريّة؟ أنا لا أدَّعي معرفة جميع الإجابات: فلَرُبَّما تكون الإجابة واضحة في بعض الحالات. تكون الشرطة على معرفة، عندما يكون هناك قتل للنساء، إن احتماليّة أن يكون الزوج الغيور أو الشريك المهجور هو من قام بفعل ذلك، هي أكثر من 50 %. على الشرطة أيضاً أن تعرف، إن لم تكن تعرف مسبقاً، بأنه عندما يُقتل ابن زوج أو زوجة فإن الاحتماليّة الأعلى هي أن يكون زوج الأم أو زوجة الأب هما الفاعلين.

ولرُبَّما في حالات أخرى، تكون الإجابات غير واضحة ومربكة. فماذا عن الفتاة العزباء البالغة من العُمْر سبعة عشر عامًا والتي تتخلى عن رضيعها، ليكون تكاثرها في وقت أكثر سعادة؟ وماذا عن شباب الأحياء الفقيرة والمهمشة الذين يقتلون لينضمُّوا للعصابات، وبالتالي يرفعون من مكانتهم المحليّة، ويجذبون المزيد من النساء، ويجنون الأموال الطائلة عن طريق بيع المخدِّرات، وتوجيه الموارد إلى

أقربائهــم؟ وماذا عن المرأة التي تعرضت لأعوام من الإســاءة على يد زوجها، وترى القتل هو طريقها الوحيد لتأمين نفسها وأولادها؟ على الرغم من أنها فكرة مزعجة، لكن هل يمكن أن تكون أشـكال القتل هذه مفيدة تطوُّريًّا اليوم؟

علاوة على ذلك، قد تبقى نفسيتنا الكامنة بدفاعات منع القتل مربكة في عالمنــا الحديث. خُــذ بعين الاعتبار الرجل الذي يــهدد زوجته: **إذا تركتني في أيِّ وقت، فســأتبعك إلى أقصى زاوية في الأرض ثم أقتلك.** كــم من النســاء يبقــين في علاقــات لا يرغبن بــها بســبب الخوف على حياتهن؟ كم من تهديدات القتل التي تستغل الاستراتيجيات المطوَّرة التي نملكها للبقاء أحياء، لا تزال تعمل لتحقق غاياتــها التطوُّريّة؟

إنه لمن المريح لنا أن نقنع أنفســنا بأن جميع الآليات الذهنيّة المطورة التــي تدفعنا للقتل هي غير متكيفة مع عالمنــا المعاصر. لكن هذا ليس دليلًا على أنــها كذلك.

إدارة العَقْل القَـاتل

هــل تعني حقيقــة أن عقولنــا تمتلك تكيفــات تدفعنا للقتــل، بأيِّ شــكل مــن الأشــكال، بأنه يجــب علينا أن نقبــل طبيعتنــا ونتخلى عن مقاومتنــا للقتل؟ كــلا، **بالطبع**. فالبــشر، وبــعــد كُلِّ شيء، يمتلكون أيضــاً تكيفات للتعــاون، والإيثار، وصنع الســلام، والصداقة، وبناء التحالفــات، والتضحيّة بالنفس.[13] عندما يتعلــق الأمر بالقتل، فإن الطبيعة البشريّة هي المشكلة، لكنها تحمل كذلك مفاتيح الحلّ.[14]

عندمــا دعيــت لتقديم نظريتي حول تكيف القتل مع الأســاتذة في كليّة الحقوق بجامعــة فيرجينيا، أثارت جدلاً حاداً. – خشي البعض، كما ذكرت سابقاً، من استغلال هذه المعلومات العلميّة من قبل محامي

الدفاع: «**إن موكِّلي لا يمكنه أن يقتل، يا سيدي القاضي، إنما هي آلياته المتطوِّرة من دفعته للقتل**». سأشعر بالرعب إذا أسيء استخدام علم جرائم القتل بهذه الطريقة. قد تكون بعض المحاولات من هذا النوع لا يوجد مفرٌّ منها، لكن ذلك لا يعني بأنها ستكون مُجدية. لقد حاول محامو الدفاع، عَبر التاريخ، تبرئة موكليهم من الجرائم التي ارتكبوها بأيٍّ وسيلة متاحة: عذر الإساءة، دفاع توينكي، الفقر، العنصريّة، التمييز، غياب الأب، فقدان الذاكرة، مخاطر المخدِّرات، الهلوسة، أو الجنون المؤقت. قد يحاول بعض المحامين إضافة «**دوائر القتل النفسيّة المتطوِّرة**» إلى هذه السلسلة من المبررات والأعذار، لكن كما قلت من قبل، فإن المغالطة الشيء «الطبيعيّ» التي سيقعون فيها ستفضحهم تماماً، وينبغي لنظامنا القانوني دحض هذا المسار من الحُجج المغالطة بقوة.

مجموعة أخرى من أساتذة القانون في كليّة الحقوق بجامعة فيرجينيا، عرضت منظورًا قانونيًّا وجدته ساحراً، وقد يظهر وعدًا حقيقيًّا في ردع القتل. فبما أن الهدف من نظام العدالة الجنائيّة هو منع القتل، فقد جادلوا، رُبَّما يجب علينا أن نفرض أشد العقوبات على هذه الظروف التي يأتي فيها القتل طبيعيًّا. هذه التكاليف الجديدة التطوُّريّة، قد ساعدت عندئذٍ على قلب المقياس في حسابات التكلفة والفائدة للقَتَلة المحتملين، مما يقنع المزيد منهم بأن التكاليف ستكون باهظة للغاية.

تزود النظريّة والأدلة المقدمة في هذا الكتاب، خريطة طريق للظروف - تفاصيل المشكلات التكيفيّة التي يكون القتل فيها أحد الحلول المتطوِّرة - التي من المرجح أن يفكر فيها الناس بالقتل. من خلال جعل القتل أكثر كلفة في هذه الظروف، لرُبَّما يكون القانون

قادراً على زيادة الفوائد عند اختيار الحلول غير القَاتلة لكُلِّ المشاكل التكيفيّة ذات الصلة.

إن الفهم الأعمق لدوافعنا للقتل، ومدى تأثيرها في عقولنا، سيسمح لنا أن نكون على دراية بأفضل الظروف التي تكون فيها حياتنا حقاً على شفا حفرة من الخطر. يجب أن تكون النساء أكثر وعياً عن الخطر الأكثر إثارة للقتل على يد شركائهن العاطفيين، عندما يقمن بهجرهم تماماً، ولا سيما في غضون الأشهر الستة الأولى بعد الانفصال. ويجب أن يكنَّ بحالة تأهب قصوى إذا ما بدأ شريك سابق بمطاردتهن، لأنهن سيكنَّ بخطير حقيقي. ويجب أن يكون أولئك الذين يشكلون عائلات زوجيّة مختلطة أكثر انتباهاً للتَوَتُّرات التي يمكن أن تتصاعد بين زوج الأم أو زوجة الأب والأطفال. كلما أحطنا علما أكثر بالظروف المُحدَّدة التي من المرجح أن يشترك بها العَقْل القَاتل، كنا مجهزين أكثر ومستعدين لتجنب تفعيله والدفاع عن أنفسنا.

لقد قضيت الأعوام السبعة الماضية من حياتي في دراسة القتل. ووجدت أن هذا العمل غيَّرني عميقاً وبنحو غير متوقع. قد تعتقد أنه بعد قضاء أعوام في دراسة أكثر من خمسة آلاف وصف مفصل لخيالات القتل، وتفاصيل مروعة عن 375 جريمة قتل في ميشيغان، سيصبح المرء قاسياً وأقل تأثيراً بوحشيّة القتل. - لكنني أصبحت على النقيض، وقد سبب لي ذلك اضطراباً كبيراً. في إحدى المرات عندما كنت أدرس تفاصيل قضيّة رجل قام بقتل صديقته، قمت بقلب الصفحة ووجدت ثلاث صور لامرأة ميتة عارية، عليها آثار جروح ناتجة عن سكين تغطي جذعها العلوي بالكامل. أصابني هذا بالغثيان والاشمئزاز لدرجة أنني كنت سأتخلى عن هذا البحث

بأكمله. لاتزال تلك الصور تطاردني حتى يومنا هذا.

لحظة متأزمة أخرى انتابتني، عندما طُلب مني الإدلاء بشهادتي كشاهد خبير للدفاع في محاكمة قتل في ميشيغان. لقد كانت قضيّة فتاة تدعى آن، تبلغ من العُمْر 26 عاماً، كانت تواعد شابًا يدعى بيتر لمدة ثلاثة أشهر قبل الانفصال عنه. في البدء، كان بيتر يناضل لكي تعود له بشكل غير مؤذٍ، لكن ما لبث أن بدأ يطاردها ويتبعها إلى مكان عملها وكُلِّ مكان تذهب إليه في وقت فراغها. لقد جعل أصدقاءه يراقبون مكان وجودها. وقام بمراقبة بيتها، ثم بدأت يضايقها عن طريق المكالمات الهاتفيّة.

ازداد غضبه للغاية عندما اكتشف أنها تواعد شخصاً آخر؛ اشتبه بمواعدتها إياه عندما كانا سويًّا. بدأ يهددها حتى ذُعرت. ومع تصاعد الترهيب، قامت آن بتسجيل محادثاتهما وسلمتها للشرطة. استمعت إلى 6 ساعات مؤلمة منها.

لقد كشفت المحادثات عن شبكة مُعَقَّدة من العواطف بين بيتر وآن. وبّخ بيتر آن لمواعدتها رجلاً آخر، وأخبرها بأنها خانت ثقته وأنه شعر بالإذلال التام. هو لم يهددها مباشرة بإلحاق أذى جسميٍّ بها، لكن تهديده تضمن حديثه عن تدرُّبه في الفنون القتاليّة وبأنه يمكن أن يفعل أيَّ شيء يريده ولن يمنعه أحد. اعتذر لآن عندما عبَّرت عن خوفها، لكنه لم يعمل أيَّ شيء ليهدِّئ من روعها وقلقها، ثم بدأ بالكلام عن ذكريات الغرام وكم كانت تلك الأوقات التي أمضياها سويًّا رائعة وكم كانت علاقتهما الجنسيّة ممتعة. بعد ذلك أخبرها بمدى الكراهيّة والوجع اللذين كانا بداخله.

حاولت آن يائسة أن تبعده عنها، وأصرت بأنها لا تواعد رجلًا

آخـر. أخبرته عـن الرعب الـذي يعتريهـا عندما تقترب مـن النافذة. وأقسـمت بأنهـا لم تقصـد إيـذاءه. ثـم انتقدتـه بشـدة لأنـه يطاردهـا وتوسلت إليه ليتركها وشأنـها.

فجأة توقفت مكالمات بيتر المزعجة وكما توقف أيضاً عن مطاردتها. تدريجيًّـا، بعـد عِدّة أسـابيع تلت، بدأت تشـعر آن بالأمـان هاربة من سجنها النفسي الذي كانت رهينته لمـدة أربعة أشهر. بعد شهر، وبينما كانـت آن عائدة مـن محل خـضراوات برفقة صديق لـهـا. أطلق بيتر النـار عليها من مسدسـه ذي العيار 22 مسـبباً قتلهـا. لقد قدمت آن ست شكاوى ازعاج عند الشرطة، لكنهم لم ينقذوا حياتـها.

عندما كنت جالسـا أسـتمع للخوف الذي يعـتري صوت آن على مدى سـاعات في تسـجيلها الصوتي، ذُهلت من أساليب الدفاع التي وظفتها. شعرت بغضبها عندما كانت تترجى بيتر أن يتركها وشأنـها، لكنهـا رغـم ذلـك كانـت تبـدو لطيفـة تطغـى عليهـا الأمومـة أثناء مناوراتـهـا معه. ثم مـا لبثت أن أصبحت فظة ووقحـة عند مطالبتها إيـاه بالخـروج من حياتها، كانت تتظاهر بأن تهديـده لـها لم يكن يعني الكثير لـها، بل واستغلت غضبها لتطلق تهديداتها؛ لقد بدت مذعورة وضعيفة وتوسلت إليه أن يتوقف. وللأسف، في النهاية، باتت مرهقة ومستسـلمة. بعـد ذلـك، ظـل صوتـهـا يرافقنـي. لقد كنت اسـتمع لصـوت امرأة تترجّى، وتتـضرَّع في مقتبل عُمْرها. لـقد كنت أسـمع لهيثاً يائساً لامرأة هي الآن ميتة وإلى الأبد.

مـرة أخـرى كدت أغلـق بحثي هـذا. لكن لم يكن بوسـعي إلا أن أنـهيه على مدى 7 أعوام متتالية عن معنى القتل. طبعاً رفضت أن أدلي بشهادتي لصالح الدفاع عن بيتر وهو الآن يتلقى عقوبة السجن المؤبد مـن دون الإمكانيّة لإطلاق سراحه يوما ما، لأنه قام بقتل شـخصين

بريئين وبدم بارد، وأنا مسرور أنه لم يعد موجوداً بيننا.

لقد غيَّرني الإمعان بآلاف من خيالات القتل بطريقة غير متوقعة. وجدت نفسي قد أصبحت متعاطفاً أكثر مع جميع الذين طُردوا من وظائفهم، هُزموا من أعدائهم، أُهينوا من نظرائهم، أُذلوا من قبل أقرانهم، خُدعوا من شركائهم، أو الذين انتُهكوا من قبل متطفلين، أو هُجروا من حب حياتهم بطريقة قاسية. أستطيع أن أشعر بمعاناتهم وبعذابهم النفسي بقوة. ووجدت نفسي أشعر بتعاطف غريب وغير متوقع لسبب تفكيرهم في القتل كوسيلة لوقف معاناتهم.

إنَّني أرى القتل بمثابة صورة بالأشعة السينيّة لجوهر طبيعتنا البشريّة. إنها تكشف الأشياء الأكثر أهميّة للبشر في كُلِّ مكان - ضرورات البقاء، تحقيق المَكانة، الدفاع عن الشرف، كسب شركاء مرغوبين، إخلاص وولاء الأحبة، إقامة علاقة مع الحلفاء، قهر الأعداء، حماية أطفالنا، ونجاح ناقلات جيناتنا. هذه هي الأشياء التي كنا نحن البشر، وأسلافنا المنتصرين بشكل مذهل على استعداد دائمًا للقتل والموت من أجلها.

لا يوجد حلٌّ سحريٌّ بسيطٌ لمشكلة القتل. لطالما كان القتل وما زال حلًّا فعَّالاً بشكل مذهل لمجموعة مذهلة من الصراعات الاجتماعيّة البشريّة. قد تمثل الظروف التي تعيق دوائر القتل لدينا عددًا كبيرًا جدًا من الجبهات المترامية الأطراف للقتال بنجاح. لذا، إن كانت هناك رسالة أخيرة واحدة في هذا الكتاب فستكون هي: **عليك أن تنصت إلى حدسك للحفاظ على بقائك؛ وهذه حكمة الأسلاف التي نحملها جميعًا فينا.**

كن على دراية بمدى خطورة التهديد بالقتل، خاصة من قبل

أولئك الذين نعرفهم والذين نحبُّهم. كن على حذر من كُلِّ منافس جنسي مترصد يراقب. كن على يقظة من زوج أمك أو زوجة أبيك اللذين قد لا يفضِّلان وجودك البتَّة. كن منتبهاً من المنافسين الذين يجلسون خلسة مستشيطين غضباً من نجاحك. فكر مليًّا بشخص هادئ قمت بإهانته علانية. راقب شريكك السابق الذي تركته وتخليت عنه. حاذر من الأشخاص العاطفيين الذين كانوا يعدُّونك «الشخص» الوحيد في حياتهم قبل أن ترفضهم بنحو غير متوقع. احترس من الشريك الذي تحول لمطارد ولا يريد أن يدعك وشأنك. القَتَلة ينتظرون، يراقبون، إنهم حولنا جميعاً.



شكر وتقدير

يُدين هذا الكتاب بدَين كبير لكثير من الأشخاص. أولاً وقبل كُلِّ شيء، للمساهمات الهائلة من صديقي الداعم والمتعاون جوش دانتلي. ومع أن بذور الأفكار في هذا الكتاب قد زرعت منذ أعوام عديدة، إلا أنها لم تنضج حتى بدأت أنا وجوش تعاوننا المدهش في ازدهار النظرية والبحث التجريبي حول القتل. النظرية الأساسية للقتل المقدمة في هذا الكتاب، والكثير من الأبحاث التجريبية، هي نتاج تعاوننا، وكما هو موضح في العديد من أوراقنا العلمية المشاركة في التأليف. قدم جوش أيضًا العديد من الاقتراحات الثاقبة في كُلِّ فصل. وأيضاً نتوجه بشكر خاص إلى صديق آخر ومتعاون في البحث، هو الدكتور تود شاكلفورد، والذي تولى القيادة في تحليل منشوراتنا المشتركة حول مجموعة بيانات مكتب التحقيقات الفيدرالي الضخمة.

صديقة رائعة أخرى، الدكتورة كارول هولدن، مديرة خدمات التقييم في مركز الطب النفسي الشرعي، مكنتنا من الوصول إلى الحالات الدسمة من جرائم القتل في ميشيغان، وشاركت بأفكارها في علم نفس الأجرام. كما نتوجه بشكر خاص إلى مركز الطب النفسي الشرعي على كرمهم في السماح للوصول إلى هذه الحالات التي لا تقدر بثمن.

ساهم المتعاونون الآخرون غاري بريس (المملكة المتحدة)، بريان فارها (سنغافورة)، ومارتن فوراتسك (النمسا) وخورخي ياماموتو (بيرو) بشكل كبير من خلال تقديم امتدادات بحث عبر الثقافات العالمية. - وقدم عبد الله بادحدح بسخاء رؤى وإشارات نقدية للثقافات العربية.

وأيضاً قدم العديد من الأصدقاء والزملاء تعليقات قيّمة على النظرية، هم: روزاليند أريدن، فيكتوريا بيكنر، آن كامبل، شون كونلان، ليدا كوزميدس، راندي ديهل، ديانا فليشمان، سام جوسلينج، مارتي هاسيلتون، سارة هال، جونجوان جيون، ستيفن بينكر، كيرن رف، جيمس روني، تود شاكلفورد، بيل سوان، دون سيمونز، وجون توبي.

أشكر بنحو استثنائي الطبيب النفسي الشرعي آندي طومسون، الصديق القريب والزميل لكرمه وتشجيعه ورؤيته اللامتناهية على مدى أعوام عديدة. وأيضاً أساتذة كلية الحقوق في جامعة فيرجينيا (جون موناهان) وكلية الحقوق في جامعة تكساس (جون روبرتسون) على تقديم رؤى رائعة حول الآثار القانونية لهذه النظرية الجديدة للقتل.

كل الشكر للدكتور دوروثي ماكوي، ومكتب مقاطعة كولتون، ومكتب كلاركستون بولاية ساوث كارولينا، وإدارة شرطة أوستن لتوفير الاتصال مع رجال الشرطة ومحققي القتل الذين شاركوا بسخاء رؤاهم وخبراتهم بشأن القتل.

أتوجه بشكر خاص لمساعدي البحث التالين ، الذين ساهموا في دراسات جرائم القتل لدينا على مدى الأعوام السبعة الماضية: توماس ألاركون ، ألكسندرا الماسوف ، لورا أموسكوتو ، جينيفر أندرسون ، نيكول بيرلاند ، بنيامين بوكينغ ، جاكلين دينسون ، إرين موت ، كارين إيبي ، أليشا ستراند وسكوت ستريتمان وجيسيكا ويسر وماريسا ويمبرلي.

وأيضاً أنا أدين بدين مهني كبير لمارتن دالي ومارجو ويلسون، الرائدين في دراسة جرائم القتل، واللذين اطّلعا بنظرة نقدية على عملي.

شكرًا لوكلائي، كاتينكا مادسن وجون بروكمان، على التعليقات الثاقبة حول الكتاب، وعلى النصائح الحكيمة طوال رحلة إخراجه. وأخيرًا، كنت محظوظًا بالذكاء والسحر التحريري والتفاني غير المحدود لإميلي لوسي، محررتي في كتب بيغون، والتي آمنت بهذا الكتاب منذ البداية وساهمت كثيرًا في تحقيقه.

ملاحظات الفصول

CHAPTER ONE: THE MURDERING MIND

1- H. Engle, *Crimes of Passion* (Buffalo, NY: Firefly Books, 2001).

2- Ann Rule, *Every Breath You Take: A True Story of Obsession, Revenge,*

and Murder (New York: Free Press, 2001).

3- Ibid., p. 192.

4- Keeley, 1996, p. 91.

5- Larsen, 1997.

6- David and Gene Lester, 1975.

7- Mann, 1993, 1996.

8- Wilson, Daly, and Pound, 2002, p. 383.

9- Personal communication, December 20, 2004.

CHAPTER TWO: THE EVOLUTION OF KILLING

1- Joseph Lopreato, *Human Nature and Biocultural Evolution*

(Boston, MA: Allen and Unwin, 1984).

2- http://www.fbi.gov/ucr/cius_03/xl/03tbl01.xls

3- Harris, Thomas, Fisher, and Hirsch, 2002.

4- Ellis and Walsh, 2000.

5- Cain, 1982.

6- Lester, 1991, p. 39.

7- Ibid.

8- MacDonald, 1986, p. 23.

9- Lester, 1991.

10- Daly and Wilson, 1988.

11- Ellis and Walsh, 2000.

12- Daly and Wilson, 1988; MacDonald, 1986.

13- Lester, 1991.

14- Lester, 1991; Ellis and Walsh, 2000.

15- Berkowitz, 1993, p. 395. Emphasis added.

16- Ellis and Walsh, 2000.

17- Pincus, 2001, p. 27.

18- Ellis and Walsh, 2000.

19- Ibid.

20- Tooby and Cosmides, 1988; Wrangham, 1999.

21- Turvey, 2002.

22- Prentky et al., 1989.

23- Ibid.

24- Buss, 2004; Pinker, 2002.

25- Buss, 2000.

26- See Buss, 2004, for extended discussion of all these topics.

27- Wrangham and Peterson, 1996.

28- Chagnon, 1983, p. 182.

29- Chagnon, 1983, p. 183.

CHAPTER THREE: THE DANGEROUS GAME OF MATING

1- *Pericles,* I, i, cited in Meloy, 2000, p. 1.

2- *Texas* v. *Zamora and Graham,* Court TV Online (www.courttv.com/trials/Zamora/chronology.html).

3- http://www.courttv.com/archive/trials/zamora/grahamcon-fession.html

4- Ibid.

5- http://www.offthekuff.com/mt/archives/002012.html

6- Ibid.

7- Buss, 1989a.

8- Symons, 1995.

9- Buss and Dedden, 1990; Schmitt and Buss, 1996.

10- Graziano, Jensen, Campbell, Shebilske, and Lundgren, 1993.

11- Buss, 2003.

12- Buss, 2000a.

13- Buss, 2003.

14- Holmberg, 1950, p. 58.

15- Townsend, 1998.

16- Wilson, Daly, and Gordon, 1998.

17- Eccles, 1987, p. 240.

18- Schmitt and Buss, 1996.

19- Buss, 2003; http://marriage.rutgers.edu/Publications/SOOU/TEXTSOOU2004.htm#Marriage

20- Batemen, 1948; Williams, 1966; Trivers, 1972.

21- Wilson, Daly, and Pound, 2002.

22- William Shakespeare, *Hamlet,* II, ii.

23- Greenfield, 1998.

24- Daly and Wilson, 1988.

25- Daly and Wilson, 2001.

26- Daly and Wilson, 1988.

27- Genghis Khan, quoted in Royle, 1989.

28- Moses's instructions after the conquest of the Midianites, cited in E. O.

Wilson, 1975, p. 573.

29- Gore Vidal, cited in Ghiglieri, 1999, p. 145.

30- http://www.findlaci2003.us/star-5-28-03.html

CHAPTER FOUR: WHEN LOVE KILLS

1- Michigan murder files.

2- Austin American Statesman, Jan. 24, 2003, p. 1.

3- Austin American Statesman, Feb. 8, 2003, p. A4.

4- N. Madigan, "Trial in Killing of Orthodontist Goes to Jury," New York Times, Feb. 13, 2003, p. A25.

5- Carlson, 1984, p. 9.

6- Campbell, 1992.

7- Greenfeld et al., 1998.

8- Easteal, 1993; Saran, 1974.

9- Guttmacher, 1955.

10- Daly and Wilson, 1988.

11- Campbell, 1992, pp. 106-107.

12- Daly, Wiseman, and Wilson, 1997.

13- Allen, 1990.

14 Wallace, 1986.

15- Shackelford, Buss, and Weekes-Shackelford, 2003.

16- New York Times, Feb. 15, 2000, p. D6.

17- Ibid.

18- Ibid., p. D1.

19- L. A. Fallers and M. C. Fallers, "Homicide and Suicide in Busoga," in P. Bohannan, ed., African Homicide and Suicide (Princeton: Princeton University Press, 1960), pp. 65-93.

20- Jankowiak and Fisher, 1992; Jankowiak, ed., 1995.

21- Shostak, 1981.

22- Sprecher, Aron, Hatfield, Cortese, Potapova, and Levitskaya, 1994.

23 Frank, 1988.

24- H. Fisher, Why We Love (New York: Henry Holt, 2004).

25- Haselton, Buss, Oubaid, and Angleitner, 2005.

26- Betzig, 1989.

27- Buss, 2000a.

28- Saran, 1974, p. 77.

29- Gangestad and Thornhill, 1997; Thornhill and Gangestad, 1999.

30- Greiling and Buss, 2000.

31- Gangestad, Simpson, Cousins, Garver, and Christensen, 2004; Pillsworth, Haselton, and Buss, 2004; Gangestad, Thornhill, and Carver, 2002.

32- Greiling and Buss, 2000.

33- Ibid.

34- Bleske and Buss, 2000, 2001.

35- Lundsgaarde, 1977, pp. 60-61.

36- Margo Wilson, personal communication, June 2, 1998.

37- Baker and Bellis, 1995.

38- Safilios-Rothschild, 1969, pp. 78-79.

39 H. Engel, 2001, p. 35.

40 Ibid.

41 Buss, 2000a.

42- Easteal, 1993.

43- Ellis and Walsh, 2000.

44- Ibid.

45- Thanks go to Andy Thompson for insights into the role of alcohol in murder.

46- www.aphru.ac.nz/hot/violence.htm

47- Easteal, 1993.

48- Ibid., 1993.

49- Ellis and Walsh, 2000.

50- Easteal, 1993.

51- Daly and Wilson, 1988.

52- Buss and Shackelford, 1997.

53- Lundsgaarde, 1977.

54- www.franksreelreviews.com/shortakes/stratton.htm

55- Wilson, Johnson, and Daly, 1995.

56- Wallace, 1986.

57- Easteal, 1993, p. 62.

58- New York Times, Feb. 15, 2000, p. D6.

59- Cerda-Flores et al., 1999.

60- Easteal, 1993; Daly and Wilson, 1988.

61- Easteal, 1993.

62- Brown, 1987.

63- Easteal, 1993, pp. 58-59.

CHAPTER FIVE: SEXUAL PREDATORS

1- Buss and Duntley, 2005.

2- Fox, 1996.

3- Easteal, 1993, pp. 69-70. Emphasis added.

4- Buss, 2004.

5- Russell, 1990.

6- Kirkpatrick and Ellis, 2001.

7- Edwards, 1954, p. 900.

8- http://www.cbsnews.com/stories/2004/23/48hours/printable613465.shtml, p. 2.

9- Ibid.

10- http://www.courttv.com/trials/paged/wright/verdict.html, p. 2.

11- http://www.cbsnews.com/stories/2004/23/48hours/printable613465. shtml,

p. 2.

12- Duntley and Buss, 2005.

13- www.stalkinghelp.org

14- Duntley and Buss, 2005.

15- Haselton and Buss, 2000.

16- Mullen, Pathe, and Purcell, 2000.

17- Duntley and Buss, 2005.

18- Crowell and Burgess, 1996.

19- Essock-Vitale and McGuire, 1988.

20- Crime in the United States, Uniform Crime Reports, Sept. 28, 1997 (Washington, D.C.: U.S Department of Justice, 1996), pp. 23-25.

21- Ghiglieri, 1999, p. 83.

22- Brownmiller, 1975; Ressler, Burgess, and Douglas, 1992.

23- Brownmiller, 1975; Chang, 1997; Allen, 1996.

24 Haselton and Buss, 2000.

25 Buss, 2003.

26 Ghiglieri, 1999.

27 Buss, 2003.

28- http://abcnews.go.com/sections/GMA/GoodMorningAmerica/GMA020819Self_defense_woman.29 Ibid.

30- http://www.conservativemonitor.com/news/2002005.shtml

31- Ibid.

32- http://www.prisonactivist.org/pipermail/prisonact-list/1995-December/000112.html

33- Ibid.

CHAPTER SIX: MATE POACHERS

1- Thornhill and Alcock, 1983.

2- Schmitt and Buss, 2001; Schmitt et al., 2004.

3- Schmitt et al., 2004.

4- Buss, 2003.

5- Schmitt and Buss, 2001.

6- Buss, 2002.

7- Thanks to Joshua Duntley for this insight.

8- Buss, 1988.

9- Ibid.; Buss and Shackelford, 1997.

10- Buss and Shackelford, 1997.

11- La Fontaine, 1960, pp. 101-2.

12- Ibid., p. 102.

13- Eibl-Eibesfeldt, 1989.

14- Hart and Pilling, 1960.

15- P. P. Howell, A Manual of Nuer Law (London: Oxford University Press, 1954), p. 156.

16- J. C. Vergouwen, The Social Organization and Customary Law of the Toba-Batak of Northern Sumatra (The Hague: Martinus Nijhoff, 1964), p. 266.

17- Muller, 1917, p. 229.

18- P. Bohannan, 1960.

19- Texas Penal Code, 1925, Article 1220.

20- Erica Dominitz, In Flagrante Delicto, 1995, http://www.law.georgetown.edu/glh/dominitz.htm

21- Daly and Wilson, 1988.

22- Ibid., p. 190.

23- Buss, 2003.

CHAPTER SEVEN: BLOOD AND WATER

1- Daly and Wilson, 1988, pp. 24-25.

2- Rule, 1988.

3- http://www.crimelibrary.com/notorious_murders/famous/downs/bars_2.html? sect=1

4- Daly and Wilson, 1988.

5- Ibid., p. 62.

6- Bugos and McCarthy, 1984, p. 512.

7- Daly and Wilson, 1988.

8- Ibid., p. 48.

9- Bugos and McCarthy, 1984, p. 508.

10- Spencer and Gillen, 1927, p. 221.

11 Daly and Wilson, 1988.

12 Smith, 1885, p. 294.

13 Chagnon, 1983, p. 27.

14 K. Scott, article in *Austin American Statesman,* Aug. 10, 2001, p. B1.

15 Daly and Wilson, 1988.

16 H. Engel, *Crimes of Passion: An Unblinking Look at Murderous Love*

(Buffalo, NY: Firefly Books, 2001), p. 196.

17 Daly and Wilson, 1988.

18 Hill and Hurtado, 1996.

19- Daly and Wilson, 1988.

20- Some of the details of this case have been altered to protect the identities of the individuals involved.

21- Daly and Wilson, 1998, p. 4.

22- Packer et al., 1988.

23- Daly and Wilson, 1988.

24- Daly and Wilson, 2001.

25- Daly and Wilson, 1994.

26- Daly and Wilson, 2002.

27- Daly and Wilson, 1998.

28- http://news.bbc.co.uk/1/low/wales/3038668.stm

29- Ibid.

30- http://fabland.com/atasteofmoles/archives/000301.html

31- Daly and Wilson, 1998, p. 3.

32- Daly and Wilson, 1998.

33- Hrdy, 1999.

34- Ibid., p. 416.

35- Ibid.

36- Heerwagen and Orians, 2002.

37- Thanks to Josh Duntley for this hypothesis.

38- Quote from an interview at www.froes.ads.nl/DALYWILSON.htm.

39- Hillbrand, Alexandre, Young, and Spitz, 1998.

40- Ibid.

41- Daly and Wilson, 1988, p. 98.

42- Ibid., p. 100.

43- Sheykh-Zada, *The History of the Forty Vezirs; or, The Story of the Forty Morns and Eves,* trans. from Turkish by E.J.W. Gibb (London: George Redway, 1886), p. 395.

44- Daly and Wilson, 1988, p. 31.

45- Saran, 1974.

46- Ibid., p. 95.

47- Buss, 2004.

48- www.ahmedabad.com/index/printpage/article/14438/section/10

CHAPTER EIGHT: STATUS AND REPUTATION

1- Guillais, 1990, p. 27.

2- Hobbes, 1957 [1691], p. 185.

3- Pinker, 2002.

4- Pinker, 1997, p. 498.

5- Ibid.

6- K. Bartholomew, 2003; see also

http://www.stanfordalumni.org/news/magazine/2003/julaug/dept/century.html

7 http://www.angelfire.com/sc/Centner/Ralph1.html; see also Chicago Tribune, Nov. 4, 1991, p. 3.

8- Ecclesiasticus, 28: 17.

9- Mulvihill, Tumin, and Curis, 1969, p. 230.

10- "Ludicrous Laws," http://encarta.msn.com/grad_articleludicrouslaws/

Ludicrous_laws.html

11- Lewis, 1961, p. 38.

12 Arlacchi, 1980, pp. 111-13.

13 Matthiessen, 1962, p. 15.

14 Chagnon, 1988.

15 Matthiessen, 1962, p. 15.

16 Ibid.

17 Nisbett and Cohen, 1996.

18- Lester, 1991.

19- Nisbett and Cohen, 1996.

20- Ibid., p. 27.

21- Ibid., p. 31.

22- Ibid., p. 76.

23- Leyton, 1986, p. 10.

24- Ibid., p. 17.

25- Ibid., p. 18.

26- Ibid.

27- Reinhardt, 1960, pp. 67, 75, 101.

28- Ibid., p. 42.

29- Ibid., pp. 13, 54, 56.

30- Ibid., p. 48.

31- Ibid., p. 51. Emphasis added.

32- Leyton, 1986, p. 18.

33- http://www.worldhistory.com/hussein.htm

34- http://abcnews.go.com/sections/2020/World/saddam_son_030214.html

35- Ibid.

36- http://www.wordiq.com/definition/Pablo_Escobar

37- Ibid.

38- http://www.moreorless.au.com/killers/amin.htm

39- http://www.moreorless.au.com/killers/amin.htm, pp. 3-4.

40- Ibid., p. 4.

41- Ibid., p. 7.

42- http://www.moreorless.au.com/killers/duvalier.htm

43- Sargent, 1974, p. 178.

CHAPTER NINE: THE KILLERS AMONG US

1- Rhodes, 1999; Pincus, 2001.

2- Keeley, 1996.

3- Yate, 1835, p. 130.

4- Richie, 1996, pp. 29-34.

5- Chagnon, 1983.

6- Ferdon, 1987, p. 267; Vason, 1810.

7- Ghiglieri, 1999.

8- Junker, 1999, p. 336.

9- Ibid., p. 347.

10- Zerjal et al., 2003.

11- Lester, 1991.

12- Figueredo et al., 2001.

13- Buss, 2004.

14- Pinker, 2002; Buss, 2000b.

نبذة عن المؤلف

ديفيد أم. باس: من أشهر أساتذة علم النفس التطوُّريّ في جامعة تكساس، الولايات المتحدة، له نظريات في الاختلافات الجنسيّة واستراتيجيات انتقاء الشركاء، من أشهر كتبه: «علم النفس التطوُّريّ»، - «تطوُّر الرغبة»، «النساء: الوقوف على الدوافع الجنسية من الثأر إلى المغامرة».

نبذة عن المترجم

سامر حميد: بيولوجيّ، وطالب دراسات عليا/ قسم البيئة في جامعة بغداد. ناشط عِلمي في المجال التطوُّريّ بعِدّة مقالات منشورة ومترجمة في مجلة، وموقع، وصفحة المشروع العراقي للترجمة، مُدونة لماذا أصدق التطوُّر، منهاج جامعة بريكلي للتطوُّر 101 بالعربي، وموقع العلوم الحقيقيّة. مُترجِم كِتَاب «**أشهر 10 خرافات حول التطوُّر**» و«**حقيقيّة التطوُّر**» لكاميرون إم. سْمِيث. وكتاب «**لماذا ينجح التطوُّر وتفشل الخلقيّة**» لمات يانغ بول وغاي سترود. وأيضاً مؤخراً كتاب مات ريدلي «**تطوُّر كُلّ شيء**».

رمزي محمد: طبيب، ومترجم، وكاتب علميّ، مُهتم بعلم النفس التطوُّريّ والطب النفسيّ التطوُّريّ، يكتب في موقع العلوم الحقيقيّة.

روئ الشيخ: مترجمة، ومختصة باللغة الإنجليزية، تنشر في موقع العلوم الحقيقيّة.

القاتل بجوارك

كتب باس، الباحث والمؤلف في عِلم النفس التطوّريّ: «الناس مَفتونون بالقتل. إنه يجذب انتباهَنا أكثر من أيّ ظاهرة بشريّة أخرى. أعتقد، وبعد دراسة مُضنية، أن سبب هذا الافتتان هو، لأننا مُشبَعُون بغريزة متأصلة منذ تاريخ تطوّريّ طويل». إنّنا نميل للتصديق بأن القَتلة هم مُجرّدَ مرضى نفسيين، ومجرمين عُتاة. غير أن السواد الأعظم من جرائم القتل قد ارتكبت من أشخاص كانوا يبدون طبيعيين للغاية حتى لحظة ارتكاب الجريمة.

القاتل بجوارك، هو رؤية مُحكمة إزاء العَالم المظلم للنفسيّة البشريّة - إنه استكشاف مذهل لزمكان القتل ودوافعه التي قد تضع كل واحد منا بموقف حقيقي. باس، وبصفته رائداً في علم النفس التطوّري، أجرى العديد من الدراسات غير المسبوقة، والتي أوضحت عن دوافع وظروف القيام بالقتل، بدءًا من الحالات الشاذة والغريبة للقَتلة المتسلسلين، وانتهاءً بالجار الوديع الذي قد يقتل زوجته فجأة في أحد الأيام.

يضع باس نظرية جريئة وجديدة للقتل، حيث يرى بأن النفسيّة البَشريّة قد طَوّرت تكيفات متخصصة للقتل. ليأخذ القرّاء في منعطفات مدهشة، ويُفعّل المنطق التطوّريّ للقتل، شارحاً متى بالضبط يُمكن أن يكون أحدنا في خطر التعرض للقتل أو يكون هو القاتل بالفعل!

أحذر قد يكون القاتل بجوارك!







دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا
07700492567 - 07711002790
Email: bal_alame@yahoo.com